

الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن

مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ مَشَاهِدٌ وَقَصَصٌ

دار الجريد

© دار الجديد، طبعة ثانية مُنقَّحة، ١٩٩٣

أصوله: محمود عسّاف - خطّ الخطوط: علي عاصي - رَسَم الغلاف: محمد شمس الدين -
٣٤٣٧٥٢ - : ٥٢٢٢ / ١١ - نصّد النص: علي حمدان - ضَبَطَه بالشّكل على
صورة الغلاف مُقتبسة من: *L'Islam nelle Stampe*, BE-MA Editrice, Milano, 1988

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطبعة

أَبَتْ هَذِهِ الدَّارُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَدِيمِي جَدِيداً
كَأَسْمِهَا، فَأَخَذْتُ بِأَسْبَابِ نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، بِخَلَّةِ قَشِيَّةٍ فِي
حَوَاشِيهَا إِغْرَاءً، شَأْنَهَا فِيمَا تَنْشُرُ.

وَأَقْتَرَحْتُ عَلَيْهَا أَنْ يُمَثِّلَ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِعُنْوَانِ جَدِيدٍ،
كَوَلِيدِ تَقَمُّصٍ فِي يَوْمِهِ غَيْرِ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أَوْ تَنَاسُخٍ فِي خَلْقِهِ
خَلْقَهُ الْبَدِيءِ، وَأَنْتَظِمَتْهُ أَمْشَاجُ تَكُونِهِ الْأَوَّلِ. فَأَكْبَرُ فُصُولِ
الْكِتَابِ تَدَوُّرُ عَلَى أَسْمِهِ هَذَا أَلْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ - مَشَاهِدُ
وَقَصَصُ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إِلَى أَلْقَارِيءٍ مِنْ قَبْلُ سَنَةِ ١٩٤٧ عَنِ
دَارِ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ أَيَّامَ يَفَاعِيهَا وَحَبْوِهَا، إِبَانًا كَانَتْ تَتَأَقَّلُ بَيْنَ
الْحَبْوَةِ وَالْحَبْوَةِ، وَتَتَشَنَّى بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ، بِأَسْمِ: أَيَّامِ
الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ أَبْعُدْ بِالتَّسْمِيَةِ الْخَاصِرَةِ أَلْعَتِيدَةِ عَنْ تِلْكَ أَلْقَدِيمَةِ
أَلْعَهِيدَةِ، فَالْحُسَيْنُ (ع)، فِي جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ،
وَهَذَا أَكْبَرُ لَهُ وَأَزْحَبُ وَأَغْنَى وَأَحَبُّ.

وَجَاءَ اقْتِرَاحُ الدَّارِ، دَارِ الْجَدِيدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إِبْلَالِي مِمَّا أَلَمَّ بِي
وَأَدْخَلَنِي الْمُسْتَشْفَى. وَاتَّفَقَ لِي لِلْأَوْنَةِ أَنْ رَأَيْتُ الَّذِينَ
بَلَوْتُهُمْ مِنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أُعَانِيَهُمْ وَأُعَانِي مَعَهُمْ إِلَى أَعْوَامي هَذِهِ
الْأَخِيرَةِ، عَلَى حَقَائِقِهِمْ. فَكَانَتْ حَصِيلَةُ بِيَادِرِي مِنْهُمْ، فِي أَكْبَرِ
شَأْنِهَا، زُؤَانًا إِلَّا بَقِيَّةً هِيَ الْكَرَائِمُ مِنَ الْحَبِّ وَاللُّبَابِ، شَفَعَتْ بِمَا
كَانَ اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنَ أَكْدَاسِ «غَرَابِيبِ سُود».

فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرِيمِ الَّذِينَ ذَكَرُونِي أَيَّامَ
تَفَطَّرْتُ أَلَمًا حَوْبَائِي وَسُوَيْدَاءُ نَفْسِي، مِنْ أَصْحَابِ السَّمَاخَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ مَهْدِي شَمْسِ الدِّينِ الَّذِي قَالَ، وَلَمْ يَتَوَرَّغْ، عَلَى مَسْمَعٍ
وَمَرَأَى، وَلَكِنْ بِتَغْيِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ: مَا اتَّفَقَ لِي وَشَهِدْتُ ظَلِيمًا مِنْ
ذَوِيهِ كَالْعَلَايِلِيِّ، وَلَا رَأَيْتُ ظَلُومًا كَقَوْمِهِ، وَالشَّيْخِ الصَّدِيقِ ابْنِ
الشَّيْخِ الصَّدِيقِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رَاغِبٍ الْقَبَانِي الْقَائِمُ بِأَعْبَاءِ
الْفَتْوَى... وَمِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ سَلِيمِ الْخَصِّ وَرَشِيدِ الصُّلْحِ
وَشَفِيقِ الْوَزَّانِ... وَمِنْ أَصْحَابِ الْمَعَالِي مِيشَالِ إِدَّه، وَمِنْ سُوْرِيَّةِ
تَفَضَّلَ بِمَنْ نَابَ عَنْهُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّؤُوفِ الْكَسَمِ حَامِلًا بَاقَةَ زَهْرٍ.
وَحَصَصْتُهَا بِالذِّكْرِ إِذْ كَانَ لِي فِيهَا أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ
وَالْخَمْسِينَاتِ، وَلَا سِيَّما يَوْمَ الْمِهْرَجَانِ التَّائِبِيَّ الْأَوَّلِ لِعَدْنَانَ
الْمَالِكِيِّ وَكَانَ عَرَبِيًّا جَامِعًا، يَوْمَ ٥ آبِ سَنَةِ ١٩٥٥. وَأَكْتَفِي
لِتَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ وَقْعِي عَلَى النَّاسِ أَنْ تُرَاجِعَ الصَّحَافَةَ فِيهَا
يَوْمَئِذٍ، وَبِخَاصَّةِ مَجَلَّةِ الْجَيْشِ السُّورِيِّ نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَتَعَزَّى بِمَا
قَالَ ابْنُ الْمُقَرِّي صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْخُطُوبَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةَ
أَغْمَى، وَأَغْشَى، ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَرَزَقَاءُ الْيَمَامَةِ
وَتَوَجَّ عِيَادَتِي، أَنَّهُ أَقْبَلَ مُهْزُولاً صَاحِبُ الْفَخَامَةِ رَئِيسُ
الْجُمْهُورِيَّةِ، وَلَا تَظُنُّهُ مَنْ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ أَوْ مَنْ تَعْرِفُ، بَلْ
هُوَ الْأَزْفَعُ وَالْأَكْرَمُ وَالْأَحَبُّ، إِنَّهُ فَخَامَةُ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةِ عَبْقَرٍ،
الْإِبْدَاعِيِّ سَعِيدِ عَقْلٍ.

وَلَا تَأْسَ أَوْ تَبْتَئِسْ مِنْ قِلَّةِ الرَّعِيَّةِ فِي جُمْهُورِيَّتِكَ، فَقَدِيمًا
قَالَ رَصِيفُكَ السَّمَوِيُّ:

تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ

وَكَانَ سَبَقَ دُخُولِي الْمُسْتَشْفَى، بِادِرَةِ مُوَاسِيَةٍ عَلَى غَيْرِ
أَنْتِظَارٍ، بَلْ عَلَى تَيْفَةٍ، أَيْ عَلَى حِينِ بَغْتَةٍ، مِنَ الْقِيَمَةِ الْمَشْرِفَةِ عَلَى
مَسَاعِ انْسَائِيَّةٍ فِي صَيْدَا، أَخْتَصَّصْتَنِي بِدِرْعِ مُؤَسَّسَاتِهَا، وَلَأَنَّهَا بَاتَتْ
آلَانَ فِي مَكَانٍ مَسْئُولِيَّةٍ أَتَجَاوَزُ وَأَطْوِي الْآسَمَ، لِئَلَّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ
الشُّكْرِ كَلِمَةً زُلْفَى... وَأَنَا مَا تَعَوَّدْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ فَتَى، فَكَيْفَ بِي وَأَنَا
الْثَّمَانِيْنِي...

فَكَانَ هَوْلًا «مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي»، وَهُمْ عَلَى أَيْ
حَالٍ أَهَمُّ وَأَجَلُّ مِنْ مِجَنِّ ابْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ «ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ
وَمُغْصَرٌ».

وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ فِي شَرِيطِ هَذِهِ التَّرَاثِيَاتِ، تَبَدَّى لِي حَامِلُ قَلَمٍ
كَانَتْ كَلِمَتِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ وَخَدَهَا شَافِعَةً لِيَذْكُر... وَحِينَ أُتُوهُ

بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ أَشِيرُ إِلَى أَنَّهَا كَلِمَةٌ^(١) كَانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أثبت نصها الكامل هنا لئلا يذهب بها دهرُ الدهارير، وتلثفها الأعاصير كأكثر ما كنت كتبت. فلم تُنشر إلا في جريدة الحياة لصاحبها المرحوم كامل مروءة، وذلك بتاريخ ٢١/٢/١٩٤٧ عدد ٤٩٦ وهذا نصها:

«أَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَبِيرُ: هُنَيْهَةٌ وَتَعْضُهَا كَانَ لِي مِنْ عُمْرِكَ، يَوْمَ مَشَى أَلْقَدَرُ عِنْدِي بِحَظِّ سَعِيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وَمَا كَانَ طَوِيلًا وَلَقَيْتُكَ وَمَا كَانَ كَثِيرًا.

وفي حَسِّ الْقَلْبِ، أَيُّ شَأْنٍ لِلزَّمَنِ الَّذِي يُخْتَصِرُ بِجَبَرُوتِهِ عِنْدَ عَتَبَتِهِ، فَقَدِ انْقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أُنْسِي مَا أَتَسَعُ إِلَّا لَكَ، وَكَأَنَّ يَوْمِي لَيْسَ يَمِي إِلَّا ذِكْرَاكَ.

هي هُنَيْهَةٌ، وَلَكِنْ مِمَّا تَرَكْتَ فِي حَسِّ نَفْسِي بَتْ أَشْعُرُ لَكَأَنَّمَا هُوَ عُمْرِي كُلُّهُ جَاءَ فِي مِقْدَارِ هُنَيْهَةٍ.

عَرَفْتُكَ إِنْسَانًا، وَلَا أَزِيدُكَ، بِصِفَاتِ أَنْتَ تَمْلِكُ أَكْثَرَهَا، فَلَيْسَ قَلِيلًا فِي دُنْيَايَ وَدُنْيَاكَ، أَنْ تَعْرِفَ إِنْسَانًا يَعِيشُ حَقًّا بِقَلْبِهِ، بِكِبَرِيَاءٍ قَلْبِهِ؛ إِنْسَانًا يَعِيشُ بِحَقَائِقِهِ؛ بِعُزِّي حَقَائِقِهِ، إِنْسَانًا يَعِيشُ بِقِيَمِهِ، بِوَعْدِي قِيَمِهِ فِي نَاسٍ، دَعِ أَلْمَغْنَى الْإِنْسَانِي، ثُمَّ قُلْ: إِنَّهُمْ يَعِيشُونَ بِمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ، وَلَا أَحَاوِرُكَ، بَلْ لَعَلِّي أُجَارِيكَ.

قَرَأْتُكَ فَحَبَبَكَ إِلَيَّ مَا قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فَأَحْسَسْتُ مَا قَرَأْتُ لَكَ حَيَاةً، فَالْحَرْفُ مَا كَانَ يَنْحَدِرُ عَنْ قَلْبِكَ، إِلَّا بِحَرْفٍ مِثْلِهِ أَنْحَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَعْنَاكَ.

فَمَا انْكَرْتُ مِنْكَ وَلَا غَيْرَكَ عِنْدِي، بَلْ لَكَأَنِّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأْتُكَ أَيْضًا، وَلَكِنْ فِي نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ أَشْيَاعًا، وَمَا كَانَ لِهَذَا الْوَرَقِ أَنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حَرَارَتِهَا.

فَكُنْتُ، فِيمَا تَخُطُّ وَتَقُولُ، تَتَقَدَّمُ إِلَى هَيْكَلِ هَذَا الْوَطَنِ بِذُورِكَ وَقَرَابِيِّكَ... كَالَّذِي يُصَلِّي، وَمَعْنَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ أَكْبَرُ صَلَاتِهِ، فَوْقَ آخَرِينَ أَكْبَرُ مَعْنَى اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَظُّ أَنْفُسِهِمْ، فَصَلَاتُهُمْ فِي مَغْبَدِ الْوَطَنِ رَجَسٌ، وَصَلَاتُكَ فِي مَغْبَدِ الْوَطَنِ قُدُسٌ...

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الزُّفْرَةِ الَّتِي أَنْطَوَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ، حُرُوفٌ اسْتَوَتْ فِي الْفَاظِ، مِثْلَمَا تَعَوَّدُ أَنْ يَجِدَ النَّاسُ فِي كَلِمَاتِ ذُمِّهِمْ وَأَفَانِيْنِ ذُمِّهِمْ... وَإِنَّمَا هِيَ حَشَاشَةٌ أَرْفَطْتُ قَطْرَاتِهَا، وَجَرَتْ فِي حُرُوفٍ رَسَمْتُهَا، ثُمَّ جَمَعْتُهَا فِيهَا.

مَقَاطِعِهَا، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ وَلَا تُصَدِّقُ، أَمِينُ نَخْلَةٍ الَّذِي كَانَ، فِي
الْعَرَبِيَّةِ، الْأَدَبِ، الْأَدَبِ الدَّمَقَسِ الْحَرِيرِ.

وَأَرَدْتُ مَعَ شَاعِرِنَا الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لِيَبْدِ قَوْلُهُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وَقَوْلِ الْآخِرِ الْعَبَّاسِيِّ:

قُمْ فَاسْقِئَنِي بِالْكَبِيرِ وَعَنِّي ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَالْأَغْرَبِ الْأَغْرَبِ فِي هَذَا الزَّمَنِ، أَلْزَمَنَ ذِي التَّعَاجِبِ، أَنَّ
الْقَدَرَ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ سَيِّدًا مِنْ أَجَلَّةِ
الْعِلْيَةِ الَّذِي اخْتَفَى فَجَاءَهُ، إِلَّا قَنْطَرَةٌ غُبُورٍ لِشَيْءٍ لَا أَذْرِي مَا أَشْمُهُ،
لِيُضْبَحَ وَخَدَهُ الدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ حَذَافِيرِهَا أَيْضًا...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبِي كُلُّهُ، أَنَّنِي فِي مِضْمَارِ عَرَضٍ بَغْضٍ مِنْ أَيَّامِ
النُّبُوَّةِ، وَسَبَقْتُ بِأَنَّ الْحُسَيْنَ مِنْ أَكْبَرِ أَيَّامِهَا، فَلَا يَدْعُ أَنْ أَبْلِسَ

وَأَنَا، عَلِمَ اللَّهُ، مَا كُنْتُ لِأَجْرِي خَزَفًا عَلَى قِوْطَاسٍ، لَوْ أَنَّ مَنْ أَكْتُبُ عَنْهُ يَقْرَأَنِي، أَوْ يَقْرَأَ فِي
يَوْمِهِ عَنِّي أَمْسِيهِ.

وَلَكِنْ هِيَ ذِكْرَاهُ الَّتِي أَفَلَتْ عَلَيَّ، يَوْمَ بَاتَتْ أَكْبَرُ مِنْ حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ وَاقِعِهَا
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

أَيُّهَا الزَّاجِلُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ أَبْطَلْتُ شَأْنَ النَّاسِ هُنَا، فَاتَّزَتْ الْغُرَبَةُ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَذْرِي أَلْكَ
سَطَطُوبِهَا غُرَبَةً إِلَى غُرَبَةٍ، هِيَ قَرِيْبَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا عِنْدَ مُنْحَدَرِ يَدِكَ، وَبَعِيدَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا وَرَاءَ
مُنْحَدَرِ الشَّمْسِ.

فَيَا أَيُّهَا الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ لَنْ نَفْقِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْمًا ذَهَبْتَ تَهْدِيْمْ وَتَبْنِي، وَهَذَا مِيرَاثُكَ.

وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَبَارِكُ وَتُشِيرُ، وَهَذَا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْرَاكَ...».

بُرْحَاءَ بَلَوَايَ بِالْعِظَائِمِ مِنْ بُرْحَاءِ بَلَوَاهُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا
أَعْزَاءَ، لِبَاطِفَةِ الْمُعَذِّبِينَ، وَالطَّمَأْنِينَةَ كُلَّ الطَّمَأْنِينَةِ لِلْمَفْجُوعِينَ
الْمَكْرُوبِينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلَى أَنِّي أَتَأَسَّى بِقَوْلَيْنِ لَشَاعِرَيْنِ سَبَقَا فِي أَدْبِنَا الزَّاهِرِ،
أَحَدُهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْجُرْجَانِيُّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النَّاسُ عُزْلَتَهُ فَأَجَابَ
مُتَعَلِّيًا:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَنْزِلِ الدَّلِّ أَخْجَمَا
إِلَى أَنْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُتَلَوِّمًا:
أَأَشْقَى بِهِ عَرَسًا وَأَخْنِيهِ ذِلَّةً إِذَا فَاتَّبَاعَ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَخْزَمَا
ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسِي بِمَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُنَا أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِيُّ الَّذِي
رَاضَ مُيُولَ هَوَاهُ، وَكَبَّحَ جَمَاحَ صَبَوَاتِهِ فِي قَدَرٍ وَحَدٍّ:
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
وَكَانَ عُقْبَى كُلِّ أَوْلَيْكَ أَنِّي سَعِدْتُ سَعَادَةً بَوَذَا بِمَعْنَى لَقْبِهِ
فِي السُّنَنِ كَرِيمِيَّة: الْمُسْتَنْبِر.

أَيْسْتُ بِوُخْدَتِي وَرَضِيْتُ بُغْدِي فَطَابَ الْجُؤُ لِي وَدَنَا الشُّرُورُ
وَأَخْكَمَنِي الزَّمَانُ، فَلَا أَبَالِي ... أَسَارَ الْجَيْشُ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

الفاتحة

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أخلَامُ الإنسانِيَّةِ، واتَّصَلَتْ
في الواقعِ بِقَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنْ رَوْعَةِ الأَخْلَامِ...

فلم تَعُدْ تَحْمِلُ اسْمَهَا التَّقْلِيدِيَّ «الأَخْلَامُ النَّائِيَّةُ» الَّذِي أَعْطَاهُ أَقْدَمُ
نَاطِقِي الشُّعْرِ، مُنْذُ فَجَرِ الإنسانِيَّةِ، يَوْمَ غَدَتْ واقِعاً حَيّاً لِكائِنٍ حَيٍّ...

*

وكانَ هذا الفَجْرُ قَدْ آنَبَثَقَ في الغابِ، واتَّصَلَ بِالأُلائِيهِ في المِغَاوِرِ
والكُهوْفِ، حيثُ أَطْلَأَ الإنسانُ، لأوَّلِ مَرَّةٍ، إلى الأفقِ مُتَأَمِّلاً، وشَعَرَ
بوجودِهِ...

ولكنْ لم يَسْقُطْ مِنْ وجودِهِ إلَّا على أشْباحِ ورُؤوسِ، ثُمَّ لم يَفْهَمْ...

*

اتَّصَلَتْ حَيِّزَةُ الإنسانِ بِكُنْهِ إنْسانِيَّتِهِ في مراحِلِ التَّشَوُّعِ العَقْلِيِّ، ومَدَّ
الخيالَ في مَعْنَى الحَيِّزَةِ...

ولم يَزَلْ يَلِجُ، مَغْصُوبَ الْعَيْنَيْنِ، هَيْكَلُ الْوُجُودِ الْأَصَمِّ، حَيْثُ لَا
يَكُونُ لِلصَّوْتِ رَجْعٌ وَلَا صَدَى، إِلَّا حَفِيفاً خَافِئاً وَلَغْطاً يَنْبِيعُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
يَبْدُ أَنَّهُ مُبْهَمٌ كَنَعْمَةِ الْوَتْرِ الْمَقْطُوعِ، أَوْ رَجْفَةِ الْحَنِينِ الشَّارِدَةِ الدَّائِيَةِ...

*

يَمُرُّ شَرِيطُ الْوُجُودِ سَرِيعاً كَاللُّمَحَّةِ الْمُضْمَحَلَّةِ. وَمَا يَثْبُتُ مِنْهُ إِلَّا
رُؤْيًى يَمُدُّهَا الشَّرَابُ وَالْأَلُّ، كَتَلِكَ الرُّؤْيَى الَّتِي تَتَرَاقَصُ عَلَى الْقِمَمِ فِي عَيْنِ
الْفَجْرِ وَأَغْتِمَاضِ الْغُرُوبِ...

إِنَّ إِنْسَانَ الْيَوْمِ، حِينَ يَلْتَقِي، فِي بَعْضِ مُنْحَدَرَاتِ (*) الطَّرِيقِ، بِإِنْسَانِ
التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطَّوِيلَةِ بِهِ، مَا يُخْبِرُهُ عَنْهُ...

*

وَأَخِيرًا ثَبَتَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ بَحْثَ الْوُجُودِ يَحُولُ دُونَ تَذَوُّقِهِ،
فَانْكَفَأَ عَلَيْهِ، وَنَسَجَ أَخْلَامَهُ عَنِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ...

وَكثييراً مَا كَانَ يَمُرُّ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فِي جَوْ الْإِنْسَانِ، كَوَاكِبُ
مُلْتَمَعَةٍ تُضِيءُ جَوَانِبَ هَذَا الْوُجُودِ، وَهِيَ تُجَنِّحُ أَحْيَاناً وَتَذْهَبُ صُعُداً أَحْيَاناً،
لِتَنْقُلَ الْبَشَرَ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى التَّأَمُّلِ، مَأْخُودِينَ بِنَشْوَةِ خَفِيَّةٍ تَغْلُ الذِّكْرَى تُشِيعُهَا
أَبْداً...

وإلى هذه الذِّكْرَى، الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى أَرْلِيَّاءَ، قَصَدْنَا فِي عَرْضِ ذِكْرَى

(*) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبْرِ.

الْتَّبُوءَةُ التَّارِكَةُ أَلْوَانَهَا الْمِثَالِيَّةَ تُشِيرُ إِلَى الْخُلُودِ، وَتَنْسَدِلُ بِشَفَقِهَا الْمُشِئَعِ عَلَى
الْبَقَاءِ...

مُقَدِّمَة

لم أقصِدُ في هذه المَشْهَدِيَّاتِ إلى التَّارِيخِ، إلَّا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحِيحِ الرِّوَايَةِ أوِ الحَبْرِ، وأَمَّا ما وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْسَعْتُ تَحْقِيقَهُ وَدَرَسَهُ فِي تَارِيخِ الحُسَيْنِ: نَقْدَ وَتَحْلِيلَ الَّذِي خَصَّصْتُهُ بِالوَجْهِ التَّارِيخِيِّ المَحْضِ، وما يَدْخُلُهُ مِنْ قُرْبٍ أوِ بُعْدٍ، لَكِنِّي يَتَسَنَّى لِلْمُطَّلِعِ أَنْ يَتَّصِلَ بِالشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَدُورُ البَحْثُ عَلَيْهَا، اتِّصَالاً تَاماً يُحَوِّلُهُ أَنْ يُصْدِرَ حُكْماً، بِسَلْبٍ أوِ إِيْجَابٍ.

وحاولنا، هناك، أَنْ نَتَفَهَّمَ حَرَكَاتِ التَّبَوُّةِ والتَّبَيُّ، بالإضافة إلى عَوَامِلِ العَصْرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ مَجَارِي التَّارِيخِ، إِنَّ لِلْجَمَاعَةِ أوِ لِلأَفْرَادِ.

وهذه العَوَامِلُ، الَّتِي هِيَ مُصَدِّرُ أَلْوَانِ الزَّمَنِ، تُسَمِّيها تَارِيخاً حِينَما تَقَعُ فِي المَكَانِ، وتُحَرِّكُ الجُمُوعَ عَلَى ما آسْتَنْتُ مِنْ أَتْجَاهَاتٍ وَحَدَّدْتُ مِنْ مَذَاهِبٍ. وَبَدُونِهَا لَا نَفْهَمُ مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَرَّرَ لِحَرَكَاتٍ مُبْهَمَةٍ لَا تُعْبَرُ لَنَا عَنْ شَيْءٍ يَدْخُلُ فِي حَدِّ فائِدَتِنَا.

وَيَكُونُ الغَرَضُ مِنَ التَّارِيخِ قَدْ ضَاعَ، حِينَ لَا يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَصِلَ الجَانِبَ الواقِعِي مِنَ الحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا بِالْجَانِبِ التَّارِيخِيِّ، فَإِنَّ الحَيَاةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الواقِعِ والتَّارِيخِ جَمِيعاً، وَإِنَّ الجُزْءَ الأَهَمَّ فِينَا، جَمَاعَاتٍ كُنَّا أوِ أَفْرَاداً، تَارِيخِيٍّ مَحْضٍ. وما دُمْنَا لَمْ نَسْتَطِيعْ أَنْ نَصِلَ ما آسْتَوَى فِينَا مِنَ الواقِعِيَّةِ بِما آسْتَوَى فِينَا مِنَ التَّارِيخِيَّةِ،

فلن تكون لنا فائدة من التاريخ.

يبد أننا نشعر بالحاجة إلى التاريخ. حتى ليخيل إلينا أن لدى الإنسان، طفلاً وشيخاً، حاسة سادسة تاريخية تليح فيه بحاجتها، وتشيّع في دخليته أطمئناناً مشفوعاً بتلبّس للقصة، كأنما هو يسمع حكاية نفسه، أو كأنما انتقل، عبر الزمن، إلى حيث يكون الزمان الموهوم، وتقوم وقائع الماضي.

وهذا الميل في الإنسان يرجع، عندي، إلى ما استوى في مزاج النفس ووجدتها من الجزء التاريخي، فإذا صادف ما يبعثه تحرك بقوته، وأخضع المشاعر لمدّه في نوع من الهيام والحنين، وفي نوع من الإحساس العميق بأنه شيء يتصل به اتصالاً ذاتياً، كأنما مرّ عليه منذ بعيد.

وهذا يبيح لنا أن نستنتج أن الإنسان الفطري - أو عبارة أشمل، الإنسان الذي لم يكوّن له تاريخاً - يفقد هذا الجزء، ولذلك هو لا يتحسّس بهذا الميل أو النزوع.

وعليه ففقر القصة، أو عدمها، في أدب أمة ما، يرجع إلى ضعف هذا النزوع، إلى عدم توافي الجزء التاريخي فيها واستوائه. وهذا ظاهر لدى عرب الجاهلية الذين لم تكن القصة تستهويهم استهواءً يجيء في درجة شهوات النفس أو الجسد الأخرى؛ بينما نجد القصة بدأت تبرز في أدب العرب الذين استقروا وكونوا لهم تاريخاً نوعاً ما، كالحيريين في عهد المناذرة، والشاميين في عهد العباسية، فتولّد لديهم الميل إلى قصص التاريخ. ولعلّ في الظاهرة الآتية ما يقطع كلّ ريب في صحة هذا الرأي، وهي أن القصة المركزة لا تكون إلا حيث يكون للأمة تاريخ متنوع.

فالعرب عادوا، بعد التاريخ، إلى تذوق القصة، لأنّه توافرت فيهم لذة

الاستماع التي يبعثها الجزء التاريخي في النفس، وقد قويت هذه اللذة دراكاً مع التاريخ، وتقوى كذلك في كل أمة وقبيل.

ونحن نلتمس، في عصرنا الحالي، ميلاً أشد إلى القصة، حتى كادت تتميز بأسم الأدب وتستبد به عما سواها، ولقد قال بعض الناقدين: إن الأدب هو القصة في القرون العشرين.

وأما الشعور بكلية الحياة، والشعور بأن التاريخ والقصة يعبران عن معانٍ مشتركة، هما اللذان يُعَلَّل بهما، عادة، الميل إلى القصة، فقد تولد، بلا ريب، بعد التاريخ. فإن هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الإنسان بها بين نفسه وبين الماضين، وأدرك هذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها. فتغلب الميل إلى التاريخ والقصة، بهذا الشعور التجريدي الكلي، تغلب بالسبب المنفعلي دون السبب الفاعلي الحقيقي.

وهذا الرأي، الذي نُعطيه من بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها، حتى وصلت إلى درجة أن تصبغ الأدب وتسيطر عليه بصيغتها، حقيقي جداً... وأنا أشعر بحاجة إلى الزيادة من إيضاحه، لأنه يصحح جملة الأوهام، وطائفة الأخطاء الشائعة في الموضوع.

لا ريب في أن الإنسان، الذي أسلمه التاريخ إلى العصور، يمتاز بحاسة تاريخية خاصة، تفصله عن الإنسان الذي أسلمته الطبيعة الأولى، والذي آنتق من يد الله. وهذه الحاسة تزداد عملاً في الإنسان بازدياد عمل التاريخ فيه، وتنبه العصور في أعماقه. والميل إلى التاريخ أو القصص وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها، وهو - أي الميل - يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري. ومن الخطأ الظن بأن ميل الإنسان إلى القصص فطري أو عقوي، بل هو نتيجة تلبد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومدّه بإحائها. وهذه الحاسة

التاريخية الحية تتطلّب غذاءها، وتكون في بعض من الشعوب نهمّة، ونهمّة إلى حدّ كبير، ولكنّ هذا النهم ليس متروكاً للعفو والطبيعة العنيفة، بل هو خاضع لسنة نشويّة خالصة، ما دامت الأمة قد اتّصلت بالتاريخ واتّخذت خطواتها فيه.

وهذا الرأي ينتهي بنا إلى تفسير: لماذا كان أدب اليونان فقيراً من القصة في جاهليّتهم؟

ولماذا أثروا بالقصة بعد التاريخ؟

ولماذا كان أدب العرب كأدب اليونان فقيراً منها في الجاهليّة، ثمّ أثرى بها بعد التاريخ، حتى بلغت قمّتها في ألف ليلة؟

ولماذا بلغ نهم الحاشية التاريخية، بعد ذلك، في الجمهور العربي إلى درجة لم يثبت أمانها نحو من الأدب والقرن، كما تشهد بهذا قصة حبّ عليّ بن آدم، والبخلاء للجاحظ، ورسالة الغفران للمعرّي، والتّوابع والزّوابع لابن شهيد، وحيّ ابن يقظان لابن طيّل، والمقامات للحري، وأحاديث ابن دُرَيْد الأربعون، ومصارف العشاق لابن السّراج، وأعطت عصور النهم قصص عنتره، وأبي زيد الهلالي، والملّك سيف؟

ولماذا زاد الميل إلى القصة، في الأدب الأوروبي الحديث، عنه في القرون الوسطى؟

ونحن إنّما نحضر نظراً في الأدب، دون أن نلتبس أنحاء أخرى، لأنّ الأدب أكثر استجابة إلى رغبات الجمهور وتطلّع المحيط، وهو، إلى ذلك، يتلوّن بمخلف الألوان، ويحفظ بتلونه تراوح العوامل التي أثرت فيه.

فعدم وجود أدب القصة، في أدب العرب الجاهلي، معناه عدم ميل الجمهور إليها، أو ضعف هذا الميل عنده، التابع لضعف الجزء التاريخي في مزاج النفس

وَوَحَدَتِهَا.

فَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِذَا مُؤَرِّخُو الْآدَابِ، مِنْ إِسْنَادِ خَصَائِصَ وَاسْتِعْدَادَاتٍ مِزَاجِيَّةٍ لِبَعْضِ الشُّعُوبِ دُونَ بَعْضٍ آفَقَتَصَّتْ ذَلِكَ، خَطَأً مَحْضٌ؛ نَاهِيكَ أَنَّهُ تَغْلِيلٌ غَارِقٌ بِـ «أَوْهَامِ الْكَهْفِ وَالسُّوقِ»^(١) عَلَى مَا يُسَمَّى ذَلِكَ يَكُونُ فِي مَنَاطِقِهِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ تَغْلِيلٌ يُعْطِي فِي كُلِّ مِثَالٍ^(٢) رَأْيًا، وَلَا يَقُومُ فِي قَانُونٍ يُبَيِّنُ الْعِلَاقَةَ الْمُوَحَّدَةَ بَيْنَ حَادِثِ السَّبَبِ وَحَادِثِ الْأَثَرِ.

وَالْقِصَّةُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ وَبِإِطْلَاقٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ آجَتَمَعَ لَهَا تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ، وَمَرَّ بِهَا زَمَنٌ كَانَ كَفِيلًا بِتَزْوِيدِ الْأَفْرَادِ بِحَاسَةِ تَارِيخِيَّةٍ تَجَعَّلُهُمْ يَتَذَوَّقُونَهَا، وَيَمِيلُونَ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الرَّأْيُ الَّذِي نُقَرِّضُهُ يَكْشِفُ، عَدَا الْخَطَأِ الْمَذْكُورِ، عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْقِصَّةِ، كَأُسْلُوبِ لِلْأَطْفَالِ بِتَغْمِيمِ خَاطِيءٍ. بَلْ لَا بُدَّ لِسَلَامَةِ التَّطْبِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَقِيَمَةِ هَذَا الزَّمَنِ فِي تَوْفِيرِ الْحَاسَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْوَسْطِ الْمُشْتَرَكِ لِلطُّفْلِ وَتَفَاوُتِهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي بِنَا هَذَا الرَّأْيِ إِلَى إِخْضَاعِ الْأُسْلُوبِ التَّرْبَوِيِّ لِلْقِصَّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفُولَةِ، إِذَا كَانَتْ الْحَاسَةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ تَحْكُمًا وَاقْتِيَادًا. كَمَا يَدُلُّنَا عَلَى السَّبَبِ الصَّحِيحِ لِإِخْفَاقِ أَدَبِ الْقِصَّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبِ فِي عَدِّهَا نَسِيجًا أَعْلَى عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، وَأَيْضًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ

(١) يَعْني بِالْكَهْفِ شَخْصِيَّةَ الْفَرْدِ الَّتِي تُكَوِّنُهَا الطَّبِيعَةُ وَالْبَيْتَةُ وَالتَّغْذِيَةُ وَالتَّرْبِيَّةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْعَوَائِلُ مُخْتَلِفَةً بِأَخْيَالِ الْأَفْرَادِ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَزْعُهُ الْحَاسَةُ وَأَخْطَاؤُهُ الْحَاسَةُ. وَيَعْني بِالسُّوقِ عَقْلِيَّةَ الْوَسْطِ، وَلَهَا أَوْهَامٌ تَنْحَلُّ فِي تَفْهَمِ الْأَفْرَادِ وَتَعْقُلِهِمْ.

(٢) مِنْ مِثْلِ قَفْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ الْعَرَبِ الطَّبِيعِيِّ لَهَا، وَتَغْلِيلِ الْقَصَصِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ بِالتَّأَثُّرِ الْأَدَبِيِّ وَالذَّمَوِيِّ، وَتَغْلِيلِ ظُهُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ بِالْمِزَاجِ الْأَدَبِيِّ الْخَلِيطِ، وَتَغْلِيلِ الْقُوَّةِ وَالضَّغْفِ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْمُسْتَعْلَةِ لَهَا، فِي مَزْعَمِهِمْ، بِتَعَالِيلَ شَتَّى لَا تَسْتَعِيدُ إِلَى تَغْلِيلِ يَقُومُ عَلَى مُؤَثِّرٍ وَاجِدٍ.

العناصر، التي تلزم لتذوق القصة، تتفاوت بتفاوت الحاسة المذكورة. والقصة، في نظري، لا فن لها ولا عناصر قاعدية إلا نسبية فقط، فهي محدودة بالزمان والمكان والكائن. والمحاكاة أو الاختذاء وهم وبعث عن فهم ما ثبت في جوهر النفس المتحول، الذي يمسح الفن بتهويله، ويمد الأدب بالحياة والروح.

فالداعية الخفية فينا إلى التاريخ والقصاص التي نحس بها ظائمة على الدوام، متطلعة على الدوام، هي وليدة ما استحال في جوهر النفس من أشياء الماضي المتلبد، وتمدد في بنائه كهلاميات عاملة حية. وإذا ثبت أن فينا جانباً تاريخياً، فلا منقلب لنا عن أن نتفهم وقائع الماضي كتاريخ، وأن نتصل بالمشاعر التي سيطرت فيه كعرض وقصص، وبذلك يظل التاريخ مادة حية شاعرة.

وآستواء الحياة في الحاضر إنما يقوم على دوافع الماضي وجواذب المستقبل، فلا جزم إن كانت بنا حاجة إلى التاريخ التعليلي من حيث نتصل بالموثرات الحقيقية، وداعية إلى التاريخ الوصفي، من حيث نرى الصور المختلفة التي طفت على سطح الحياة المحتجة.

ونحن، هنا، نحاول عرض ما اتصل بالثبوت بشيء من القصص الواقعي، الذي لا بد أن ينبه فينا كامن الحس بما يثبت من الإحياء الصامت، ويهيئ جوهر النفس لما سماء تولستوي «عدوى الشعور»، وهو ذو أثر بعيد، فعال في تكوين الشخصية الممتازة.

وقصة عصر الثبوت لا تدعنا نخرج بتأمل سلمي تختلط فيه الدهشة بالإعجاب فقط، بل تزودنا بما يدعونه «الاشتراك في الوعي» أي، بتأمل إيجابي، يجعل فينا اشتراكاً في الصفة الشعورية.

وكذلك تستحيل النفس الإنسانية استحالة أخرى بما أسميه «عدوى التاريخ». فعلى ذلك أن نعرف كيف نستثير التاريخ مثل قوة تنصب في شراييننا وعروقنا، وكيف نحول تياره المتغير في اللجج الباهت ليريد حياتنا حركة، وحاضرنا

آندفاعاً ومضاء.

وتابع النبوة شخصية إيمان ومبادئ، وشخصية دعة وسلام. فهو يُرينا في كُلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ألوانا وألوانا.

فَيَكُونُ جُزْءٌ من تاريخه عقيدة، والجزء الآخر جهاداً، فَيُكْتَبُ الخلود له، وَيُكْتَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتَمَّ بِهِ لِنُجَرِّبَ إيماننا في الجهاد، وجهادنا في الإيمان.

وأية شخصية هي أحفل من شخصيتنا التي ندير الحديث عليها، بمغزياتها وفعالياتها، وأيتها أخطى بآثارها، فلم يَكُنْ لنا مَعْدِلٌ عَنْ أَنْ نَتَوَخَّأَهَا وَنَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي الذِّكْرَى، كما آسْتَفِدْنَا مِنْهَا فِي الْحَيَاة.

ولستُ أَرْغُمُ لِنَفْسِي شَيْئاً مِنَ الْفَضْلِ، وَإِنْ جَهِدْتُ فِي تَفْهَمِ الْمُسْلِمِ الْمُحَمَّدِيِّ زَمَناً غَيْرَ يَسِيرٍ، فَإِنِّي كَلَّمَا أَوْغَلْتُ فِيهَا رَأَيْتُنِي أَخْوَجَ مَا أَكُونُ إِلَى آيْتِدَاءِ دَرْسِهَا مَرَّةً أُخْرَى بِمَعْنَى جَدِيدٍ. وَكَذَلِكَ سَتَظَلُّ يَنْبُوْعاً يَرُدُّهُ الصَّادِي، وَهُوَ يَجِدُ فِي كُلِّ رَشْفَةٍ مَعْنَى وَلَذَّةً وَنَكْهَةً، ثُمَّ لَا يَحْوَِرُ مَعْنَاهَا وَلَذَّتْهَا وَنَكْهَتُهَا فِي مَذْهَبِ إِحْسَاسِيهِ وَشُعُورِهِ.

يوم المدينة

كُنْتُ تَرَى النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَغْدُونَ أَفْوَاجاً، وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ
جَوَانِحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْجَمِيدِ. وَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصُبُوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حَقّاً، فَقَدْ كَانَ
مَعْنَاهُ فِي قُلُوبِهِم الطَّافِحَةُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَقِيدَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْنَى، وَفِي عَزَائِمِهِم الطَّافِحَةُ
بِكِبْرِيَاءِ الدَّائِيَّةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَجْدِ. وَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِطُونَ وَيَتَخَلَّقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
وَعَلَى أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَاتٌ ضَاحِكَةٌ بِسِرِّ الْمَرْحِ الْمَشْشُورِ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ الظَّفَرِ
يَبْدُرُ^(١).

غَدَتِ الْمَدِينَةُ، مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، بِلَدِّ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ لَيْثَتْ زَمناً وَهِيَ بِلَدُّ
الْعَقِيدَةِ، وَفَارَتْ بِتَجَرِبَتِهَا الرَّائِعَةِ، وَخَطَّتْ أَبْهَى سَطْرٍ فِي مَجْدِ الْعَرَبِ وَمَجْدِ
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعاً. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ تَسْجِلاً لَهْزِيمَةِ فَرِيقٍ وَظَفَرِ آخَرٍ، بَلْ كَانَ
تَسْجِلاً لَظْفَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُحْرَزَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ، الْإِنْسَانِيَّةِ
الْأَغْلَالِ وَالْقُيُودِ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْاسْتِعْبَادِ الْوَحْشِيِّ الْمُنْكَرِ.

كَانَ هَذَا الظَّفَرُ، فِي حَقِيقَتِهِ، ظَفَرُ الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُتَطَلِّعَةِ، وَظَفَرُ
الْمِثَالِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْجَامِحَةِ، وَكَانَ يَوْمَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ

(١) الْمَفْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكُبْرَى ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

من شتى العبوديات الدينية والاجتماعية، ويوم تجديد الإنسان وإنشائه إن شاء آخر.
عَدَتِ المدينة، في أُنْهاتها وأَمْجَادِها الحَفِيلَةِ، بَلَدًا جَدِيدًا، فلم تُعَدْ «يُثْرِبَ
الْقَدِيمَةِ» التي كانت، كغيرها، وَكُرًّا مِنْ أَوْكَارِ الْفِكْرِ الْبَالِي والعَقْلِيَّةِ الْجَامِدَةِ، الَّتِي لَا
لَوْنَ لَهَا سِوَى ذَلِكَ اللَّوْنِ الْقَامِمِ، وَكَانَ يَشِيْعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمْ تُعَدْ أَلْبَنَّةُ، بَعْدَ
الْيَوْمِ، مَوْكِرًا لِلنَّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمُتَأَخَّرِ الْمَوْرُوثِ مِنْ شَرَائِعِ الْغَابِ، وَفِيهِ الطَّبِيعَةُ
الْبَرْبَرِيَّةُ، وَكَانَ يَشِيْعُ بِشَتَّى مَظَاهِرِهِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ. فَالشَّعْبُ ضَحِيَّةُ
الطَّبَقَاتِ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا ضَحَايَا فَوْدٍ مُسْتَبَدٍّ يَلَاشِي كِيَانَ الْأُمَّةِ فِي كِيَانِهِ، وَيُحَوِّلُ
تِيَارَ النَّشَاطِ فِي الشَّعْبِ إِلَى مَا يُغْذِّي أَطْمَاعَهُ وَيُشْبِعُ مُيُولَهُ وَرَغْبَاتِهِ.

عَدَتِ المدينة، مِنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، مَوْكِرَ الْفِكْرِ التَّاهِضِ الْمُشِيْعِ، وَالنَّظَامِ
الْإِصْلَاحِيِّ فِي كُلِّ حَقْلٍ مِنْ حُقُولِ الْاجْتِمَاعِ، وَمَوْكِرَ الدَّوْلَةِ الْحَيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي
بَدَأَتْ تَنْزِعُ الْأَغْلَالَ السَّابِغَةَ عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَكَذَلِكَ أَمْتَدَّتْ
وَأَنْطَلَقَتْ، كَمَا يَمْتَدُّ وَيَنْطَلِقُ خَيْطُ التَّوْرِ سَرِيعًا سَرِيعًا، حَتَّى أَنْتَظَمَتْ مُعْظَمَ الْعَالَمِ
الْقَدِيمِ.

لَبِثَتِ الْمَدِينَةُ أَيَّامًا مَدِيدَةً وَهِيَ غَارِقَةٌ بَيْنَهَجَاتِهَا، مُنْشِيَّةٌ بِمَا أُحْرَزَتْ مِنْ نَجَاحٍ،
فَقَدْ حَمَلَتْ شُعْلَةَ الْإِصْلَاحِ، وَعَدَتْ رَسُولَ الْمَدَائِنِ وَالْأَمْصَارِ، وَهِيَ لَنْ تَتَنَاوَلَ عَنْ
رِسَالَتِهَا إِلَى الْعَالَمِ مَهْمَا كَلَّفَهَا تَبْلِيغُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ دَامِيَةٍ وَوَثَبَاتٍ
حُمْرَاءَ.

إِخْتَضَنَتِ الْمَدِينَةُ عَقِيدَةً خَالِدَةً وَنِظَامًا إِصْلَاحِيًّا خَالِدًا، ثُمَّ أَلْفَتْ حِزْبًا
خَلَاقًا، فَدَوْلَةً مُحَرَّرَةً. وَكَانَ مِنْ حَظِّ بِلَادِ الْعَرَبِ أَنَّهَا شَهِدَتْ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَجَرِبَةَ
نِظَامِ مُحَمَّدٍ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَقَدْ نَجَحَتْ فِي حُدُودِهَا وَنَجَحَتْ خَارِجَ حُدُودِهَا، وَفِيهَا
الْقُدْرَةُ عَلَى النَّجَاحِ دَائِمًا.

كَانَ فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ كُلُّهُ الْإِعْجَابُ، مُنْذُ تَسَنَّى لِفَيْتَةٍ قَلِيلَةٍ مُؤْمِنَةٍ أَنْ تُحَطَّمَ حَمَلَةٌ كَامِلَةٌ جَهَّزَتْهَا مَكَّةُ وَتَمَزَّقَتْ شِعَاعاً. وَخُطُورَةُ النَّصْرِ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَحْدُثُ كَثِيراً وَتَقَعُ كَثِيراً، وَإِنَّمَا كَانَتْ صِرَاعاً بَيْنَ مَبْدَأَيْنِ وَعَقْلِيَّتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَقَدْ آتَتْهُي بَغْلَبَةُ الْأَصْلَحِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ أَوَّلِكَ جَمِيعاً، فَشَاعَ فِي النَّاسِ كَافَتِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ الْعَقْلِيِّ كَالَّذِي يُحْسُ بِهِ رَجُلُ الْفِكْرِ، وَهُوَ يَجْهَدُ جُهْدَهُ بِسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ النَّفْسِيِّ كَالَّذِي يَسْتَخِفُّ الْمَكَافِخَ الظَّافِرَ وَالْأَمَلَ الْوَاجِدَ.

وَكَانَ يَمُزُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ رَجُلَانِ يَهُودِيَّانِ مُطْرِقَيْنِ فِي تَأْمُلٍ، فِي أَكْثَرِ تَطَوُّفِهِمَا، وَأَخْيَاناً يَأْخُذَانِ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ الْخَفِيفِ الْهَامِسِ، وَهُمَا: مُخَيَّرِي^(٢) وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

قَالَ مُخَيَّرِي: لَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي وَيَرُوعُنِي هَذَا الظَّفَرُ الَّذِي أَحْرَزَهُ مُحَمَّدٌ وَجِرْبُهُ، فَقَدْ كَانَ ظَفَراً سَرِيعاً وَنَاجِحاً، وَلَا يَنْشُبُ أَنْ يَتَخَطَّى حُدُودَهُ الضَّيِّقَةَ، وَيَشْمَلَ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا بِنِظَامِهِ الْإِصْلَاحِيِّ الْقَوِيمِ، وَتَعَالِيمِهِ الْوَاعِيَةِ الْأَخَذَةِ، حَتَّى لَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَدَى فَاعِلِيَّتِهَا أَنَّهَا تُحَقِّقُ لِنَفْسِهَا الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ دُونَ مَا دِعَايَةٍ وَتَبْشِيرِ.

قَالَ آبْنُ سَلَامٍ: لَكَأَنَّكَ - يَا مُخَيَّرِي - تُحِسُّ بِمَا فِي نَفْسِي وَتَنْطِقُ عَنْ لِسَانِي، فَإِنِّي دَهْشْتُ كَدَهْشَتِكَ وَمَزُوعٌ كَارْتِبَاعِكَ، وَمَا أَحْسَبُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُفْضِيًّا إِلَى مُنْتَهَى عَظِيمِ جَلَلٍ، وَكُلُّ مَا يَبْدُو لِي يُنْذِرُنِي بِهَذَا الْمُنْتَهَى، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَقْلٌ مَا سَيَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٢) هُوَ مُخَيَّرِي النَّصْرِيِّ الْإِسْرَائِيلِي. قِيلَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَقِيلَ مِنْ بَنِي الْفَيْطُونِ. وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ وَالْبَلَاذُرِيُّ أَنَّهُ كَانَ عَالِماً وَأَسْلَمَ. قَالَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَنْصُرُونَ مُحَمَّدًا؟ وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نُصْرَتَهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ بِمُقْتَضَى الْمِعَاهِدَةِ. فَقَالُوا: الْيَوْمَ يَوْمَ السَّبْتِ. فَقَالَ: لَا سَبْتَ. وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ فَجَرَحَ جِرَاحاً قَاتِلَةً، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أُمُوتُ إِلَى مُحَمَّدٍ يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ. رَاجِعِ الْإِصَابَةَ لِأَبْنِ حُجْرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ، ج ٦،

ومحمدٌ واثقٌ كأشدَّ ما يكونُ، فقد أوجدَ مادَّةَ حَيَّةً، وصَحَّحَها تَصْحِيحاً
مَعْنَوِيّاً، وَوَلَّدَ فيها قُوَى لا حَدَّ لها، وغَذَّاهَا بتعاليمَ تفاعَلَتْ مَعَ نَفْسِيَّاتِ العربِ
تفاعُلاً يَكْفِي أَنْ يُكوْنَ بينهم وَحْدَةٌ في الصِّفَةِ العَقْلِيَّةِ والشُّعُورِيَّةِ، كما عَرَسَ في
قُلُوبِهِم طَبِيعَةَ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَزْدَرِي هَبَّةَ العاصِفَاتِ، وَحَرَزَ أَفْعَدَتَهُمْ مِنَ
الْأَسَاطِيرِ والأَوْهَامِ، وَبَلَّوَزَ عَلَيْهِمُ الْفِكْرَ، وَعَوَّدَهُمُ النُّظَامَ، وَالزَّمَهُمُ الطَّاعَةَ وَكَلِمَةَ
التَّقْوَى، فَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا. وَلَيْسَ يُخْطِئُنِي ظَنِّي فِي أَنَّهُ لَنْ تَقُومَ لَشَرِيعَتِهِ
شَرِيعَةٌ، وَلَنْ يَثْبُتَ لِقَوْمِهِ قَوْمٌ.

قال مُخَيَّرِيٌّ: هَيَّجْتُ، وَائِثْمُ اللَّهِ، فِي نَفْسِي حَدِيثاً طَالَمَا كُنْتُ أَذُودُهُ عَنْ
لِسَانِي ذِياداً، حَتَّى لَا يَجْرِي بِهِ، وَلَا أَرَانِي إِلَّا مُفْضِياً بِهِ إِلَيْكَ:

نَظَرْتُ فِي شَرَائِعِ الْعَالَمِ وَنُظُمِهِ، عَلَى آخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا، وَقَلَّبْتُهَا عَلَى شَتَّى
وُجُوهِهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى أَنَّهَا تَتَنَاصَرُ عَلَى سَخَقِ قُوَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ
وَأَسْتِغْلَالِهِمْ أَسْتِغْلَالاً أَنَانِيّاً صَارِماً. وَهَذِهِ الشَّرَائِعُ وَالتُّظُمُ مُتَعَاوِنَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا، مِنْ
أَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ الَّتِي لَا تَتَفَقُّ بِحَالٍ وَالْحُرِّيَّةَ الذَّائِقَةَ لِلبَشَرِ، فَسَبِيلُهَا الْقَضَاءُ عَلَى
الْكَفَايَاتِ وَالْقَابِلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ عُثْوَانُ آمْتِيَّازِ الْإِنْسَانِ، لِيُحَوِّلُوا دُونَ أَنْ يُتِمَّ الشُّؤْءُ
دَوْرَتَهُ، وَبِذَلِكَ يَسْتَسْلِمَ لَهُمُ الْقَطِيعُ.

ولقد باتَ المَجْمُوعُ البَشَرِيُّ، مِنْ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَدْوَارِ، فِي رُوحِيَّةٍ جِدِّ مَرِيضَةٍ،
وَأَنكَفَأَتِ الْجَمَاعَاتُ تَهْوِي فِي أَتُونِ التَّنَازُعِ السَّاحِقِ، حَتَّى لَكَأَنَّ الْبَشَرِيَّةَ فِي دَوْرِ
أَخْتِضَارٍ، لَا تَلْبَثُ مَعَهُ طَوِيلاً أَنْ تَتَقَلَّبَ هَامِدَةً لَا حَرَكَ فِيهَا.

فَلَمْ يَعْذُ فِي الْأَذْيَانِ مَا يَزْوِي ظَمَأَ الثُّفُوسِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، عَدَّتِ الْأَذْيَانُ
مَادَّةَ الظُّلْمِ، كَطَالِبِ الرِّبِيِّ بِالْحَنْظَلِ، فَإِنَّهُ لَا يَزْوِي، وَلَكِنَّهُ يَزِيدُ شُعُوراً بِالْحَاجَةِ إِلَى
الرِّبِيِّ. فَالْأَذْيَانُ الذَّائِقَةُ الْكَسِيفَةِ، وَالْهَرَطَقَاتُ الْمُسْتَطِيرَّةُ، وَالْأَوْضَاعُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ
الْفَاسِدَةُ، وَالتُّظُمُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ الَّتِي أَذَكَّتْ نِضَالَ الطَّبَقَاتِ بِشَرَّتِهِ الْمُقْطِعَةِ، وَالتَّدَاعِي

الأخلاقي، وَيَقْظَةُ الإِبَاحِيَّةِ الطَّامِسَةِ، كُلُّ ذَلِكَ أَعَدَّ الْعَالَمَ، بِقَضْدٍ، وَدُونَ قَضْدٍ، إِلَى أَنْتِظَارِ كَلِمَةِ الْبَنَاءِ الْعَالَمِيِّ. وَلَا أَظُنُّ مُحَمَّدًا إِلَّا ذَلِكَ الْبَنَاءَ الْعَالَمِيَّ الْأَعْظَمَ، وَلَا أَظُنُّ دَوْلَتَهُ الصَّغِيرَةَ، فِي مُحْدُودِ الْمَدِينَةِ، إِلَّا نَوَاةَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي سَتَضْهَرُ فِي بَوْتَقَتِهَا الْفَوَارِقِ الْمِلِّيَّةِ، وَتَسْتَعْلِي عَلَى الْأَجْناسِ وَالشَّيْعِ، فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةُ وَدَوْلَةُ وَأَنْتِمَائِيَّةٌ.

عَرَفَ مُحَمَّدٌ سِلْسِلَةَ الْأَرْبَابِ الْمُتَرَابِطَةِ فِي نَسَقٍ، وَعَرَفَ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَنْ تَتَحَرَّرَ مِنْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّاتِ الْمُرْكَبَةِ الْمُتَدَاخِلَةِ، الَّتِي تُؤَلَّفُ خَطَرًا عَلَى الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ، وَبَوَارِزِ الْاِمْتِيَازِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتُغْلُّ النَّشَاطَ الْحَيَوِيَّ بِمَا تَزْزُجُ بِهِ كَكَابُوسٍ ضَاغِطٍ وَجَائِثٍ مُزْجِعٍ إِلَّا بِعَمَلٍ عَنِيفٍ، وَعَرَفَ أَنَّ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي بَنَاءِ الْعُبُودِيَّاتِ الشَّامِخَةِ هِيَ الطَّبَقَةُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي تَسُوقُ الْجُمُوعَ طَائِعَةً بِمَا تُسَيِّطِرُ بِهِ عَلَى مَنَاطِقِ اللَّادِعِيِّ وَمَرَائِزِ اللَّاشْعُورِ. فَأَعْمَلَ مِغْوَلَهُ الْأَقْدَسَ فِي بَنَاءِ الْعُبُودِيَّاتِ الرَّاسِخَةِ، الَّتِي شَهِدَتْ، مِنْ نَوْعِ تِلْكَ الْعَوَاصِفِ، شَيْئًا كَثِيرًا، فَمَزَّقَتْ رِيَاحُهَا الْمُتَنَاضِحَةَ الْمَزْمَجِرَةَ، وَبَقِيَتْ فِي مَحَلِّهَا شَامِخَةً رَاسِخَةً. لَكِنَّ مُحَمَّدًا عَرَفَ سِرَّ ثَبَاتِهَا فَسَدَّدَ ضَرْبَتَهُ الْأُولَى الْمَاضِيَّةَ إِلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَرُبُوبِيَّتِهَا^(٣)، وَتَحَدَّاهَا فِي نَوْعٍ مِنَ الشَّخْرِيَّةِ وَالِاسْتِفْزَازِ الْمُثِيرِ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَزَلْزَلَ حَجَرُ الْأَسَاسِ، وَخَرُوتُ صُرُوحِ الرُّبُوبِيَّاتِ، الَّتِي سَخِرَتْ بِالزَّمَنِ مَذْرُورَةً، مُتَنَازِرَةً فِي حَالَتِي تَبْغُثِ وَتَرَاكُم.

ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ فَوْقَ أَطْلَالِهَا شَامِخًا، يُعْلِنُ حُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ^(٤) وَحُقُوقَهُ فِي

(٣) قَالَ تَعَالَى: «وَتَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٣: ٦٤).

(٤) قَالَ تَعَالَى: «وَنَحْشُرْ قُنَادَى، فَقَالَ أَنَا رُبُّكُمْ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نِكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (الذاريات ٧٩: ٢٥). وَقَالَ: «فَأَسْتَحَفُّ قُوْنَهُ فَأَطَاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وَقَالَ «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضْطَرٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢). وَقَالَ: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ» (الأحزاب ٣٣: ٦٧).

الاستقلال^(٥) الذاتي، ويُعلِنُ حُرِّيَّةَ^(٦) العمل والإنتاج والجُهد، ويُقرِّرُ مَبْدَأَ^(٧) المسؤولية الشخصية في الحقوق والجزاء ونظريَّةَ الجزاء للحقِّ العام^(٨)، وينزِعُ أَغْلَالَ الفِكر. فمحمَّد حازِبَ الرُّبُوبِيَّةَ في شخصِ الأوثانِ الجامِدة، وحازِبَ الرُّبُوبِيَّةَ في شخصِ الأوثانِ الاجتماعيَّةِ الحيَّة، وبذلك حَرَّرَ الفِكرَ وحَرَّرَ المُجْتَمَعَ.

والمُدْهِشُ - يا أَبْنَ سَلَامٍ - في مُنْهَجِ محمَّدٍ الإصلاحِيَّ أَنَّهُ قامَ على الرُّزْلَةِ الفِكرِيَّةِ، لِيُعِدَّ النَّفْسَ الَّتِي خَلَصَتْ^(٩) من وراثتها إلى آغْتِنَاقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صَالِحٍ، مَهْمَا بدا نايباً والمبادئ السائدة، وَيُفَسِّحَ للأفراد والجماعات سَبِيلَ التَّفْكِيرِ المُنْطِقِيِّ الهادِيءِ الخالي مِنْ شَوَائِبِ الأفكارِ الأولى ونَزَغَاتِهَا. وكذلك لم يَعمِدْ إلى تَصْحيحِ الأوضاعِ القائمةِ وتَغْيِيرِهَا فقط، كَمَا عَمَدَ المُصْلِحُونَ مِنْ قَبْلُ، بَلْ قَصَدَ إلى تَصْحيحِ فِكرِ الحَيَاةِ أَوَّلًا، لِيُضْمَنَ رُوحِيَّةً جَدِيدَةً يَتَوَقَّى مَعَهَا الرَّدَّةُ والائْتِكَاسُ اللَّاشُعُورِيَّينِ، وكانا آفَةً كُلِّ إِصْلَاحٍ خَرَجَ عَنْ يَدِ المُصْلِحِينَ السَّالِفِينَ.

أولئك كانوا يُصَحِّحُونَ الأوضاعَ وَيُشِيعُونَها في المُجْتَمَعَ، وروحيَّةُ الجماعةِ لم تَزَلْ غارقةً في الأُوْحَالِ والأمراضِ، ولم تَزَلْ تالِفةً أَشَدَّ ما يَكُونُ التَّلَفُ. فلا تَلَبَّثْ

(٥) قَالَ تَعَالَى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). وَيَتَبَيَّنُ أَنْ يَلَاخِظَ أَنَّ القانونَ العامَّ يَخُضَعُ للقانونِ الأدَبِيِّ.

(٦) قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاءُ الأَوْفَى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قَالَ تَعَالَى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وَقَالَ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ٢: ١٧). وفي هذه الآيَةِ تَحْرِيرُ للعقلِ مِنَ الوراثةِ، ودَعْوَةٌ إلى تَقْيِيدِهَا على صَوِّهِ المُنْطِقِيِّ والفِكرِ المُجَرَّدِ، وبذلك قَضَى القرآنُ على الوراثةِ كأساسٍ للفِكرِ وحَكَمَ العقلَ بِهَا، فَلَمْ يَشْجِبِ القَدِيمَ المَوْرُوثَ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلِ القَدِيمَ الَّذِي يَضْطَلِمُ بِالمُنْطِقِ في سُنَّةِ الشُّعُوءِ، وجاءَ تَحْرِيرُهُ للعقلِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَضَى عَلَيْهَا كأساسٍ للفِكرِ.

الأوضاع أن تُفسد بفساد روجية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاودة الحمى، ويكون المضلح لم يزد عن أنه نجم التمتع فجأة، ثم ابتلعه خضم الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولاً، ثم صحح النظم والأوضاع، وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى.

فمحمداً لم يصنع أمة في عداد الأمم، بل صنع أمة في عداد الرسل إلى كل الأمم، وأكبر ظني أن أمة ستنتطق في جسيم العالم المتداعي، كما تنطلق العصاره، وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم - يا ابن سلام - بداية دنيا جديدة، وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمداً أن تكون، وكذلك يفرض المضلح نفسه على الزمن.

قال ابن سلام: أراك - يا مخيريق - تتكلم بكلام من آشتهوته رسالة محمد، وما أبرئك، ومع ذلك فإني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر وأخرها الحس. ولقد شئت لي الظروف أن أجمع ببعض من أتباعه، وهو، وإن لم يكن له جلاء منطقك، ودقة تحليلك، فقد غمرتني روجيته ولعبت بي تياراتها، وما أحسب نفسي أقل أنجذاباً منك.

وأذكر أنني سمعت آية^(١٠) تدعو إلى الإيمان العقلي من قرآن محمد، وما هي إلا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً. فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها إلى ما وراء القوى الواعية، ومضت تفعل فعلها، تارة في الفكر، وتارة في مذاهب الشعور، حتى انتهت بتزكيز فلسفتها علي وتركيزي عليها، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة، ينبغي أن أعهد لها في أول ما أعهد من قضايا العقل، وإذا بي أحس إحساساً عقلياً بأنها كل المنطق، حتى لم يغد لي مغدل عن أن تكون مقدمة

(١٠) قال تعالى: *وقل هدو سبيلي أذعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني*، (يوسف ١٢: ١٠٨).

الفكر.

والعجب - يا مخيريق - أن محمداً عالَجَ قضايا الدين والعقل والحياة والاجتماع، وأعطى حلولاً هي ما ظلت الإنسانية تائهة عنها وغبتاً تنشدها. ولعلَّ أعظم ما يستوقفني ويغريني حلهُ لمعضلة الأديان، فهو لم ينقضها بل صَحَّحها من الطِّقليات العالقة عليها، فإنَّ في كلِّ دينٍ قضايا الحقِّ الأولى، وقد تناولها كلُّ قبيلٍ بنوع عقليته، وما ثبتَ فيها، فلَوَّنها بلَوْنِهِ، وما زالَ يُلْبِسُها، ويضيفُ إليها، ويحْمِلُ عليها، حتَّى آخَتَتْ قضايا الحقِّ وراءَ أشتارِ صفيقة، وغَدَتِ كاللُّبابِ تحجُّبُهُ قُشورٌ قاسية. والذي يثبتُ في عقلِ الجماعةِ مظاهرُ الأشياءِ دونَ حقائقها المحجوبة، فَوَقَفَ إيمانُ الجموعِ عندَ حدِّ المظاهرِ، وعَمِلَ التاريخُ عَمَلَهُ في هذا الإيمانِ فتَحَجَّرَ عليها، برُغمِ أنَّ هذه المظاهرَ والآشكالَ ليستِ سوى انعكاسٍ من وراثاتِ القبيل.

ولكنَّ محمداً استطاع، بإعجاب، أن يكشفَ قضايا الحقِّ الأولى، وأنَّ يُبَصِّرَ مكانها في كلِّ دين، رُغمَ كُلِّ الأشتارِ الصفيقة، فأعلنَ للناسِ، على اختلافهم، وَحْدَةَ الأديانِ، وأنَّ قضايا الحقِّ الأولى واحدةٌ في كلِّ دين، وهي لا تَتَغَيَّرُ إلَّا إذا تَسَنَّى لناموسِ الطبيعةِ أن يتَغَيَّرَ، وأعلنَ أنَّ ما يتَوَهَّمُهُ الناسُ لُباً هو قُشورٌ فقط، وبَضْرِبَةِ حَطْمِها، وأعطى تحديدهُ الدقيقَ للدين الجديد. فكانَ عَمَلُهُ وجهادُهُ فقط في تجريدِ قضايا الحقِّ بما رانَ عليها وعلِقَ بها، أو رَدَّ الناسِ إلى حقائقِ دياناتهم التي أفسدَها النضالُ الطبقي والقومي، وأفسدَ كلَّ مجتمعٍ من ورائها، رُغمَ أنَّ الأديانَ ما جاءتْ إلَّا لِمَحْوِ هذا النضال.

وكما قُلْتُ - يا مخيريق - ليسَ من المُمكنِ للمُصلِحِ، إذا أرادَ البناءَ المكينَ، أن يتَّجِهَ إلى العقلِ الملوَّثِ المُشَوَّهِ، والفكرِ الغارقِ بالأوهامِ، ويَحْمِلُهُ رسالتهُ، بل لا بُدَّ من مُهاجمةِ هذا العقلِ، وهذا الفكرِ، حتَّى إذا تَطَهَّرَا اتَّجَهَ إليهما من جديدٍ وذَهَبَ يَتَبَنَّى، وبعبارةٍ أصحَّ، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وكذلك فَعَلَ مُحَمَّدٌ، وكانَ له مِيزَةٌ على

المُصلِحين، ويتَّبَعِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ مُغَامِرًا يَتَسَتَّرُ بِخُطَّةِ الإِصْلَاحِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُصْلِحًا دَفَعَ الْمُغَامَرَةَ فِي طَرِيقِ الإِصْلَاحِ. وَبَيْنَهُمَا أَنَّ أَوَّلَهُمَا أَنَانِي بَلَحْمِهِ وَدَمِهِ، يُطْلِقُ الْعَاصِفَةَ كَعِمْلَاقٍ وَيَدْفَعُ الْجُمُوعَ إِلَى التَّوَاتُبِ فَوْقَ الْقِمَمِ، وَزَلَّةً فِي الْعَاصِفَةِ تَتْرُكُ الْجُمُوعَ فِي فِضَاءِ الْهَائِوَةِ طُيُورًا تَحُومُ فِي الْمُتَحَدِّرِ السَّرِيعِ السَّحِيقِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالتَّهْدِيمِ لِيَقِفَ، مِنْ بَعْدُ، عَلَى أَطْلَالِ الْأَشْلَاءِ مَسْخًا جَاحِظًا مُتَقَلِّصًا؛ وَثَانِيَهُمَا غَيْرِي فِي شُعُورِهِ وَضَمِيرِهِ، يَضْبُطُ الْعَاصِفَةَ وَيَضْرِفُ مَخْزُونَهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالْإِنْشَاءِ وَتَوْفِيرِ الْقُوى وَالطَّاقَاتِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالْبِنَاءِ لِيَقِفَ، وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَعْدُ، عَلَى الْقِمَمِ.

قَالَ مُخَيَّرِي: لِلَّهِ كَمْ تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النُّفُوسِ، فَإِنَّهَا تَصْنَعُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَقُوَّةً لَا حَدَّ لَهَا. أَلَا تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ كَيْفَ غَدَّوْا، بِفَضْلِ الْعَقِيدَةِ الْخَلَاقَةِ، قُوَّةً لَا تَتَّصِلُ بِالضَّعْفِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفًا لَا يَتَّصِلُ بِالْقُوَّةِ... وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيَاةُ تَصْنَعُ الْقُوَّةَ، فَلَا قُوَّةَ بَدُونِ فِكْرَةٍ تَقْدِفُ الطَّاقَةَ وَالْحَيَاةَ جَمِيعًا.

بَلَّغَنِي، وَأَنَا إِذَا بَلَّغَنِي فِي عَجَبٍ، إِخَالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قَرِيشٍ، وَطَالَمَا شَاهَدْتُهُ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَنْ يَنْتَعِنُونَهُ بِحَامِي الْإِسْلَامِ، عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، بَلَّغَنِي أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَسْتَيْسَالِيهِ، وَتَفَانِيهِ فِي نَصْرَةِ مَبَادِيءِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، مَا جَعَلَهُ، فِي بَدْرِ الْكُبْرَى، أُمَّةً مِنَ الْأَبْطَالِ كَأَنَّهَا تَنْطَلِقُ فِي كُلِّ مَجَالٍ إِذَا أَنْطَلَقَ، فَمِنْ كُلِّ وَجْهِ عَلِيٍّ، وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَلِيٌّ نَفْسُهُ، حَتَّى لَا جِدُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ: إِنَّ فَتَى قُرَيْشٍ هَزَمَ الْجُمُوعَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَذْكُرُ أَنِّي أَعْرِفُهُ، وَأَذْكُرُ أَنَّ لَهُ سِيَمَاءَ نَاطِقَةً بِالصَّلَاةِ وَالْعَزَمِ الْقَصِيِّ، وَرُغْمَ حَدَائِثِهِ فَقَدْ قَذَفَ فِي رُوعِي مِنَ التَّجَلَّةِ، وَأَنْوَاعًا مِنَ الْأَسْرِ، حَتَّى لِأَحْسَبُنِي بِتِّ مَأْخُودًا عَنْ نَفْسِي سَاعَةً بِشَيْءٍ لَا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ سِحْرَ

الشخصية.

وأذكرُ أَنَّ حديثه اليومَ على كلِّ لسانٍ، وهم يشفقونهُ بإعجابٍ طائِفٍ مُمدودٍ: «أليسَ الَّذي فَعَلَ الأفاعيلَ بِقُريشٍ»، هذه عبارَتُهُم الَّتِي لا تَكادُ تَسْقُطُ من حديثِ أَحَدٍ عَنْهُ، حتَّى غَدَتْ تَقْلِيدِيَّةً وَطَبِيعِيَّةً. قَالَ هذا، وَسَكَتَ مُطَرِّقاً، وَيَدُهُ تُدَاعِبُ جَبْهَتَهُ كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتَذَكَّرَ شَيْئاً قَدَرَ أَنَّهُ خَطِيرٌ، وَعَلَى فُجَاءَةٍ نَفَرَ جَبْهَتَهُ نُقْرَةً شَاعَ سُورُهَا فِي مُقَلَّتَيْهِ وَأَسَارِيرِهِ.

قال: يا مُخِيرِقُ سأُخْبِرُكَ خَبَرَ فَتَى قُريشٍ، يَوْمَ تَزَمَّلَ فِي فِرَاشِ مُحَمَّدٍ، لَيْلَةَ الْهَجْرَةِ، إِيَّاهُما عَنْهُ... قال مُخِيرِقُ: أَذْكَرُ أَتَيْ سَمِعْتُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ... وَمَضَى آتِئاً سَلَامٍ فِي حَدِيثِهِ: إِنَّهَا مُغَامَرَةٌ يَظُنُّهَا الْبَسْطَاءُ دُونَ آسْتِيسَالِهِ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، لَكِنَّهَا عِنْدِي، مِنْ وَجْهَةِ الْعَقِيدَةِ، أَعْظَمُ شَأْناً وَقَدْ لَا يَغْدِلُهَا مَوْقِفٌ. فَإِنَّ الْاسْتِيسَالَ قَدْ تَوَلَّدَهُ حِمَاسَةُ الْمَشْهَدِ، وَأَصْوَاتُ الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ، وَقَدْ تَوَلَّدَهُ خُيَلَاءُ الذَّاتِيَّةِ فِي مَوْقِفٍ لَا مَفَرٍّ مِنَ الظُّهُورِ فِيهِ، وَكَثِيراً مَا بَدَّلْتُ هَذِهِ الْمَشَاهِدُ نَفْسِيَّةَ الْجَبَانِ، كَمَا لَا تَدُلُّ عَلَى أَثَرِ الْعَقِيدَةِ دَائِماً.

ولكنَّ تلكَ، هِيَ مُغَامَرَةُ الْعَقِيدَةِ الْمُجَسِّمَةِ، فَقَدْ كَانَتْ تَغْرِضاً لِلنَّفْسِ دُونَ تَذَرُّعٍ بِأَسْبَابِ الدَّفَاعِ، وَبِكُلِّ هُدُوءٍ، فَلَيْسَ فِيهَا أَنْفِعَالٌ عَنِيفٌ يُنْسِي الْمَرْءَ ذَاتَهُ، وَيَدْفَعُهُ إِلَى عَدَمِ الْمُبَالَاةِ دَفْعاً قَسْرِيّاً، وَهِيَ مُغَامَرَةٌ، إِنْ كَانَتْ تُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّمَا تُعَبِّرُ عَنْ نِسْيَانِ الذَّاتِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، بِفَاعِلِيَّةِ الْعَقِيدَةِ وَحَدِّهَا، الَّتِي طَغَتْ عَلَى كُلِّ الْمَشَاعِرِ وَأَسْتَبَدَّتْ بِهَا. إِنَّ التَّضَجُّيَّةَ رَهِيئَةً، يَا مُخِيرِقُ، دَائِماً، وَلَكِنَّهَا أَرْهَبُ مَا تَكُونُ فِي الْمَوَاقِفِ الْهَادِئَةِ الَّتِي لَا تُثِيرُ الْأَعْصَابَ بِشُعُورٍ غَيْرِ عَادِيٍّ.

إِنَّ مُحَمَّدًا عَرَفَ كَيْفَ يَجْعَلُ النَّفْسَ الْعَرَبِيَّةَ مُؤْمِنَةً ذَاتَ آفَاقٍ فِي الْإِيمَانِ، فَكَانَتْ بِذَلِكَ قُوَّةَ ذَاتِ آفَاقٍ فِي الْقُوَّةِ. خُصُوصاً وَإِيمَانُ مُحَمَّدٍ يَجْعَلُ الْمَرْءَ لَا يَرَى شَيْئاً فِي مُحَدُودِ الْإِيمَانِ، وَيَرَى الْإِيمَانَ فِي مُحَدُودِ كُلِّ شَيْءٍ، كَتَلَكِ الْفَرَّاشَةُ الَّتِي

أَسَلَمَهَا الْمِصْبَاحُ إِلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَحُولُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا تَحُولُ عَنِ الْحَيَاةِ. وَبِهَذَا صَغُرَتِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ، وَفِكْرُهُ مَتَاعِيهِمَا، فِي قَلْبِ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّ عَقْلَهُمْ لَمْ يَغْدُ يَنْتَبِعُ مِنْ حُدُودِ غَرَائِزِهِمْ بَلْ مِنْ حُدُودِ تَعَالِيهِمْ. وَالْاِغْتِقَادُ نَفْسُهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَبَيْنَ الْغَرَائِزِ، كَمَا بَيْنَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، تَنَاحُزٌ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ، وَأَكْثَرُ مَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِلْغَرَائِزِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَدْخَلُ، عُضْوِيًّا، فِي تَرْكِيبِ الْكَائِنِ الْحَيِّ، وَلَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ أَلْبَتَّةَ، إِلَّا وَتَشُدُّ إِلَيْهَا الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ، فَيَفْسُدُ الْعَقْلُ، وَيَنْحَطُّ الْقَلْبُ.

فَعَمَلُ الْمُصْلِحِ يَنْتَحِصِرُ فِي تَنْشِيطِ غَرِيزَةِ الْاِغْتِقَادِ، لَكِي تُسَيِّطِرَ بِرُوحِ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ، وَهِيَ تَشُدُّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ إِلَيْهَا، فَيُضْلَخُ الْعَقْلُ وَيَسْمُو الْقَلْبُ، حَتَّى الْغَرَائِزُ الدُّنْيَا تُصْبِحَ دُنْيَا، بِمَعْنَى جَدِيدٍ. فَهِيَ لَا تَنْبَعِثُ فِي شَهْوَةِ الْجَسَدِ، بَلْ فِي شَهْوَةِ الرُّوحِ الْمُرَكَّزَةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّ شَهْوَةَ الرُّوحِ الشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا الْعُلْيَا فِي الْفِطْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، حَتَّى يَجْعَلَ فِي الْغَرَائِزِ عَقْلًا، وَفِي الشَّهَوَاتِ إِرَادَةً وَأَخْلَاقًا. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نَفُوسًا، وَأَوْجَدَ مَادَّةً مُؤَمَّنَةً، تَنْطَلِقُ، كَمَا يَنْطَلِقُ الْقَدَرُ الْوَاقِعُ، إِلَى مَصِيرِهَا وَغَايَتِهَا، وَهِيَ بِهَذَا الشُّعُورِ مُجْتَمِعَةٌ كَمِثْلِهَا مُتَفَرِّقَةٌ، فَقَلْبُ الْجَمَاعَةِ شُعُورٌ مُتَجَاوِبٌ بَيْنَ قَلْبٍ وَقَلْبٍ.

وَيُعْجِبُنِي فِي فَتَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ يَمْلِكُهُ إِيْمَانُهُ، حَتَّى فِي أُخْرَجٍ مَا تَكُونُ رَهْبَةً النَّفُوسِ، وَقَلِيلٌ هُمْ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمُ الْإِيمَانُ، وَهَذِهِ مِيزَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، بَيْنَمَا الْآخَرُونَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْإِيمَانَ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَيْئًا فِيهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الْإِيمَانُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَصَرَّفُ بِهِ.

قَالَ مُخِيرِيقُ: لَشَدَّ مَا تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، وَلِلَّهِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَمْ هِيَ أَخَذَاةُ تَعَالِيْمِكَ... قَالَ هَذَا، وَسَكَتَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ يَبْدُو مُهِمًّا، وَلَبِثَ طَوِيلًا يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْهَا الْحَدِيثَ، فَاطَّرَدَ مُمِعِنًا، يَقُولُ:

يَسْرُنِي أَنَّا مُتَّفِقَانِ فِي الْفِكْرَةِ وَالْمِثْلِ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَحُولُ بِالْيَهُودِ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَلَى رُغْمِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَعْمُرُهُمْ لَا مَحَالَةَ؟ فَإِذَا طَاوَلُوهُ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ يَوْمٌ كِيَوْمِ بَحْتَنْصَرَ... وَكَانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَحْتَنْصَرِ كَافِيًا لِيُبْعِثَ آلَامِهِ الْقَوْمِيَّةَ الدَّفِينَةَ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ:

أَعْرِفُ أَنَّ قَوْمَنَا شَرُّدُوا مَرَّاتٍ، وَأَضْطَّهِدُوا كَرَّاتٍ، وَمِنْ شُعُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَحَقَّدُوا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَتَأَمَّرُوا بِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَبَثُّوا رُوحَ الْإِنْتِقَامِ فِي كُلِّ تَصَارُيفِهِمْ، مُتَّخِذِينَ كُلَّ شَعْبٍ هَدَفًا، غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ قَبِيلٍ وَقَبِيلٍ، وَبِذَلِكَ أَخْطَأُوا فِي عَدَمِ تَحْدِيدِ التَّبَعَةِ، الَّذِي أَكْسَبَ نُفُوسَهُمْ صِفَةَ الْغِلِّ السَّحِيقِ، وَأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَصِفَةَ التَّبَادُلِ الْمُخْلِصِ، حَتَّى مَعَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، كَهَؤُلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ اخْتَضَنُوا بَيْنَهُمْ، وَأَحْلَوْا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ، وَاخْتَضَّصُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطْفِ، فِي هَجْرَتِنَا الْأُولَى^(١١) وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ.

قَالَ أَبْنُ سَلَامٍ: إِنَّ مَا ذَكَرْتُهُ سَبَبٌ، وَلَكِنْ وَرَاءَهُ أَسْبَابٌ أَكْثَرُ فَاعِلِيَّةٌ فِيمَا أُعْتِقْتُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ رُوحِيَّةَ الْيَهُودِ، مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا الْبَارِزِ فِي كُلِّ دَوْرٍ، مُعْضِلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً، وَعَنَاصِرُ هَذِهِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا أُحِسُّ:

أ - المَادِّيَّةُ: الَّتِي آسَتْهُوَتْهُمْ آسَتْهُوَاءَ فَطِيعًا، وَتَحَلَّلَتْ مَعْنَوِيَّتَهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ أَسْمَى مِثَالِيَّاتِهِمْ وَمِثَالِيَّاتِ مَنْ يَحِلُّونَ بَيْنَهُمْ بِسَبِيلِ الْمَطَامِعِ، وَلَا يَعُوقُهُمْ وَيُنْأَى بِهِمْ عَنْهَا أَنَّهَا ذَنْبٌ أحيانًا. فَكَانَ لِهَذَا أَثَرٌ فِي تَوَلِيدِ صِفَةِ الْجَشَعِ وَالشَّرِّهِ وَالْإِفْتِرَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ الْمَادِّيَّةُ هِيَ مِثَالِيَّةَ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَانَتْ خَطَرًا، وَشَكَّلَتْ مُعْضِلَةً دَائِمًا.

ب - طَبِيعَةُ التَّطَفُّلِ: حَقٌّ لِلْفَرْدِ أَنْ يَجْنِيَ ثَرْوَةً كَذَجِهِ، وَحَقٌّ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ

(١١) راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، للدكتور ولفنستون.

تَجْنِي ثَمَرَاتِ جُهِودِهَا، وَأَمَّا أَنْ يَجْنِيَ الْمَرْءُ ثَمَرَةَ جُهِدِ الْآخَرِينَ فَعِدْوَانٌ مُنْكَرٌ.
وَالْحَيَاةُ قَائِمَةٌ عَلَى الْجُهِدِ، فَمَنْ لَا يَجْهَدُ لَا يَحْيَا. هَذَا مَنَطِقُ الطَّبِيعَةِ، وَخَفَّفَ
الْمُصْلِحُونَ مِنْ حِدَّتِهِ بِالتَّعَاوُنِ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الطَّبَقَاتِ، عَلَى شَكْلِ مَا تَرَى فِي
تَعْلِيمِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدِ، فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ. وَالْيَهُودِيُّ، مِنْ
طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَتَذَلُّ جُهِدًا يُوَازِي الْفَائِدَةَ، بَلْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى أَكْثَرِ فَائِدَةٍ
بِأَقَلِّ مَجْهُودٍ. وَهَذَا لَا يَأْتِي إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّطَفُّلِ عَلَى جُهِدِ الْآخَرِينَ وَاسْتِغْلَالِهِمْ.
فَتَوَلَّدَتْ بَيْنَهُمْ طَبَقَاتُ الْمُرَايِنِ وَالْمُضَارِبِينَ وَمَا شَاكَلَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُشْكِلُونَ،
فِي النَّظَرِ الْاجْتِمَاعِيِّ، بَيْعَةً طُفِيلِيَّةً شَدِيدَةً الْخَطَرِ عَلَى سَلَامَةِ أَيِّ مُجْتَمَعٍ كَانَ.

فَالْيَهُودُ طُفِيلِيُونَ يَمْتَصُّونَ الْمُجْتَمَعَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ، كَالِهَوَامِ الَّتِي تَطْلُبُ
حَيَاتَهَا عَلَى جِشْمِ حَيٍّ، وَلِذَلِكَ لَهُمْ هَذَا الطَّرِيقُ الْهَيِّئُ فَأَلْفَوْهُ وَافْتَتَوْا فِي أَشْكَالِهِ
مُسْتَفِيدِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ عَصْرٍ.

ج - الْفَوْضَوِيَّةُ: عَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ وَسَائِلَهُمْ لِلْإِمْتِصَاصِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْكَشِفَ مَا دَامَ
الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْهُدُوءِ، فَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِيجَادِ أَشْبَابِ الْاضْطِرَابِ
وَالْفَوْضَى، تَارَةً بِاخْتِرَاعِ مَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ وَمَحَافِلِ سِرِّيَّةٍ، وَأَوْنَةً يَبْتَغِي مَبَادِيءَ اجْتِمَاعِيَّةٍ
حَدِيثَةٍ، وَأُخْرَى بِتَزْيِينِ الْحُرُوبِ. وَتَبَتَّتْ هَذِهِ الْفَوْضَوِيَّةُ فِيهِمْ طَبِيعَةً حَتَّى غَدَوْا مَادَّةَ
الْفَوْضَى وَالتَّوَرَاتِ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ تَأَلَّفَتِ الرُّوحِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ.

وَالْيَهُودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إِذَا آوَتْ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَارَقَ صِفَةَ التَّجَوُّبِ الَّتِي تَجْعَلُهُ
لَا يُخْلِصُ لَأُمَّةٍ مَهْمَا عَاشَ بَيْنَهَا، وَاسْتَرَدَّ مِثَالِيَّتَهُ الضَّائِعَةَ. أَلَسَتْ تُلَاحِظُ مَعِيَ أَنَّ
بَنِي قُرَيْظَةَ الْمَزَارِعِينَ أَكْثَرُ مَيْلًا لِلتَّعَاوُنِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَدَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعِ
الْمُرَايِنِ؟

قال مُخَيَّرِي: بلى نَعَمْ ما تُلاحظُ... ومَضَى آئِبُنْ سَلَامٍ في حَدِيثِهِ: وَلَسْتُ
أَزْدُدُ أَلْبَسَةً في أَنَّ هَذِهِ الرُّوحِيَّةُ البَغِيضَةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَمُحَمَّدٍ الَّذِي
حَارَبَ هَذَا الْخَلِيطَ الْمُتَكَرِّرَ في رُوحِيَّتِهِمْ.

قال مُخَيَّرِي: أَلَا تُجِيبُنِي إلى أَمْرٍ قَدْ يُحَقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقَاذِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ النَّائِيهِ،
وَأَنْتِشَالِهِ مِنْ أَوْحَالِ المَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ الَّتِي لَا تَلْبُثُ أَنْ تَقْضِي عَلِيهِ وَتُحَطِّمَهُ؟ فَأَنْتِ
حَبْرُ الْيَهُودِ وَلَكَ مَحَلُّكَ وَمَقَامُكَ، وَلِي مَنَزَلِي وَمَكَانِي، فَتَنْضَمِّ وَأَنْضَمِّ إلى جِزْبِ
مُحَمَّدٍ، فَتَضَعُضِعْ مِنْ قُوَّةِ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ تِجَاهَ الحَرَكَةِ التَّخْرِيرِيَّةِ الْمُتَقِدَّةِ، وَلَا بُدَّ أَنْ
نَتْرَكَ بَيْنَهُمْ أَثْرًا يَكْفُلُ لَنَا عَدَدًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ عَدَدٍ، خُصُوصًا وَنَفْسِيَّةُ الجَمَاعَةِ
سَرِيعَةُ التَّرَدُّدِ سَرِيعَةُ الاسْتِثْلَامِ.

قال آئِبُنْ سَلَامٍ: هَذَا مَا فَكَّرْتُ فِيهِ، وَعَقَدْتُ العَزَمَ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ القَدَرَ سَاقَكَ
لِتَشْجِيعِي...

وعلى ذَلِكَ أَفْتَرَقَا... فَمَضَى مُخَيَّرِي في الطَّرِيقِ المؤدِّي إلى المَسْجِدِ، مَوْكِرِ
الدَّعْوَةِ والدَّوْلَةِ... وَتَمَهَّلَ آئِبُنْ سَلَامٍ حَتَّى يَجْعَلَ لُدْخُولِهِ صَدَى أَوْسَعِ أَنْتِشَارًا وَأَشَدَّ
وَقَعًا. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شَاخِصًا في إِكْبَارِ لِتَصْمِيمِ مُخَيَّرِي الَّذِي هُوَ دَلِيلُ النَّفْسِ الكَبِيرَةِ،
وَفِي إِعْجَابٍ بِمَنْطِقِهِ الدَّقِيقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الْفِكْرِ التَّابِعِ...

*

الإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ وَحَيَاةٌ وَنِظَامٌ...

وله في الأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ تَفَاعُلَاتٌ عَلَى أُنْحَاءِ أَرْبَعَةٍ:

تَتَفَاعَلُ العَقِيدَةُ فِيهِ مَعَ الأَوْهَامِ العَالِقَةِ بِالْفِكْرِ، فَيَغْدُو فِكْرًا جَدِيدًا بِمَنْطِقِ

جديد....

وَيَتَفَاعَلُ العَمَلُ فِيهِ مَعَ الجُهِدِ المُبَدَّدِ، فَيَغْدُو جُهِدًا مُنْتِجًا...

وَتَتَفَاعَلُ الْحَيَاةُ فِيهِ مَعَ الْحَيَاةِ الْمُغَلَّلَةِ الْكَاسِفَةِ، فَتَعْدُو طَلْقَةً شَامِخَةً...
وَيَتَفَاعَلُ النُّظَامُ فِيهِ مَعَ التَّرَاثِبِ الْمَحْمُومِ، فَيَعْدُو إِنْسَانِيًّا صَحِيحًا...
وَالْإِسْلَامُ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِكْرَةٌ وَإِعْدَادُ،
وَبَيْنَهُمَا تَتَوَلَّدُ، عَلَى الدَّوَامِ، الْأُمَّةُ وَالِدَوْلَةُ وَالْمَجْتَمَعُ...

* * *

يوم القِران

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ وَهَذَا اللَّيْلِ الَّذِي اسْتَيْقَظَ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَى ذِكْرِ نَاعِمَةٍ
كَرَّجِعِ الْحَنِينِ، وَمُنْعَشَةٍ كَلَمَسَةِ الْحُبِّ، وَشَائِقَةٍ كَوَقْعِ الْأَمَلِ، أَيَّامٌ إِنْ شِئْتَ تَحْسِبُهَا
بِأَسَابِيعٍ^(١)، فَذَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ تَحْسِبُهَا بِأَشْهُرٍ فَقَدْ تُصِيبُ.

إِنْجَرَدَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدُهُ تَمْسُحُ التَّوَمَ عَنْ جُفُونِهِ الَّتِي أَخَذَهَا رُقَاذُ هَنِيءٍ
رَافَةٍ بِأَحْلَامِ الْعَدِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيشُ بِذِكْرِ مُحَبَّبَةٍ إِلَيْهِ، قَرِينَةٍ مِنْهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا
تَرْجِعُ إِلَى أَمْسِ النَّهَارِ الَّذِي لَمْ يَفْصِلْ عَنْهُ يَوْمٌ وَعَدٌ.

وَهِيَ ذِكْرَى مَا كَانَتْ تَمُرُّ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا وَتَجِيشُ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَشْمَلُهَا
أَطْمِئْنَانٌ وَرِضَاءٌ، عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَغْبِرُ مَجَازَهَا فِي خَيَالِهِ إِلَّا وَتَتْرُكُ عَلَى مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً
مُتَبَخَّرَةً، وَأُخْرَى تَذُوبُ فِي خَفَقَةِ رَقِيقَةٍ، وَزَفْرَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ. ذِكْرَى يُحَرِّكُهَا عَنْدهُ
طَيفُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ، وَيُلْمُ بِهِ أَحْيَانًا، وَعَدَا، بَعْدَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ، كَثِيرًا
مَا يُرَاوِحُهُ. وَكَانَ الطَّيْفُ يَبْدُو، بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، مُزْدَهِيًا تَلْقَاهُ مِنْ نَوَاحِيهِ نَشَوَاتٌ،
وَمُتَلَفَعًا بِإِشْرَاقَةٍ تَشِيْعُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ زَهْوِ الْمَكَافِحِ الْمَيِّتِ بِمَجْدِ
الْمَكَافِحِ الْحَيِّ.

كَانَتْ تَمُرُّ عَلَيْهِ، فِي طَيفِ أَبِي طَالِبٍ، صُورٌ مُتَحَرِّكَةٌ سَرِيعَةٌ، تَتَّصِلُ بِغَارِ

(١) سَكَنَتِ الزُّوَايَا عَنْ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ بَيْنَ وَقْعَةِ بَذْرِ وَاقْتِرَانِ عَلِيٍّ بِفَاطِمَةَ.

خرَاءَ، وَمَكَّةَ، ودارِ الإِغْدَادِ والدَّعْوَةِ (بَيْتِ الأَرْقَمِ) فَيُحِشُّ بِالْحَنِينِ العميقِ.
وَتَمُرُّ بِهِ صُورُ الأَوْثَانِ الْمُتَضَدَّةِ الَّتِي تَحْدَاها فِي سُخْرِيَّةٍ، وَهاجَمَها فِي تَحْطِيمِ،
فَيُحْرِقُ الأَرْمَ.

وَتَمُرُّ بِهِ صُورُ ما لاقى مِنْ عَنَتِ إجماعيٍّ، وَهو ماضٍ فِي كِفاحِهِ لا يَحْفِلُ
ولا يَتَنَبَّه ولا يَتَرَدَّدُ، مُعْتَقِداً الظَّفَرَ رُغَمَ الجُمُوعِ، والنَّجَاحَ رُغَمَ تَأَسُّبِ الباطِلِ
وَسُورِيَّةِ. وكذلك المُضْلِحُ الحَقُّ يَنْقَطِعُ الفِكْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَقَباتِ، ليقولَ كَلِمَتَهُ
وَيَسْمَعَ صَداها، ودائماً يَكُونُ مُزَلْزَلاً مُرْعِداً.

ويَتَدَوُّ أَبُو طالِبٍ، مِنْ ورائِهِ، يَدْفَعُ عَنْهُ، وَيَشُدُّ أَرْزَهُ، وَيَحْمِي حِمَاهُ، فَيَشْمَلُهُ
رِضاً بِأنَّهُ أَدَّى رِسالَتَهُ وشَهِدَ نِجاحَها فِي الخَلْقِ والإِنشاءِ.

وَتَمُرُّ بِهِ خَدِيجَةُ فِي هالَةِ الحُبِّ الزَّوْجِيِّ الأَقْدَسِ، وَفِي صُورَةٍ مِنْ مَقامِ المِراةِ
وَأَثَرِها فِي حَرَكَاتِ البَغْيِ وَالانْقِلابِ، فَيَعْرِوهُ حُزْنٌ صامِتٌ، وَتَقْدِيرٌ خَفِيٌّ، وإِكْبَارٌ
يَظْهَرُ أَثَرُهُما فِي مَرَكِزِ المِراةِ مِنَ التَّشْرِيعِ الخالِدِ... وَتَظْوي تِلْكَ الصُّورُ وَتَثْبُتُ هَذِهِ
الحَقِيقَةُ:

نِجاحُ الحَرَكَاتِ الخَلالَةِ بِدَعائِمِ ثَلَاثٍ: رَجُلِ المَبادِي الَّذِي يَعمَلُ بِقِوَاهُ
المَعنَوِيَّةِ والفِكرِيَّةِ مُجتمعةً، والمِراةِ الَّتِي تَعمَلُ بِرُوحِيَّتِها المُشْعَّةِ وَعَواطِفِها الواعِيَةِ،
وَرَجُلِ الدِّفاعِ الَّذِي يَعمَلُ بِكُلِّ وَسائِلِهِ بِإِخلاصٍ...

وَتَتَنَقَّلُ بِهِ الذُّكُرى ولا تَتَقَطِّعُ، إِلى الهِجْرَةِ، فَيَمُرُّ بِهِ عَلَيَّ وَتَضَحِيَّتُهُ الرَّهيبَةُ
فِي التَّزَمُّلِ عَنْهُ، فَيَوزُونُ فِي دَهْشَةٍ مُكَبِّرَةٍ.

وَيَمُرُّ بِهِ غَارُ أَبِي ثَوْرٍ، وَصاحِبُهُ الباسِلُ أَبُو بَكْرٍ، والطَّرِيقُ المَرْوُوعُ، وَهما يَنْهَبَانِ
الأَرْضَ نَهَباً، فَيَشْعُرُ بِأَسَى، وَيَنْكَمِشُ عَلَى خَاطِرٍ أَنْ يَغْدُو صَانِعُ المَجْدِ، طَرِيدَ المَهْدِ.
وَتَمُرُّ بِهِ يَثْرِبُ وَجُهودُهُ فِي تَثْبِيتِ العَقِيدَةِ وَاسْتِثْمارِها فِي بِناءِ قَوايِدِ الدَّوَلَةِ

الجديدة، فيثغر في آئيسامة عريضة هادئة.

وتمر به سلسلة المعارك التي كان أهمها بدر، ويرى الجمعين وقد تصافا للقتال، ويرى أبطاله على درجاتهم، ويرى علياً، صاعقته المدخرة، تنفض في كل مجال، ويشهد النهاية الظافرة، فيهره في مظهره الوقور سرور بعيد الغور... وتزوي تلك الصور أيضاً، وتثبت هذه الحقيقة:

إن أبا طالب كان أسد محمدي، ورسالته في دور التأسيس، ولم ينفض يده من الحياة إلا بعد أن قدم، في فتاه علي، أسد محمدي ورسالته في دور التشييد والإعلاء...

قام النبي، وقد عزم على أمر أراضى به ضميره وحبته معاً، وخرج وهو يشعر أنه أدى حقاً. ومزت به فاطمة، وهي تحطرب لبعض شأنها، فقبلها قبله أجمع فيها شعور جديد أحست مغناه غامضاً مبهماً، ولكنه استنبه فيها شيئاً لم تدركه إلا أنه مبهج على أي حال.

لم يفصل النبي عن حجراته بعيداً حين أقبلت ميمونة أخت بنت عميس على فاطمة تزورها، فأنس إليها كما لو كانت تنتظر لقاءها بلهفة وصبر نافذ... والمرأة تنكشف إلى المرأة بحقيقتها العارية، وتظهر المرأة إلى المرأة بكل ذاتيتها، وليست تغطي الرجل إلا نصف مغناها، ويتبقى النصف الآخر مجهولاً غامضاً ويذهب في غموضه أبداً. فنحن نفهم المرأة نصف فهم لأنها لا تنكشف لنا إلا نصف أنكشاف، ولا يخرجها من صدقتها للعراء إلا الحب، والمرأة، إذا تفتحت أنوثتها ونصبت، حنت حيناً مبهماً، فإنها تجد نصف مغناها في الرجل، والنصف الآخر في الولد، وهي تريد أن تحل لغزها فيأخذها هذا الحنين.

أقبلت ميمونة إقبال من فهمت شيئاً وتريد المزيد، وقالت لها: مزرت بالنبي،

وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة، وإن كانت لا تفارقه، حتى لقد حيل إلي أنه عزم على أمر فشاغ سروره على مُحَيَّاهُ البهي. ولا يبعد بي ظني أنك وقفت عليه، فقد أعلم أنه يستروح فيك روح النبوة، وما هو بغير، فإنك ولدت له بعد مبعثه، وقد استحالت النبوة في معناه، وعدت له ذاتية، فأنت ذكري من ذكريات الوحي الأولى.

استوت فاطمة، وقد تألقت في عينيها إشراقة من حلاوة هذه الملاحظة، فقد كانت تغزو ما يلقاها به النبي من آخفاء واختفاء إلى مخض الحنان الأبوي، وألقت في آيسامة مفترية: إذا فأنا شيء منه كالوحي أو كالنبوة، وطيف سماوي في خيال أبي عندك يا ميمونة.

قالت ميمونة: وأنا وإيم الله، ما جلست إليك إلا شعرت بروحانية هذا الطيف المتألق وجماله، وشملتني سكينته لا أحددها إلا بما تترك في نفسي من أطمئنان لأذ رغب. ولا تحسبيني، من هذا الشعور، كما قيل: «تَحَيَّلَ ثُمَّ خَالَ» بل هو واقع نفسي كالرأي على الظمأ، أو كالأمل الندي.

قالت فاطمة: يسرني أنك تحبيني هذا الحب، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي، على ما انتهى إليه حدسك؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك، وأنه عراني إحساس غامض حين قبلني أبي في هذا الصباح قبله جديدة المعنى، وبث في قبلته، إلى جانب الحنان الذي عودني، شعور من يخشى فراقه، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزايله حين مررت به.

وكانت حجرات النبي تُشرف على المسجد قرأتاً شبحاً لم تتبيناه جيداً، يدخلُ مُسرِعاً ويخرجُ سريعاً، فأشربت ميمونة تنظراً وأطلت من قريب، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم ينبسط إليه. ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فساره بشيء لم تتبينه ميمونة أيضاً، فلم ينبسط إليه، وظهرت عليه حركة

إِغْرَاضٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. وَمَا جَاوَزَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَلَقَّاهُ بِبَهْجَتِهِ الَّتِي لَحَظْتُهَا عَلَيْهِ سَاعَةً أَبْصَرْتُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَسَارَهُ طَوِيلًا وَالتَّبِيُّ يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ وَيَخْتَفِلُ بِهِ، فَقَامَ وَعَلَى ثَغْرِهِ أَتْسَامَةٌ عَرِيضَةٌ لَمْ يَجْتَنِّهِدْ فِي إِخْفَائِهَا، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا تَنْطَلِقُ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

فَانْقَلَبْتُ إِلَى فَاطِمَةَ تَقْصُّ عَلَيْهَا مَا رَأَتْ، وَمَرَّ بِخَاطِرِهَا، وَقَدْ صَمَّتْ قَدَمَيْهَا لِلْجُلُوسِ، شَيْءٌ أَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا شَهِدْتُ وَغَمَمْتُ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ.

وَعَرَضَ لَهَا مَا ثَبَّتَ هَذَا الْخَاطِرَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: لَذَلِكَ... لَذَلِكَ لَمْ يُكَاشِفْهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ.

وَرَأَتْ مَيِّمُونَةَ أَنَّهَا أُخْرِجَتْ حِينَمَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ وَقَفْتَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى جَلِيَّتِيهِ أَوْ عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ. فَأَدَارَتِ الْحَدِيثَ بِلَبَاقَةٍ إِلَى وَجْهِ آخَرَ الْبَسْتَةِ شَكْلَ الْمُفَاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ أَهْتِمَامَهَا بِمَا تُرِيدُ أَنْ تَضَرِّفَهَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: نَسِيتُ شَيْئًا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ الْآنَ. فَبَدَأَ الْاهْتِمَامَ عَلَى وَجْهِ فَاطِمَةَ، وَأَضَعَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّلَهُّفِ وَالشُّوقِ إِلَى هَذَا النَّيِّ الْجَدِيدِ... فَوَاصَلْتُ تَقُولُ:

سَمِعْتُ النَّاسَ فِي طَرِيقِي هَذَا الصَّبَاحَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبَّرَ الْيَهُودَ أَغْلَنَ إِسْلَامَهُ وَكَاشَفَ بِهِ. وَكَانَ نَبَأٌ شَدِيدَ الْوَقْعِ عَلَى الْيَهُودِ حَتَّى لَقَدْ بَاتُوا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ، آمِتِحَانًا لِحَوَاسِهِمُ الَّتِي بَدَّوْا يَشْكُونَ فِي سَلَامَتِهَا، فَإِنَّ آبَنَ سَلَامٍ رَمَزُ دِينِي مِنْ رُمُوزِ الْيَهُودِ، وَعَجِيبٌ أَنْ يَمِيلَ إِلَى دِينِ أَيْبِكَ. وَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الصَّدَى الَّذِي أَحْدَثَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْإِضْعَافِ مِنْ سَلْبِيَّةِ مَوْقِفِهِمْ إِزَاءَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا تَذَارَكَ الْيَهُودَ خَوْفٌ عَمِيقٌ مِنْ أَنْ يَفْضَحَ لِأَيْبِكَ سِرُّ الزَّوْجِيَّةِ الَّتِي يَجْتَهِدُونَ فِي جَعْلِهَا لُغْزًا. وَلَكِنْ بَرُّعٌ مَا أَحْدَثَهُ آعْتِنَافُهُ

الإسلام من صدّي عكسيّ عَنيف، وَوَقِعَ مُزَلْزِلٌ، لَنْ يُؤَثَّرَ فِي سَلْبِيَّةِ الْيَهُودِ إِلَّا أَثَرًا ضَعِيفًا، عَلَّلَهُ آبْنُ سَلَامٍ بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ «الْبُهْت».

كَمَا أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ وَحَدَّهَا قَامَتْ عَلَى الدِّينِ الْمُرُوثِ، وَالْكَنِيسِ الرَّمْزِيّ فِي هَذَا الشَّكْلِ حَسْبُ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ كَنِيسٌ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَ هَذَا التَّقْلِيدِ الدِّينِيِّ. فَهَمْ لَا يَتَمَسَّكُونَ بِدِينِهِمْ، رُغْمَ الْكَوَارِثِ، بِحُكْمِ صِحَّتِهِ، بَلْ بِحُكْمِ أَنَّهُ قَاعِدَةٌ قَوْمِيَّةٌ تَكْفُلُ وَحَدَّتْهُمْ، فَالْيَهُودِيُّ لَا يَرْفُضُ مَبْدَأًا لِأَنَّهُ فَاسِدٌ أَوْ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ لِأَنَّهُ لَا يَتَّفِقُ وَمِثْلُهُ الْقَوْمِيُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْبَلَهُ بِدُونِ مَنَاقِشَةٍ. وَهُوَ قَدْ يَعْتَقِدُ عَدَمَ صِلَاحِيَّتِهِ كَطَبِّ لِلرَّوْحِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَقْبَلُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ، لِأَنَّهُ الضَّمَانَةُ الْأَكِيدَةُ لِسَلَامَةِ الْوَحْدَةِ الْيَهُودِيَّةِ. فَالْيَهُودِيُّ لَا يُعْمَلُ عَقْلُهُ فِي مِثْلِهِ، بَلْ لَا يَجِبُ أَنْ يُعْمَلَ عَقْلُهُ، مَا دَامَتْ هَذِهِ الْمَثَلُ تَحْفَظُ عَلَيْهِ وَحَدَّتْهُ الْعَامَّةُ الَّتِي تَتَّصِلُ بِبَقَائِهِ، فَلَوْ فُرِضَ وَاتَّسَعَ الْيَهُودُ كَمَجْمُوعٍ بَشَرِيٍّ يَعِيشُ أَشْتَاتًا عَلَى الْأُمِّ لِاتِّبَاعِ أَيِّ الْمَبَادِيءِ الَّتِي تَرُوقُ لَهُمْ لَذَابُوا وَغَمَرَتْهُمْ اللَّجَّةُ. فَمُعْتَقَدُهُم الدِّينِيُّ الْمُرُوثُ حَفِظَ وَحَدَّتْهُمْ وَبَقَاءَهُمْ كَأَمَةٍ أَوْ كَقَبِيلٍ مِنَ الْبَشَرِ يَمْتَنَزُ بِخَصَائِصِهِ، وَحَفِظَ اتِّصَالَ تَارِيخِهِمْ، وَبِذَلِكَ كَانَ لَهُمْ عُضْرًا أَوْلِيَاءًا كَالْأَرْضِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ ذَوِي الْقَوْمِيَّاتِ الْوَطِيدَةِ فِي الزَّمَنِ.

قَالَتْ مَيِّمُونَةُ: بِهَذَا يُعَلَّلُ آبْنُ سَلَامٍ سَلْبِيَّةَ الْيَهُودِ الصَّلْبِيَّةِ، وَلَيْسَ إِزَاءَ الْإِسْلَامِ خَاصَّةً، بَلْ إِزَاءَ كُلِّ الْمَبَادِيءِ وَكُلِّ الْأَدْيَانِ، حَذَرًا مِنْ تَفْسِيخِ وَحَدَّتِهِمْ وَتَبْعَتِهِمْ فِي الْأُمِّ... قَدْ يُرَى يَهُودِيٌّ يُرَوِّجُ لِمَبْدَأٍ وَآخَرُ يُرَوِّجُ لِمَبْدَأٍ ثَانٍ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُؤْمِنَا أَلْبَسَتْهُمَا بِمَا يُرَوِّجَانِ لَهُ، وَإِنَّمَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ عُضْرِ الْفَوْضُوِيَّةِ وَمَحَبَّةِ إِشَاعَتِهَا فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ، لَيْتَسَتَى لَهُمُ الْعَمَلُ وَالتَّجَاحُ.

وَبَيْنَا هِيَ فِي حَدِيثِهَا دَخَلَ النَّبِيُّ فَهَبَّتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ، وَتَبِعَتْهَا مَيِّمُونَةُ، وَوَجَدَتْ إِذْ ذَاكَ فُرْصَةً مَكْنَتُهَا مِنْ أُذُنِهَا، فَانْطَلَقَتْ قُدَمَاءَ وَرَاءَ خَاطِرٍ سَنَعَ لَهَا عِنْدَ

الخروج، بأن أنسا، خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه، عنده من خبر المسجد هذا الصباح شيء كثير. فقصدت إليه، وكانت أمه إحدى صوئجاتها، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشري فذة، وكان فيما روت لها عن ابنها: «أن أبا بكر أقبل إلى النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني... وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه... فرجع أبو بكر إلى عمر، وهو يقول: هلك.

قال عمر: وما ذاك؟

قال: خطبت فاطمة إلى النبي فأعرض عني.

قال: مكانك حتى آتية فأطلب مثل الذي طلبت.

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني... وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه...

فرجع إلى أبي بكر، فقال: إنه ينتظر أمر الله بها... فم بنا إلى علي نستجته أن يطلب مثل الذي طلبنا.

فأتياه وهو يعالج فسيلاً له، فقالا: إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة... فقام يجر رداءه حتى أتى النبي فقعد بين يديه.

فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني...

وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجني فاطمة... فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ، وقال: فما عندك؟

قال: فَرَسِي وَبَرَّتِي.

قال: أَمَا فَرَسُكَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا، وَأَمَا بَرَّتُكَ فَبِعِهَا.

فغادرَ وباعها بأَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ، وجاءَ بها حَتَّى وَضَعَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً.

فقال: أَيُّ بِلَالٍ، آتَيْنَا بِهَا طَيِّبًا^(٢).

شَاعَ الْخَبَرُ فِي الْمَدِينَةِ سَرِيعاً كَمَا يَشِيْعُ الْأَرِيحُ الْعَائِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ النَّسَمِ النَّدِيِّ، فَكَانَتْ مَيْمُونَةُ لَا تَمُتُ بِمَحَلَّةٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَتَرَى الْمَرْأَةَ تَمِيلُ إِلَى الْمَرْأَةِ، وَتَقُولُ لَهَا فِي بِشْرِ ظَاهِرٍ:

أَمَا بَلَعَكَ الثُّبَأُ؟ عَلَيَّ خَطَبَ فاطمة، وَبَارَكَ النَّبِيُّ الْعَقْدَ، وَإِنَّهُ لَنِعْمَ الْحَدَثُ. لَيْسَ لِهَذِهِ السَّيِّدَةِ الْمُصْطَفَاةِ إِلَّا هَذَا السَّيِّدُ الْمُصْطَفَى. وَهِيَ رَبِيبَةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَهُوَ رَبِيبُ الْوَحْيِ وَبَطْلُ الرَّسَالَةِ.

وَفِي آسْتِدَارَتِهَا صَبُوبٌ مَنَزِلُهَا سَمِعَتْ رَجُلًا يَسْمُرُ إِلَى آخَرٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْحَيِّ وَيَقُولُ:

إِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يُزَوِّجْ عَلِيًّا، وَإِنَّمَا كَرَّمَ الْبُطُولَةَ الْخَالِدَةَ الْمُظْفَرَةَ فِي شَخْصِ الْبَطْلِ الْخَالِدِ الْمُظْفَرِ، وَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْبُطُولَةِ تَكْرِيمَهَا، وَمَا فَاتَ النَّبِيَّ أَنْ يُكَرَّمَ الْبُطُولَةَ بِأَعَزِّ مَا عِنْدَهُ وَأَقْرَبِ مَا هُوَ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِنَّ فَاطِمَةَ قَلْبُ النَّبِيِّ مُصَوَّرًا فِي إِنْسَانٍ مَلَائِكِيٍّ أَوْ مَلَائِكٍ إِنْسَانِيٍّ. وَلَيْسَ فِي هَذَا مَعْنَاهُ بَلْ مَعْنَى التَّكْرِيمِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا، فِي حَقِيقَتِهِ،

(٢) راجع كتاب: الرِّيَاضُ التَّضَرُّةُ فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمُحِبِّ الطَّيِّرِي، ج ٢، ص ١٨٠ إلى ١٨٤.

رِسَالَةٌ وَدَعْوَةٌ وَهُوَ الْمُبْتَدَأُ، وَإِنَّ عَلَيَّ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ وَاجِبَةٌ وَهُوَ الْخَيْرُ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ فَاطِمَةَ رَابِطَةُ الْإِسْنَادِ.

وَمَا فَاتَ مَيْمُونَةَ أَنْ تَسْمَعَ مَا رَدَّ بِهِ الْآخَرُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، كَمَا تَقُولُ: وَأَيْضاً لَقَدْ كَرَّمَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْقِرَانِ بَطُولَةَ أُخْرَى هَائِلَةً فِي أَبْدِيَّتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْوَاعِيَةِ، إِنَّهُ كَرَّمَ أَبَا طَالِبٍ النَّصِيرَ الْبَرَّ وَالْمُجَاهِدَ الْأَوَّلَ.

قَالَ الْأَنْصَارِيُّ: فَهَذَا الْقِرَانُ إِذَا تَكْرِيمٌ مُزْدَوِجٌ ضَاعَفَ مَعْنَاهُ، وَأُخِلِدَ بِهَذَا الْيَوْمَ تَكْرِيمَ الْبَطُولَاتِ، إِنَّهُ لَيَسْتَحْفِظُنِي بِمَعْنَاهُ الْكَبِيرِ... رَنْتُ مَيْمُونَةَ فِي الظَّلَامِ وَأَخَذْتُ بَصَرَهَا كَمَنْ رَأَى شَبَحاً، فَإِذَا شَخْصٌ يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا، وَإِذْ تَبَيَّاهُ هَتَفًا جَمِيعاً: أَهْلًا بِكَ سَلْمَانُ.

وَكَانَ سَمِعَ بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَوَقَفَ مِنْذُ حِينَ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ:

إِنَّهُ جَدِيرٌ أَنْ يَسْتَحْفِظَكَ يَا هَذَا، إِنَّهُ تَكْرِيمٌ لَأَكْبَرُ مِمَّا كُنَّا نَصْنَعُ، نَحْنُ الْفُرْسُ، فِي جَاهِلِيَّتِنَا، مِنْ إِقَامَةِ تِمْنَالٍ جَامِدٍ تَخْلِيداً لِلْبَطْلِ. فَإِنَّ مُحَمَّدًا مَنَحَ تِمْنَالاً حَيًّا أَسْمَى، تَخْلِيداً لِلْبَطُولَةِ الْحَقِّ، فَكُلُّ مَا فِي عَمَلِ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارٍ مَا فِي الْحَجَرِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْفَنَاءَ فِي طَبِيعَتِهِ. وَهَذَا تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارٍ مَا فِي الرُّوحِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَبْدِيَّةَ فِي طَبِيعَتِهَا... وَأَغْرَقَ ثَلَاثَتُهُمْ فِي تَأْمُلٍ صَامِتٍ طَالَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ مَيْمُونَةَ لَا تَنْتَظِرُ وَتَلْجُ الْمَنْزِلَ.

أَخَذَهَا اللَّيْلُ بَنَوْمٍ هَادِيٍّ تَخَلَّلَتْهُ أَحْلَامٌ بَهِيجَةٌ آسْتَبَقَتْ مِنْهُ عَلَى لَذَّتِهَا، فَحَفَّتْ إِلَى حُجَرَاتِ النَّبِيِّ بِقَدَمٍ شَاعِرَةٍ تَحْتَ قَصْدٍ غَيْرِ شَاعِرٍ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَنْتَحِيئُهَا أَيْضاً وَتَنْتَظِرُ مِنْهَا شَيْئاً. فَإِنَّ أَبَاهَا اللَّيْلَةَ أَخَذَ بِهَا فِي أَحَادِيثَ سَتَى كَمَا تَشَاءُ الْأُبُوَّةَ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْصِحْ لَهَا عَنْ شَيْءٍ يَضَعُ حَدًّا لَتَسْأُلُهَا، يَدَّ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ، وَمَنْ لَهَا غَيْرُ مَيْمُونَةَ؟

بَدَرَتْهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ أَتَيْتَنِي الْيَوْمَ بِخَبَرِ إِسْلَامِ كَعْبِ الْأَشْرَافِ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ؟ فَأَبْتَسَمَتْ مَيْمُونَةُ، وَأَذْرَكَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ مَا كَانَ بِالْأُمْسِ.

فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ كَثِيرًا إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ...

قَالَتْ: بَلَى، يَهْمُنِي وَلَكِنِّي لَحِطْتُ بِالْأُمْسِ أَنَّكَ جِئْتَ عَنْ حَدِيثٍ بِحَدِيثٍ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَيْنِ عَمِّكَ عَلِيٍّ... وَأَفَاضَتْ فِي إِطْرَائِهِ مِثْلَ مُعْجَبَةٍ آتَّصَلَ بِهَا إِعْجَابٌ وَحُبٌّ.

قَالَتْ فَاطِمَةُ، وَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّهَا تَحِيدُ أَيْضًا: وَمَا أَنَا مِنْ هَذَا الْآنَ؟

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: أَوَلَسْتَ تُحِبُّنَهُ وَتُعْجِبِينَ بِهِ؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، الْيَوْمَ، إِلَّا وَهُوَ يُجِبُّهُ وَيُعْجِبُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَمَلُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ: بَلَى، إِنِّي لِأُحِبُّهُ بِحُبِّ أَبِي لَهُ وَأُعْجِبُ... فَقَاطَعَتْهَا مَيْمُونَةُ: وَإِنَّكَ سَوْفَ تُحِبُّنَهُ بِحُبِّ قَلْبِكَ وَحُبِّ أَبْنَائِكَ أَيْضًا.

جَمَدَتْ فَاطِمَةُ سَاعَةً، وَصَبَغَهَا لَوْنٌ قَدْ يَكُونُ أَزْهَرُ، وَقَدْ يَكُونُ نَاطِقًا، ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ لَأَيٍّ: حَسْبُكَ، لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ، فَهَمْتُ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يُجِبُّهُ، وَيُجِبُّهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ... وَضَعَطَتْ عَلَى كَلَامِهَا وَأَخَذَتْهَا إِطْرَاقَةٌ مُفَكَّرَةٌ لَمْ تُحَاوِلْهَا مَيْمُونَةُ صَرَفًا عَنْهَا، وَرَأَتْ حَسَنًا أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَتْرُكَهَا إِلَى خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ جِوَارِهِمَا أَذْنَاهَا النَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَأَعْلَمَهَا فِي أَحَادِيثَ بَيْنَ الْحَنَانِ وَالْإِشْفَاقِ، فَمَرَّتْ فَاطِمَةُ فِي سُبَاتٍ وَاجِمٍ، وَكَانَ طَوِيلًا غَالَبَتْ فِيهِ عَوَاطِفُهَا مُغَالَبَةً شَاقَّةً، وَقَالَتْ فِي جُحْدٍ مِنْ مَشَاعِرِهَا:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْتَنِي بِرَجُلٍ فَقِيرٍ لَا شَيْءَ لَهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: أَمَّا تَرْضَيْنِ يَا فَاطِمَةُ أَنَّ اللَّهَ أَخْتَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أَحَدَهُمَا أَبَاكَ، وَالْآخَرَ بَعْلَكَ»^(٣).

وَكَانَ لِكَلِمَةِ النَّبِيِّ فِي أُذُنِ فَاطِمَةَ مَعْنَى كَمَا تَحْمِلُ الْأَلْفَاظُ، وَفِي قَلْبِهَا مَعْنَى آخَرَ هَذِهِ الْأَفَاظُ: إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ شَيْئاً فِي الْمَالِ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ زَائِفٌ أَخْتَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَوَاتِ فِي عَقْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَدْحُولِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي الَّذِي هُوَ نَامُوسٌ خَالِدٌ يَدُورُ عَلَيْهِ التَّفَاضُلُ فِي ظِلِّ الْوُجُودِ. فَالزَّهْرَةُ تَكُونُ أَبْهَى وَأَحَبَّ وَأَغْنَى بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الزَّهْرِيِّ، الَّذِي هُوَ الْجَمَالُ وَالْعَبِيرُ، وَلَيْسَ بِمَا يَعْلُقُ عَلَيْهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَعْنَاهَا. وَالضُّوْءُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الضُّوْئِيِّ كَذَلِكَ، وَالْأَسَدُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَسَدِيِّ، وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ غِنَاهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَاهُ... فَالْغِنَى ذَاتِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَالْمَالُ نَيْسَبِيَّةٌ مُضْمَحَلَّةٌ، وَلَا تَكُونُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَكُنِ الشَّهَوَاتُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَجِدُ قِيَمَتَهَا إِلَّا فِي مَدَى مَسَافِ الْغَرَائِزِ وَمَسَاقِطِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْنَاهَا بِإِنْسَانِيَّةِ الرَّجُلِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهِ وَمَا يَزِينُ هَذِهِ الْبَهِيمِيَّةَ وَيُكْمِلُهَا، كَمَا يَسْتَكْمِلُ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ بِإِنْسَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهَا وَمَا يُكْمِلُهَا. وَالْمَالُ مُكْمِلٌ لِلْبَهِيمِيَّةِ الطَّائِشَةِ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَرَاءَهَا أَوْ بَعِيداً عَنْهَا. وَلَنْ تَشْعُرَ الْمَرْأَةُ بِذَاتِيَّتِهَا، وَتَعْتَدَّ بِكِبَرِيَاءِ مَعْنَاهَا، إِذَا كَانَ الْمَالُ شَارِياً وَالرَّجُولَةُ، مِنْ وَرَائِهِ، كَسِيفَةً حَائِثَةً وَبَائِرَةً مُتَوَارِيَةً، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا إِحْسَاسٌ عَمِيقٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَضُمَّ بِهِ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلْ حَيَوَانِيَّةٌ مَبْذُولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَهَا إِلَى حَيَوَانِيَّةٍ بِاذِلَّةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَهَا، فَتَذْهَبُ تِلْكَ ذَاوِيَّةٌ وَيَأْخُذُهَا تَلَاشٌ سَرِيعٌ، وَتَذْهَبُ هَذِهِ مُنْتَفِخَةً وَيَأْخُذُهَا جَبَرُوتٌ سَرِيعٌ، وَيَنْتَهِي الْمَالُ وَقَدْ عَمِلَ بِأَنْ أَلْصَقَ عَبْدًا يَرْبِّ، وَلَمْ يَضُمَّ إِنْسَانِيَّةً إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ تَجِدَانِ وَخَدَتَهُمَا، بَلْ تَبَايُنٌ عَلَى مِثْلِ الطَّيْرِ فِي مِخْلَبِ الطَّيْرِ تَكُونُ الدَّعَابَةُ مِنْهُ نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فِيهَا بَهْوَانِيَّةً، وَإِنَّهُ فِي مَكَانِ التَّهَانِيَّةِ مِنْ قِمِهِ؛ وَتَكُونُ نِهَائِيَّةً زَوَاجِ الْمَالِ آسْتِرْقَاقاً أَوْ

(٣) راجع كتاب: الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨٢.

أفتراساً في شعور القلب، وتكون في شعور المجتمع اختلالاً في توازن الأسرة يُصيبها بالفساد، ويتجاوز أثره إلى توازن الجماعة فتختل وتضطرب. وفي كلمتي: زواج وقران رائحة هذا المعنى، يد أن الأولى قصد فيها إلى الروح وأحاسيسها، والثانية قصد فيها إلى الواقع الاجتماعي وأرتساماته. فزواج المال ليس فيه مغناه، وإنما فيه معنى العقد الذي هو اختيار يقانون.

والأنثى إذا لم تُنز فضاء الرجل النفسي فما تزيد عن أنها جسد فقط. والرجل إذا لم يُنز فضاء المرأة النفسية فما يزيد عن أنه جسد فقط، والزواج في جس الروح فضيلة تُكمل فضيلة، ونور يمدّه نور.

وكان معنى اختيار علي إلى جنب النبي جمع كل الإنسانية فيه، وجاء معه علامة على أن الإنسانية بكل ما ثبت فيها، لن تنحرف عن الثبوت الجديدة بكل ما ثبت فيها. فكانت فاطمة منهُما بين مَصْدَرِ إشراق النور ومَجْلَى آنِعكاسه، ومَوَجات الشعاع تمرر مُتألّقة في جو نفسه المتسامية أبداً.

ومر في نجوى قلبها: إن أبي يقول في تعبير آخر، ظهرت حقيقة الخلق في عالم الإبداع الإلهي بمظهرين: مظهر النبي الكامل، ومظهر الإنسان الكامل، وحيث إلى نفسي أن يكون حظي هذا الإنسان.

«وأمر النبي أن يُجهّزوا فاطمة فحمل لها سريراً مُشروطاً بالشروط، وقال لعلّي: إذا أتتكَ فلا تُحدِث شيئاً حتى آتيك... فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب، وجاء رسول الله، فقال:

- ههنا أخي؟

قالت أم أيمن: أخوك وقد زوّجته أبنتك!

قال: نعم...

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَدَعَا بِمَا، فَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَدَعَا
فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ خَرِقَةً مِنَ الْحَيَاءِ تَعْتُرُ فِي مِرْطِهَا، فَتَضَحَّ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا:
- إِنِّي لَمْ آلُ أَنْ أَتُكْحَلَ أَحَبَّ أَهْلِي إِلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ...

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ سَوَاداً وَرَاءَ الْبَابِ، فَقَالَ:

- مَنْ هَذَا؟

قَالَتْ: مَيْمُونَةُ.

قَالَ: مَيْمُونَةُ أُنَحْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَعَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ جِئْتَ كَرَامَةً؟

قَالَتْ: إِي وَائِمُ اللَّهِ... فَدَعَا لِي دُعَاءَ أَنَّهُ لَا وَثُقُ عَمَلِي، ثُمَّ خَرَجَ فَمَا زَالَ
يَدْعُو لَهَا حَتَّى ضَمَّهُ مَنَزَلُهُ^(٤).

*

يَظَلُّ الزَّمَانُ حَقِيقَةً مُؤْهَمَةً، لَوْلَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تُؤَرِّخُهُ...

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَكْبَرَ مِنَ الزَّمَنِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ بَعْضُ هِبَاتِهَا...

فَيَوْمُ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَخْلَدُ مِنَ التَّارِيخِ!...

أُثْبِتَتِ النَّبُوَّةُ مَغْنَاهَا الْخَالِدَ فِي رُوحِيَّةِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

وَأُثْبِتَتِ النَّبُوَّةُ ذَاتِيَّتَهَا الْخَالِدَةَ فِي دَمِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

(٤) راجع كتاب: الرياض التضرعة، في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢.

فيومُ عليّ وفاطمة، بداءةُ حياةِ النبوةِ الخالدةِ في الدماءِ!...

*

كانتِ النبوةُ ستَظِلُّ ذِكرى فقط...

ولكن شاءَ الله أن تكونَ حياةً أيضاً...

فيومُ عليّ وفاطمة، إبقاءً لحياةِ النبوةِ على الدهور!...

*

تَضَعُ الحَقِيقَةُ الكُبْرَى خَصَائِصَ مَعْنَاهَا فِي النُّوَاةِ، لِأَنَّهَا تُرِيدُ البَقَاءَ...

وَالنُّوَاةُ لَا تَخْتَلِفُ فِي خَصَائِصِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ لِإِنَامُوسِ الْوِرَاثَةِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ

يَخْتَلِفَ...

فيومُ عليّ وفاطمة، يَوْمُ بُرُوزِ النُّوَاةِ عَنْ مِثْلِ خَصَائِصِهَا فِي شَكْلِ آخَرٍ!...

*

تَذْهَبُ النُّوَاةُ الَّتِي هِيَ مَخْزُونُ الْخَصَائِصِ، تُبْتِمُ دَوْرَتَهَا وَتُعْطِي أَشْيَاءَهَا...

وَالنُّبُوَّةُ فِكْرَةُ السَّمَاءِ الْمُصْلِحَةُ فِي مُحِيطِ الْبَشَرِ...

فيومُ عليّ وفاطمة، طَبَعَ لِعَقْلِيَّةِ النُّبُوَّةِ فِي عَقْلِ النَّاسِ!...

*

اجْتَمَعَتْ فِي عَلِيِّ قَابِلِيَّاتٌ لَا حَدَّ لَهَا...

وَأَجْتَمَعَتْ فِي فاطمةِ إِشْرَاقَاتٌ لَا حَدَّ لَهَا...

فيومُ عليّ وفاطمة، يَوْمُ نَظَرِ النُّبُوَّةِ إِلَى نَفْسِهَا فِي الْمِرْآةِ!...

* * *

يوم الإيمان الشامخ(*)

جَمَدَتْ فِي مَاقِي النَّاسِ دَمْعَةٌ حَرَى لَمْ يَكُنِ الْحُزْنُ كُلُّ مَغْنَاهَا، كَمَا لَمْ تَخُلْ مِنْ بَعْضِ مَغْنَاهُ، فَقَدْ اتَّصَلَتْ بِكُلِّ قَلْبٍ أَشْبَابُ حُزْنٍ مَرِيرٍ، حِينَ اسْتَفَاقَ النَّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ^(١) عَلَى مَشْهَدِ الْبُطُولَةِ الْكَلِيمَةِ الْجَرِيحَةِ.

وَجَرَّاحُ الْبُطُولَةِ لَا تَقْدِفُ فِي الثُّفُوسِ ضَعْفَ الْأَلَمِ بَلْ كِبَرِيَاءَهُ، وَلَا تَلْفُهَا بِذِلَّةِ التَّعْجِيرَةِ وَلَكِنْ بَتَجْدِيدِهَا فِي عَزِيمَةِ تَضَاعَفَتْ حَقِيقَتُهَا، وَتَمَدَّدَتْ فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْحَيِّ. فَإِنَّ الْأَلَمَ، مَعَ الْإِيمَانِ، ظُهُورٌ لِدَايَةِ الْوُجُودِ بِقُوَّتِهَا، كَمَا يَكُونُ الْأَلَمُ، مَعَ الْجُحُودِ، ظُهُوراً لِدَايَةِ الْعَدَمِ بِتَلَاشِيهَا.

وإِنَّ الْأَلَمَ فِي غَايَتِهِ تَحَدُّ، وَتَحَدِّي الْقُوَّةِ مُبَالَعَةُ الْقُوَّةِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهَا وَمَغْنَاهَا، وَتَحَدِّي الضَّعْفِ مُبَالَعَةُ الضَّعْفِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ وَمَغْنَاهُ. وَتَزَاوَرُ الْقُوَّةُ إِذَا أُصِيبَتْ زَيْيَرُ الْقُنْبُلَةِ إِذَا أَنْفَجَرَتْ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ فِي بَعْضِ

(٥) أُلْقِيَ هَذَا الْفَضْلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةِ ١٩٤٢ فِي قَاعَةِ الْوَشْتِ هَوْلَ بُنَاسَبَةِ خَفْلِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ مُقْصُوراً عَلَى رَعْلَى الدَّكُورِ عُمَرَ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي أَلْقَى قَصِيدَةً، وَكَانَ عَرِيفَ الْخَفْلِ الدَّكُورِ جَمِيلَ عِرْدَاتِي أُسْتَاذَ الطَّبِّ فِي الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ.

(١) جَبَلٌ فِي الْحِجَازِ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، كَانَتْ فِيهِ مَغْرَكَةٌ شَهِيرَةٌ بَيْنَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشَنُئِهَا الْمُشْرِكُونَ كَمَغْرَكَةِ ثَارِيَّةٍ بِمَغْرَكَةِ بَذْرِ الْكُبْرَى، وَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ فِي صُفُوفِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ لِأَنَّهُمْ تَزَكُوا الْمَوَاقِعَ الشَّرَاتِيئَةَ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمُ النَّبِيُّ قَبْلَ نِهَايَةِ الْمَغْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الطُّفْرِ أَوَّلًا فِي جَانِبِهِمْ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ.

الكسْرِ ما هو انبِلاقٌ لأعمقِ القُوَّاتِ الكامِنة. وتُرْعَدُ إزعادَ الأسدِ إذا خائنه الموقِفُ، وهو يُعبِّرُ عن أنَّه الأسدُ بطبيعته المَحْزونة التي شاءَ الموقِفُ أنْ يُطْلِقَها به. وتلكَ القُوَّاتُ وهذه الطَّبِعة لا تَنْطَلِقانِ إلَّا بكسْرِ أو جرح، وهما تُحَسِّنانِ به إحساسَ المادَّةِ المُلْتَهَبَةِ بالنَّارِ، لا تَميلُ بها إلى ضُمُورِ العَدَمِ بل إلى كِبَرِياءِ الوجودِ، ثم لا تَدْفَعُها إلى اسْتِسلامِ كَسِيفٍ، وضُمُوتِ طامِسٍ، بل إلى اِعتِدادٍ رَهيبٍ ورَدٍّ مضِمٍّ، ويَكُونُ الكَسْرُ، أو الجَرْحُ، قد أضافَ إلى مَعْنَاهَا مَعْنَى جَدِيداً، أو سَمَحَ لكلِّ طبائِعِها بالظُّهورِ.

وكذلك يَكُونُ شعورُ القويِّ بالألمِ إغراءً لقُوَّتِهِ على أنْ تَنْطَلِقَ وتَنْقُصَ ظامِئَةً، كما يَكُونُ شعورُ الضَّعيفِ بالألمِ إغراءً لضعْفِهِ على أنْ يَتَرَزَّ وَيَتَدَوَّ في اتِّعَسِ أشكالِ العُبودِيَّاتِ الدَّلِيلَةِ^(٢) مهانَةً وخَوَراً.

والإيمانُ قُوَّةٌ تَصْنَعُ البُطُولاتِ المُسْتَهِينَةَ. ويومُ أُحُدٍ يومٌ أُصِيبَتِ البُطُولَةُ فيه، فكانَ آيْتِداءُ إَحْساسِها بالألمِ آيْتِداءُ شُمُوخِها الذَّاهِبِ في السَّمَاءِ والمُتَحَدِّبِ مع الآفاقِ... والدِّماءُ الصَّبيبةُ لا تُلْهَمُ الأبطالَ رُوعَةَ الدِّمِ الرَّاهِبَةِ بل رَجْفَةَ الدِّمِ النابِضَةِ، ولا تُنْمِرُ بهم إلَّا وقد اسْتَحالوا قُوًى مُرْعَدَةً مُنْقَضَةً في مَسافاتِ أشواطِها، لا يحولُ دونَها إلَّا ما قُدِرَ له أنْ لا يَكُونُ.

والألمُ للإيمانِ كالْحَرَكَةِ للحياةِ، يُمَرِّيانِ الحَرارَةَ فيهما، وكما تَذْهَبُ الحياةُ بدونِ الحَرَكَةِ في ضُمُورٍ، يَحُورُ الإيمانُ بدونِ الألمِ في تَلالِشٍ، ويأْخُذُهُ هُمُودٌ سَحيقٌ. والإيمانُ قُوَّةٌ، ولكن سُرْعانَ ما تَتَقَلَّلُ حَرارَتُهُ في أعْماقِ النَّفْسِ، إذا لم يُرَكِّزْها الألمُ ويُقَرِّبْها من عَمَلِيَّةِ الحياةِ.

وإنَّ حركاتِ التاريخِ، بِرُمَّتِيهِ، تَقَعُ بينَ جَوادِبِ الألمِ ودَوافِعِهِ، بلْ خُطْيِ

(٢) العُبودِيَّاتِ الدَّلِيلَةُ هي عُبودِيَّةُ الإنسانِ لِلإنسانِ على أَشْكالِها. وأما العُبودِيَّةُ لِلَّهِ الَّتِي جَاءَتْ بِها الأَدْيَانُ فإنَّها تَحْرِيزُ لِنَفْسِ الإنسانِ مِن سَتَى العُبودِيَّاتِ، وإشعارُها بِكِبَرِياءِ الذَّاتِ.

النَّشْوَءُ لِلْكُلِّ الْاجْتِمَاعِيِّ تَنْتَظِمُ بَيْنَ هَذَا الدَّفْعِ وَهَذَا الْجَذْبِ، وَكَانَتْ أَكْبَرُ الْحَرَكَاتِ لَا تَزِيدُ، فِي جَوْهَرِهَا، عَنْ أَنَّهَا إِيمَانٌ بِفِكْرَةٍ وَأَلَمٌ فِي الْإِيمَانِ، وَأَبْدَأُ لَا يَشْتَدُّ الْإِيمَانُ وَيَخْطُو صُعْدًا إِلَّا إِذَا قَدَحَ الْأَلَمُ زِنَادَهُ، وَطَايَرَ بِالشَّرِّ. وَفِي مُحِيطِ الْمَادَّةِ، فِي مُحِيطِ الرُّوحِ، نَفْسُ التَّامُوسِ، فَإِنَّ الْجِسْمَ الْمَادِّيَّ الضَّعِيفَ يَلِينُ عَلَى الْأَلَمِ، بَيْنَمَا الْجِسْمُ الْقَوِيُّ يَشْتَدُّ وَيَهْبِجُ حَتَّى يَمْلَأَ الْفَضَاءَ، مُشِيرًا إِلَى قُوَّتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهْنُ.

فَإِذَا كَانَ فِي يَوْمٍ بَدُرَ بَعْضُ الظَّفَرِ، فِي يَوْمٍ أُحْدِ كُلُّ الظَّفَرِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ أَحْسَنَ بِقُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ، وَبَدَأُ يَخْطُو فِي ذَاتِيَّةٍ وَاعْتِدَادٍ.

إِنْدَفَعَ النَّاسُ إِلَى النَّاسِ «يُهْنِيءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» بِأَنَّهُمْ، وَإِنْ خَسِرُوا الْمَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبَحُوا الْإِيمَانَ بِالْمُبَادَىءِ، وَرَبَحُوا الْعَقِيدَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ سَلَامَتُهَا، وَأَنَّهَا رِبَاطٌ تَسْتَنِي لَهُ أَنْ يَجْمَعَ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ وَيَمْزُجَ نَفْسًا بِنَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَفَلَّلَ عَلَى الضَّغْطِ، مَهْمَا كَانَ غُنْفُوَانُهُ، وَمَهْمَا جَاءَ مِنْهُ.

ظَهَرَ أَنَّهُمْ لَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الْأَرْضِ بِمَا آكَتْظَتْ بِهِ مِنْ أَهْوَاءٍ، وَآخَتْفَلَتْ بِهِ مِنْ مَطَامِعٍ، وَإِنَّمَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ رَغَبَاتِ السَّمَاءِ، وَرَغْبَةُ السَّمَاءِ فِي تَطْهِيرِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَرْجَاسٍ تَمُورُ مَوْرَانًا، وَتَسُوقُ الْجُمُوعَ الْإِنْسَانِيَّةَ بَغْنَفٍ وَقَسْرِ إِلَى حَيْثُ لَا تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهَا، وَتَخْسَرُ مَعْنَاهَا... وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ تَجْرِبَةً سَعِيدَةً لاختِيارِ بِنَايَةِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدَةِ فِي أَعْمَاقِ الثُّفُوسِ، فَقَدْ ثَبَّتَتْ عَلَى الْعَاصِفَةِ الَّتِي تَمَزَّقَتْ رِيَاخُهَا عَلَى صَخَرَاتِ الْإِيمَانِ الشَّامِخِ.

مَا الشَّهَوَاتُ النَّهْمَةُ؟

مَا اللَّذَائِدُ الدُّنْيَا؟

مَا الْبَلَهْنِيَّةُ وَالتَّرَفُ؟

إنَّها لا شيء في مذهب رَغْبَاتِهِم الكبيرة، إنَّها لا تَمُتُ بِأَفْعِدَّتِهِم التي بَلَوَزها السُّمُورُ بِمَغْنَاهُ الْقُدْسِيِّ، وحاطها حتى لا تَهْوِي مُسِفَّةً، وتَزَنِّطَم بِالْأَوْحَالِ، إنَّها أَوْحَالٌ من سَفْسَافِ الْأَرْضِ، فهم يَنْظُرُونَ إليها بِتَقَرُّزٍ وَاسْتِغْلَاءٍ.

هم فِكْرَةٌ مِنَ التَّطْهِيرِ، وفِكْرَةٌ مِنَ الإِصْلَاحِ وَالْعُمُرَانِ، وصَيَّرَهُم الجِهَادُ فِكْرَةً مِنَ التَّنْظِيمِ، فكانوا مُعَلِّمِينَ أَطْلَقَهُم الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لِيُحْلُوا فِي عَقْلِ الْمَجْتَمَعِ الْحَمُومِ، كما يَحُلُّ الْإِكْسِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ أَبَدِيَّةَ النَّشَاطِ، ويُخْلِدُ الْحَرَارَةَ وَالْحَرَكَةَ وَالْحَيَاةَ.

لم يَكُنْ فَسَادُ الْمَجْتَمَعِ بِمَعْنَى ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ بِفِكْرَةِ أَهْوَائِهِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى مَحَلِّ الصَّمَايِرِ وَتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الْفَرْدُ لِلْفَرْدِ، وَالْجَمَاعَةُ لِلْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ تَمَلَّؤُوا بِضَرَاوَةِ وَخَشْيَةِ كَالِحَةِ، وَذَهَبَ كُلُّ حَيٍّ يُكَافِحُ التِّيَّارَ، وَالْمَجْتَمَعُ يَطْفُو وَيَرْسُبُ فِي فَوْضَى اللَّجَّةِ الْعَاتِيَةِ التُّكْرَاءِ.

لَوْ تَأَتَّى لِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ الظَّفَرُ دَائِمًا لِتَحْوَلِ الْإِيمَانُ، بِدُونِ شُعُورٍ، إِلَى فِكْرَةٍ مَادِّيَّةٍ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ، وَتَبَخَّرَ عَلَيْهِمْ مَغْنَاهُ، وَلَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ جِهَادُهُمْ جِهَادَ إِيْمَانٍ فَقَطْ، فَكَانَ فِي ظَفَرِهِمْ وَإِخْفَاقِهِمْ ظَفَرٌ لِفِكْرَةِ الإِصْلَاحِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا، ذَاكَ فِي التَّفَوُّقِ وَحَيِّزِهِ الْوَاقِعِ، وَهَذَا فِي التَّرَكِيزِ وَحَيِّزِهِ النَّفْسِ.

وَقَدْ أَظْهَرُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ فَقَطْ، اسْتَهْوَتْهُمْ الْفِكْرَةُ وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمْ أَحَاسِيْسُهُمْ، وَتَفَجَّرَتْ فِي خَلَايَا نُفُوسِهِمْ يَنَابِيعٌ، فَهُمْ لَا يَنْدَفِعُونَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ النَّاسِ فِي لَذَّةِ الْحَيَاةِ، بَلْ بِدَافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ الْعَقْلِ وَشُعُورِ الْقَلْبِ فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْسًا بِالْغَا فِي أَنَّ الْإِيمَانَ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا فِي الْأَلَمِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ فِي مَظْهَرِ الْعَضَارَةِ الرَّخِيَّةِ إِيْمَانٌ بَلِيدٌ مُنْحَلٌّ، أَوْ لَيْسَ شَيْئًا خَالِدًا فِي شُعُورِ النَّفْسِ.

«أَذَنَ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ، غَدَاةً مُنْصَرِفِهِ مِنْ أُحُدٍ، بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا مِنْ حَضَرٍ مَعْرَكَةِ الْأَمْسِ، وَأَتْبَاعُهُ مُتَخَنُونَ بِالْجِرَاحِ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ لِأَخِيهِ: أَتَفَوُّنَا غَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ؟... وَوَاللَّهِ مَا لَنَا دَابَّةٌ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ. فَخَرَجْنَا وَكُنْتُ أَيْسَرَ جُزْأً مِنْهُ، فَكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةٌ، حَتَّى آتَيْنَا إِلَى مَا آتَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ. وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ آتَى إِلَى حُمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَأَقَامَ بِهَا الْإِثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ»^(٣).

كَانَ رَجْعُ الْأَلَمِ فِي الْإِيمَانِ هَبَّةً لَا تَعْرِفُ الْوَنَى، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْفُتُورِ وَالِاسْتِخْدَاءِ، إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضَاءً وَأَكْثَرَ آتِدْفَاعاً، فَقَدْ أَحْسَسَتِ الْقُوَّةُ بِأَعْتِدَادِئِهَا، وَعَمَرَتْهَا مَوْجَةُ الْكِبْرِيَاءِ لِأَتْنَمِ تَحْدُوهَا وَاسْتِكَارُوهَا، وَالْقُوَّةُ، إِذَا اسْتُثِيرَتْ، تَنْتَشِرُ طَاقَاتُ فِي أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا، حَتَّى تَسُدَّ الْآفَاقَ وَتَمَلَأَ أَقْطَارَ الْفَضَاءِ، كَمَا دَةِ الْفَخْمِ فِيهَا مَخْزُونٌ مِنَ الْقُوَّةِ، تَعْلُقُ بِهَا شَرَارَةٌ وَتَتَّصِلُ حَتَّى تُوجِّجَ بِالشَّرَرِ.

قَالَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ التَّحْدِي وَاتِّظَارِ الرَّجْعِ، (أَنَا) وَهِيَ شَامِخَةٌ بِمَغْنَاهَا، وَوَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَتِيقَةُ الْمُتَهَرِّمَةُ مُتْسَاقِطَةً مُتَوَارِدَةً إِلَى أَوْكَارِهَا، وَهِيَ شَامِخَةٌ بِخَيَالِ الْمَغْنَى الضَّائِعِ وَالْمُصَادَفَةِ الْعَارِضَةِ، كَالَّذِي تَعْتَرُّ بِهِ قَدَمُهُ فَيَهْوِي إِلَى خَفِيرٍ فِيهِ كَنْزٌ، فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِالْإِزْتِيَاكِ إِلَى مَا صَادَفَ مِنَ الثَّرْوَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحِسُّ أَبَدًا بِفَخَارِ الثَّرْوَةِ، لِأَنَّهَا لَا تَتَّصِلُ بِذَاتِهِ اتِّصَالَ الْإِيجَادِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِأَطْمَاعِهِ اتِّصَالَ الرُّغْبَةِ بِمَا يُبِيرُهَا وَيُحَرِّكُهَا.

وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّاعِرِ بِمَغْنَاهُ، وَالْغَائِضِ فِيهِ مَغْنَاهُ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَشْقُطُ

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في خفير فينسى الألم، ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسيُعيد التجربة، أو يطمئن في إحساس أنه حيّ بحياة المبدأ الذي قضى دونه... وبين من يشق في خفير فينسى الحياة والقوة، ويهون في إحساس جراحاته وكسوره، أو يئس في إحساس أنه مضغّة بين فكّي العدم الصامت. فأولهما يطرد ضعفاً بقوة، وثانيهما يضيف ضعفاً إلى ضعف... ومرّ على مسرح أحد صورته هذين الرجلين:

«أرسل النبيّ من يتحثّ عن سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟... فنظر فوجده جريحاً وبه رمق في القتلى.

فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: أنا في الأموات. فأبلغ رسول الله عني السلام، وقلّ له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عتاً خيراً ما جزى نبياً عن أمّته. وأبلغ قومك عني السلام، وقلّ لهم: إن سعداً يقول: ألا إنه لا غدر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف»^(٤).

كلمات كلّها يقين وأطمئنان ورضاً بهذا المصير، وهذه النهاية التي يحسّ أنها كبيرة خالدة.

«قاتل قرمان قتالاً شديداً فقتل، وحده، ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة. فأحتمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له:

والله لقد أبلت اليوم يا قرمان فأبشرو. قال: بماذا أبشرو، فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه»^(٥).

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٦.

(٥) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٢.

وسَدَلَ التاريخُ من دونِهِما سِتارَهُ وأَعْلَنَ هذهَ الحَقِيقَةَ: قَضَى أَوَّلُهُما دونَ
فِكْرَةِ العَقِيدَةِ فَكانَ بَطْلاً وتَلَفَّعَ بالخُلُودِ؛ وقَضَى ثانيَهُما دونَ فِكْرَةِ الأخْقادِ ونَزَغاتِ
الأَعْصابِ فَانْحَلَّ بِانْجِلالِها، وتَلَفَّعَ بالْعَدَمِ.

وَقَفَ النَّبِيُّ وأَصْحابُهُ في حَمراءِ الأَسَدِ وَقَفَّةَ الأَسَدِ في وَثْبَتِهِ الحَمراءِ،
وتَحَدَّى طَوِيلاً، وَرَجَعَ الفَضاءُ دَوِيَّةَ الرَّهيبِ، وَصَمَتَ كُلُّ شَيْءٍ، وَبَقِيَ الصَّدى
يُعلِنُ غَلَبَةَ الإنسانِ الجَدِيدِ.

لَقَّتِ المَدِينَةُ أَيَّامَ لَمْ يَكُنْ فيها من سِوِ الأَسَى أثَرٌ كَبِيرٌ، وَهي إلى أَنها أَيَّامُ
تَأْيِينَ أَقْرَبٍ مِنْها إلى أَنها أَيَّامُ أَخْزائِ وَدُمُوعٍ، على أَنَّ مِنَ الحُزْنِ ما هُوَ بِهِيْجٌ وَليدٌ
شُعُورٍ بالإعْجابِ، وَمِنَ الدَّمْعِ ما هُوَ ضاحِكٌ وَليدٌ شُعُورٍ بالأَمَلِ.

حينَ شاعَ الإيمانُ، بِمَعْناهِ الهَيامِيِّ في النَّاسِ، شاعَتِ البُطُولَةُ بِمَعْناهِ الرَّائِعِ في
الرِّجالِ والنِّساءِ جَمِيعاً، وأَعْطَوْا صُوراً خالِدةً تُضَافُ إلى أَشْياءِ التاريخِ الكَبِيرَةِ.
فكانَ لَنا مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، أَبطالٌ في شَخْصِ الشُّهَداءِ كَحُمَزةَ، وأَبطالٌ في شَخْصِ
الأَحْياءِ كَعَلِيٍّ، وأَبطالٌ في شَخْصِ النِّساءِ كُنُسَيْبَةَ المَازِنِيَّةِ^(٦)، حَتَّى الطِّفْلَةُ^(٧) لَمْ
يَقُتْها نَصيبٌ مِنَ البُطُولَةِ...

في ظِلالِ التَّخيلِ الَّتِي بَدَتْ واجِمَةً في إِطْرَاقَةِ الحالِمِ، كانَ الشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي
وَيَسْتَلْهِمُ، وَجَرَتْ على خَدَّيْ حَسانِ بِنِ ثابِتِ عَبراتُ الإعْجابِ الَّذِي آتَّصَلَ

(٦) كانَ مِنْ قِصَّتِها أَنها خَرَجَتْ، في يَوْمِ أُحُدٍ، ومَعها سِقاءٌ تَشْقي مِنْهُ الجُرْحى والزَّيْجُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا
هَبَّتْ عَلَيْهِمُ أَنحازَتْ إلى النَّبِيِّ، وبَاشَرَتْ القِتالَ عَنْهُ تَذُبُّ بِالسَّيفِ وتُرْمِي عَنِ القَوْسِ، حَتَّى حَصَلَتْ الجِراحَةُ
لِها، وَفيها قالَ النَّبِيُّ: «ما أَلْتَفْتُ بِمِثْلِها ولا شِمالاً يَوْمَ أُحُدٍ إِلَّا وَرَأَتْها تُقاتِلُ دوني»، راجع: السيرة الحلبية،
ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قُتِلَ سَمُرَةُ بِنْتُ جُنْدُبٍ لَمَّا رَدَّه النَّبِيُّ يَوْمَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّه، وأَجازَ رافعُ بَنَ حُذَيْجٍ، قالَ لِزَوْجِ أُمِّه: أَجازَ
النَّبِيُّ رافعاً وأنا أَصرَعُهُ، فقالَ النَّبِيُّ: تَصارَعَا فَصرَعَهُ، فَأَجازَهُ وَضَعَهُ إلى الجَيْشِ. راجع: السيرة الحلبية، ج ٢،
ص ٢٢٠.

بعاطفة مُلتاعةٍ مَحزونةٍ، وكانتْ نَفْسُهُ مُكْتَظَّةً بِمَشايعِ شَتَّى، آكِظًاظَ اليَوْمِ الغابرِ
بالزَّوائِعِ الخالِدةِ، ومَرَّتْ به نَسَمَاتٌ أَجاشَتْ عليه شاعِرِيَّتُهُ، فأَطلقَها على هَيْئَتِها في
كُلِّ مَجالٍ.

لَقَدْ كانَ هذا اليَوْمُ مادَّةَ المَلَحَمَةِ العَرَبِيَّةِ المَفقُودَةِ، لو تَأَتَّى لِشاعِرِ خالِدٍ أَنْ
يَسْتَلْهِمَهُ، وَيُفَرِّزَ ما قَدْ طَفا على سَطْحِهِ من رَوائِعٍ، يَنْقُلُها نَقْلاً آمِناً لا تَقِلُّ عن رُوعَةٍ
واقِعِها. فَإِنَّ مَلَحَمَةً تَكُونُ مادَّتُها هذا اليَوْمُ تَظَلُّ، بِدُونِ رَيْبٍ، أَداءَ بَعْثٍ في كُلِّ يَوْمٍ
من أَيَّامِ العَرَبِ والمُسلِمِينَ، وتَتَجَدَّدُ كُلَّما جَدَّدَ العَرَبُ والمُسلِمُونَ حَرَكَاتِ الانْبِعاثِ
وعِزْمَةِ التُّهُوضِ، وكانَ أَبرَزَ ما تَرَكَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ هذه الحَقائِقُ:

إِنَّ نَجَاحَ الأَعْصابِ في الكِفافِ على مِقْدارِ نَجَاحِ الإِيمانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وإنَّ
قِيَمَةَ الكِفافِ على مِقْدارِ قِيَمَةِ الفِكرَةِ الَّتِي يَحْتَدِمُ مِنْ أَجْلِ تَرْكِيزِها، وإنَّ الكِفافِ
الظَّافِرَ لا يَكُونُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ العَقِيدَةُ الصَّليبيَّةُ، وإذا لَمْ يَكُنِ الإِيمانُ فلا يَزِيدُ
الكِفافُ عَنْ أَنَّهُ قُورَةٌ مُتراجِعَةٌ، وَحَرَكَةٌ مُحْتَضِرَةٌ، ولا يَزِيدُ هذا البَعْثُ عَنْ أَنَّهُ بَعْثٌ
فِيهِ بُرُودَةُ المَوْتِ وَمَغْزَى الانْجِلالِ.

وطلَّعَ عليه، وهو في لَذَّةِ إنْشاؤِهِ وإنْشائِهِ، الحَجَّاجُ بُنْ عِلاطِ السَّلَمِيِّ، وكانَ
شاعِراً مَفْتُوناً الشَّاعِرِيَّةَ بِبطولَةٍ عليٍّ يَوْمَ أُحُدٍ، فراحَ يَفْتَشُ بِأَلوانِها وَيَتَغَنَّى بِأَيَّاتِها.
فأَوْسَعَ لَه حَسَنانٌ في مَجْلِسِهِ، وقال:

كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ مُنْذُ اليَوْمِ، وَأَحْسَبُ ما يُقالُ، مِنْ أَنَّ في قُلُوبِ الأَخْلَاءِ
آذاناً تَتَّصِلُ بِكُلِّ ما في النَفْسِ من رَغَباتٍ وَخَلْجاتٍ، وَتُحِشُّ بِها لِحِينُها، حَقِيقَتاً
جِداً.

فقالَ السَّلَمِيُّ في دُعابَةِ مُفْتَرَّةٍ: ولا سِيَّما إذا كانَ الأمرُ بَيْنَ شاعِرَيْنِ
شَيطانَهما أَلَمَعِيانِ.

فلم يَبْدُ على حَسَنانٍ ما كانَ يَنْتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعابَةِ العارِضَةِ، وإِنَّمَا أَخذَهُ إِطْراقُ

خاشع، حتى لقد أحسَّ السَّلَمي أَنَّهُ لا يُشارِكُهُ المَجْلِسَ والحَدِيثَ.
فقالَ له: ما بك؟ أراك كالمأخوذِ عَنْ نَفْسِهِ!

قالَ حَسَّانُ: تَعَاظَمَنِي يَوْمُ أُحُدٍ بِتَهَاوِيلِهِ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ شاعِرَتِي بِبَغْضِ
ما جَمَعَ، وأَحْسَبُ أَنَّ القَوْلَ فِيهِ إلهامٌ مِنَ الإلهامِ، وَلَيْسَ شِعْراً مِنَ الشُّعْرِ. أَمَّا بَلَعَكَ
نَبأُ مُخَيَّرِيق؟

قالَ السَّلَمي: أَنبأُ إِسلامِيه الَّذي فَاجأَ بِهِ مُنْذُ حينٍ غيرِ بَعِيدٍ؟
قالَ حَسَّانُ: كَلَّا، وَلَكِنْ نَبأُ اسْتِشْهادِهِ الرَّايِعِ الَّذي جَعَلَ نَفْسِي، وَكُلَّ
نَفْسٍ، تَذْهَبُ فِي الدُّهْشَةِ كُلِّ مَذْهَبٍ.
قالَ السَّلَمي: ماذا تقول؟!

قالَ حَسَّانُ: نَعَمْ! إِنَّهُ اسْتَبْسَلَ دُونَ العَقِيدَةِ الَّتِي عَهِدَها جَدِيدَةً فِي قَلْبِهِ،
اسْتِشْهادَ مَنْ يُريدُ المَوْتَ أَوْ الحَيَاةَ فِي دُنْيا الفِكرِ الجَدِيدِ.

قالَ السَّلَمي: عَجِيبٌ أَنْتَ يا مُحَمَّدُ. وَعَجِيبٌ إِيمانُكَ الَّذي يَفْتَلِحُ رَسيَسَ
النَّفْسِ، بَلِ النَفْسِ، مِنْ أَقْطارِها وَنَواحِيها حَتَّى لا يُحِسُّ المَرْءُ بِشيءٍ وَراءَ مَعْناهِ.
وَنَهَضَ الرُّجُلانِ فِي اسْتِغْراقِ الشَّاعِرِ حَتَّى أَفْضَيَا إِلى الحَيِّ، وما أَنْتَبَها إِلَّا
على حَدِيثِ النَّاسِ «إِنَّ النَّبِيَّ لَمَّا أَنْتَهَى إِلى أَهْلِهِ نَاولَ سَيْفَهُ آبَنَتُهُ، فَقَالَ: أَغْسِلِي عَنْ
هَذَا دَمَهُ يا بُنَيَّةُ فَواللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي اليَوْمَ... وَناوَلَهَا عَلِيٌّ بِنُ أَيَّ طالِبِ سَيْفَهُ، فَقَالَ:
وهذا أَيْضاً فَأَغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ فَواللَّهِ لَقَدْ صَدَقَ اليَوْمَ رَسولَ اللَّهِ... فَقَالَ النَّبِيُّ:
وَصَدَقَ اليَوْمَ القِتالَ سَهْلُ بْنُ حَنْظَلٍ وَأَبُو دُجَانَةَ».

كَانَتْ فَاطِمَةُ تَمُرُّ بِها هَذِهِ الأَحْداثُ وَهي بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ، وَفي أَخْشاأِها^(٨)

(٨) لا يُظَنُّ أَنَّ هَذَا القَوْلَ يَدْخُلُ فِي حَدِّ الخَيالِ الشُّعْريِّ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَثْبُتُ على البَحْثِ الجَدِيدِ،
فَقَدْ قَرَّرَ العُلَماءُ وَرِاثَةَ الحَيِّينِ لِكُلِّ ما يَخْتَلِفُ وَيَتَرَاوَحُ على الأُمِّ فِي دَوْرِ الحُلُلِ مِنْ تَأْثيراتٍ وَمَشاعِرٍ
وَإِحْساساتٍ.

رُوحٌ جَدِيدَةٌ تَتَأَلَّفُ أَمْشَاجُهَا، فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ عَنَاصِرِهَا، بَلْ أَكْبَرَ عَنَاصِرِهَا، غُنْصُرُ
التَّضْجِيَةِ الدَّائِمَةِ لِلْفِكْرَةِ وَالْعَقِيدَةِ.

وَقَفْتُ فَاطِمَةُ تُزِيلُ أَثَرَ الدِّمَاءِ وَقَدْ ضَمَّتْ سِيفاً إِلَى سِيفٍ، أَيْ^(٩) قُوَّةً إِلَى
قُوَّةٍ، فَإِنَّ السِّيفَ رَمَزُ الْعَزْمِ عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ سِيفَ الْعَقِيدَةِ مُصَلَّتٌ فِي
مَدَى سِيفِ الْمَبَادِيءِ، وَأَنْتَهُمَا مَعاً يَنْجَحَانِ جَمِيعاً. فَأَحَدُهُمَا سِيفُ الْمَبَادِيءِ، وَفِعْلُهُ
فِي الْفِكْرِ، وَثَانِيَهُمَا سِيفُ الْعَقِيدَةِ، وَفِعْلُهُ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِهِمَا تَتَكَوَّنُ الرُّوحِيَّةُ الْعَامَّةُ
الظَّافِرَةُ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ الْآخِرِ، وَهُمَا جَمِيعاً فِي حَاجَةِ الْأُمَّةِ إِذَا أُريدَ
خَلْقُهَا أَوْ بَعْثُهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَالتَّبَيُّ حِينَمَا نَخْلُقُ الْأُمَّةَ جَرَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ،
حِينَمَا نُرِيدُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ، نَجْرِي عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ.

ضَمَّتْ فَاطِمَةُ سِيفاً إِلَى سِيفٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ لَا تَنْجَحُ إِلَّا
بِقُوَّةِ الْفِكْرَةِ وَقُوَّةِ التَّضْجِيَةِ لَهَا. وَكَانَ مَعْنَى إِصْلَاحِ التَّبَيُّ سِيفُهُ أَنَّ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ
يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، وَالْمُكَافِحِينَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَوْ عَلَى أَمْرٍ صُورَةٍ.

فَتَحْنُ نُجِلٌ مُحَمَّدًا لِرِسَالَتِهِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَنُجِلٌ مُحَمَّدًا لِكِفَاحِهِ وَآسْتِيسَالِهِ
وَأَلَامِهِ فِي سَبِيلِهَا، إِجْلَالاً غَيْرَ مَحْدُودٍ، فَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي فِكْرَةً وَلَا يُوقِفُ كُلَّ أَشْيَاءٍ
حِسِّهِ وَنَفْسِهِ عَلَيْهَا، جِهَاداً وَتَضْجِيَةً، يُبْلِلُ فِكْرَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَا يُتَّقَدُ الْمُجْتَمَعُ، بَلْ
يَزِيدُ فِي مَعْنَى دَائِهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِصْلَاحِ لَا تَكُونُ شَيْئاً نَبِيلاً إِذَا لَمْ يَجْعَلْهَا الْكِفَاحُ
كُلَّ شَيْءٍ.

إِنَّ الْفِكْرَةَ قَدْ تُشِيرُ إِلَى آمْتِيَارٍ مُلْهِمِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى خُلُودِهِ إِلَّا إِذَا
تَحَمَّلَ آلَامُهَا. وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ آلَامَ مُحَمَّدٍ الْخَالِدِ حِينَ أَدَّى رِسَالَتَهُ، وَحَمَلَ ثِقْلَ الْكِفَاحِ

(٩) إِنَّ السِّيفَ فِي كَلَامِنَا زَمْرِي بَحْتٌ، يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَسِيفُ التَّبَيُّ رَمَزُ لِقُوَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَسِيفُ عَلِيٍّ رَمَزُ
لِقُوَّةِ الْعَقِيدَةِ. وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ كَلَامَنَا يَدُورُ عَلَى السِّيفِ، الْآلَةَ الْمَحْدَدَةَ، بَلْ نَعْنِي الْقُوَّةَ الْأَدْبِيَّةَ. هَذَا التَّنْبِيهُ لِكِي
لَا يَتَوَهَّمُ السُّطَاءُ أَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ قَاعِدَتُهُ السِّيفُ، وَأَنَّا نُهَيِّبُ بِالنَّاسِ إِلَى تَهْطِئَةِ السِّيفِ قَاعِدَتُهَا.

والجهاد «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ»...
والوزر في الآية بمعنى الثقل، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة.
وكان وضع الثقل عنه إعلاناً بأن إنسانية محمد أخذت طريق نجاحها،
وقامت على قاعدتها، ونفت مرارة الدواء أَلَمْ الداء المصيب الجهد...
بعد حين، تراءى أحد للنبي من بعيد، فأثار فيه ذكريات عذبة بأشائها
الكبيرة، وأطياها اللامعة الرائعة...

وكانت هذه الذكريات قد استحالت إلى حنين فحُب، جعلاه رمزاً من
رموز الانبعاث والانقلاب والتجديد في ضمير المؤمنين الشعراء...
فقال النبي يُكْرِمُهُ «إِنَّ أَحَدًا جَبَلَ يُجْبِنَا وَنُجْبُهُ»، يُجْبِنَا لَأَنَّهُ رَضِيَ عَنِ
اسْتِيسَالِنَا وَثَبَاتِنَا، وَنُجْبُهُ لَأَنَّهُ رَمَزَ هَذَا الاسْتِيسَالِ وَهَذَا الثَّبَاتِ...
وكان النبي «دَسَّنَ» بهذا المقال في أحد تمثال الإيمان الشامخ...

*

كَانَ يَوْمُ أَحَدِ يَوْمِ الشُّهَدَاءِ...
والشهيد، في سبيل أمة، ذكرى حية في ضميرها، ومادة هامة في كبرياء
مجديها...
فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة، ولذلك أحبه النبي، ونحن نُحِبُّهُ وَلَا
نَنْسِي عِظَتَهُ النَّاطِقَةَ فِي الضَّمِيرِ!...
استحال يوم أحد إلى ذكرى من الزواجر...
وآستحالت الذكرى إلى حب وهيام بالأمجاد، ما دام على الأرض عزب أو
مُسْلِمُونَ...

وأَبْرَزَ الْغَيْبُ، بَعْدَ ذَلِكَ، رُوحاً جَدِيدَةً، جَمَعَتْ طَائِفَةً هَذِهِ الْمَعَانِي وَسَمَّاهَا
التَّبْيُّ حُسَيْنًا...
وَدَارَ الزَّمَنُ دَوْرَةً قَصِيرَةً، وَثَارَ الْحُسَيْنُ وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي فِي صَوْتِهِ
الْمُرْسَل...
وَأَنْطَلَقَ النَّاسُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

تَحَرَّكَ الْيَوْمَ أَحَدٌ مَرَّةً أُخْرَى، وَثَارَ بُرْكَانُ الْإِصْلَاحِ يُزَلْزِلُ بِالْحِمَمِ!...

* * *

يوم الميلاد

تَنَادَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَهَا الْمَخَاضُ، وَكُنَّ يُلْمِئْنَ بِدَارِهَا كَوُكَبَاتِ
كَوُكَبَاتٍ، وَيَنْتَظِمْنَ هُنَا وَهُنَاكَ كَمَا شَاءَ الْمَجْلِسُ لَهُنَّ. وَمَرَّتْ لَحَظَاتٌ أَخَذَتْ
عَلَيْهِنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَدُو مِنْ حَرَكَاتٍ شَاءَهَا الظُّرُفُ وَالْبِشْرُ، وَسَمَلَهُنَّ صُمُوتٌ
خَاشِعٌ فِيهِ بَادِيَةُ الْحَذَرِ، حَتَّى لَيْخَيْلٌ لِلنَّظِيرِ أَنَّهِنَّ دُمِي مُجَنِّحَةٌ تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ فِي
غَيْرِ مَرَأَى الْعَيْنِ.

وَكَانَتْ مَيْمُونَةُ أَحْتُ بِنْتِ غُمَيْسٍ وَخَدَهَا تُرَى غَادِيَّةٌ رَائِحَةٌ، وَمَرَّ خَاطِرُ
أَنْكَرَتْ مَعَهُ مَوْضِعَهَا. فَقَدْ تَرَأَى لَهَا أَنَّهَا فِي مَعْبِدٍ آكُتَّظَ بِالْمُجَنِّحَاتِ الَّتِي تُطِلُّ فِي
صُورِهَا مَلَائِكُ فِي فَرْحَةٍ خَاشِعَةٍ.

وَسَبَّحَتْ مَعَ خَاطِرِهَا وَرَاحَتْ فِي مَقْعَدِ الْأَحْلَامِ، حَتَّى لَقَدْ أَنْفَصَلَتْ فَوْقَ
مُحْدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَ لَهَا عَالَمُهَا الْجَدِيدُ الَّذِي يُغَادِيهَا بُرُؤَى يَقْظَى عَلَى
خُيُوطِ التُّورِ.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَاقِعًا، وَحَسِبَتْ أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي عَالَمٍ مَا تَرَى. إِنَّهَا
أَحْسَتْ بِلَذَازَاتِهِ طَافِحَةً حَتَّى لَقَدْ غَمَرَتْهَا.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلُمًا، إِنَّهُ لِأَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ فِي مَذْهَبِ الْحِسِّ
الْبَادِي... هَكَذَا تَنَاجَتْ فِي حَدِيثِ نَفْسِهَا حِينَمَا أَنْبَهَتْهَا زَعْرَدَاتُ النِّسَاءِ الَّتِي

بَدَأَتْ هَمَسَاتٍ حُلُوءَةً نَاعِمَةً:

فَقَدْ أَسْلَمَتْ فَاطِمَةُ وَلَيْدَهَا...

ولكن أين ما كُنْتُ أرى؟ أين هو أو أين أنا؟! لَسْتُ، لَسْتُ أَذْري. أَحْسَبُنِي
في مَعْرِضِ الْعَجَائِبِ. أَحْسَبُنِي فِي عُزْسِ الْأَمْلاِكِ. حَقًّا إِنَّ لِلْإِنْسَانِ عَوَالِمَ شَتَّى،
وهو يَعِيشُ فِي أَقْلِهَا تَطَرُّيَّةً، أو يَجْعَلُهَا وَقِيعَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ أَقْلَ تَطَرُّيَّةً وَبَهْجَاتٍ.
هُنَاكَ فِي غَيْرِ وَقِيعِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِالْأَشْيَاءِ مُكَبَّرَةً، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّيَّاتِ
مَعَانِيهَا لِأَنَّهُ يُحِسُّ بِكُلِّ نَفْسِهِ، وَأَمَّا هُنَا فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِبَعْضِ نَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْغُ
الْوَاقِعِ الْجَامِدُ، وَيَقِى كُلَّ النَّفْسِ ظَالِمًا.

لَمْ يَكُنْ مَا رَأَيْتُ حُلُمًا؟ إِنَّهُ خَالَطَنِي حَتَّى لِأَلْمُسَةِ. نَعَمْ. نَعَمْ. لَقَدْ أَذْرَكْتُ
الآنَ، وَالآنَ فَقَطْ، سِرَّ الثُّبُوتِ، وَسِرَّ الْقَدَاسَاتِ، وَسِرَّ الْإِلْهَامِ وَالْهَيْامِ فِي الْفِكْرِ
وَالْفَرِّ وَالْأَشْيَاءِ... وَإِنْ يَكُنْ حُلُمًا فَلَيْتَنِي أَظَلُّ حَالِمَةً، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ فِي
كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَلِيدِ فَاطِمَةَ، أَرَى عَلَى وَجْهِهِ أَوْ أَحْلُمُ... هَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ أَنْطَلَقَتْ وَغَابَتْ فِي الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ الْفَرِخَةِ، وَضَاعَ وَقَعُ خُطَاهَا فِي
الرَّزْنِ الصَّاحِكِ...

كَانَ جَمِيلًا كَحَفَقَةِ الضُّوءِ، وَبَهِيًّا كَقَطْرَةِ النَّدى وَقَدْ تَحَاضَّتْهَا أَكْمامُ الرَّهْرِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي جَوْ أَحْلَامٍ ذَابَتْ فِيهِ النَّسَوَاتُ، وَاسْتَحَالَتْ إِلَى أَرِيحٍ تُهْدِدهُ أَيْدِي
النَّسِيمِ، وَكَانَ لِأَلَاءِ كَرْزَنْبَقَةِ الْغُورِ وَقَدْ مَصَّتْ إِشْرَاقَةَ الْغُرُوبِ الَّتِي خَلَفَتْ فِيهَا
الشَّمْسُ ذِكْرَهَا السَّعِيدَةَ إِلَى اللَّيْلِ، وَكَانَ مِلءُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى، حَتَّى لَقَدْ قُلْنَ: إِنَّ
الْجَمَالَ اخْتَصَرَ بِهِ، أَوْ إِنَّ سَنَا الْوُجُودِ الْمُفَرَّقِ جُمِعَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تَحُوطُهُ، إِلَى ذَلِكَ،
هَالَةً مُشِعَّةً، فِيهَا جَلَالُ الثُّبُوتِ وَجَمَالُ الطُّهْرِ الْبَرِيِّ، وَكَانَ عَابِقًا كَأَنَّ السَّمَاءَ
أَطْلَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَرِيحِ.

خَرَجَ الحُضُورُ عَنْ صُموثِيهِمْ، وَغَمَزَتِ الأَثِيرُ مَوْجَهُ بِشِرِّ ظَاهِرَةٍ خَفَقَ لَهَا
خَفَقَاتٍ كَانَتْ مُؤَدِّنَةً بِالوَلِيدِ السَّعِيدِ...

بَرَزَ النَّبِيُّ (ص) وَسَطَ الْجُمُوعِ كَمَا تَبْرُزُ الْمَنَارَةُ وَسَطَ الضُّبَابِ، هَادِيَةً
بِشُعَاعِهَا الْمُسْتَطِيلَةَ فِي آتِنَاقٍ وَتَدْفِقِي، وَأَخَذَ وَلِيدُهُ السَّنِّي يَتَدَيَّنُ كَانَتْ حَرَكَاتُ
أَنَامِلَيْهِمَا تُعَبِّرُ عَنْ قَرْطِ الشُّرُورِ، وَخَنَا عَلَيْهِ لَحْنُ الْمُرْضِعِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِمَةً
الإِسْلَامِ الشَّامِخَةَ «اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!».

وِغَامَ عَلَى مَيِّمُونَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ الْيَوْمَ فِي حَسَابِيَّةٍ جَدِّ نَافِذَةٍ. وَسَعَرَتْ حِيَالَ
هَذَا الْمَشْهَدِ أَنَّ الأَحْيَاءَ بِنَزَعَاتِهِمْ هُمْ ضَبَابُ الْحَيَاةِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُطَبِّقًا دَاكِئًا،
حَتَّى لَتَبْدُو الْحَيَاةَ نَفْسَهَا كُرَّةً مِنَ الضُّبَابِ، تَدُورُ فِي مِثْلِ حَرَكَةِ الإِعْصَارِ هَادِرَةً بِمَا
فِيهَا مِنَ الأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ وَرَائِهَا فَتُبْخِرُ مَا آسَتَوَى فِيهَا وَتَرَاكِبَ
عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِأَنْحَائِهَا، وَتَمُدُّهَا بِمَعْنَى الضِّيَاءِ فَتَعْدُو مُرْدَهِيَّةً مُتَأَلِّقَةً، وَيَخْشَعُ الْإِنْسَانُ
عِنْدَهَا فِي مِحْرَابِ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ. إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ التِّيهِ، وَنَفَضَ غُبَارَ الْبَيْدَاءِ، وَاسْتَعْلَى
عَلَى السَّرَابِ.

أَفْ... لِلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْحَيَاةَ ضَبَابٌ مُنْتَشِرٌ فِي آفَاقِ هَذَا الْوُجُودِ، وَالْإِنْسَانُ
يَطْفُو وَيُوسِبُ مُغَمَّضَ الْعَيْنَيْنِ... إِنَّ وُجُودَهُمْ لَمْ تُشْرِقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي
تَعْمُرُنَا بِشُعَاعِهَا، إِنَّ صُورَةَ الْحَيَاةِ فِي خَيَالِ الأَعْمَى مَلَأَى بِالظُّلَامِ، وَفِي خَيَالِ
الأَعْمَى مَلِئَةً بِالرَّمَادِ أَوْ الضُّبَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الْحَيَاةُ كَمَا تَنْعَكِسُ فِي مَرَاثِيهِمْ
الْمُتَحَكِّجَةِ؟ إِنَّ شَمْسَ التَّبَوُّةِ، وَفِيهَا الْمَعْنَى الْأَتَمَّ الْمَشْرِقَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ، لَمْ تَسْطِعْ
فِي سَمَاوَةِ فَضَائِهِمْ.

هَنَا، وَفِي هَذَا الْمَكَانِ، أَجِدُ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ الْعَارِيَّةِ تَحْتَ يَنْبُوعِ التَّبَوُّةِ وَشُعَاعِهَا
الْخَالِدَةِ... هُنَا، وَفِي هَذَا الْمَكَانِ، حَيْثُ يُبَارِكُ النَّبِيُّ إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً وَيَتَفَرَّغُ مِنْهُ رَافِدٌ
نَمِيرٌ وَتَمُدُّ قَوَارِ فِي صُلْبِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ، فِي دِمَائِهَا الْمُنْصَبَّةِ إِلَى بُحِيرَةِ الْمُسْتَقْبَلِ

البعيد القرار، يجدُ الظَّماءُ ما يُبْرِدُ حرارَةَ عُقولِهِمْ وَقُلوبِهِمْ، يجدونَ التَّبَوُّعَ الَّذِي حَجَبَهُمْ عَنْهُ سَرَابُ الْفِكْرِ الْمَذْخُولِ...

قالَ قائلٌ في الظُّلامِ - والنَّاسُ يَخْرُجُ أَحَدُهُمْ في إثرِ الآخرِ - إليه أبا رافعٍ...
وَرَبَّتْ على كَيْفِهِ: أَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنَ اليَوْمِ، النَّبِيُّ يُسِرُّ في أُذُنِ الْوَلِيدِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ شيئاً!...

قالَ أبو رافعٍ: نَعَمْ. إِنَّهُ «أَذَّنَ في أُذُنِهِ كَمَا يُؤَذِّنُ لِلصَّلَاةِ».

قالَ الرَّجُلُ: ولكنْ أترى أَنَّ لَهُ نَفْساً مُدْرِكَةً تَعِي ما يُقالُ لها وما تُخاطَبُ

به؟

قالَ أبو رافعٍ: نَعَمْ. وماذا تَظُنُّ أَنْتَ؟ لَعَلَّكَ أَنْصَرَفْتَ بِظَنِّكَ إلى أَنَّ نَفْسَ الْوَلِيدِ خَلَاءٌ مِنَ الْقَوَى، إِنَّ كَانَ ذَاكَ فَبَعْدَ ما تَظُنُّ. إِنَّها وَاِئْتِ كَأَنَّ ما تَكُونُ نَفْسُ من الْوَعْيِ، ولكنها غائِمَةٌ بما في التَّركِيبِ الْعُضْويِّ من الْوَهْنِ وَضَعْفِ الْحَسَاسِيَّةِ.

وَالنَّبِيُّ تَوَجَّهَ إلى هذا الْوَعْيِ وهو في أَكْمامِهِ لِيَضَعَ فِيهِ شيئاً خالِداً، لِيَضَعَ فِيهِ كَلِمَةَ اللَّهِ، فلا يَحُولُ عَنْها ولا يَزُولُ مَهْمَا أَضْطَرَّتْ عَلَيْهِ بَوَائِثُ الشَّبَابِ، وَأَضْطَرَّتْ فِيهِ نَزَوَاتُهُ، لَأَنَّها سَوْفَ تَأْسِرُهُ بِحَنِينِ الرَّجْعِ الْبَعِيدِ.

إِنَّهُ وَضَعَ، في آخِرِ مَرَحَلَةِ التَّحَلُّقِ وَأَوَّلِ مَرَحَلَةِ التَّفَتُّحِ وَالْازْدِهَارِ، عَبَقَ الْمَثَلِ الْإِلَهِيَّةِ، عَبَقَ الْحَقِيقَةِ الْمُطْلَقَةِ، الَّذِي يَنْفُخُ ولا يَنْقَطِعُ، الَّذِي يَفِيضُ ولا يَغِيضُ... تَمَرَّ بِهِ الْأَهْوِيَّةُ الْهَادِرَةُ الْهَابِثَةُ فلا تُغَيِّرُ فِيهِ وَإِنَّمَا يُغَيِّرُ فِيها، بما يُحْمِلُها من أَرْبِجَةِ الْفَوَاحِ، فَتَعْدُو وَقَدْ فَقَدَتْ ما تُنْذِرُ به بما تُبَشِّرُ، إِنَّها حَمَلَتْ رُوحَ الزَّهْرَةِ في الْحَقْلِ...

إِنَّ النَّبِيَّ، لَنَا الْيَوْمَ، زَهْرَةُ الْحَقْلِ، وهو يَمُدُّ يَدَهُ في أَحْشَاءِ الزَّمانِ بِزَهْرَةِ حَقْلِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَعَسَى أَنْ يَتْرَكها الْإِنْسَانُ تُضْمَخُ فضاءَ الْعُورِ في عَيْنِ الشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ، ولا تَلْتَفِتُ عَلَيْها أَفْعَى الشَّهَوَاتِ فَتَقْضُمُها، إِنِّي لَحَذِرٌ، إِنِّي... تَلَعَنَمُ، وَوَضَعَ يَدَهُ

على قلبه مخافة السقوط، وأغمض عينيّه في خيال رهيب.

وكان أبو رافع مولى للنبي، فلم يطق ما مرّ بخياله، وتحامل على صاحبه مدة ظلّ فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبته أصوات متقطعة للذئاب.

وشمل الرجل تيار أبي رافع فاستغرق في وجوم، وسارا يقطعان الليل في خطوات تعب عن أنها ذاهلة لا تقصد إلى شيء ولا تتصل بما تنتهي إليه. وما استقفا إلا على صوت الإنسان في العلس ينادي بكلمة الله الأزواح الشاردة الهائمة. واختلط الصوت بشكون الليل فعبر عن أنه قال كلمته، واستحال صدى فيه شروء الشكون.

خفّ الناس من كل مكان، وفي أعينهم بقايا الحلم السادر، متوافدين مع النداء إلى حيث يمتزجون بالجهول، إلى حيث يصححون ضمائرهم في عمل الحياة، إلى حيث يجددون عقودهم مع الله على الخير والحب والمثل، يجعلها مبدأ عمل وواقع حياة... مد الرجل خطاه وهب يطلب ما يطلب سائر الناس.

قال أبو رافع: على رسلك يا هذا، إننا لم نزل في صلاة منذ خطونا!

قال الرجل: والآن نصلي صلاة بصلاة^(١).

(١) لا زب في أن الصلاة عقد (كونترا)، بين الله والإنسان. وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادلي. وعلى ضوء هذه الملاحظة يتكشف لنا سر تكرار الصلاة اليومية، على الشكل المعروف في الإسلام، وجعلها ليالية ونهارية. وهذا السر هو تجديد العقد وتوكيده، حتى لا تضعف فعاليته، وحتى لا تتمر بالمرء ساعات فتور واسترخاء يجعل فيها بأحكام العقد، فيظل بذلك دائماً طرفاً في عقد جديد. وكما هو معروف على التبعية أن الضمير والوجدان والعقائد تتولد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً. هذا فهمنا للصلاة في الإسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فإنها أصح طريقة وأسلوب، وأصح شكل وصيغة لما يُسميه ساندerson، أحد علماء النفس التطبيقي، مقبذ الرؤية، هذا المقبذ الذي يتأمل فيه المرء منفرداً، ويخشع مستغرقاً متفكراً، وهو يرى أنه لا صلاح للفرود، وبالتالي للجماعة، إلا بتغذية الرؤية، أو ساعة التأمل اليومية، وقد ضمنها الإسلام على شكل مذهب من التكرار في صخب النهار وفي هدوء الليل، وكان الإسلام بصلاة النهار ينتزع الإنسان أنزعاً ليفرقه في التأمل والإشراق ولو للحظات.

قال أبو رافع: نَعَمْ. وَلَكِنْ رُوِيَكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ رَأَى جَمَاعَةً تَتَرَاكُضُ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لِيَأْتِ أَحَدُكُمْ الصَّلَاةَ هَوْنًا». وَهُوَ يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكُونُ وَاِعْيَةً إِلَّا إِذَا تَلَبَّسَتْ فِكْرٌ فَاعِيلُهَا وَنَفْسُهُ، فَهِيَ لَيْسَتْ عَمَلًا خَالِصًا بَلْ فِكْرًا فِي الْعَمَلِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ لَهَا عَمَلٌ فِي الْفِكْرِ، وَالْإِعْجَالُ يُضِيعُ عَلَى الْفِكْرِ أَطْرَادَهُ وَاتِّسَاجَمَهُ. وَالنَّبِيُّ يُرِيدُنَا أَنْ نَبْدَأَهَا صَلَاةً بِالْفِكْرِ، صَلَاةً بِالرُّوحِ، وَإِلَّا فَهِيَ صَلَاةٌ شَارِدَةٌ غَيْرُ وَاِعْيَةٍ، لِرُوحٍ أَكْثَرَ إِمْعَانًا فِي الشُّرُودِ.

قال الرَّجُلُ: إِنَّ حَدِيثَكَ مَلَكَ عَلَيَّ نَفْسِي مُنْذُ اللَّيْلِ، وَلَقَدْ مَارَجْتَنِي حَسْرَةً حِينَ قَطَعَ الْوُجُوهُ عَلَيْكَ الْحَدِيثَ.

قال أبو رافع: لَعَلَّ صِلَةَ الْحَدِيثِ، الَّذِي أَنْقَطَعَ بَيْنَنَا، تَجَرُّ الشُّجُونَ إِلَى اسْتِدْرَاكِهَا يَوْمًا مِنَ الْيَوْمِ.

قال الرَّجُلُ: وَلَكِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَسْرَ الْحَدِيثِ وَمَدَّ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ نَفْسِي لَا تَجْتَمِعُ كَمَا آجَتَمَعَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ مِنْ أَقْطَارِهَا. وَأَجِدُنِي أَشَدَّ مَا أَكُونُ أَنْصِرَافًا إِلَى مَغْزَى الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ، وَمَغْزَى الْأَذَانِ الدَّاهِبِ كُلَّ يَوْمٍ، مَرَاتٍ فَوْقَ صَحِيحِ الْحَيَاةِ وَصَحْبِهَا، الْأَذَانِ الْقَارِعِ فِي دُنْيَا الْأَبَاطِيلِ.

قال أبو رافع: إِنَّنِي لَمْ أَزَلْ أَخْشَعُ تَحْتَ ذِكْرِ الرَّنَاتِ الْهَامِسَةِ الَّتِي أُرْسَلَهَا النَّبِيُّ فِي أُذُنِ وَلِيدِهِ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يَتَمَدَّدُ فِي فَضَاءِ تِلْكَ الرُّوحِ، وَأَوَّلَ شَيْءٍ تَتَمَوَّجُ بِهِ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ. وَبِذَلِكَ يَبْقَى فَضَاؤُهَا خَلِيًّا مِنَ الصَّبَابِ، فَلَا تَمُرُّ بِهِ مُحَلَكَةً قَاتِمَةً، وَلَا تَجْثُمُ فِيهِ ظَلَامِيَّةٌ أَوْ دُجْنَةٌ، فَيَتَكَوَّرُ فَضَاءُ الرُّوحِ تَكَوَّرَ الْفَلَكَ عَلَى الشَّمْسِ.

وَالْأَذَانُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ إِلَى الرُّوحِ لَا تَكُونُ فِيهِ أَلْفَاظُ الْأَذَانِ بَلْ رُوحَانِيَّتُهُ، لِأَنَّهَا تَسْمُو، بِمَحَلِّهَا وَمُسْتَوَاهَا، عَنِ الْأَلْفَاظِ وَمَذَاهِبِهَا فِي التَّعْبِيرِ، هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي

تُوَلَّفُ كائناً ألياً لا حِسَّ فيه، وأسْتَأْنِي به الإنسانُ إلى إكْمَالِ آليَةِ الْحَيَاةِ وَحَرَكَاتِهَا الرُّتَبِيَّةِ. ولِذَا ظَلَّ كَائِنُنَا الدَّاخِلِيُّ المَجْهُولُ أَكْثَرَ أَنْفِعَالاً بالمعاني المَطْلَقَةِ عَنِ الأَدَاءِ، كَالْأَلْحَانِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَعَانٍ لَمْ تَمْتَحِجْزْ، فَتَنْجُهِ إلى إْحْسَاسِ الرُّوحِ قُدْماً فَتَمَوِّجُ بِهَا سَرِيعاً، بَيْنَمَا الأَدَاءُ الآلِيَّ (الأَلْفَاظُ) يَمُرُّ فِي الْفِكْرِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ مَعَايِرَ، حَتَّى يَنْجَرَّدَ^(٢) وَيَسْتَحِيلَ مَعْنَى مُطْلَقاً فِي إْحْسَاسِ الرُّوحِ.

فهذه الرُّوحُ الجَدِيدَةُ، الَّتِي لَمْ تَحُلْهَا آليَةُ الْحَيَاةِ الْمُخْتَرَعَةُ بَعْدُ بِأَشْيَائِهَا، وَالَّتِي لَا تَرَالُ غَضَّةً، لَمْ تَمْتَحِجْزْ أَطْرَافُهَا، تَمَوِّجَتْ أَوَّلَ مَا تَمَوِّجَتْ، وَأَتَسَّعَتْ أَوَّلَ مَا أَتَسَّعَتْ، لِكَلِمَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ. فَكُلُّهُمَا مَرَّ بِهَا مِنْ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَاحِلَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الْهَوَى. إِنَّهَا بِجَاذِبِيَّةِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، وَهِيَ، إِذَا رَمَتْ بِالزَّبَدِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا حَبَابُ الْمُثُلِ الْمُتَرَائِبِ، فَإِنْ سَانِيَتْهُ هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ جَاءَتْ كَمَا شَاءَتْ النَّبُوءَةُ.

إِنِّي لَا تَمُرُّ بِي ذِكْرَى الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ إِلَّا وَأُخْشَعُ مَعَهَا، إِنَّهَا تَفْعَلُ بِي فِعْلاً غَنِيماً وَعَمِيقاً، وَلَا أَذْرِي كَيْفَ أَطْوَعُ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ لَتُعَبِّرَ عَنْهَا...

فَصَلْتُ مُنْذُ بَعِيدٍ وَأَنَا دَهْشٌ بِالْأَذَانِ الَّذِي يَغْلُولِي مُذَكِّراً الْحَيَاةَ بِقَاعِدَتِهَا، وَالْإِنْسَانِيَّةَ بِأَنْبِلِ مُثْلِهَا الْخَوَالِدِ، وَيُضْغِي الْوُجُودَ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُ يَشْهَدُ.

وعَلَا ضَجِيجُ النَّاسِ بِالتَّكْبِيرِ، وَكَانَا قَدْ بَلَّغَا بَابَ الْمَسْجِدِ فَانْتَضَمَا فِي صُفُوفِ الْمُصَلِّينَ، وَعَادَ الْكَوْنُ إِلَى صُمُوتِهِ يُضْغِي إِلَى صَوْتِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ فِي أُذُنِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ:

(٢) تَوَجَّدَ أَلْفَاظُ فِي اللُّغَةِ لَمْ تَمْتَحِجْزْ بِمَا أَغْدَقَ عَلَيْهَا الشُّعُورُ، حَتَّى لَتُصِلَ بِمَا وَرَاءَ الْقَوَى الْوَاغِيَةِ، وَتَحُوكَهَا رَأْساً بِدُونِ أَنْ تَمُرَّ فِي الْفِكْرِ، كَالْأَلْفَاظِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْحُبِّ. وَهُنَاكَ أَلْفَاظُ تَتَّصِلُ بِمَوَاطِنِ الْحَيَاةِ وَتُؤَثِّرُ مُنْتَخِطَةً الْفِكْرَ أَيْضاً، أَوْ تَمُرُّ بِهِ مَرّاً سَرِيعاً، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْفَرَائِزِ وَمَا إِلَيْهَا، وَتُسَمِّيهَا لُغَةً خَيْرِيَّةً. وَمَا بَقِيَ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْأُخْرَى فَهِيَ أَلْفَاظُ فِكْرٍ، لِأَنَّهَا تُوَثِّرُ عَنْ طَرِيقِهِ، وَتُسَمِّيهَا لُغَةً آليَّةً مُسْتَحْجَرَةً.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

*

في حَقْلِ الْبَشْرِيةِ الشَّائِكِ، غَرَسَ النَّبِيُّ نَوَاةً...
عَمِلَتْ فِيهَا التَّوَامِيصُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لَمْ تَتَفَتَّقْ عَنْهَا الْأَكْمَامُ...
وَمَسَحَهَا النَّبِيُّ بِيَدَيْهِ كِلْتَابَهُمَا، فَتَوَرَّتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ...
وَمَاسَتْ فَوَاحَةً تَمَلُّ الْحَقْلَ بِالْعَبِيرِ، حَتَّى لِيَحْيِلُ أَنَّ الْحَقْلَ زَهْرٌ كُلُّهُ!...

*

قَصَدَتْ إِلَيْهَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَفْعَى فَاجِمَةٌ لِمَاعَةِ الْأَدِيمِ...
وَكَانَتْ تَتُحُّ فَحِيحًا لَاهِبًا، وَيُؤُجُّ مِنْ فِيهَا الْحِمَمُ...
وَالْتَفَّتْ عِنْدَ أَصْلِ الزَّهْرَةِ، وَتَكَوَّرَتْ كَعُقَدِ الْقَضَاءِ...
وَفِي هَذَاةِ اللَّيْلِ، حِينَ كَانَ الْكَوْنُ فِي سُبَاتٍ قَضَمَتْهَا...
وَعَادَتْ وَقَدْ عَادَ الْحَقْلُ شَوْكَاً مُلْهِبًا، وَعَدَتْ زَهْرَةُ الْحَقْلِ ذِكْرَى زَمَرٍ
سَعِيدٍ!...

زَهْرَةٌ كَانَتْ مِنْ صُنْعِ الثُّبُوةِ فِي آفِتَانِهَا وَسُمُوهَا...
وَالثُّبُوةُ شُعْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَشَفَقٌ فِي الْفِكْرِ لَا يَتَنَاهَى مَدَاهُ...
وَزَهْرَةُ الْحَقْلِ نَثْرَهَا بَاطِلُ الْإِنْسَانِ، وَلِكِنَّهَا آجَتَمَعَتْ فِي الذِّكْرَى الْخَالِدَةِ...
فَقَدْ غَرَسَتْهَا ثُبُوةٌ صَنَاعٍ، وَالثُّبُوةُ لَا تَحُورُ!...

*

زَهْرَةٌ وَصَعَتْ فِيهَا اللَّانْهَاءُ أَشْرَارَهَا...
فَلَيْثَتْ رُغْمَ بَاطِلِ الْإِنْسَانِ وَلَنْ تُدْرِكَهَا نِهَايَةٌ...
وَحَارَ الْبَاطِلُ إِلَى رَمَادٍ فِي زَوْبَعَةِ الرِّيحِ!...

*

تَحَوَّلَ الْبَاطِلُ، فَكَانَ ظِلَالُ الْحَيَاةِ...
وَتَحَوَّلَ الْحَقُّ، فَكَانَ شَمْسُ الْحَيَاةِ...
وَأَخِيرًا، وَبَعْدَ حِينٍ، ضَاعَ الظُّلُّ فِي الشَّمْسِ!

* * *

مشاهد

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمِيلَادِ وَهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي تَقَاطَرَتْ فِيهِ زَرَافَاتُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ، أُسْبُوغٌ مُتَأَلِّقٌ وَضِيءٌ كَأَنَّمَا تَنْتَفَسْتُ فِي جَوْهِ السَّعَادَةِ، وَطَفَرْتُ مِنْ أَعْمَاقِ
الْحُلُمِ لَتَمُوجٍ فِي وَاقِعِيَّةِ الْجُمُوعِ وَدُنْيَا الْحَيَاةِ.

كَانَ الْبَصَرُ يَذْهَبُ مَذَاهِبُهُ ثُمَّ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى أَوْزَاعٍ مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ،
فَقَدْ حَفَلَ النَّبِيُّ بِسَابِعِ أَيَّامٍ وَلِيدِهِ وَعَقَى عَنْهُ.

إِفْتِدَاءُهُ بِكَبْشٍ ذَهَبَ خَيْرُهُ فِي أَشَابَةِ الْفُقَرَاءِ، وَكَانَ مَعْرَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمَثَالِيَّةَ
السَّامِيَّةَ، أَوَّلُ مَا تَقُومُ عَلَيْهِ هُوَ إِهْرَاقُ التَّزَوَّاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَنَزَعَاتِ ضَرَاوَتِهَا، مُجْتَمِعَةً
فِي حَيَوَانٍ يُهْرَاقُ. فَإِذَا كَانَ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِذَاءِ مَعْنَى الْجَسَدِ وَتَوْكِيدُ
أَنَّهُ حَيَوَانٌ قَرِمْ، فَإِنَّ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِذَاءِ مَعْنَى الرُّوحِ الْمُسَامِيَّةِ إِلَى
الْعَلَاءِ، وَكَانَ وَحْيٌ وَإِشَارَةٌ لَشَيْءٍ آخَرَ مُتَرَتِّبٍ تَرْتَّبُ النَّتَائِجُ عَلَى الْمُقَدَّمَاتِ: الْحَيَوَانُ
يُقْدَى بِهِ الْإِنْسَانُ الشَّاعِرُ بِمَعْنَاهُ، لِيَتَعَلَّمَ هَذَا الْإِنْسَانُ كَيْفَ يُقْدَى فِكْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَكَيْفَ يُضْحَى بِسَبِيلِ مِثَالِيَّتِهَا.. وَلِذَا لَمْ يَجِدِ^(١) الْمُكَافِحُونَ الْمُسْتَبْسِلُونَ، إِلَى

(١) كَانَ مِنْ عَادَةِ الْجُنُودِ فِي الْقَدِيمِ نَحْرُ حَيَوَانٍ تَحْتَ الْعَلَمِ، وَعَلَى مَرَأَى مِنَ الْجُنْدِ، وَيَقِيْتُ هَذِهِ الْعَادَةَ حَتَّى
رَمَى مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ بِأَشَا جَدِّي يَوْمَ يَضُرُّ.

زَمَنٍ قَرِيبٍ، زَمَنًا لَصِدْقِي الْكِفَاحِ الدَّامِي وَلِلآرْتِكَاضِ إِلَى الْمَوْتِ سِوَى إِهْرَاقِ حَيَوَانٍ
بَيْنَ يَدَيِ الصُّرَاعِ، مُشِيرِينَ إِلَى الْمَصِيرِ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ.

وَطَبِيعَتُهُ جُمُوعُ الْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ تَضَحِيَّةَ الْإِنْسَانِ جَانِبَ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ،
كَيْ يَمْلَأَ الْفَرَاغَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بِجَمَاعَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْرُومَةِ، فَيَجِدَ فِي شُعُورِهِمْ
شُعُورَهُ، وَفِي آلَمِهِمْ أَلَمَهُ، وَفِي سَعَادَتِهِمْ سَعَادَتَهُ. فَقَدْ مَزَجَهُمْ بِنَفْسِهِ وَخَلَطَهُمْ
بِهَوَاهُ، وَقَامَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ عَلَى ثَنَائِيَّةٍ مِنَ الْفَرْدِيَّةِ الْمُهْذَبَةِ وَالْغَيْرِيَّةِ النَّبِيلَةِ،
يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ سِرَّ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْجَمَاعَةِ سِرَّهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّوَاضُّلُ الْإِنْسَانِي
الصَّحِيحُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ خَيَالِيًّا، وَكَانَ فِي وَلَدِ النَّبِيِّ وَاقِعًا.

طَبِيعَةُ سَمَتْ عَنِ الْأَنَانِيَّاتِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ اسْتَطَاعَ، فِي مُجْتَمَعِهِ، أَنْ يُذِيبَ «أَنَا»
فِي «نَحْنٍ»، وَحَارَبَ طَوَالَ جِهَادِهِ الَّذِينَ أَذَابُوا بِأَحَابِيلِهِمْ «نَحْنُ» فِي «أَنَا»، فَكَانَ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مُجْتَمَعِ مُحَمَّدٍ أَنْ يَقُولَ «نَحْنُ» وَلَيْسَ فِيهَا كِبَرِيَاءُ الْفَرْدِيَّةِ وَعُتُوُّهَا،
وَأَمَّا فِيهَا نُبُلُ الْغَيْرِيَّةِ وَوَحْدَتُهَا، وَأَشْتِرَاكِئَتُهَا وَتَعَاوُنُهَا.

وَقَدْ تَرَكْتُ ذِكْرَ هَذَا الْفِدَاءِ فِي طَبِيعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ آسَتَى رَجُلًا، زَمَنَهَا
الْإِنْسَانِي وَمَعْنَاهَا النَّبِيلُ. فَلَمْ يُبَالِ تَحْتَ ذِكْرَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ مَغْرَاهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَ،
فِي نَفْسِهِ، فِدَاءَ الْفِكْرَةِ الَّتِي إِذَا تَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا عَادَ مَخْلُوقًا بَغِيضًا، يَنْحَطُّ عَنْ أَنْ
يَكُونَ فِدَاءَ الْحَيَوَانِ ذِي الطَّبِيعَةِ السَّادِجَةِ، وَفِيهَا إِثَارٌ دُونَ قَصْدٍ، وَفِيهَا فَنَاعَةٌ دُونَ
شُعُورٍ، وَفِيهَا رَغَبَاتٌ^(٢) قَاصِرَةٌ.

(٢) نَعْنِي بِالرَّغَبَاتِ الْقَاصِرَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَ يَتَفَعَّلُ بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ كَالْجُرْعِ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى طَعَامٍ تَنَاوَلَ مِنْهُ
حَاجَتَهُ، وَعَفَى عَنِ الْبَاقِي، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يَتَنَاوَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ فِيهِ رَغْبَةُ النَّهْمِ حَزَنَتَهَا فَتَحْمِلُهُ عَلَى
أَدْخَالِ مَا فَضَّلَ عَنْهُ دُونَ الْآخَرِينَ. فَلَدَى الْحَيَوَانِ إِثَارٌ دُونَ شُعُورٍ، وَبِالْجُمْلَةِ تَكُونُ رَغَبَاتُهُ قَاصِرَةً، بَيْنَمَا
رَغَبَاتُ الْإِنْسَانِ شَرِهةٌ مُسْتَحْوِذَةٌ. وَالتَّاسُّخُ لَدَى الْحَيَوَانِ عَلَى الْمُقَوِّمَاتِ الْحَيَرِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حِينَ الشُّعُورِ
بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ التَّاسُّخَ لَدَى الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا قَائِمٌ عَلَى أَدْخَالِهَا شَرَهَا وَأَحْتِيَازًا، فَكَانَ الْحَيَوَانُ
بِالطَّبِيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ.

أَشْرَفَ النَّبِيُّ فِي هَئَاءِ الْجُمُوعِ وَبِهَاءِ الْحَقْلِ، قَالَ:

«أَرُونِي آبْنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟»

قَالَ عَلِيٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْبًا.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ!.

تَهَامَسَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: سَمَّاهُ النَّبِيُّ حُسَيْنًا، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمِّهِ وَنَفْسِهِ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ شَلِيمَانَ: هُوَ كَذَلِكَ حُسَيْنٌ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَى التَّكْبِيرِ.

فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ: لَكَأَنَّ النَّبِيَّ كَرِهَ اسْمَ حَرْبٍ.

قَالَ عِمْرَانُ: نَعَمْ. إِنَّ الْحَرْبَ شُدُوزٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ يُصِيبُهَا بِالْإِثْكَاسِ، وَالنَّبِيُّ تَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّةُ، يَكْرَهُ مَا هُوَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَوْ بِمَنْزِلَةِ الْآسَمِ، لِأَنَّهُ جَاءَ لِتَقْيِيمِ الْإِنْسَانَ عَلَى قَاعِدَةِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَفَيْمَ حَرْبُنَا إِذَا؟

قَالَ عِمْرَانُ: إِنَّ الْحَرْبَ هُوَ الْعُدَاوَانُ طَمَعًا وَغُتُوًّا وَأَضْطُّهَادًا، وَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ الضَّارِيَةِ الَّتِي تَشْتَضِيقُ، عَلَى رَحَابَةِ الْوُجُودِ، يَغَيِّرُ ذَاتَهَا فَتَشْتَجِيبُ إِلَى الْعُدَاوَانِ وَتُنَازِعُ الْآمِنِينَ عَلَى بَقَائِهِمْ. وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نُكَافِحُ هَذَا الْعُدَاوَانَ لِنُخَلِّصَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَدْرَانِ الضَّرَاوَةِ الْبَاغِيَّةِ، فَلَسْنَا نُحَارِبُ مُنَازَعَةً عَلَى الْبَقَاءِ بَلْ تَعْمِيمًا لِحُرِّيَّةِ الْبَقَاءِ، وَهَذَا لَيْسَ حَرْبًا بَلْ نِضَالٌ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَإِنَّ النُّضَالَ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَدُونِهَا إِحْسَانٌ.

فَالنَّبِيُّ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ مَبْدَأً عَلَى شَتَّى وُجُوهِهِ وَمِنْ أَقْطَارِهِ، لِيُطْفِئَ نَارَ الْحَرْبِ فِي السَّلْمِ الظَّالِمِ وَفِي الصَّرَاعِ الْعَاتِي، وَلِيَبْزُدَ ذُنُوبَ الْبَشَرِ إِلَى الذُّنُوبِ بِتَمْزِيقِ

أَقْنَعْتِهِمْ فَيَسْلَمَ الْإِنْسَانُ.

وبهذا كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ حَارَبَ الْحَرْبَ، وَأَلْغَى مَشْرُوعِيَّتَهَا، وَأَغْلَرَ حُرْمَةَ
الْإِنْسَانِ أَيَّامًا، وَرَوَى التَّارِيخَ نُبْلَ الْجِيَهَادِ. وَكَانَ فِي تَسْمِيَّتِهِ الْوَلِيدَ حُسَيْنًا، بَعْدَ
تَسْمِيَّتِهِ حَرْبًا، إِعْلَانًا بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْحَرْبِ لَنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا إِحْسَانًا، وَفِي سَبِيلِهِ.
وَفِي تَهَامُسِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَلِيدَ أَنَّهُ أَلَمَ زَاهِقَةً، كَانَتْ إِذَا نَا بِخِتَانِهِ. وَكَانَ
مَعْرِى الْخِتَانِ، فِي إِشْرَاقِ الرُّوحِ، أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الْغَرَائِزِ زَائِدَةٌ تَذْهَبُ فِي شُدُودِهَا
وَأَتَوَائِهَا حَدًّا تَضَعُهَا فِي مَسَافٍ الْمَسَاقِطِ وَمَاتِيهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ الْغَرَائِزِ لِسُمُورِ
الرُّوحِ وَكَمَالِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيمِ الْغَرَائِزِ لِدَرْكِ الْمِثَالِيَّةِ وَبَالَتِهَا الَّتِي، بِهَا جَمِيعًا،
يُمَلِّكُ الْبَشَرِيَّ إِنْسَانِيَّةً صَحِيحَةً تَضَعُهُ فَوْقَ الْوَاقِعِ وَدُونَ الْأَحْلَامِ...

*

بَعْدَ حِينٍ، كَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ يَمُوجُ فِي حِجْرِ جَدِّهِ
الْعَظِيمِ...

وَهُوَ يَزِمِي بَعَيْنَيْنِ سَادِرَتَيْنِ، أَرْخَتْ عَلَيْهِمَا الْجُفُونَ كِلَاهُمَا فَلَا تَرْخَرُحُ إِلَّا
بِفُتُورٍ...

ضَجَعَةٌ فِي جَوْ الْأَحْلَامِ، كَانَ يَرْتَضِعُ فِيهَا الْوَلِيدُ «إِنْهَامَ جَدِّهِ» الْبَطَلِ
النَّبِيِّ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الرُّضَاعِ مَعْنَى التَّذْيِ بَلْ مَعْنَى الْقَلْبِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ كَانَ لَهُ
مِنَ الثَّبُوتِ طِبَاعُهَا، وَمِنَ الْبُطُولَةِ تَضَحِيَاتُهَا...

*

ضَجَعَةٌ كَأَنَّهَا ضَجَعَةُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَالَةِ الثُّورِ، أَوْ ضَجَعَةُ النَّجْمِ فِي الْأُفُقِ

المشهور!...

أَغْفَى فِيهَا إِغْفَاءَةَ الْخَيْشِفِ عَلَى ثُدْيِ الْأُمُومَةِ الْحَانِيَةِ...
وَأَرْتَسَمَتْ ظِلَالُ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى لَوْحٍ، كَانَ صُورَةً لِبُطُولَةٍ تُغَذِّيها نُبُوَّةٌ!...
إِبْهَامٌ كَانَ صِلَةً مَعْنَى بِمَعْنَى، وَشَرِيطاً تَسْرِي عَلَيْهِ رُوحٌ إِلَى رُوحٍ...
فَلَمَّا آسَتْوَتْ نَفْسُ الْوَلِيدِ تَأَلَّقَتْ، وَكَانَتْ بُطُولَةً مُضِيَّةً مِنْ وَرَائِهَا نُبُوَّةٌ
تَمُدُّهَا بِالضِّيَاءِ...

*

هُنَاكَ فِي وَادِي الْعَقِيقِ^(٣) كَانَتْ جُمُوعُ السَّمَارِ تَنْتَظِمُ حَلَقَاتٍ حَلَقَاتٍ كَمَا
شَاءَ الْهَوَى فِي عَفْوٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ السَّمَرِ مُحِبِّباً إِلَى أَهْلِ
الْمَدِينَةِ، بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ رُوحٍ مَرِحَةٍ، لَا خَرَجَ فِيهَا وَلَا تَعْقِيدَ. وَلَمْ يَكُنْ مَرَحُهُمْ
أَثَرُ رُوحٍ مَكْدُودَةٍ غَرَاهَا تَطْيِيرٌ وَتَشَاوُؤٌ بِالْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا، فَهِيَ تَقَرُّ إِلَى الْخَلَاءِ، إِلَى
الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَهِيَ تَضْطَنُغُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمَرَحِ لِتَنْسِيَ هُمُومَهَا الْمُشْتَعِلَةَ وَضَنَاهَا
اللُّغُوبَ، وَهِيَ تَنْضُو أَثْوَابَهَا الثَّقِيلَةَ وَأَغْلَالَهَا الْآسِرَةَ الْعَانِيَةَ لِتَنْسِيَ ذَاتِئِتِّهَا، بِمَا فِيهَا
مِنْ غُنْصَرِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمُزْهِقَيْنِ، لِتَعْبَثَ، لِتَلْهُوَ هَارِبَةً مَذْعُورَةً... تِلْكَ طَبِيعَةُ
رُوحٍ مُعَقَّدَةٍ حَجَّرَهَا الْجِدُّ الْخَشِنُ، فَهِيَ لَا تَقْتَأُ شَاعِرَةً بِالْخُشُونَةِ فَيَشِيعُ فِيهَا التَّجَهُُّمُ
وَالْتَّقْطِيبُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، مِنْ قُرْبٍ أَوْ
مِنْ بُعْدٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ طَبِيعَتُهُمْ، أَوَّلَ مَا بُنِيَتْ، عَلَى مَرَحٍ كَادَ يَكُونُ مُجُوناً دُونَ قَيْدٍ،

(٣) إِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِكُلِّ مَسِيلٍ يَشُقُّ الْأَرْضَ وَيُوسِغُهَا عَقِيقاً. وَفِي يَلَادِ الْعَرَبِ أَرْتَمَةُ أَعَقَّةٍ، وَمِنْهَا الْعَقِيقُ
الَّذِي هُوَ بِنَاجِيَةِ الْمَدِينَةِ فِيهِ غَيُونٌ وَتَخِيلٌ وَقُصُورٌ وَدُورٌ وَمَنَازِلُ. رَاجِعْ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِيَاقُوتَ، ج ٦،
ص ١٩٨.

وعلى يسرٍ كاذٍ يكونُ أنطلاقاً من كلِّ قيدٍ، فشاعت فيهم سماحةٌ مُشرقةٌ،
وأنطبت على أفواههم بسماتٌ مُشعةٌ تُمَدُّها نُعمَةٌ في الطبع تأبى إلا أن تُظهرَ في
دُعابةٍ مُنطليقةٍ عارِضةٍ، وهي إن جدت تكونُ مُتكلفةً في الجِدِّ، كما تكونُ تلكَ
الطبيعةُ مُتكلفةً في المَرَحِ.

وأَيُّ شيءٍ هذه الحياةُ إذا كانت لا تَمُنُّنا قلباً سعيداً لم تَتَحَجَّرْ فيه السعادةُ،
والجِدُّ لا يَصِلُ المَرَّةَ بالسعادةِ، لأنها أنطلاقٌ، وهو جُمودٌ يُحَجِّرُها كما يُحَجِّرُ كُلَّ
شيءٍ ويتَّصلُ به، فيُضَيِّعُ فيه حيويَّتَهُ ويَغْرِزُهُ من رُوحِهِ... هكذا كانَ يَتَحَدَّثُ، في
مَجْمَعِ وادي العقيقِ، نُعَيْمانُ^(٤)، طُرفةُ أهلِ المَدِينَةِ، الذي لَوَّلا ما دَخَلَهُ من عُنْصِرِ
المادَّةِ الحَيَّةِ لكانَ رُوحَ التَّادِرَةِ المَبْدِعةِ.

لَيْلَةٌ كانت من هِباتِ القَمَرِ، وهو يَدنو فيها كثيراً، وَيَشُعُّ كثيراً حتَّى لَيَحْئِلُ
أنَّهُ يَتَحَدَّى الشَّمْسَ في بهاءٍ وطراوةٍ يُشْعِرانِ بالجمالِ. ودعاها العَرَبُ «أُصْحِيانَةً»،
كأنَّما جُمِعَ فيها الضُّحى أو جُمِعَتْ فيه، والضُّحى إغراءٌ باليقظةِ، بيدَ أنَّ ضُحى
الشَّمْسِ إغراءٌ بحياةِ التَّكاليفِ والذُّكْرِ واليقظةِ على الجَسَدِ والواقعِ القُطُوبِ،
وضُحى القَمَرِ إغراءٌ بحياةِ وِراءِ الحياةِ، كُلُّها حُرِّيَّةٌ وأنطلاقٌ، وكُلُّها نِسيانٌ وولادةٌ
من جديدٍ في اللَّحْظَاتِ.

إنَّ الذُّكْرَ، وفيها عُنْصَرُ الثَّباتِ والجُمودِ، تَجْعَلُ الحياةَ ضَرْبَةً لارِبٍ في
مَرارَتِها وسامَتِها وملالِها، والنَّسيانُ سَيْلٌ مِنَ التَّجَدُّدِ والصَّيرورةِ، يَجْعَلُ الحَيَّ في
كُلِّ الآناتِ مَوْلوداً جديداً يَتَقَلَّبُ في أسبابِ الطُّفولةِ النَّاعِمَةِ الهانئةِ. فَمَدَارُ الشَّمْسِ
دُنْيا من العَمَلِ والوَعْيِ الجَهِيدِ، ومَدَارُ القَمَرِ دُنْيا مِنَ النَّشْوةِ واللَّوْعِي الحالِمِ... كذا

(٤) هو نُعَيْمانُ بْنُ عَمْرِو بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ بَنِي النَّجَّارِ. تُوفِّيَ في زَمَنِ مُعاويةَ. كانت تَقْلِبُ عليه رُوحُ الفُكاهَةِ
والتَّادِرَةِ، وكان يُداعِبُ النَّبِيَّ. ذَكَرَهُ الرَّبِيعُ بْنُ بَكَّارٍ في كتاب: الفُكاهَةِ والمزاح، وَذَكَرَهُ أَبُو الحُزَري في
كتاب: الظُّرافِ والمُتَماجِنين، وَتَرَجَمَ لَهُ بَتَوْشِعُ أَبُو حَنِبَرٍ العَشَقَلانِيُّ في كتاب: الإِصابة، ح ٦، ص ٢٥٠

قال نُعَيْمانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكان يُسَمِّي لِيالي القَمَرَ ضُحى الأَحلامِ، لأنَّها صَحَوَاتٌ في أَعَمَقِ سُكْرِ، وَلَحْظَاتٌ شِعْريَّةٌ تَفِرُّ من عَتَبَاتِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي أَذْناها القَمَرُ المَسحورُ من آفاقِها المُطَلَّةِ القَريَّةِ.

قال رَجُلٌ من الحُضُورِ: لو شاءَ نُعَيْمانُ حَدَّثنا حَدِيثَ هَداياه^(٥) الَّتِي سَتَبَقِي رَمَزَ خُلُودِهِ، وإنَّ كانَتْ تَطْفِيلاً في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَغْنى، التَّطْفِيلَ في النِّهَمِ وَلَيْسَتْ تَفْضُلُهُ، وعلى أَيِّ حالٍ فإنَّها سَخاءٌ مُضْحِكٌ، وهو مَعَهَا ضُحْكُهُ الأَسْخِياءِ. فَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُهورِ رَنَّةٌ مُقَهِّقَةٌ، أَنْطَلَقَتْ وَتَرَامَتْ أَبْعَدَ ما تَتْرَامِي الأَصْداءُ في مَطارِحِ الخَلْطاءِ.

قال نُعَيْمانُ: أَمَّا أَنْتَ فَضُحْكَةُ البَحْلاءِ، وَمَغْنَاهُ أَنَّكَ أَكْثَرُ من بَخِيلٍ. وَأنا يَسْرُني أَنْ أَكُونَ، كما تَقُولُ، أَكْثَرُ من كَرِيمٍ، وإِنِّي لا أَرَاكَ في طَبِيعَتِكَ إِلَّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَأَزْتَفَعَتِ الأَصْواتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: وما مِثْلُ الزَّهْرَةِ الَّذِي ذَكَرْتَ؟ قال نُعَيْمانُ: رَعَمُوا أَنَّ فَراشَةَ مُلَوَّنَةً تُخالُ كَأَنَّها زَهْرَةٌ حَيَّةٌ طائِرَةٌ، مَسَّها نَصَبُ التَّزْنِيقِ وَلَعَبُ الطَّنِينِ الَّذِي هو نَشِيدُ أمانِي الفَرَّاشِ، وهي قاصِدةٌ إلى الحُقُولِ. فَحَطَّتْ مُعْتَبِطَةً على زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كانَتْ تَمِيسُ بَيْنَ أَيْدِي الرِّياحِ في غُضارَةِ وَتَمَلُّو حَتَّى لَتَحَسَبُ أَنَّها تَفِيضُ غُضارَةً ومائِيَّةً، فدارَتْ عليها الفَراشَةُ دُورَاتٍ يائِسَةً كَظامِيٍّ سَقَطَ على آلٍ خَفِيٍّ، فَمَدَّتْ جَنائِها وَخَفَّتْ تَطِيرُ.

قالَتِ الزَّهْرَةُ: إِذا عُدْتُ بَعْدَ حِينٍ فَسَأَسْقِيكَ مِنْ ماءٍ يُمارِي الوَفِيرَ.

قالَتِ الفَراشَةُ: إِذا كُنْتُ وَأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَناتِ السَّرابِ، فَإِنَّ ماءَكَ، وَأَنْتِ

(٥) ذَكَرَ خَتَرها أَبُو حُجْرٍ في: الإِصابة، قال: كانَ لا يَدْخُلُ المَدِينَةَ طُوقَةً إِلَّا اشْتَرى بِها ثَمَ جاءَ بها إلى النُّبِيِّ، فيقولُ هَا أَهْدَيْتُهُ لَكَ. فإذا جاءَ صاحِبُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمانَ بِتَمَنِيهِ أَحْضَرَهُ إلى النُّبِيِّ وقالَ: أَغْطِ هذا ثَمَنَ مَتاعِهِ، فيقولُ النُّبِيُّ: أَوْلَمْ تُهْدِهِ لِي؟ فيقولُ: إِنَّه وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَنُهُ، وَلَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فيَضْحَكُ وَيَأْمُرُ لصاحِبِهِ بالثَمَنِ، وَذَكَرَها أَبُو الحُوَزي في كِتاب: الطَّرافِ والمُتَماعِجِ، وغيرُ واجِبٍ مِنَ المُؤَلِّفِينَ في الثَّوَادِيرِ.

ثَمَرَةٌ، غُصَارَةٌ مُسْتَنْقَعٌ كَرِيهٌ، فَزَهْرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الزَّهْرِ وَثَمَرِكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الثَّمَرِ، فَإِنَّ الزُّورَ إِذَا اسْتَحَالَ فَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زُورٍ أَكْبَرَ.

وَهَدَايَايَ الَّتِي كُنْتُ أَسُوقُهَا إِلَى النَّبِيِّ إِنْ كَانَتْ تُعْبِرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا تُعْبِرُ عَنْ مَكَانِ التَّدْيِ وَالسَّمَاحَةِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَبِيرِ، وَهُوَ لَا يَقْتَأُ يَأْخُذُنَا بِالْوَانِ مِنْهُ، وَيَمْلَأُ جَوْ حَيَاتِنَا بِطَرَاوِيهِ، وَقُصَارَاهُ أَنَّهُ أَخْرَجَنَا مِنْ بَدَاوَةِ الطَّلْعِ، وَزَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَكَانَ أَحَدَ الْحُضُورِ: إِنَّ الْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي بَلَحْنِ حَدِيثِكَ وَاقِعَةً شَهِدْتُهَا. كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ «وَقَدْ أَخَذَ وَلِيدَهُ الْحُسَيْنَ يَذْلَعُ لَهُ لِسَانَهُ فَيَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَتَهُ فَيَهْشُ إِلَيْهِ، وَغَيْبَتُهُ بُنْ بَذْرِ حَاضِرٍ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، فَوَاللَّهِ إِنْ لِي الْوَلَدَ وَمَا قَبِلْتُهُ قَطَّ.

قَالَ النَّبِيُّ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ حَكِيمًا: كَمْ كُنْتُ جِدًّا مُحْسِنٍ يَا نَعِيمَانُ بِقَوْلِكَ «وَقُصَارَى النَّبِيِّ أَنَّهُ زَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غَايَةَ مَا يُقَالُ فِي أَخْصَرِ مَقَالٍ، وَإِنَّهُ لِيُوحِي بِشَيْءٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ أَطْرَقَ فِي تَأْمُلٍ لَمْ يَطُلْ بِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ مَسَّ الْجَمْعَ، فَنَقَلَهُمْ مِنْ جَوْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَرَجِهِ إِلَى جَوْ نَفْسِهِ فِي تَأْمُلِهِ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَطْرَدَ يَقُولُ: لَا أَذْرِي مَاذَا تَرَكَ فِي أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّهُ أَيْقَظَ نَفْسِي عَلَى السِّرِّ الْإِلَهِيِّ فِي مُحِيطِ الْكَوْنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاسُطٍ وَنِظَامٍ، وَجَمَالٍ وَتَنَاعُجٍ. وَإِذَا كَانَتْ قِصَّةُ الْمَثَلِ^(٦) تُعْبِرُ عَنْ وَاقِعِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى قِمَمِهَا، وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرَّحْمَةُ، فَإِنَّهَا الْمَغْنَى الْأَزْلِيَّ الَّذِي أَنْبَثَتْ مِنْهُ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ الْوُجُودُ إِحْدَى ظَاهِرَاتِهَا، وَهِيَ فِيهِ مِقْيَاسُ الْقِيَمِ، وَنَحْنُ لَنْ نَتَّصِلَ بِالْحَقِيقَةِ

(٦) أَنِّي قِصَّةُ الْمَثَلِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الَّتِي تَجَمَّلُ الْحَيَرُ زَأْسَ الْمَثَلِ.

الأخلاقية والطبيعية، وتنقذ إلى أغوار المطلق إلا من طريقها، وعلى أضواؤها الملتزمة، على أن الخير الذي اعتبرت قصّة المثل رأساً ليس في حقيقته إلا امتداد الرحمة، وظاهرة من تحريكها، والجمال تجسّد للرحمة بأكثر بما هو تجسّد للخير، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونية والأخلاقية فهما مطلقاً، ونضع اليد على مقياس القيمة الحق.

وميزة الإسلام أنه جعل الرحمة دعائمه وقام عليها، ولعلّه الدين الوحيد الذي تهذى بها إلى فهم الوجود، ومقياس الأخلاق، وتركيز القانون والاجتماع، وجعلها نظرية فلسفية الأولى. فقد سمى الإسلام الله أحياناً رحيماً وأحياناً رَحْمَاناً، وحين تحدّث عن الكون قال في مقام «وسعت رحمتي كل شيء». وفي مقام آخر قال: «كتب ربكم على نفسه الرحمة». وحين تحدّث عن المجتمع العام قال: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وعن الأسرة قال: «وجعل بينكم مودةً ورحمةً». وقال النبي يصف نفسه: «أنا الرحمة المهداة». وحين تحدّث عن الأخلاق قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وما حدّثكم به أبو هريرة الآن «من لا يرحم لا يرحم» ففلسفة الإسلام قامت على قاعدة الرحمة التي عالج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه، وبثها في قانونه وأناطيمه، ودخل بها إلى الهيكل المشتعري الخاشع، والمجتمع الصالح الداوي، وكسر بها شجرة الأنانيات الضارية، وحدّ بها من مدّ الرغبات النهمّة.

وبالرحمة عالج الإسلام طبيعة الإنسان المعقّدة، ليتلّع بها مبلّع المثل الأعلى الذي عبّر عنه بقوله: «رحماء بينهم»، ولتحقق بها مبدأ الشّاحي العام «إنما المؤمنون أخوة».

وليس هناك كلمة كفيلة بأن تدلّ على روح الإسلام الشائعة في كلّ أوضاعه وتعاليمه سوى الرحمة، فهي رمز جامع لجموعة حقائقه؛ كالمحبة التي هي

الزَّمَنُ الجامع للمسيحية مِنْ أقطارها وخواشيها، وفَوْقَ ما بَيْنَهُما أَنَّ في طَبِيعَةِ الرَّحْمَةِ تَوَازُنَ القانون، وفي طَبِيعَةِ الثَّانِيَةِ خَيَالِيَّةَ التَّجْرِيد.

وعلى أساسِ مِنَ الرَّحْمَةِ يُقِيمُ النَّبِيُّ التَّزْيِينَةَ، وَيَضَعُ مَنَهِجَ الرِّبَايَةِ^(٧) السَّمْحَةَ الَّتِي تَأْذُنُ لِكُلِّ الطَّبَائِعِ بِالنَّمَاءِ في تَقْدِيرِ مَوْزُونٍ، دُونَ ما كَبَتْ يورثُ آنِيكَاساً وَآلِيَاءَ في الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ. وَلِذَا ذَهَبَ وَلِذْهُ بِخَنَائِهِ، وَلَا يَفْتَأُ يُعَادِيهِ بِشَائِبٍ حُبِّهِ التَّمِيرِ.

قَالَ شَدَّادُ بْنُ الْهَادِي: لِلَّهِ دَرْكُ أبا الدَّرْدَاءِ، فَإِنَّ فيما أَذْكُرُهُ الْآنَ شَاهِداً عَلَى ما تَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَيْنَا فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حُسَيْناً، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتَهَا حَتَّى ظَنَنْتَا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ أَتَيْتَنِي أَوْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ».

فَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: «طَرَفْتُ النَّبِيَّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ حَاجَتِي، قُلْتُ: مَا الَّذِي أَنْتَ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِ؟ فَكَشَفَهُ فَإِذَا حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وَرِكَيهِ، فَقَالَ: هَذَانِ ابْنَايَ وَأَبْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا».

وَاسْتَأْنَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حَدِيثَهُ فَقَالَ: إِنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْعُضُويَّاتِ - وَمَظْهَرُهَا الرِّقَّةُ وَالْحَذَبُ - هِيَ سِرٌّ كَيَانِ الْمَوْجُودِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَبَقَائِهِ، وَإِنَّ الطُّفُولَةَ إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ بِرَحْمَةِ الْكَبِيرِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ هُوَّةٌ بَيْنَ الطَّوْرَيْنِ، تَذْهَبُ مُتْسِعَةً كُلَّمَا ذَهَبَتْ الْأَيَّامُ مُتَمَدِّدَةً، وَتَمْتَلِئُ وَتُطْفَحُ بِالْأَحْقَادِ، فَتُخْبِو النَّشَوَاتُ الْمُغْرِيَّةُ بِالْحَيَاةِ، لِأَنَّ الطُّفْلَ لَمْ يَعُدْ

(٧) مِنْ وَضَعِنَا الْحَدِيدَ بِمَعْنَى تَزْيِينِ الطُّفْلِ، مِنْ ثَلَاثِي: رَت.

يَجِدُ حَاضِرَهُ اللَّادِّ فِي الْكَبِيرِ، وَلَآنَ الْكَبِيرِ لَمْ يَمُتْ يَجِدُ فِي الطُّفْلِ مُسْتَقْبَلَ وجودِهِ
كَحُلْمِ الْحَمْرَةِ فِي الْعُنُقُودِ.

فيمثلُ نَظْرَةَ غُيْبَةٍ بِنِ بَدْرِ إِلَى الطُّفْلِ تُورِثُ الْبُغْضَ الْخَفِيَّ، وتُذَكِّي الصَّرَاعَ
بَيْنَهُمَا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَشْعُورٍ بِهِ، فلا تَتَجَاذَبُ أَجْزَاءُ الْكَائِنِ، بَلْ تَتَدَافَعُ، وَلَا
تَتَجَانَسُ بَلْ تَتَنَافَرُ، وبذلك يَتَذَيَّرُ حُبُّ الدَّاتِ فِي مَظْهَرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَبْهَتْ
أَحْلَامُهُ فَتَبْدُو خَائِبَةً.

إِنَّ النَّبِيَّ يُوْثُّ، فِي الشَّبَابِ الْمُسْتَوِي، الرَّحْمَةَ عَلَى سَتَى أَطْوَارِهَا:
بِالشَّيْخُوخَةِ لِأَنَّهَا الْمَاضِي، فَهُوَ يَسْتَمِلُنَا بِالْحَيْنِ، وَبِالطُّفُولَةِ لِأَنَّهَا الْمُسْتَقْبَلُ، فَهُوَ
يَسْتَهْوِينَا بِالْأَمَلِ، فَتَتَوَاصَلُ أَطْرَافُ الْكَائِنِ وَتَتَّحِدُ فِي بَقَاءٍ طَوِيلٍ، وَمَحَالٌ أَنْ يَقُومَ
مُجْتَمَعٌ عَلَى الْقَسْوَةِ. فَتَحْنُ وَأَبَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا أَطْوَارُ كَائِنٍ كُزَوِيٍّ وَاحِدٍ، يَدُورُ وَيُرِينَا
فِي كُلِّ وَضْعٍ وَحِينٍ وَجْهًا، وَكُرَّةُ هَذَا الْكَائِنِ إِنَّمَا تَدُورُ بِالرَّحْمَةِ، فَإِذَا نَفِذَتْ
جَمَدَتِ الْكُرَّةُ وَذَوَتْ فِيهَا الرُّوحُ. وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَسَّخَ وَتُجْتَوَى إِذَا لَمْ تَكُنْ دُنْيَا
مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ النَّبِيُّ فِي فِرْدَوْسِهِ الَّذِي تَزْهَوُ بِهِ أَرْضُ الْعَرَبِ، وَيَلْتَمِيعُ
إِلَى بَعِيدٍ فِي إِغْرَاءِ.

إِنَّ الطُّفْلَ حَيَوَانٌ يَعِيشُ بِالْغَرِيزَةِ، وَبِالرَّحْمَةِ يُسْتَطَاعُ جَعْلُهُ إِنْسَانًا يَعِيشُ
بِالْقَلْبِ.

قَالَ نَعِيمَانُ، وَلَمْ تُفَارِقْهُ دُعَابَتُهُ: لَا غَرَوْ أَنْ كَانَتْ كُلُّ أَضْرَاسِكَ - أَبَا
الدَّودَاءِ - ضِرْسَ عَقْلٍ، أَوْ لَعْلَ لَكَ، وَحَدَّكَ مِنْ بَيْنِنَا، ذَلِكَ الضَّرْسُ... فَضَحِكُوا
وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ مُتَوَابِعِينَ إِلَى الرُّوَاكِ... «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِيحُ»...

*

فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُتَبَدِّلَةِ وَضَعَ النَّبِيُّ تَصْمِيمَ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ...

وما إنِ آسَتْوَتْ عَلَى قَوَاعِدِهَا، حَتَّى وَجَدَ فِيهَا الظَّمَاءُ التَّائِهُونَ هَيْكَلَ
السَّعَادَةِ الشَّارِدِ...

وَدُحِيتْ لَبِنَاتُهَا مِنْ كُلِّ مِثَالِيَّةٍ آلتَقَى فِيهَا الْفِكْرُ وَالْعَمَلُ، فَلَمْ تَعْلُ بِالْمِثَالِيَّةِ
فَتَطِيرَ بِهَا اللَّبِنَاتُ وَتَذْهَبَ فِي سُرُودٍ...
وَكَانَتْ الرَّحْمَةُ نَامُوسَ تَمَاسُكِهَا وَتَجَاذِبُهَا...

*

فِي هَيَاكِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ السَّعِيدَةِ كَانَ حُسَيْنٌ يَحْبُو...
وَهُوَ يَتَسَامَى فِي مُنْبَثِقِ إِشْرَاقَاتِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَمَا تَتَسَامَى اللَّالِيَةُ فِي
رَفَارِقِ التَّمِيرِ الْعَذْبِ...

فَكَانَ كَائِنًا كَالْأَلْمَاسِ، صَقَلَتْهُ الْأَضْوَاءُ وَأَنْطَبَعَتْ فِيهِ...
وَعَدَا، بَعْدَ حِينٍ، مِشْكَاءَ مُتَأَلِّقَةٍ، تَمِيسُ فِي فُضَاءِ الْهَيْكَلِ السَّعِيدِ...
وَتَهَبُ الْحَاثِرِينَ طُمَأْنِينَةَ الثُّفُوسِ، وَأَحْلَامَ السُّعْدَاءِ!...

* * *

يوم الدولة

أَضْبَحَ النَّبِيُّ وَقَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَلِيلَ كَانَ ذَاهِباً أَيْضاً فِي طَرِيقِ سَائِرِهَا، كَمَا تَذْهَبُ الرَّحَى رَاسِمَةً خَطَّ دَائِرَتِهَا فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الرَّحَى، وَفِيهَا أَنْطِلَاقٌ وَفِيهَا حَيَاةٌ، أَنْ تَرْتَسِمَ دَوَائِرُهَا وَاحِدَةً فِي أُخْرَى أَوْسَعَ مِنْهَا، حَتَّى تَتَّصِلَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ الْأَفْقُ الْمُطْبِقُ، الَّذِي هُوَ، فِي نَفْسِهِ، أَقْصَى الدَّوَائِرِ فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ.

وَالنَّبِيُّ، إِلَى هَذِهِ الْآوِنَةِ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ قَدْ قَدَفَ الدِّينَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ رُوحاً، وَسَوَّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرَّحَى فِي حَرَكَةِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ، فَأَنْطَلَقَتْ وَلَمْ تَقِفْ، وَتَفَرَّجَتْ وَلَمْ تَنْكَمِشْ. وَأَبْدَأَ يَقَعُ مِقْيَاسُ الْحَيَاةِ الشَّامِكَةِ فِي الْحَرَكَةِ، بِمِقْدَارِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخُطَّ خُطُوطاً جَدِيدَةً دَائِماً، وَتَنْثُرَ فِي مَدَى خُطُوطِهَا حَيَوَاتٍ لَا تَغِيضُ دَفْقَاتِهَا، وَلَا تَحْبُو إِشْعَاعَاتِهَا، وَلَا تَبْهَثُ أَلْوَانُ أَحْلَامِهَا...

كَانَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ بِهَا عَهْداً جَدِيداً، فَقَدْ هَيَأَ النَّبِيُّ الْأَسْبَابَ لِلإِعْلَانِ عَنْ وِلَادَةِ دَوْلَةٍ فِي الْمُنَايَ الْبَعِيدِ الْمَجْهُولِ الْقُوَى، وَالْمَعْدُودِ الرِّغَابَاتِ. فَتَنَظَّمُ طَائِفَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، تَحْمِلُ رِسَالَةَ الدِّينِ وَالْدَّوْلَةِ جَمِيعاً، فَقَدْ أَضْحَى نَبِيٌّ فِكْرَةَ وَزَعِيمَ دَوْلَةٍ.

وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَنْبَجَسَتْ مِنْ يَنْبُوعِ النُّبُوَّةِ، قَدْ أَمْتَدَّتْ وَهِيَ تَمْتَدُّ، فَكَانَ

لا بُدَّ للدَّولةِ، وَقَدْ تَرَكَّزَتْ، أَنْ تَتَحَرَّكَ لِيَتِمَّتْ أَيْضاً. وَدَائِماً تَظَلُّ الْفِكْرَةُ فِي إِحْسَاسِ التَّارِيخِ هَزِيلَةً، إِذَا لَمْ تُرَافِقْهَا الدَّولةُ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلَاقَةً وَمُعَيَّرَةً، وَالْفِكْرَةُ لَا تَكُونُ قَابِلَةً لِتَقْوَمَ عَلَى أُسَاسِهَا الدَّولةُ دَائِماً، وَإِنَّمَا هِيَ فَقَطُ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَجْتَمَعَتْ^(١) فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ وَقَابِلِيَّاتِهِ الرَّائِكَةِ، وَاتَّبَعَتْ فِيهَا عَلَى شَكْلِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَنِ أَنَّهَا مِنْهُ، وَمَصِيرُ الْأَفْكَارِ الْأُخْرَى أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ إِلَى نَأْمَاتٍ خَافِتَةٍ فِي أُذُنِ الدَّهْرِ، وَسَمِعِ التَّارِيخِ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْفِكْرَةِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا قُوَى تَارِيخِيَّةٌ كُبْرَى وَتَنْجَحُ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَخَلْقِ تَارِيخٍ جَدِيدٍ، أَنْ تَكُونَ فِيهَا عَنَاصِرُ الثَّوَرَةِ كَامِلَةً، الثَّوَرَةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ مِنْ يَقْظَةِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِكَةِ.

وَلَأَنَّ تَعَالِيمَ النَّبِيِّ مِنْ هَذَا النَّوعِ الَّتِي أَجْتَمَعَتْ فِيهِ قُوَى التَّارِيخِ كَانَتْ لَا تَتَّصِلُ بِمُجْتَمَعٍ إِلَّا وَتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا، فَتُلْهِبُهُ وَتُحْرِقُ عَلَيْهِ زُيُوفَهُ وَتُغَيِّرُهُ تَغْيِيراً تَاماً، حَتَّى كَأَنَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا لَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ. بِذَلِكَ نَبَحَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ وَنَبَحَتْ دَوْلَتُهُ، وَفِيهَا الْقُوَى لِتَنْجَحَ كُلَّمَا حُرِّكَتْ وَاتَّبَعَتْ.

وَكَانَتْ كُتُبُ النَّبِيِّ إِلَى الْمُلُوكِ أَوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي التَّارِيخِ، دَعْوَةٌ دَوْلِيَّةٌ عَامَّةٌ لِلدُّخُولِ فِي النُّظَامِ الْجَدِيدِ، وَجُجِّهَتْ عَلَى شَكْلِ كِتَابٍ رَسْمِيٍّ. كَمَا كَانَتْ إِعْلَاناً بِوِلَادَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ، الَّتِي فِي ضَمِيرِ الزَّمَنِ عَنْهَا: أَنَّهَا كُلَّمَا وُلِدَتْ حَقّاً يَتَغَيَّرُ وَجْهُ التَّارِيخِ.

(١) وَمَعْنَى أَجْتَمَاعِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِكَةِ فِي الْفِكْرَةِ، أَنْ تَشْتَمِلَ الْفِكْرَةُ الْجَدِيدَةُ عَلَى كُلِّ الصَّرُورَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، سِوَاهُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْحَيَاةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَمِثَالُهُ: أَنَّ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي دَوْلَةِ فَارِسَ ثُمَّ تَخَلَّفَتْ، وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الرُّومَانِ، وَدَوْلِ الْأَرَضِ إِذْ ذَاكَ، وَجَدَتْ سَبِيلَ ظُهُورِهَا وَقَابِلِيَّةَ انْبِعَاطِهَا فِي الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَاتَّبَعَتْ فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ رَكَدَتْ فِي الْأُمَمِ حَبِيداً، وَكَذَلِكَ كُلُّ فِكْرَةٍ فِي كُلِّ دَوْرٍ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ الْإِنْتِدَادِ وَالْحَيَاةِ وَالشَّيْطَرَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِانْبِعَاطِ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةِ فِيهَا الَّتِي تَخَلَّفَتْ فِي أَوْضَاعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

في هذه الفترة كنتُ تُحِسُّ في كُلِّ نَحْوٍ من أنحاء المدينة بحركة نشاط غريبة، وتسمع همساتٍ مُستطيلة مُتصلة الهمهمات، ولم يكن للناس حديث إلا حديث الكتب، وماذا سيكون رجوعها وزد الملوك عليها؟ وكان، في الطريق الآخذ إلى العوالي، جماعة أنتحَتْ بنفسها ناحية ظليلة تكاثفتها أوراق الأغصان الوارفة. فقال قائل: أما ترون أنها محاولة خطيرة، قد تؤلّب علينا جماعات الأمم، وهي تُحيطُ بجزيرتنا إحاطة السوار بالمعصم، فإن نفسي تتأشها المخاوف، وتتفسمها شعاعاً.

قال المقداد بن الأسود: لا ينفخ سحر^(٢) بالأوهام، ولا تُرْع، وسر عن نفسك المخاوف. إن لنا من قوانا الجمعية ما يجعلنا كتلة من الصلب، من ورائها الإيمان يُشدنا، ومن وراء الإيمان الله واهب القوى والقدر، فلنا زهب عاتياً من البشر. وإن النفس التي رأت وجودها في الله، تتطاول بها القوى، وتتقاصر في مدى اعتبارها أية قوى أخرى، فتنفذ، وهي قلة راعدة، من مصدر القوة الكبرى. وحظ الإنسان من الحياة، كما هو في مرآة نفسه التي هي ينبوع المطلق، وليس كما هو في مرآة الوجود التي لا تعكس إلا نسيئة وظلالاً خادعة مختلطة. وإن الوجود كائن بسيط، وهو لا يملك إلا حقائق بسيطة، وأما حقائق الوجود العظمى فهي من هبات الإنسان على الوجود. والإنسان ليس كائناً مُنفصلاً من الوجود فقط، بل هو أداة خلق وتكميل فيه... فالحياة وأشياؤها، والوجود المعنوي وفكرته، بدعة هذا الإنسان العجيب الذي لولاه لظل الوجود بسيطاً ساذجاً خلواً من الإغراء.

والإنسان الذي لا يفتأ يطلب كبرياء الوجود، ويحس بنشوة وجوده في حدود هذه الكبرياء، بل لا يحس بالوجود بعيداً، ليس كائناً طبيعياً، وإلا فهو،

(٢) تغير كيانني استغفلة الغر في الجاهلية وفي الإسلام بمعنى: لا يملك الرغث والهلع أخشائك وريثيك.

كَكَائِنٍ طَبِيعِيٍّ، شَيْءٌ تَافَهُ مِثْلُ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ يَنْمُو وَيَذْوِي بَيْنَ فُتْرَاتٍ مِنَ الزَّمَنِ.

وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ بِالْإِنْسَانِ، وَهَذَا لِلْإِيمَانِ بِالْوُجُودِ الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ وَثِيْقَةٌ تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِيمَانِ بِنَفْسِهِ وَمَعْرِفَتِهَا، وَإِلَى هَذَا يَزُمُّ قَوْلُ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».

فَالْإِنْسَانُ كَائِنٌ إِلَهِيٌّ إِذَا فَهِمَ نَفْسَهُ، وَكُلَّمَا رَسَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَآمَنَ بِقُوَاهَا، فَقَدْ رَسَبَ وَتَلَاشَى فِي غِمَارِ الْوُجُودِ الصَّامِتِ، وَعَادَ كَحَقِيقَةٍ هَامِدَةٍ مِنَ الرَّمَالِ. وَالنَّبِيُّ بَشَرٌ بِالْإِنْسَانِ «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» وَحَارَبَ الْوَثْنِيَّةَ لِأَنَّهَا كُفِّرَ بِهِ، وَارْتَدَّ إِلَى تَأْلِيهِ مَظَاهِرِ الْوُجُودِ الْخَادِعَةِ، وَجَاءَ بِتَوْحِيدِ الْآلِهَةِ لِأَنَّهَا كُلَّمَا تَعَدَّدَتْ تَلَاشَى الْإِنْسَانُ فِي سَاحَتِهَا.

وَمَا أَنْكَسَفَ قَمَرُ الْإِنْسَانِ فِي أُمَّةٍ، وَارْتَدَّتْ بِعِبَادَتِهَا إِلَى تَقْدِيسِ الطَّبِيعَةِ دُونَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا هَوَتْ مُضْمَجَلَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَلَائِمِ اخْتِصَارِهَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ، وَخَدَهُ، هُوَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ حِينَ خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَى صَوْرَتِهِ.

وَالْقُوَّةُ - يَا هَذَا - كَيْفِيَّةٌ لَا كَمِّيَّةٌ، وَلَيْسَتْ كَمَا هِيَ فِي مِرَاةِ الْوُجُودِ، بَلْ كَمَا هِيَ فِي وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ، وَالظَّفَرُ دَائِمًا يَكُونُ بِخَيَالِ الْقُوَّةِ وَمُبَالَغَاتِهَا فِي النَّفْسِ «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ». فَوَاللَّهِ لَوْ قَذَفَ بِنَا النَّبِيُّ إِلَى بَرَكِ الْغِمَادِ وَإِلَى كُلِّ مَدَائِنِ كِشْرَى وَقَيْصَرَ مَا وَثِنَا وَلَا نَكَلْنَا؛ وَنَحْنُ لَا بُدَّ ظَافِرُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: عَهْدُنَا بِكَ أَنْكَ بَطْلٌ، فَهَا أَنْتَ حَكِيمٌ أَيْضًا...

قَالَ الْمُقْدَادُ: إِنَّ الْبَطُولَةَ مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، فَإِذَا بَرَزَتْ فِي الْعَمَلِ قِيلَ عَنْهَا بَطُولَةٌ، وَإِذَا بَرَزَتْ فِي الْفِكْرِ قِيلَ عَنْهَا حِكْمَةٌ. فَالْبَطُولَةُ حِكْمَةٌ صَامِتَةٌ، وَلَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ بَطْلًا إِلَّا إِذَا سَبَقَ وَعَرَفَ نَفْسَهُ، أَيْ كَانَ حَكِيمًا، وَالنَّبِيُّ سَبَقَ وَعَرَفَنَا بَأَنْفُسِنَا،

فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ كُلُّ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أَبْطَالًا.

وَيَبْنِي هُمْ عَلَى تَبْشِطِهِمْ فِي الْحَدِيثِ، عَرَضَ رَاكِبٌ مُجِدُّ يُغْدُ الْخَطِي غَدًا،
وَحِينَ حَاذَاهُمْ قَامَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ وَحَقُّوا بِهِ مُلْقِينَ إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ.

وَقَالُوا بَلَهْجَةِ الْمُتَنَظِّرِ: مَا وَرَاءَكَ؟ وَكَانَ هُوَ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ النَّبِيُّ بِالْكِتَابِ
إِلَى كِشْرَى.

قَالَ الرَّايِبُ، وَقَدْ أَلَوَى رَأْسُهُ حَتَّى حَاذَى رُؤُوسَهُمْ: إِنْ كِشْرَى بَلَغَتْ بِهِ
حِمَاقَتُهُ أَنَّهُ مَزَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ مُسْتَحِفًّا حَانِقًا، فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَتُهُ سَالِمًا عَدَا
عَلَيْهِ آبَتُهُ فَقَتَلَتْهُ، وَقَامَ مَقَامَهُ، وَشَمَلَ النَّاسَ كَافَّتَهُمْ نَوْعٌ، بَلْ أَنْوَاعٌ، مِنَ الدُّهُولِ
وَالدَّهْشَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَتَرَكْتُهُمْ وَهُمْ يَمُوجُونَ كَالْأَذْيِ ذِي الْأَمْوَاجِ الْعَارِمَاتِ...
فَتَعَلَّقُوا بِمَسَائِلِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَكِنَّهُ حَثَّ مَطِئَتَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسِيرُ، فَأَنْقَلَبُوا إِلَى
بَعْضِهِمْ يَتَعَجَّبُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَقَدْ صَدَقَ الْمِقْدَادُ وَاللَّهُ حِينَ قَالَ: إِنَّ الْإِيمَانَ إِذَا خَبَا،
حَلَّ مَحَلَّهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ قِيَمَتَهُ. وَالْمَثَلُ الْعُلْيَا وَالْمَغْتَوِيَّاتُ الْخَالِدَةُ، وَهِيَ تَتَّبِعُ مِنْ
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، لَا يَعُودُ لَهَا وُجُودٌ فِي جَوْهٍ وَفَضَائِهِ، فَيَسْطِرُّ عَلَيْهِ نَوْعٌ حَادٌّ
مِنَ التَّفَاهَةِ يَقْعُدُ بِهِ عَيْنَ الْمَجْدِ، وَنَوْعٌ حَادٌّ آخَرُ مِنَ الْمَلَالِ يَهْبِطُ بِهِ إِلَى الرُّغَامِ. وَفِي مَا
نَقَلَ إِلَيْنَا الرَّسُولُ الْآنَ مِنْ حَالِ الْفُرْسِ شَاهِدٌ جِدُّ خَطِيرٍ، فَهُمْ أُمَّةٌ جَهْلُ الْإِنْسَانِ
فِيهَا قِيَمَتُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ وَلَا قِيَمَةَ لَهَا، رُوِيَ أَنْ تُشْرِقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ إِنْسَانِيَّتِنَا
الْجَدِيدَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى خَقُّوا، بِغَضُّهُمْ فِي إِثْرِ بَعْضٍ، وَوَأَفُوا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ
النَّاسُ يَمُوجُونَ مَوْجًا، فَقَدْ هَبَطَ أَيْضًا الرَّسُولُ إِلَى قَيْصَرَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِقْدَارَ آخْتِرَامِ
قَيْصَرَ لِلْكِتَابِ، وَهَبَطَ سَائِرُ الرُّسُلِ الْآخَرُونَ يَنْقُلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَبَارَكَهُمُ النَّبِيُّ وَنَادَى

المُؤَذَّن «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» فَاسْتَوَى النَّبِيُّ فِي مُصَلَّاهُ، وَخَفَّ النَّاسُ يَنْتَظِمُونَ صُفُوفًا.

قَالَ قَائِلٌ لآخر، وَقَدْ تَوَجَّهَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ بِالصَّلَاةِ: إِنِّي لَيْسَتْخِفْنِي شُعُورٌ غَنِيْفٌ أَنَا مَعَهُ جِدُّ مُغْتَبِطٍ، فَقَدْ طَفَرْنَا إِلَى قِمَّةِ التَّارِيخِ، وَغَدَوْنَا أُولَى فِكْرَةٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْفِكْرُ، وَأُولَى مُجْتَمَعٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْمُجْتَمَعُ، وَإِنَّهُ سَيَظِلُّ لَنَا تَذْكَارَانِ خَالِدَانِ: يَوْمُ الْهِجْرَةِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ التَّبَوُّةِ، وَيَوْمُ الرُّسُلِ أَوْ الشُّفَرَاءِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ الدَّوْلَةِ. «وَجَاءَ حُسَيْنٌ يَشْتَدُّ بَيْنَ الصُّفُوفِ، وَقَدْ سَجَدَ النَّبِيُّ يُصَلِّي فَالْتَزَمَ عُنُقَهُ، فَقَامَ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمَسِّكُهُ حَتَّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَأُهِلَّتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ قَدْ شَارَفَ الرَّابِعَةَ أَوْ عَبَّرَهَا، حِينَ آتَجَهَ النَّبِيُّ لِدَكَ آخِرِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْأَوْهَامِ، (مَكَّةَ)، الَّتِي هَوَتْ بِالْإِنْسَانِ إِلَى دَرْكِ التَّارِيخِ، وَمَلَأَتْ أَجْوَاءَهُ بِالْأَسَاطِيرِ، حَتَّى آنْقَلَبَ مَعَهَا وَهُوَ أُسْطُورَةٌ حَيَّةٌ، وَآنْقَلَبَتْ دُنْيَاهُ الَّتِي يَحْيَاهَا وَهِيَ حَيَاةٌ فِي أُسْطُورَةٍ.

هَبَطَتْ جُمُوعُ النَّبِيِّ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَدْبٍ، وَبَرَزَ النَّبِيُّ كَالنَّسْرِ الطَّائِرِ، وَهُوَ رَمَزُ فِكْرَةٍ وَتَفْؤُقٍ، وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَمِنْ آيَةٍ جِهَاتِهِ أَوْهَامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أَصْنَامٌ)، عَبَدَهَا الْإِنْسَانُ، فَكَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا بِيَدَيْهِ كِلْتَابِيهِمَا، وَيَهْتِفُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْقَارِعَةِ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فَهَوَتْ مُكِبَّةً، وَغَابَ رَجُوعُ صَدَاهَا فِي الْعَوْرِ السَّحِيقِ، وَتَمَجَّدَ الْحَقُّ يَوْمًا فِي دُنْيَا الْإِنْسَانِ، وَغَرَا النَّاسُ جَلَالُ الْمَوْقِفِ، وَرَاحُوا فِي يَقْظَةٍ آسْتِغْرَاقٍ كَانَتْ وَاعِيَةً، وَجَرَى عَلَى لِسَانِ فُضَالَةِ اللَّيْثِيِّ:

لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتَ نَوْرَ اللَّهِ أَصْبَحَ بَيْنَنَا وَالشُّرُوكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَحَشِدَتْ قُرَيْشُ أَشَابَاتِ أَشَابَاتٍ، وَرَاحَ النَّبِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَهُمْ، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ
سَاوَتْ الصُّدُورَ.

قال: ما تزوني فاعلاً بكم؟

قالوا: أخ كريم وأبن أخ كريم!

فقال، وقد جمع نبل الإنسان من أطرافه: إذهبوا فأنتم الطلقاء!...

وَرَدَّدَ الصَّدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ «إذهبوا فأنتم الطلقاء»، الَّذِي كَانَ إِعْلَانًا
لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَنَّ هَذَا يَوْمُ حُرِّيَّتِهَا. فَلَمْ تَكُنْ حَزْبُ النَّبِيِّ غُتُوًّا وَآصْطُهَا دَأً وَقَدْ وَجَدَ سَبِيلَهُ
إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَلَاصًا وَتَحْرِيرًا لَكِي يَنْتَفَسَ الْإِنْسَانُ بِمِلءِ رِئْتَيْهِ فِي الْعَرَاءِ...

وَتَرَدَّدَ فِي الدَّهْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَطْلَقَ الْفَقِيرَ، وَكَسَرَ قَيْودَهُ...

وَرَاحَ الْفَرَّاشُ يَطِيرُ فِي الْحَقُولِ تَتَحَاضُّهُ أَيْدِي الزَّهْرَاتِ.

فَقَلَ النَّبِيُّ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ آزَدَتْ بِبَهْجَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ وَفِي كُلِّ
نَيْتِ صَدَى فَوْحَةٍ أَنْطَلَقَتْ مُتَمَاجَةً وَكَبِيرَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُلَبِّي دَعْوَاتِهِمْ وَيُشَارِكُهُمْ
مِرَاحَ الظَّفَرِ وَفَخَارَهُ.

قَالَ يَغْلَى بْنُ مُرَّةٍ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي
السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يُلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُ
هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاجِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ
قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ، وَقَالَ:

حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، وَحُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنَ
الْأَسْبَاطِ».

*

نُجِبُ النُّبُوَّةَ لِأَنَّهَا خُلُودٌ لِلذَّاتِ...
وفي الحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ يَرَى خُلُودَ ذَاتِهِ...
فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ يَغْمُرُهُ بِهَذَا الْحُبِّ لِأَنَّهُ آسَتِمَرَارُ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ...

*

ضَمَّهُ إِلَيْهِ مَلَيْتاً بَيْنَ الْحُبِّ وَالْمَجْدِ...
وَحَنَّا طَوِيلًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ...
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ جَمِيعاً...
وظَلَّ أَبَدًا رَمَزَ مَجْدٍ شَامِخٍ، وَقُبْلَةَ حُبِّ كَتَنَفُسٍ أَزْهَارِ السَّحْرِ وَعَبَقِي
الْخُلْدِ!...

*

الْحُبُّ شُعُورٌ إِلَى شُعُورٍ، وَخَفَقَةُ قَلْبٍ إِلَى خَفَقَةِ قَلْبٍ...
وَالشُّعُورُ جَوْهَرٌ فَرْدٌ لَيْسَ يَنْقَسِمُ...
فَكَانَ حُسَيْنٌ مِنْهُ وَكَانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

*

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ!...
خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ مُشِيرًا إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ...
لَيَقِفَ شَاعِرًا بِوُجُودِهِ عَلَى مُحْطَامِ الْأَغْلَالِ وَرُفَاتِ أَرْبَابِ الْقُبُودِ...
فَهَذَا صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ يَنَادِي بِالْحُرِّيَّةِ وَيُنَادِي بِالْخَلَاصِ...

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

كَلِمَةً صَدَرَتْ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبَيْتِ مُحَمَّدٍ...

فَكَانَتْ إِذَانًا بِأَنَّ مَوْكِبَ الْحُرِّيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ يَسِيرُ، وَفِي الطَّلِيعَةِ أَوَّلًا
يَكُونُ...

وَطَبِيعَةُ الطَّلِيقِ، لَا تَجْعَلُهُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ خَلِيقًا!...

فَأَبْنَاءُ الْإِسَارِ يَنْطَبِعُونَ عَلَى شَهْوَةِ الْأَسْرِ!...

فَقَدْ عَشَّشَتِ الْقُبُودُ فِي رُوحِيَّتِهِمْ وَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا عَقْلِيَّتُهُمْ!...

*

وَلَكِنْ حَاوَلَ الطَّلِيقُ الْإِنْتِهَارَ وَكَانَ...

فَعَادَتْ قُبُودُ السَّجْنِ وَالسَّجَّانِ...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ - وَهُوَ رَامُوزُ بَيْتِ الْحُرِّيَّةِ وَحَارِسُهَا - الشُّعْلَةَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى كُلِّ
مَكَانٍ...

فَقَدْ سَمِعَ زُمْرَةً تُحْرِقُ الْأَرَمَ مِنْ وَرَاءِ الْقُبُورِ، فَأَعْلَنَ الشُّكْرَانَ...

وَهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الْوَاجِبِ يُغَالِبُ الْبُحْرَانَ... وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكْبَحْ جِمَاحَ
الطُّغْيَانِ...

فَقَدْ تَرَكَ فِي جَنِّيهِ ثَوْرَةَ الْبُرْكَانِ...

* * *

دموع

كثيراً ما كان النبي يرى، في أخريات أيامه، بين ذويه وأبنائه يؤانسهم، ويطمئن في نشوة خفيفة إلى أشياء لهُوهِم البريء ومرجهم الحلو، ويُعاطيهم أسباب هذا اللهُو وهذا المرح، ويمدُّ لهم فيهما، فقد حقق حلم الجِد وأدى غاية الرسالة القُصوى، فهو يشعُر بالاطمئنان والرضا، ويُحسُّ بتراحم شرور عميق.

وكان يأنس كثيراً إلى هذا الجوّ الذي تشيع فيه حركات الطفولة ناعمة ببراءتها، هائلة بسذاجتها، مُنتشبة بطراوتها... وهي، رُغم قسوتها أحياناً، تجدُّ وقّعها اللذيذ، فإن البراءة جمال على شتى صُورها وألوانها.

والطفولة، وحدها، أثبت حقائق الحياة، وما وراءها سُخريات وأشباه سُخريات تبدو خسنة، وكلما أوغلنا في مدى الحياة تزيدُ خُسونة وتوعراً. وحين نذكرُنا لذاتها عَرَضاً فإنما تكون في شكل من أشكال الرجعة إلى الطفولة، وفي إنضاء زُيوف ثِقيلة من أثواب التكلّف المؤهقة... والتكلّف رياءً وأناثة على كلٍّ وجوهِه، ولذلك أنصرفَ جهْدُ النبي إلى أن يضع في كلِّ الحياة براءة الطفولة.

ونحن لا نستطيع الرجعة إلى الطفولة وبعثها من جديد على أية صُورها، كما نَعجزُ دائماً عن خلقِ جَوْها المترف، فنطلبُها في الطفلِ بتشوّقٍ مُلح، وفي نوع من الحنين الآسر، لنعْمُرنا بزُوجيّتها التي تظلُّ فينا أملاً منشوداً، ورغبةً حادة.

والتَّبِيُّ كَانَ يَجِدُ طُفُولَةَ حَيَاتِهِ اللَّادَّةَ فِي أَثْنَائِهِ كَمَا كَانَتْ وَعَلَى مَا كَانَتْ،
فَيَأْخُذُهُمْ بِصُنُوفِ اللَّعَابِ فِي حَنَانٍ وَآفْتِرَارٍ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
يَضْطَرِعَانِ وَهُوَ يُحْمَسُهُمَا، أَوْ يَلْعَبَانِ بِالْمَدَاحِي^(١) وَهُوَ يُعْبِثُ الْهَنَاءَةَ عَبَثًا، وَيَتَمَلَّأُ
مِنْهَا، وَيَتَذَوِّقُ «خُلُوءَ الْبَنِينَ» الَّتِي هِيَ النَّشْوَةُ الْكُبْرَى فِي ظِلَالِ الْعُمُرِ. فَإِنَّ لَذَاذَ
الْحَيَاةِ تَقُومُ فِي نَشْوَتَيْنِ: نَشْوَةٍ بِالطُّفُولَةِ، وَنَشْوَةٍ بِذِكْرَاهَا فِي الطُّفْلِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ
فُصُولِ الْحَيَاةِ هَجِيرٌ كَهَجِيرِ الظَّهِيرَةِ، وَلَذَنٌ كَلَذَعِ اللَّهَبِ، وَخَوْقَةٌ تَنْتَهِي بِمَرَاتِيهَا.
وَالطُّفْلُ طَائِرٌ يَرِفُ بَيْنَ أَيْدِينَا لِيَتَلَحَّقَ بِهِ إِلَى جَوْ حَقَائِقِهِ وَأَحْلَامِنَا، وَكَأَنَّ
الْحَيَاةَ تَضَعُ الْحَقِيقَةَ الْعَارِيَّةَ السَّعِيدَةَ، بِكُلِّ فُتُونِهَا، بَيْنَ يَدَيِ الطُّفْلِ، فَيَغْرُقُ فِي
خُمَارِهَا زَمْنًا، وَلَكِنَّهَا تَنَائِي وَهُوَ فِي قِمَّةِ شُعُورِهِ بِاللَّذَّةِ الْمُطْلَقَةِ، فَيَحْبُو وَرَاءَهَا فِي
لَهْفَاتٍ، ثُمَّ يَغْدُو فِي لَهَثَاتٍ، وَهِيَ تَنَائِي وَتَنَائِي حَتَّى تَحُورَ فِي كَوْنٍ مِنَ الصَّبَابِ
يَحُولُ الْأَفَقُ دُونَهَا، وَيَنْقَطِعُ بِالْحَيِّ الْمَسِيرُ فَيَسْتَعْرِقُ حَالِمًا، هَائِمًا، فَقَدْ سَقَطَ فِي
السَّرَابِ، تَطَوَّفَ بِهِ وَتَنَارَعَهُ أَحْلَامُ الْمَاءِ.

وَإِذْ يَضْطَرِعَانِ، كَانَ التَّبِيُّ يُهَيِّجُ حَرَكَاتِ طُفُولَتَيْهِمَا الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي هِيَ رَمْزُ
عَبَثٍ فِي جِدٍّ، وَجِدٍّ فِي عَبَثٍ، تَنْتَظِمُهَا بَرَاءَةٌ مَارِحَةٌ.
فَيَقُولُ: «إِيهَا حَسَنُ».

قَالَتْ فَاطِمَةُ: أَتَسْتَنْهَضُ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّغِيرِ؟

قَالَ: هَذَا جَبْرِيلُ يَقُولُ: «إِيهَا حُسَيْنُ!».

وَجَبْرِيلُ رَمْزٌ مِنَ الْمُطْلَقِ، وَأَسْمٌ مِنَ الْمِثَالِ، وَفِي لَحْظَةِ اسْتِعْرَاقٍ وَاسْتِعْلَاءٍ
طَافَتْ بِنَفْسِ التَّبِيِّ صُورَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ بَرَزَتْ مُجَسِّمَةً وَمُكَبَّرَةً، وَهِيَ تُشَارِكُهُ نَشْوَتَهُ

(١) الْمَدَاحِي: أَخْجَازٌ، كَانُوا يَخْفِرُونَ خَفِيرَةً وَيَذْهَبُونَ فِيهَا بِتِلْكَ الْأَشْجَارِ، فَإِنَّ وَقَعَ الْحَجَرُ فِيهَا فَقَدْ غَلَبَ
صَاحِبُهَا، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ غَلَبَ، وَالذَّخْرُ رَمِي اللَّاعِبِ بِالْحَجَرِ وَالْجَوَزِ وَغَيْرِهِ. أَيْ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالْغُولِ الْيَوْمَ.

وَبَهْجَةٍ مَا يَجِدُ حِيَالَ مَرَحِ سِبْطِيهِ. وَلَمْ يَكُنْ جَبْرِيلُ غَرِيباً عَنْ جَوِّهِ، فَهُوَ رَمَزُ رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعِيداً عَنْ قَلْبِهِ، فَهُوَ رَمَزُ حُبِّهِ. وَفِي هَذَا الِاسْتِنْهَاضِ التَّمثِيلِيِّ رَمْزِيَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحُسَيْنَ سَيَكُونُ رَائِدَ الرِّسَالَةِ وَعَلَمَ الْهُدَى، فِي أَعْمَاقِ ضَمِيرِهِ صَوْتُ مِنَ الْغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أَبَداً: إِيَّهَا حُسَيْنُ!...

مَعَ الْأَصِيلِ كَانَ فِي أَقْصَى الصَّخْرَاءِ رَاكِبٌ يَسِيرُ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهُوْنِ آخِذاً نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَدَوَّى مِنْ بَعِيدِ كُرَّةٍ يَدْخِرُجُهَا الْأَفْقُ عَلَى الرَّمَالِ، وَالصَّخْرَاءُ هَيْكَلُ أَبَدِيَّةٍ مَكْشُوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ فِي النَّفْسِ عَلَى رُحْبِهَا، فَتَتَمَدَّدُ بِهَا النَّفْسُ لَا مُتَنَاهِيَةً تَطَالِعُ الْمَجْهُولَ.

وَكَانَ الزَّاكِبُ أَبَا دُوَيْبٍ الشَّاعِرَ الْحَزِينَ الَّذِي صَفَّرَ الْحُزْنَ عَلَى هَامَتِهِ إِكْلِيلاً تَنَازَرَتْ أَوْرَاقُهُ، وَبَقِيَتْ أَشْوَائُهُ الْقَاسِيَةُ تَأْبِرُهُ فِي خَطَرَاتِ الذُّكْرِى، وَخَلَجَاتِ الْحَيْنِ، وَرَجْفَةِ الْهَوَى، وَتَأَوُّدَاتِ الطَّيْفِ^(٢).

وَالصَّخْرَاءُ يَنْبُوغُ ذِكْرِيَاتِ سَيِّمَا لِنَفْسِ إِنْسَانٍ مَحْزُونٍ تَكَثَّرَتْ أَصْدَاءُ الْأَسَى فِي أَذُنَيْهِ، فَهُوَ يُحِسُّ بَوَقْرَهَا فِي الْخَلَاءِ ضَاجِجاً غَنِيماً، وَالنَّفْسُ الْبَائِسَةُ يَزْدَادُ فِيهَا صِدْقُ الْحِسِّ وَالْحَدَسِ، وَتَتَأَثَّرُ بِالْفَوَاجِعِ مِنْ بَعِيدٍ، وَبِرَعَشَاتِ الْغَيْبِ وَالْمَجْهُولِ. عَزَّتُهُ، وَالْمَطِيَّةُ تَتَهَادَى بِهِ، هِرَّةٌ شَجِي، وَتَأَوَّدَتْ فِي أَعْطَافِ الصَّخْرَاءِ أَمَامَ نَظِيرِهِ طُيُوفِ رَايِمَةٍ. «وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَلِيّاً، وَكَانَ قَدْ اسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذِيماً، وَكَانَ قَدْ بَاتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لَا يَنْجَابُ دَيْجُورَهَا، وَلَا يَطْلُعُ نَوْرُهَا قَبْلَ أَنْ آتَبْدَأَ الْمَسِيرَ، فَهُوَ مَعَ الشَّحْرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشَّاعِرِ يَهْتِفُ بِهِ فِي الْأَحْلَامِ:

خَطْبُ أَجَلُ أَنَاخَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ التَّخِيلِ وَمَعْقِدِ الْآطَامِ

(٢) عَيْنِيَّةُ أَجْمَلُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ وَالْفَقْجِ وَبَيْنَا الْبَيْتِ الذَّاهِبُ مَقْلًا:

وَإِذَا الْمَيْيَةُ أَنْسَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَبَتْ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فَبِضِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، فَعَبِوْنَا تَذْرِي الدُّمُوعَ عَلَيْهِ بِالشَّجَامِ
قال: فَأُصْحِيْتُ مِنْ مَنَامِي فَرِعَا، فَتَنَظَّرْتُ فَلَمْ أَرَ إِلَّا سَعْدَ الدَّابِحِ، فَأَوَّلَتْهُ ذَبْحًا
يَقَعُ فِي الْعَرَبِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُبِضَ.

فَحَثَّيْتُ رَاجِلَتِي وَسِرَّتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئًا أَرْجُرُ بِهِ، فَعَرَضَ لِي
شَيْئُهُمْ، قَدْ قُبِضَ عَلَى صِلٍّ، فَهِيَ تَلْتَوِي عَلَيْهِ وَالشَّيْئُهُمْ يَقْضُيُهَا حَتَّى أَكَلَهَا،
فَزَجَزْتُ ذَلِكَ وَقُلْتُ: شَيْئُهُمْ، شَيْءٌ هَمٌّ. وَالتَّوَاءُ الصَّلُّ: تَلْوِي النَّاسِ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ
رَسُولِ اللَّهِ.

فَأَذْرَكْتَنِي حَيْرَةً مُتَلَطِّئَةً عَرَضَ لِي فِيهَا شَبَحُ إِنْسَانٍ مُجِدِّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ رَاجِلَتُهُ
مِنْ طَوِيلٍ مَا حَمَلَهَا وَرَاحَ يُحْمَلُهَا، وَلَمْ يَقْعُدْ بِهِ الْإِنْقِطَاعُ بَلْ هَبَّ فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ،
يَخْطُو خُطُوبَاتٍ وَاسِعَاتٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ!!

«فَمَدَدْتُ الْخُطَى مَدًّا عَنيفًا حَتَّى هَبَطْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ
كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ إِذَا أَهْلَوْا بِالْإِحْرَامِ، وَهُمْ فِي ذُهُولٍ مُسْتَطِيلٍ وَوُجُومٍ.

فَقُلْتُ: مَا الْخَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبِيُّ!

فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبِيِّ فَوَجَدْتُ بَابَهُ مُرْتَجًا،
وَقِيلَ: هُوَ مُسَجَّى وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ؟

قيل: فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ^(٣).

وفيما أنا فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ أَمْشِي مِشْيَةَ الْحَزِينِ الْحَائِرِ، رَأَيْتُ عَارِضَ

(٣) راجع: حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ٢، ص: ٦٧٠.

الصُّخْرَاءِ فَتَبَيَّنَتْهُ، فإذا هو مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَزَّتْهُ سَحَابَةُ حُزْنٍ صَامِتٍ مَكْظُومٍ، فَتَلَقَّيْتُهُ
بَيْنَ يَدَيَّ، وَقُلْتُ: أَأَنْتَ؟!

فَانْفَجَرَتْ وَأَنْفَجَرَتْ مَعَهُ بِدُمُوعٍ جَرَارٍ تَزِيدُ الْجَوَى لَوَعَةً، وَالْأَسَى لَذَعًا، وَكَانَ
نَشِيْجُهُ مَرِيْرًا كَمَنْ ثِكَلَ كُلُّ ذَوِيهِ فِي مِيْتَابٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلَا حِقَّةٍ، لَا تَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا
هُنَيْهَاتٌ وَفِيْنَاتٌ. وَكَانَ الْحُزْنُ يَشْتَدُّ بِهِ دَرَاكًا حَتَّى لَمْ يَمُدَّ يَتِمَّاسَكَ، فَأَخَذَتْهُ إِلَيَّ
وَهُوَ نَضْوٌ يَتَشَنُّجُ، وَشِلْوٌ يَتَنَزَّى.

وَبَعْدَ لَايٍ أَفَاقٍ، وَكَانَتْ إِفَاقَتُهُ جِدًّا مَرِيْرَةً، فَقَدْ هَبَّ كَالْمَرُورِ يَطْلُبُ شَيْئًا
وَأَنَا وَرَاءَهُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى كُلِّ بَابٍ يَفْرَعُهُ، وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَزْتَدَّ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ
يَزْغَبُ فِي أَنْ يَرَى النَّاسَ لِيَخْرُجَ مِنْ وَحْدَتِهِ الْمُبْضَةِ الْقَائِلَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَاذُ يَرَى
أَحَدًا حَتَّى تَزِيدَ أَرْزَمَةُ نَفْسِهِ، وَتَتَجَدَّدَ لَهُ ذِكْرَى تَبْعَثُ نَفْسَهُ أَشَدَّ آلْتِيَاعًا.

وَلَمْ يَزَلْ يَذْنُو وَيَنْأَى، فِي رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، حَتَّى قَادَهُ الْمَطَافُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ،
وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ الْأَسَى بِالْأَسَى، وَيُلَاشِي الْأَلَمَ بِالْأَلَمِ. وَأَحْسَّ بِالْأَزْتِيَا حِ
الْعَمِيقِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْأَلَمَ كُلَّهُ يَذُوبُ فِي مُضَاعَفَاتِ الْأَلَمِ، وَيَتَلَبَّسُ النَّفْسُ شُعُورَ
سَلْبِيٍّ مُبْهَمٍ لَا يَتَجَاوَبُ مَعَهُ، فِي النَّفْسِ، غُلُوءُ الْإْتِيَا حِ وَزُحَا حِ الْأَحْزَانِ، فَإِنَّ
الْمَشَايِرَ، عَلَى آخْتِلَافِهَا، نَشِيْجَةٌ وَلَا فَوَاصِلَ بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهِيَ إِذَا بَلَغَتْ غَايَتَهَا
هُبُوطًا، أَوْ أَرْتِفَاعًا، تَتَحَوَّلُ أَوْ تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثِيرًا، وَأَظْمَأَنَّ إِلَى أَنْ يُجَابَةَ الْأَسَى فِي هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَعْرِقَ فِي لَحَظَاتِ
الْمَرَاةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَتَجَرَّدُ فِي الْإِطْلَاقِ، عَنْ مَعْنَاهَا وَوَقْعِهَا الْأَلِيمِ، فَقَدْ غَدَتْ
لَاغُضُوبِيَّةٌ دُونَ أَغْصَابٍ تَتَقَلَّصُ أَوْ تَتَمَدَّدُ، إِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَفَقَةً رُوحٍ فِي غَيْرِ لَوْنٍ.

فَمَضَى مُعَاذٌ بِإِحْسَاسٍ وَجْدَانِيٍّ عَفْوِيٍّ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، لِتُوجَاةِ أَشَدِّ أَنْوَاعِ
الْأَسَى فِي شَخْصِ النَّسْرِ الْحَزِينِ وَفِرَاخِهِ الْحَيَارَى، فَهُوَ يَشْتَهِي، وَيَفْضُلُ كَثِيرًا، خَيْرَةَ

الأسى اللّاشاعرة، والغفوة في الألم على أن يظلّ في يقظة الآلام.

وقَفَ دونَ البيتِ طويلاً ثُمَّ قَرَعَ البابَ، وما أشدّها وأمرّها مُصادفةً، فقد
«بَرَزَتْ إليه فاطمة» تجولُ في مآقِها غُصارةُ حُبِّ خالدٍ، وتعلّقتُ في أهدابها
الواسعة دُمعةٌ كبيرةٌ، لَيْتَها سَقَطَتْ!...

وفي ناجيةٍ منَ البيتِ رأى الحسينَ، ولیدَ النبيّ المحبِّبِ، مُنكَمِشاً على نفسه،
يُديرُ لحاظه فلا يرى إلا دُموعاً، فَعَرِقَ في الدُموعِ، وكانَ بينَ حينٍ وآخرٍ يُناجي
نفسه، ويُطارِحُها في حديثٍ خَفِيفٍ مَسْمُوعٍ.

أبتاه!.. أينَ هو؟ لمَ أعُدُّ أراه! أليسَ لي أنَ أراه بعدَ اليومِ؟ بالأُمسِ القريبِ
كانَ يُلَاعِبُنِي، كيفَ نأى؟ لمَ يَعدُّ لي، بعدَ الآنَ، حنانُ ذلكَ القلبِ الكبيرِ!!
فَيَزيدُ الفَجِيعَةَ وَيُحَرِّكُ التَّشَيِّعَ، ومُعاذَ حالِّمِ أَمامِ هذا المَشْهَدِ مُسْتَعْرِقٍ، إنَّه
لمَ يَعدُّ يُحِسُّ بشيءٍ، إنَّه غداً خَلاءٌ منَ كُلِّ شُعورٍ...

*

ماتَ مُحَمَّدُ البَشَرِيُّ لِيُخلَدَ مُحَمَّدُ النَّبِيُّ...
فاسْتَعَبَرَ الحُسَيْنُ لأَوَّلِيهما بالعاطِفَةِ والحنَنِ...
وافتدى ثانيهما بالدمِ القاني الصَّبِيبِ...
حينما حاولَ مَسَّ جَلالِ الخلودِ، غُواةً مُحَمَّقونَ...

*

بَعْدَ أَشْهُرٍ مَعْدُوداتٍ رُزِيءَ أُمُّهُ الزُّهراءَ وملاكهُ الآخر...
الذي كانَ يَشِيعُ عليه بالأَمَلِ الهاني والسَّعادةِ الحالِمة...
فَجَمَدَتْ في عَيْنِهِ دُمُوعٌ وفي قَلْبِهِ دُمُوعٌ...
جَعَلَتْهُ، في حَياتِهِ كُلِّها، يُنْظَرُ إلى الأُفقِ البعيد...
١٠٤

يَوَدُّ لَوْ يَذُوبُ فِي الشَّفَقِ الْمُلْتَمِعِ مِنْ كُوى الأَبْدِيَّاتِ بِإِغْرَاءٍ...

*

مِرَازَةٌ قَاتِلَةٌ عَلَى قَلْبٍ غَضُّ، هَبَطَتْ فَجْأَةً فَاثْتَقَلَتْ بِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ...
وَأَسْتَوَى دُفْعَةً، فَتَنَظَرَ إِلَى الْحَيَاةِ مِنْ فَوْقِ كُوى الرِّعَابِ فَرَأَى حِمَاءُهَا...
فَوَجَّهَ تَيَّارَهُ الطُّهُورَ، فَتَمَدَّدَتْ وَانْتَفَخَتْ مُتَجَهِّمَةً تُرِيدُ الصُّرَاعَ...
فَتَقَرَّرَها وَاسْتَعْلَى، فَقَدْ تَرَكَ فِيهَا دَفَقَاتٍ مِنَ الْيَنْبُوعِ الْأَقْدَسِ وَهُوَ لَا بُدَّ
مُطَهِّرُهَا...

وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَعْلَى حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُرَى، إِلَّا نَجْمًا يَتَوَارَى فِي التَّخْلِيقِ بِإِشْعَاعَاتِ
وَأَغْتِمَاضَاتِ...

* * *

مِنَ أَيَّامِ الْعَهْدِ الرَّاشِدِي

مع خليفة

في قِمةِ المَجدِ العَرَبِيِّ، حينَما كَانَتِ الرَايَةُ الإِسْلَامِيَّةُ تُنْسَجُ وتُنظَّمُ خُيوطُهَا مِنْ تَمَالِكِ العَالَمِ القَدِيمِ، وَتَتَهَادَى مُتَطَاوِلَةً فِي الفَضَاءِ، كَأَنَّهَا تُوشِّحُ الآفَاقَ، وَتُطِلُّ عَلَى عَالَمٍ يَمُورُ بِالخُلُودِ، وَتَحْتَضِنُ جَدَاوِلَ الأَبَدِيَّاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، وَقَفَّ عُمرُ بُنِ الخطابِ يُبارِكُ هَذَا المَجدَ وَيَقُولُ كَلِمَتَهُ بِلِسَانِ التَّارِيخِ، وَيُودِّعُ عَالِماً يَذْفَعُهُ بِمَنَكِبَتِهِ، وَيَسْتَقْبِلُ عَالِماً بِكِلْتَا يَدَيْهِ.

عَالَمٌ مِنْ طَوْبَى مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّهَا طَوْبَى مُتَحَيِّرَةٍ تَحَيَّرَ الوَاقِعُ، وَمُتَأَلِّقَةٍ تَأَلَّقَ الشُّعَاعُ، وَهِيَ، إِلَى هَذَا، مِلْءُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَمَرَاذُ الأَمَانِيِّ... عَالَمٌ أَنْطَبَعَ عَلَى آفَاقِهِ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فِي هَالَةِ القُرْآنِ، والقُرْآنُ هُوَ اللُّوْحَةُ الَّتِي شَاءَتِ الحَقِيقَةُ الخَالِدَةُ أَنْ تَبْرُزَ فِيهَا كَامِلَةً، قَدْ نَضَّتْ عَنْهَا شَتَى الأَثْوَابِ.

جَلَسَ عَلَى أُرَيْكَةِ هَذَا العَالَمِ الجَدِيدِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الخُلُودِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأُرَيْكَةُ، أَوْ العَرْشُ، إِلَّا مَنِيرَ المَسْجِدِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَهْتِفُ بِلِسَانِ السَّمَاءِ، يَهْدِي التَّائِبِينَ، والأَثِيرَ، مِنْ وَرَائِهِ، يُرَدِّدُ النَّدَاءَ أَبْعَدَ مَا يَتَنَاهَى، فَمَحَا كَوْنًا وَأَثْبَتَ كَوْنًا، وَظَلَّ يَمَثَلُ الحَقِيقَةَ البَاقِيَةَ بَيْنَ الكَوْنَيْنِ، وَصَوْتُ اللَّهِ فِي وَغْيِ العَالَمِينَ مُتَجَاوِبًا بِصَدَى الأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ فِي عَالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عُبودِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بِلَاطٌ

لأنه لم يكن فيه إزهابٌ واشتِصناعٌ عَظَمَاتٍ مُزَيَّفَاتٍ، وإِنَّمَا كَانَ الْمِئْبَرُ فِيهِ هُوَ
الْعَرْشُ، وَالْمِئْبَرُ رَمْزٌ يُشِيرُ إِلَى الْكُوَّةِ الَّتِي شَعَّ مِنْهَا الْهُدَى، وَأَنْبَثَقَ مِنْهَا الضِّيَاءُ.
وَكَانَ الْمَسْجِدُ فِيهِ هُوَ الْبَلَاطُ، وَالْمَسْجِدُ رَمْزٌ يُشِيرُ إِلَى التَّلَاشِي فِي الرُّوحِ، وَالْفَنَاءِ فِي
الْإِشْرَاقِ، وَالنَّشْوََةِ الْوَاعِيَةِ فِي التَّأَمُّلِ وَالْأَسْتِغْرَاقِ.

وَقَفَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، وَكَأَنَّمَا زُويَ الْعَالَمُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَتَنَازَحَ فِي حُدُودِ
مَوْضِعِهِ، وَالنَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ يُضْغَوْنَ، وَالْكَوْنُ مِنْ وَرَائِهِ يَسْمَعُ
وَيَخْشَعُ... وَمِنْ أَقْصَى الْمَسْجِدِ جَاءَ يَخْطُرُ بَيْنَ الصُّفُوفِ الْحُسَيْنِ، وَلِيدُ النَّبِيِّ، حَتَّى
بَلَغَ مِرْقَاةَ الْمِئْبَرِ فَمَا تَهَيَّبَتْهَا، بَلْ صَعِدَ رَابِطَ الْجَأْشِ حَتَّى آتَتْهُ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ
عُمَرُ، فَشَارَكَهُ مَوْضِعَهُ.

وَكَانَ مَنْظَرًا بَدَا غَرِيًّا، أُعْطِيَ النَّاسُ لَحْظَةً آتِيَاهُ شَرَعُوا مَعَهَا يُتْلَعُونَ
رُؤُوسَهُمْ وَيَتَهَامَسُونَ، لَحْظَاتٌ ذِكْرَى آتَتْكَلَّتْ بِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ زَمَنٍ
يَعِيشُونَ فِيهِ إِلَى زَمَنٍ يَجْتَوُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ ظَلَّ شَائِعًا حَيًّا فِي الْخَطَرَاتِ الْحُلُوءَةِ، يَوْمَ كَانَ
الْحُسَيْنُ يَتَّخِذُ مَوْضِعَهُ إِلَى جَنْبِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ، فِي هَذَا الشَّكْلِ وَهَذِهِ الصُّورَةِ.

ذِكْرَى سَعِيدَةٌ جَرَتْ وَرَاءَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّاشُعُورِ، وَتَمَدَّدَتْ فِي تَأَمُّلٍ طَوِيلٍ،
وَكَانَ أَسْتِغْرَاقًا كُلُّهُ السَّكِينَةُ وَالْأَطْمِئْنَانُ، وَإِنْ بَدَا كَالْوُجُومِ الرَّانِي.

شَخَصَ النَّاسُ إِلَى الْغُلَامِ يَنْتَظِرُونَ مَا سَيَجِيءُ بِهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ، وَكَانَ الْغُلَامُ
أَكْثَرَ مِنْهُمْ أَسْتِغْرَاقًا، وَأَكْثَرَ نَفُودًا فِي الذِّكْرَى، فَرَاحَ يُمَلِّئُ نَاطِرِيهِ وَيُمْتِعُهُمَا مِمَّنْ
أَسْتَيْقَظَتْ نَفْسُهُ عَلَى أَنَّهُ جَدُّهُ.

هُوَ شَدِيدُ الْحَنِينِ، وَشَدِيدُ الْهَوَى إِلَى أَنْ يَرَى جَدَّهُ وَقَدْ فَصَلَ عَنْهُ زَمَنٌ كَانَ
طَوِيلًا فِي حِسِّ الْقَلْبِ، وَكَانَ خَيَالًا شَدِيدَ الْأَسْرِ لَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيهِ جَدَّهُ وَجَمَ
مُلْتَاعًا، فَقَدِ أَنْهَارَ مَا أَجْتَمَعَ فِي خَيَالِهِ مِنْ لَذَازَاتٍ دُفْعَةً، كَمَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا

يَشْتَهِي، وهو في أدقِّ فِتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّذْوِيقِ، فَرَسَبَ فِيهِ خِيَالٌ بُهِتَتْ بِهِ لَذَّةٌ، وَطَفَا فِيهِ خِيَالٌ آسْتَوَى مَعَهُ أَلَمٌ.

فَقَالَ لَهُ - أَيُّ لُعْمَرَ - فِي شَيْءٍ مِنَ التَّحْدِي الصَّارِمِ: «إِنْزِلْ عَنِ مِثْبَرِ أَبِي وَأَذْهَبْ إِلَى مِثْبَرِ أَبِيكَ»... فَاسْتَمَلَهُ عُمَرُ وَخَنَا عَلَيْهِ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أَشْيَاءٍ مِنْ دِمَقْرَاطِيَّةِ الْحَقِّ وَالْإِعْتِرَافِ الْفَكِيهِ الْجَمِيلِ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مِثْبَرٌ... وَمَالَ عُمَرُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً، فَقَالَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ التَّرْقُبِ وَالْإِمْتِحَانِ النَّفْسِيِّ: «مَنْ عَلَّمَكَ؟».

فَقَالَ الْحُسَيْنُ فِي أَشْيَاءٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ... وَكَأَنَّمَا رَدَّ عَلَيْهِ: بَأَنَّهُ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَتَحَسُّسُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مَحَلِّهَا وَمَوْضِعِهَا.

وَخَفَّ النَّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يُطْلَى مِنْ نَافِذَةٍ مُقْلَتِيهِ الْبَطْلُ...»

وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أُعْجِبَ بِهِ فِي غَيْرِ حَدٍّ، وَكَانَ قَدْ أَخَذَ بِشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ فِي غَيْرِ مِقْدَارٍ، فَرَأَى إِزَامًا عَلَيْهِ أَنْ يُثَرِّزَهُ فِي حَيَاةِ الْجِدِّ الْحَاكِمَةِ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ بِأَسْبَابِ التَّوْجِيهِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى تَصْرِيفِ الْمُقْدَرَاتِ الْعُلْيَا، فَقَالَ لَهُ:

«بَأَبِي! لَوْ جَعَلْتَ تَغْشَانَا»... وَأَنْقَضَى وَقْتُ قَبْلَمَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، وَتَخَلَّلَتْ أَحْدَاثٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ شَكْوَى مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَهْتَمَّتْ لَهَا عُمَرُ، وَكَانَ رَجُلًا صَلِيحًا، فَاسْتَقْدَمَهُ مَعَ الْبَرِيدِ مُسْبِرِعًا وَخَلَا بِهِ، وَكَانَتْ الطَّرِيقُ قَدْ جَمَعَتِ الْحُسَيْنَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَصَّدا إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ يَزُورَانِهِ، فَطَلَبَ ثَانِيَهُمَا الدُّخُولَ، فَقِيلَ لَهُ:

«إِنَّهُ خَالٍ بِمُعَاوِيَةَ»... فَانْقَلَبَ ابْنُ عُمَرَ، وَانْقَلَبَ الْحُسَيْنُ مَعَهُ، وَفَصَلَ زَمَنٌ

لم يَكُنْ بعيداً حينَ صادَفَ عُمرُ، في بَغْضِ طُرُقَاتِ المَدِينَةِ، الحُسَيْنَ، فقالَ له:
«لَمْ أَرَكَ»... فَزَوَى لَهُ كَيْفَ حَيْلَ بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ آبِنِهِ والدُّخُولِ، وَكَيْفَ رَجَعَ
مَعَهُ، فَتَصَوَّرَ عُمرُ، بِشَكْلِ الجِدِّ، إِشْعَاراً بالفَرْقِ الكَبِيرِ، وَقَالَ، وَصَوْتُ الحَقِّ يُدَوِّي
فِي مَقَالِهِ:

«أَنْتَ أَحَقُّ مِنِ آبِنِ عُمرَ. إِنَّمَا أَتَيْتَ مَا تَرَى فِي رُؤُوسِنَا، اللَّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ»...
وَصَمَّتَا يَمُشِيَانِ، وَوَقَفَ التَّارِيخُ مِنْ وَرَائِهِمَا يُرَدِّدُهَا كَلِمَةً خَالِدَةً فِي سَمْعِ الدَّهْرِ،
وَأُذُنِ الأَبَدِ...

جهاد الشباب

حينَ كَانَ الفَتْحُ الإسلاميُّ يَضَعُ إحدى قَائِمَتَيْهِ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ، والأُخْرَى عِنْدَ بَابِ الْغَرْبِ - يَفْرَعُ عَلَيْهِ هُجُوعُهُ وَيَنْفُضُ عَنْ جَفْنِي الْغَرْبِ الْبَاقِيَاتِ مِنْ رَقْدَةِ الْأَيَّامِ، وَالْهَبَاءَةِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى ظَلَامٍ كَثِيفٍ حَالِكٍ حَوْلَ مُقْلَتَيْهِ، وَبَيْنَ يَدَيِّ حَيَاتِهِ، كَأَنَّمَا لَمْ تُنْعِشْهُ بَعْدُ أَوَّلُ إِشْرَاقَةِ مَنْ صَخُورَةِ الشَّمْسِ - ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرِيقًا، وَذَهَبَ غَرْبًا، كَأَنَّهُ يَضَعُ بِيَدَيْهِ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي قَاعِدَتَيِ قَوْسِ النَّصْرِ مُبَارِكًا. كَانَ حُسَيْنٌ يُنَاهِزُ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ، حِينَمَا ذَهَبَ جُنْدِيًّا يُلَوِّحُ بِشُعْلَةٍ الْبَغْيِ وَالْإِضْلَاحِ فِي الْحَمْلَةِ إِلَى الْغَرْبِ.

وكَانَ جَوًّا حَمَاسِيًّا ذَلِكَ الْجَوُّ الَّذِي صَبَغَ الْمَدِينَةَ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَدٍ نَائٍ مَجْهُولٍ، تُحِيطُ بِهِ الصَّحَرَاءُ، وَتَغْمُرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ - وَالصَّحَرَاءُ مُحِيطٌ زَاجِرٌ تَقُومُ فِيهِ الرَّمَالُ مَقَامَ الْمَاءِ - إِلَى عَاصِمَةٍ مَوْكَرِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فِيهَا الْحَرَارَةُ وَتُوزَّعُهَا، إِلَى قَلْبِ عَالَمِيٍّ تَخْفُقُ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَيَنْبِضُ بِالْخَلَجَاتِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ.

فِي هَذَا الْجَوِّ الْحَمَاسِيِّ كَانَ التَّسَابُقُ عَلَى الْجِهَادِ قَدْ آتَاكَ سَكَلَ مُبَارَاةٍ بَيْنَ الشَّبَابِ وَالْكُھُولِ، وَمَنْ دُونَ الشَّبَابِ وَمَنْ فَوْقَ الْكُھُولِ.

هِيَ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ بَعَثَهَا رُوحٌ جَدِيدَةٌ، فَانْطَلَقَتْ، وَفِي غُرُوقِهَا عُصَارَاتُ مِنْ حَيَوَاتٍ فَائِضَةٍ، تُجْرِيهَا فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُدَّدِ الْمُحْتَضِرِ، وَتَصِلُ غُرُوقَهُ بِغُرُوقِهَا،

فَتَمَشِي، طَائِفَةً عَلَيْهِ، دَائِرَةً فِيهِ، مَشْيَ الرُّوحِ الَّتِي تَمَشُّهُ بِتَيَّارِهَا.

كَانَ السَّائِرُ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمُنْعَطَفَاتِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَصْدَاءَ قَوِيَّةَ مَزْهُوَّةٍ، هِيَ بَقَايَا هُتَافَاتِ تُثِيرُ الْأَعْصَابَ. وَكَانَ الْعَلَمَةُ يَتَقَادَفُونَ بِالْأَزْهَارِ، وَالْعِلْيَةُ يَتَحَايُونَ بِالْعِمَارِ^(١) وَالْمَسْرَةَ^(٢). فَقَدْ تَرَكَوا لِأَعْصَابِهِمُ الْمَائِجَةَ بِصُنُوفِ الْفَخَارِ وَالْمَجْدِ، سَبِيلَ هَوَاهَا وَمَجَالَاتِ التَّعْبِيرِ عَنِ آزْدِهَائِهَا. فَقَدْ وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ بِالْإِنْتِصَارِ الْمُؤَزَّرِ فِي بَرَقَةٍ، وَأَنْكَفَاءِ الْبَزْزِ هُنَاكَ.

وَكُنْتُ لَا تَجِدُ، كَيْفَمَا سِرْتُ وَأَنْتَى ذَهَبْتُ، إِلَّا جُمُوعاً تَمُوجُ فِي جُمُوعٍ، مِنْ ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَعَلَى فَجْأَةٍ أَخَذَ بَصَرُهُمْ فَارِساً يَطْوِي الْهَضَابَ، وَهُوَ يَمُرُّ بَيْنَهَا مَرّاً سَرِيعاً، فَشَمَلَتْهُمْ هَذَاةٌ غَطَّتْ عَلَى الضَّجِيجِ، وَضَمَّتْهُمْ لِحْظَةً أَنْتَبَاهِ وَشَكُونِ أَلْقَتْهُمْ فِي ضُمُوتِ مُتَسَائِلِ نَاطِقِي، وَمَا حَلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى آلَتْفُوا عَلَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةَ السَّوَارِ بِالْمِعْصَمِ، وَأَخَذُوهُ بِسَيْلٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَاسْتَوَى عَلَى الرِّكَابِ مُنْتَصِباً، وَخَاطَبَتْهُمْ بِصَوْتِهِ الْجَهْوَرِيِّ الْحَادِّ النَّبْرَاتِ، وَالْمُسْتَعِيلِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ:

أَيُّهَا الْأَنْصَارُ! أَيُّهَا الْأَبْطَالُ! الْيَوْمَ يَوْمُكُمْ، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ الْكِفَاحِ. أَفْسَحُوا لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ وَاتَّبِعُونِي! فَتَدَافَعَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِهِ صَاحِبِينَ هَاتِفِينَ: الْيَوْمَ يَوْمُنَا. إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ... وَقَفَّ الرَّجُلُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَوَجَّهَ مَقَالَهُ، تَارَةً لِلْجُمُوعِ وَتَارَةً إِلَيْهِ: «إِنَّ مَجْرَجِيرَ الْمَمْلُوكِ، مَا بَيْنَ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ، أَشَبَّ الْجُمُوعِ، وَخَشَدَ الْجُنْدِ مِنْ أَطْرَافِ تَمْلُكَتِهِ، لِلْإِحْدَاقِ وَالْإِيقَاعِ بِجَيْشِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِنَا الدَّوَائِرِ،

(١) الْأَزْهَارُ وَالرَّيْحَانُ تُجْعَلُ بَاقَاتٍ وَيُخْتَبَأُ بِهَا. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا الْقِمَارَا.

(٢) الْمَسْرَةُ: أَطْرَافُ الرِّيَاحِينَ يُخْتَبَأُ بِهَا، وَيُقَالُ سَرُهُ أَيُّ حَيَّاهُ بِالْمَسْرَةِ.

وبات الخطب على قاب قوسين أو أدنى. وإن عُقْبَةَ بَنٍ نَافِعٍ، قَائِدَنَا الْمُظَفَّرَ، قد بات في ضائقة من الأمر، ولكنّه مُسْتَبِيلٌ أَشَدَّ اسْتِبْسَالٍ» يُكَافِحُ كِفَاحَ الْمُسْتَمِيتِ في الدِّفَاعِ والهجومِ ومداوَرَةِ الحُصُومِ، وهذا يؤمُّ له ما بغده.

فإلى الجهاد أيها المؤمنون! إلى القيام بالتزامات العقد بينكم وبين الله، على تجديد العالم، وأخذه بالتبديء الإنسانية الفضلى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَغَدَاً عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الثَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». إِنَّ إخوانكم، من قبل، رَوُّوا الرِّمَالَ الرَّايَةَ إلى أفریقية بدمائهم الصَّبيّة، وهُم أسخياء، وبَنُوا مِنْ جَمَاجِمِهِمْ مَعَايِلَ الصَّخْرَاءِ. وها هي دماؤهم اليوم تُناديكم وتستنصرُكم بصوتها الرجاف الرعود، من وراء الرِّجْمِ وتستنذبكم إلى التَّضْحِيَةِ.

فإلى الكِفاح! إلى النَّصْر!

وما هو حتّى آخَلَطَ صَوْتُهُ بِأَصْوَاتِ الْجُمُوعِ، وذاب في دويها العميق: بَلْ إلى الشَّهَادَةِ! إلى المَوْتِ!... وَبَقِيَتِ الْأَصْدَاءُ يُرَدِّدُهَا الْقَضَاءُ، وَيَطُوفُ بِهَا الْأَثِيرُ فِي كِبْرِيَاءٍ وَخَيْلَاءِ.

وتَدَفَّقَ النَّاسُ عَلَى التَّطَوُّعِ، وكان في «مُقَدِّمَتِهِمُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلِيَّةٌ لَا تُحْصَى» وَخَفُوا رَاحِلِينَ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَضْهَالٍ خَيْلٍ، خِلَالَ ذَاكَ رُغَاءِ

ولم يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى هَبَطُوا مَصَافَّ الْقِتَالِ، فَأَخَذُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ أَمَدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ ضَاقَ الْخِنَاقُ فِيهِ عَلَى الْبُزْبَرِ، فَأَنكَفَوْا مُتَمَرِّقِينَ

يَتِيهُونَ بَيْنَ الْحُزُونِ وَالشُّهُولِ، وَبَيْنَ الْأُودِيَةِ وَالْهَضَابِ.

وَبَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ «أَنْتَظِمَ الْحُسَيْنُ فِي الْجَيْشِ الدَّاهِبِ شَرْقاً إِلَى طَبْرِسْتَانَ»
بِإِذْلٍ أَنْفُسَهُ، مُضْحِياً خُوبَاءَهُ بِسَبِيلِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَاشَ لَهَا، وَقَضَى كَرِيماً تَحْتَ
ظِلَالِهَا الدَّائِمِيَّةِ وَبُنُوْدِهَا الْحُمْرَاءِ.

كَانَتْ الْأَنْبَاءُ عَنْ تَضَحِّيَةِ الشَّبَابِ وَاسْتِيسَالِهِمْ تَرْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَافِحَةً إِعْجَاباً
وَبُشْراً. وَكَانَتْ حَدِيثُ الْيَوْمِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْأُنْدِيَةِ وَالْمَنَازِلِ، وَفِي مُنْعَطَفَاتِ
الطُّرُقِ، حَيْثُ يَخْلُو الْوُقُوفُ عِنْدَ الْأَصِيلِ لِفَيْئَةٍ تَجِدُ فِي هَذَا التَّنَوُّعِ مِنَ اللَّهِوِ تَسْلِيَةً
رَائِعَةً، وَتُحِشُّ بَظْماً إِلَى الصَّخَبِ، يُمَدُّهُ الْفُضُولُ أحياناً فَتَمَلُّاً جَوْ نَفْسِهَا الْمُقْفِرِ بِهَذَا
اللَّوْنِ مِنَ الْإِنْعِمَاسِ فِي الصَّجِيجِ.

وَفِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ أَنْفَرَدَ جَمْعٌ، بَيْنَهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ،
يَتَجَادَّبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنْ أَبْطَالِ الْجِهَادِ الشَّبَابِ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّبَابَ مَعْنَاهُ تَفْتُحُ
بِرَاعِمِ الصَّبَا عَنْ حَيَاةِ الْجِدِّ وَالْوَاجِبِ، وَعَنْ تَبَعَاتِ الْحَيَاةِ؛ وَفَيْئَةُ الشَّبَابِ هُمْ أَشْعَةُ
حَاضِرِنَا فِي وَقْدَةٍ تَأْلُقُهَا، إِذَا بَدَتْ كَسِيفَةً كَلِيلَةً فَقَدْ خَسِرْنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ
جَمِيعاً، وَكَانُوا إِعْلَاناً عَنْ أَنَّ غَيْرَ جَدِيرِينَ بِالْحَيَاةِ.

فَإِنَّ الْحَيَاةَ قُوَى سَائِبَةٌ كَمِثْلِ الرَّقَارِقِ عَلَى وَجْهِ الرِّمَالِ، وَلَكِنَّهَا تَتَجَمَّعُ فِي
فَتْرَةِ الشَّبَابِ بِمِثْلِ خَزَانِ الْمَاءِ، فَتَتَكَسَّرُ عِنْدَ حَنَائَاهُ الْقُوَى، وَتَتَوَلَّدُ فِيهَا التِّيَّارَاتُ،
فَتَتَدَفَّقُ بِحَيَاشَةٍ هَادِرَةٍ.

فَالشَّبَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ تِيَّارَاتِ قُوَى الْحَيَاةِ، إِذَا كَانَ الْخَزَانُ مَمْلُوءاً بِالثَّقُوبِ
وَالشَّقُوقِ، أَنْسَابَتِ الْمِيَاهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَتَبَعَثَتْ قُوَاهَا، وَغَاصَتْ بَيْنَ الْوَهَادِ
وَالْحُزُونِ مُتَرَسِّبَةً فِي مُسْتَنْقَعَاتِ آجِنَةٍ. وَحِينَ لَا يَكُونُ لِلشَّبَابِ حَصَانَاتٌ وَمَنَاعَاتُ
يُمَدُّهَا شُعُورٌ بِالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَحِشٌّ مُرْهَفٌ بِالتَّبَعَاتِ، فَقَدْ عَادَ شَبَاباً رِخْواً،

أَفْضَلُ مِنْهُ شَيْخوخَةٌ فانيةٌ.

وَسَبَابُنَا الَّذِينَ آتَبَعْنَاهُمُ الْمَبَادِيءَ آتَبَعَانَا، لَا مَحِيدَ عَنْ أَنْ تَنْطَلِقَ بِهِمْ تَبَارَاتُ الْقُوَى، أَنْطِلَاقاً يَنْتَهِي بِالسَّيْلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ الْجَارِفِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيَغْمُرُ حَتَّى الرَّبِّي، لِيُنْكَشِفَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

وَنَحْنُ الَّذِينَ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا مَعَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ أَذْنَى مَا بَدَّلْنَاهُ أَنْفُسَنَا - وَمَا بَقَاؤُنَا فِي عَيْنِ الْيَوْمِ إِلَّا ذِكْرَى جِهَادٍ وَتَمَثُّلُ كِفَاحٍ - لَا يَسَعُنَا إِلَّا أَنْ نُبَارِكَ شَبَابُهُمُ الْعَصْرُ وَجِهَادُهُمُ الْمُطَفَّرُ. وَإِذَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَأْخُذَ بِأَنْتِبَاهِنَا طَوِيلًا فَإِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ عَلَى التَّضَحِّيَةِ بِسَبِيلِ الْمَبَادِيءِ لِلْمَبَادِيءِ دُونَ مَا أَنَانِيَّةٍ رَغْنَاءَ وَزَنَانِيَّةٍ^(٣) حَقُودٍ، فَقَدْ ذَابَتْ عِظَامِيَّةُ (أُرْستِقْرَاطِيَّةُ) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عِظَامِيَّةً فِي بَوْتَقَةِ الْإِيمَانِ. وَالرِّسَالَةُ النَّاجِحَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْفُلَ تَحْوِيلَ الْعِظَامِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةٍ الدَّمَاءِ وَالْثَّرَاءِ، إِلَى قَاعِدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالتَّضَحِّيَاتِ.

فَهَذَا الْحُسَيْنُ، سَيَبُطُ النَّبِيُّ، لَهُ مِنْ عِظَامِيَّةِ الدَّمِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ الْيَوْمَ، أَوْ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْضِي تَحْتَ رَايَةِ الْوَاجِبِ كَأَنِّي جُنْدِيٌّ تَحْدُوهُ مِثْلُ غَايَتِهِ. وَلَا أَرَاهُ إِلَّا مُعْتَقِداً أَنَّ الْقَدِيمَ، إِنَّمَا يَجِدُ رَوْحَهُ فِي الْجَدِيدِ لِيَعْدُوَ كَائِناً حَيّاً رَائِعاً، وَإِلَّا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ مَوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ زَمْزَراً مِنْ زُمُوزِ التَّارِيخِ...

فَأُطْرَقَ الْجَمْعُ وَشَمَلَهُمْ صَمْتُ وَاعٍ ثُمَّ خَفُّوا إِلَى زَوَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُرْدِّدُونَ قَوْلَهُ:

«وَالْأَقْدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ مَوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ...».

* * *

(٣) الزَّانِيَّةُ تُرَادَفُ الْأَنَانِيَّةُ تَمَاماً عِنْدَ الْعَرَبِ الْقَدَامِي، وَالزَّانِيَّةُ: الْأَنَانِيَّةُ كَذَلِكَ.

في الثورة

مِنَ المَدِينَةِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، كِمِصْرَ والعِرَاقِ واليَمَنِ والشَّامِ، حَيِّمَ جَوٍّ مُكْفَهَرٍ
يُنْذِرُ بشيءٍ. وكانتِ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِطَةً إِلَّا أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَحِيلُ، خَيْطاً بَعْدَ خَيْطٍ،
وَتَتَكَشَّفُ عَنِ لَوْنٍ أَحْمَرَ قَانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدِّمِ الحَانِقِ، أَوْ لَوْنُ الشَّقِيِّ الَّذِي أُطْبِقَ بِهِ
لَيْلٌ بَهِيمٌ.

وكانَ الهَمْسُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَطُولُ وَلَا يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَحُ فِي زَفَرَاتٍ تَبْعَثُ
أَسَى، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الأَسَى الغَاضِبِ الَّذِي يَزْدَادُ أَشْتِعَالاً بِالدُّكْرِى والتَّزْدَادِ. فَقَدْ
أَسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى وَضْعٍ غَيْرِ مُحِبَّبٍ بَلْ كَرِهَهُ بَغِيضٌ، أَسْتَفَاقُوا عَلَى مُجْتَمَعٍ بَدَأَ
يَتَعَقَّدُ وَتَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ طَبَقَاتٌ تَجُرُّ وَرَاءَهَا نِضَالاً هَادِراً وَتَنَاحِراً رَهيباً، بَعْدَ أَنْ
كَانُوا شَعْباً يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ المِساوَاةِ، فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِمٌ.

كَثْرَةُ مُعْدِمَةٍ، وَهِيَ مُعْتَدَّةٌ بِذَاتِهَا شَاعِرَةٌ بِشَخْصِيَّتِهَا، فَخَوَزَ بِمَا أَبَدَتْ مِنْ
قُوَّةٍ وَقَدَّمَتْ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ، وَقِلَّةٌ زَادَ بِهَا الثَّرَاءُ زِيَادَةً جَعَلَهَا تُحَرِّزُ كُلَّ قُوَى النُّشَاطِ
وَتَدْخِرُ مَقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ كَافَّةً. وَلَمْ يَكُنْ وَسْطاً دَرَجَ عَلَى الشَّخَرِيَّةِ وَالْعَمَلِ فِي
الأَرْضِ، فَيَظِلُّ النُّضَالُ فِيهِ خَفِيّاً وَبَطْنِيّاً فِي إِعْطَاءِ نَتَائِجِهِ، بَلْ كَانَ وَسْطاً فُرُوسِيّاً،
وَالْفُرُوسِيَّةُ أَعْتِدَادِيَّةٌ وَشُعُورٌ بِوُجُودِ الذَّاتِ، وَزَادَتْهَا الفُتُوحُ إِحْسَاساً بِقِيَمَتِهَا، فَكَانَ
أَنْ تَفَاعَلَتْ تَفَاعُلاً تَنَافُريّاً مَعَ الوَضْعِ الجَدِيدِ، وَكَانَ أَنْ أَنْقَدَحَتْ وَقَذَفَتْ بِالشَّرْرِ

إلى مكان قصي.

والشعور بالذات قاعدة الأمة الناهضة، فهي لا تقبل سيادة ولا تتوَلَّد فيها السادة من أي نوع كان، وتظلُّ أبداً تواقَّةً إلى الإصلاح آخذة بأسبابه مُتَقَلِّبة في مدى أطواره.

رَكَدَتِ الفُتُوحُ فَتَضَبَّتْ أَهْمُ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ قَدْ آتَجَعَ، فِيمَا سَبَقَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ، إِلَى جَعْلِ الْعَرَبِ مَادَّةَ حَرْبٍ فَقَطْ، فَلَمْ يَتَالَوْا نَصِيباً فِي الْأَرْضِ. وَلَكِنَّ الْجُنْدِيَّ لَنْ يَتَقَى جُنْدِيّاً أَبَداً خُصُوصاً وَالدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ أَخَذَتِ الْأَمَّ بِحَرْبٍ إِصْلَاحِيَّةٍ عَالَمِيَّةٍ، فَكَانَتْ حَاجَتُهَا إِلَى الْجُنُودِ كَبِيرَةً غَيْرَ مُقْتَصِدَةٍ، فَشَمَلَتِ الْعَرَبَ عَامَّةً، وَسَرَّعَانَ مَا وَفَّقَ الْعَرَبُ إِلَى غَايَتِهِمْ، وَسَرَّعَانَ مَا أَدَّوْا رِسَالَتَهُمْ، فَزَكَدَتْ حَرَارَةُ الْفَتْحِ إِلَى دَرَجَةِ الْهُمُودِ، وَعَجَزَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ كِفَايَتِهِمْ، فَإِذَا هُمْ طَبَقَةٌ فَقِيرَةٌ غَايَةً فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَالْعَدَمِ، وَإِذَا بِجَانِبِهِمْ طَبَقَةٌ أُخْرَى ثَرِيَّةٌ غَايَةً فِي الثَّرَاءِ، وَهِيَ لَمْ تَجْهَدْ أَيَّ جُهْدٍ وَلَمْ تَبُلْ أَيَّ بَلَاءٍ، وَإِنَّمَا أَمْتَصَّتْ وَتَمَلَّأَتْ.

كَبُرَ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَشْتَسِغُوا وَضْعِيَّةً نَابِتَةً بَغِيضَةً عَلَى هَذَا الشَّكْلِ، لَا سِيَّمًا وَالْإِسْلَامُ فِي تَشْرِيعِهِ جَعَلَ لِلْمُحَارِبِ نَصِيباً فِي الْمَغَانِمِ كَافَّةً، وَبِذَلِكَ مَكَّنَهُ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ رَجُلًا مَدَنِيًّا، دُونَ أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخَزِينَةِ الْعَامَّةِ. وَلَمْ يُقَرَّرِ الْإِسْلَامُ الْجُنْدِيَّةَ نِظَامًا دَائِمًا، لِأَنَّهُ لَا يَزِمِي إِلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ حُكُومَتِهِ دَوْلَةً حَرْبٍ، بَلْ سَنَّ الْجُنْدِيَّةَ، عِنْدَ الضَّرُورَةِ، مِنَ الْمَدَنِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَبِهَذَا ضَمِنَ شَيْئَيْنِ خَطِيرَيْنِ:

١ - جَعَلَ مَسْئُولِيَّةَ الدِّفَاعِ عَامَّةً، لَكِنِّي يَشْعُرُ بِهَا الشَّعْبُ شُعُورًا شَامِلًا بِدُونِ تَفَاوُتٍ.

٢ - الْحَدُّ مِنْ طُغْيَانِ الْجُنْدِ وَرُوحِيَّتِهِمْ، حَتَّى لَا يَذْفَعُوا الدَّوْلَةَ كُلَّ حِينٍ إِلَى

مضاييق حروبٍ جديدةٍ، فالإسلام وَضَعَ في نِظامِهِ ما يَحُولُ بَيْنَ الدُّوَلَةِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وَبَيْنَ حَزْبِ الْأَطْمَاعِ.

وكانتِ الهُوَّةُ تَتَسِعُ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ اتِّسَاعاً عَظِيماً، وَعَلَى شَكْلِ مُخِيفٍ، كَمَا أَخَذَ الرَّضْعُ يَتَطَوَّرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ حَتَّى اسْتَفْجَلَ شَرَّهُ، وَبَاتَ يُنْذِرُ بِخَطْبِ خَطِيرٍ وَأَنْكَفَاءِ أَنْقِلَابٍ كَبِيرٍ الْأَثَرِ. وَزَادَ فِي يَقْظَةِ الْخَطْبِ تَنَاحُزُ الْأَحْزَابِ الْكَثِيرَةِ^(١)، فَهُنَاكَ أَحْزَابٌ رَئِيسِيَّةٌ أَهْمُهَا:

حِزْبُ الْأُمَوِيِّينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ، وَأَبْنُهُ مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانُ ابْنُ الْحَكَمِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

وَالْحِزْبُ الشُّعْبِيُّ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، وَجُفَيْتَةُ النَّجْرَانِيُّ، وَكَغَبُ الْأَخْبَارِ، وَهَذَا الْحِزْبُ كَانَ صَنِيعَةً لِلْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ، وَمُتَقَدْماً لِأَغْرَاضِهِ الدَّمَوِيَّةِ وَمَأْرِبِهِ الْإِزْهَابِيَّةِ.

وَحِزْبُ الْمُحَافِظِينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعُمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ.

وَحِزْبُ الشُّعْبِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْأٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَالْأَشْتَرُ النَّخَعِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ، وَكَانَ هَذَا الْحِزْبُ يَسْتَنِيْمُ إِلَى سِيَاسَةِ حِزْبِ الْمُحَافِظِينَ، وَطَائِعُهُ أَنَّهُ ثَوْرِيٌّ عَنِيفٌ.

وَحِزْبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَأَبْنُهُ قَيْسٌ، وَالْحَبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانٍ، وَكَانَ أَهَمُّ أَهْدَافِ هَذَا الْحِزْبِ مُنَافَسَةُ الْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ وَتَحْطِيمُ مُحَاوَلَاتِهِ.

وَالِى جَانِبِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ كَانَتْ تَقُومُ أَحْزَابٌ أُخْرَى ثَانَوِيَّةٌ أَهْمُهَا:

(١) رَاجِعْ تَفْصِيلَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ: تَارِيخِ الْحُسَيْنِ: نَقْدٌ وَتَحْلِيلٌ، طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ الْعِرْفَانِ، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَيْهِ عَائِشَةُ.

وَحِزْبُ أَبْنَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

وَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ الْمُشَقُّ: وَكَبِيرُ أَقْطَابِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ.

وَمَا إِنْ آسَتْخَوَذَ الْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ عَلَى شُؤْنِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، حَتَّى أَلْقَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ جَبْهَةً مُعَارِضَةً قَوِيَّةً. فَقَدْ شَاءَ الْبَيْتُ الْأُمَوِيُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ طَبَقَةً حَاكِمَةً، وَشَاءَ، إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظَامِيَّةً (أَرَسَتْقَرَاتِيَّةً). وَهَؤُلَاءِ الْأُمَوِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ يَفْرَضُوا أَنْفُسَهُمْ وَوُجُودَهُمْ الْخَالِي مِنَ الْحَيَاةِ وَالْجُهْدِ، بَلْ تَجَاوَزُوا هَذَا إِلَى تَغْيِيَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي طَبَقَاتٍ لَهَا أَمْتِيزَاتُهَا وَقِيمُهَا، الَّتِي تَهْبِئُهَا حَقُوقًا دُونَ مَا وَاجِبَاتٍ، وَبَسْبِئُهَا تَفَاتٍ لِنَفْسِهَا مِنَ الْاِغْتِبَارَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مَا يُخَوِّلُهَا أَنْتِهَابَ كُلِّ غُنْمٍ، يَغْرُمُ بِسَبِيلِ حِيَارَتِهِ سَوَادَ الْجُمْهُورِ.

وَكُلَّمَا وَجَدَتْ لِمَجَاعَةٍ مَا حَقُوقٌ دُونَ وَاجِبَاتٍ، فَقَدْ وَجَدَ لَدَيْهَا شَرَّ أَنْوَاعِ التَّطَفُّلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَحِينَمَا تَنْثَقِلُ هَذِهِ الْاِغْتِبَارَاتُ إِلَى الْقَانُونِ يَنْتَقِضُ الْاِنْسِجَامُ وَالتَّوَازُنُ الْاجْتِمَاعِيَّانِ، وَيَنْسَاقُ الْمُجْتَمَعُ، كُرْهًا، فِي مَآرِقِ التَّنَاحُرِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْ أَجْلِ الدَّائِيَّةِ، وَيَنْتَهِي مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ، وَهُنَا يَأْخُذُ شَكْلُهُ الدَّامِي، وَمُظْهَرُهُ الْكَالِخُ الرَّهِيْبُ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ «إِنَّمَا أَهْلُكَ مَنْ قَبْلُكُمْ أَنَّهُ إِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ». فَإِذَا أَبُو سُفْيَانٌ يَقُولُ، عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ عُثْمَانُ: «يَا بَنِي أُمَيَّةَ تَدَاوَلُوهَا بَيْنَكُمْ تَدَاوُلَ الْكُرَّةِ، قَوْلَ الَّذِي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانٍ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُهَا لَكُمْ، وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى أَبْنَائِكُمْ وَرِاثَةً»، وَإِذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ يَجْعَلُ سَوَادَ الْعِرَاقِ بُسْتَانًا لِقُرَيْشٍ، وَإِذَا الثَّرَوَاتُ الْفَاجِشَةُ تَصِيرُ وَتَجْتَمِعُ فِي أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ وَأَنْصَارِهِمْ، وَإِذَا مَرْوَانُ يَسْتَبِيدُ بِالْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا عَلَى هَوَاهُ، وَإِذَا أَكْثَرُ الْأَقَالِيمِ تَذْهَبُ إِقْطَاعَاتٍ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِذَا الْقَانُونُ يُعْبَثُ بِهِ فَلَا يُطَبَّقُ أَحْيَانًا وَكَثِيرًا، بَلْ ذَهَبُوا بِهِ مَعَ الْهَوَى إِلَى حَدِّ أَشْعَرَ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا سَوَاءً فِي نَظَرِيَّةِ الْحَقِّ وَنَظَرِيَّةِ الْجَزَاءِ فَسَبَقَ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ هُنَاكَ قَوْضَى دُونَ مَا شَكَّ، وَأَنَّ هُنَاكَ فَسَادًا

في أداة الحكم سبب هذه الفوضى دون ما ريب، والفساد يُبيح الثورة، فتدافعت
الجموع في تياراتها.

كان الزائد الطواف بين مضر والحجاز والعراق، والذي يعجوب متردداً بين
هذه الأقاليم يلتمس، ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملأه حنقاً وثورة، كان يرى
بؤساً في غير حدٍ وشقاء مخيفاً، وفقرًا متعولاً، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس
يتوزع هنا وهناك، ليجتمع ويألف خصوصاً في بيئات الذين كانوا، إلى زمن
قريب، رمز الفخار العربي والإسلامي، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكرى أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق
أيضاً، وهي ترى مقدار ما تبدخ به أقلية فرضت نفسها، واستحوذت على الثورة،
دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى بن أمية يملك ما قيمته مائة ألف دينار عدا
عقاراته الكثيرة، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة ألف دينار،
وزيد بن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس... إلخ. أيضاً
رأوا أن هذا البدخ المترف جرّ وراءه أنواعاً من المجاوزات في السلوك الذي سنّ
نهجه النبي، وعهدهم به لم يكن بعيداً. كما كوّنت هذه الغضارة واللدانة، في
بيئات الأقلية المذكورة، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوعها في المجتمع،
فقاتلها بكثير من الاستنكار، ولكن لم تقدم، مع ذلك، جماعة من الأنصار،
فتولدت في الوسط دعوة إلى هذا الحديد المائع المثير، ودعاة إلى التجديد الرخو.

يهد أن الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها،
وانتشرت مؤمنة بأفكاره، وصلاحيته كطب للبشرية اللاهية المختصرة، فهم
جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم. فلا يدع إن استنكرت
الكثرة خطة هذا الجديد، ولا يدع إن تحدوا أنصاره وأتهموهم بالمروق، ولا يدع
إن دخلوا معهم في صراع بدأ خفياً، ثم امتدّ حياً.

وصادف، في هذه الفترة اللاهية، تطواف رجلٍ نعرفُ أن اسمه عبدُ الله بن سبأ، وكان على ما يَظهر، إن صحَّ أنه وجد، صاحبَ نفسٍ حساسيةٍ شاعرة، وصاحبَ فكرةٍ منظمَةٍ إصلاحيةٍ، من ورائيهما روحٌ نائِرةٌ. فأتصلَ بكلِّ وسطٍ إسلاميٍّ إذ ذاك، واستلهمَ الحياةَ العامةَ التي انعكست صورُها وألوانُها في نفسه، فاستعرَ ضميره، وأتقدتْ جوانحه، فلم يكنْ بُدَّ من أن يلتهب، ولم يكنْ مناصٌّ من أن يهتِفَ بالإصلاح وضرورةَ تغييرِ الوضعِ البائسِ اليائس، وكانَ عنيفاً في طبيعته، وزادتهُ الحالةُ العامةُ عنفاً، فقد تفاعلتِ الصِّفةُ الحيويَّةُ الشائِعةُ في المجتمعِ بطبيعته تفاعلاً جعله يثور، وجعله يُبشِّرُ بمبادئِ الإصلاحِ الثوريَّة. ولم يكنِ المجتمعُ حينذاك في حاجةٍ إلى أكثرَ من التنادي به واستِصراخِهِ، فقد كانَ بحالةٍ من التوتُّرِ والتَّعاوُلِ إلى درَجَةِ القدحِ بالأوار.

وهو، إلى هذا، قد اجتمعَ بأقطابِ الحركةِ الثوريَّة في مصرَ والشَّامِ والعراقِ، وتأثرَ بهم، ولا سيَّما أبو ذرَّ الغفاريُّ الذي ركَّزَ^(٢) أفكارَ عبدِ الله بن سبأ، وهذا وجدَ فيه ينبوعاً دينياً ومغتنوياً خصباً، يُمكنه أن يستمدَّ من أخبارِهِ عَنِ النَّبِيِّ، ما يجعلُه سنداً لأفكارِهِ، فإنَّ أبا ذرَّ كان يُحدِّث، من قَبْلِ ورودِ آبنِ سبأ إلى الشَّامِ،

(٢) يُظنُّ البسطاءُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ، تبعاً لتقديراتِ استشرافيةِ مُرسَلَةِ إرسالاً، أن عبدَ الله بن سبأ - تلكَ الشَّخصيَّةُ التي هي شِئُهُ تاريخيَّة، أي حُرَافِيَّة، من شِدَّةِ غُمُوضِها إلى حدِّ يُبْحِلُ لنا إنكارُها مَرَّةً - قَتَنَ مُجْتَمَعاً بأشْرِهِ، وهذا منقوضٌ على ضَوْءِ البسيكولوجيَّةِ الاجتماعيَّةِ؛ وقَتَنَ أبا ذرَّ الذي سائرُ الشُّعْرِ الدِّيَنِيِّ الجَدِيدِ في كُلِّ أطوارِهِ. ويتبيَّنُ لنا درَجَةُ ما فيها من سَخَفٍ حينما نَعرِفُ أَنَّهُم بِشَخْصِيَّةِ سِبْئِهِ تاريخيَّةٍ يُريدونَ تَغيِيرَ مَخرى حادثةٍ تاريخيَّةٍ هائلةٍ، ولا شكَّ في أنَّها طَريقَةُ مِثالِيزيَّةٍ يُرادُ بها تَعلِيلُ المَعلومِ بالجهولِ، وما يَذكرنا فَلَعْلَ عبدَ الله بن سبأ عَنَتَرَ أَجْتِمَاعِيٍّ بِمِثْلِ عَنَتَرِ الفُروسيِّ؟ وأنا إذا كُنْتُ أَستَطيعُ أن أَقِرَّ بهذا الشَّيْءِ المَدَّعُوعُ عبدَ الله بن سبأ، فإنَّما أَستَطيعُ الإقرارَ به على أَنَّهُ يَلْمِزُ المَدْرَسَةَ الغفاريَّةَ، ويؤكدُ هذا أَنَّهُ مِن أنصارِ عليٍّ، فلو قَرَضْنَا أَنَّهُ جاءَ أبا طالبٍ في الحائِبِ السِّيَاسِيِّ والدِّيَنِيِّ من أَفكارِهِ، ومَعروفُ أَنَّ أبا ذرَّ مِن أنصارِ عليٍّ، فلو قَرَضْنَا أَنَّهُ جاءَ بأفكارٍ مَزْدَكِيَّةٍ فلماذا لم يَحْتَرِ إِلَّا مُناصِرَةَ عليٍّ، وكانَ أروجُ لَدَعُوِيَّةٍ لو ناصَرَ ذُكْرَى أبا بكرٍ وعُمَرَ. والسَّبَبُ في نَظرنا الَّذي أَدى إلى شُعوهِ مَدْرَسَةِ أبا ذرَّ ودَعُوِيَّةِ إِيْمَا هو ذلكَ التَّوَرُّطُ والشَّهالُكُ على مَسَلِكِ الثَّراءِ المَطْرُوفِ الَّذي أَحَدَثَ بِأَسْبابِهِ الأَقْلِيَّةُ الأُمُويَّةُ وأَعوانُها، وثورَها ذلكَ البرورُ الأَرِشْتَرِاطِيّ واستِغْباذُها الإقطاعيِّ، فكانَ في ذلكَ ما أغرى أبا ذرَّ على فَهْمِ الشَّريعَةِ ذلكَ الفَهمِ.

بأحاديثه المُسنَّدة إلى النَّبِيِّ، وكُلُّها تَحْمِلُ عُنَاوِيرَ الْأَفْكَارِ الَّتِي أَنْطَلَقَ أَبْنُ سَبَأٍ يُرْوَجُ لها. والذي لَدَيْنَا مِنْ وَثَائِقِ التَّارِيخِ يَشْهَدُ أَنَّ إِعْلَانَ أَبِي ذَرٍّ عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَقَعَ قَبْلَ أَوَّلِ الْإِقَاءَةِ بَيْنَهُمَا، كَمَا يَشْهَدُ أَيْضاً أَنَّ تَكُونُ شَخْصِيَّةِ أَبْنِ سَبَأٍ كَانَ بَعْدَ أَوَّلِ إِقَاءٍ. فَالتَّارِيخُ وَكُتُبُ الْحَدِيثِ تَعْرِفُ جَيِّداً أَنَّ أَبَا ذَرٍّ كَانَ يُحَدِّثُ، فِي الشَّامِ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ وَقَائِعِهِ عَهْدَ النَّبِيِّ.

قَالَ: «سَابَيْتُ رَجُلًا - وَهُوَ بِلَالٌ - فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، وَكَانَتْ رَقِيقَةً، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ أَمَرُو فَيْكَ جَاهِلِيَّةً. إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ بِمَا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ بِمَا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

يُزَوِّي أَبُو ذَرٍّ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، فِي حَقِّ الْمَوَالِي الْأَرْقَاءِ بِالْقَانُونِ، قَصْدَ مُحَارَاةِ الْوَضْعِ الَّذِي شَاءَتْ بِهِ الْأَقْلِيَّةُ جَعَلَ سَوَادِ الْمُجْتَمَعِ أَرْقَاءً أَجْتِمَاعِيَّةِينَ.

فَالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ إِذَا، أَنَّ أَبْنَ سَبَأٍ كَانَ يَحْمِلُ أَفْكَاراً اسْتَلْهَمَهَا مِنْ حَالَةِ الْمُجْتَمَعِ الْقَائِمَةِ، وَلَكِنَّهُ سَقَطَ عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ عَلَى مَا يَزُكُّهَا وَيُوضِّحُهَا، وَيُعْطِيهَا الْعُنْصَرَ الدِّينِيَّ الْمَفْقُودَ لَدَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ مِنْ نَشْرِ أَفْكَارِهِ الْحُرَّةِ، وَبِالْحَرِيِّ أَفْكَارِ الشَّرِيعَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ أَبِي ذَرٍّ، فَمَضَى يُبَشِّرُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرَضُهَا بِمَا إِنَّهُ الدِّينُ أَيْضاً.

رَأَيْنَا كَمْ كَانَتْ أَقَالِيمُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرَةِ مُتَوَتِّرَةً، وَرَأَيْنَا إِلَى أَيِّ حَدٍّ قَدْ أَحَسَّ الشَّعْبُ أَنَّ الْأَقْلِيَّةَ الْحَاكِمَةَ تَحْمِلُ حَوْلَهُ مُوَامَرَةً وَاسِعَةً النُّطَاقِ، تُبَالِغُ حَتَّى تَنْصِلَ بِحَيَاتِهِ، فَانْكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ فِي الْأَقَالِيمِ يَتَأَمَّرُ بِهَا، وَيُنْسِجُ مِنْ حَوْلِهَا شِبَاكَةً، وَلَقَدْ بَاتَتْ الْحَالَةُ الْعَامَّةُ نَجْيَةً فِي كَلِمَتَيْنِ: حُكُومَةٌ تَتَأَمَّرُ بِالشَّعْبِ، وَشَعْبٌ يَتَأَمَّرُ بِالْحُكُومَةِ، وَلَكِنْ لِلشَّعْبِ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ وَالْعُلْيَا دَائِماً.

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأَ أَيَّامَ مَرٍّ، وَأَيْنَ أَنْطَلَقَ، يُصَادِفُ جُمُوعاً تَغْتَلِجُ عَلَى جُمُوعٍ،
وَكُتْلُ الْمُؤَامَرَةِ تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَتَوَزَّعُ لَتَحْتَشِدَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ أَمَانِي
الْجَمَاعَاتِ وَتَصَوِيرِ أَحْلَامِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، فَأَفْتَيْنَا بِهِ وَأَفْتَيْنَ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَزْبُطُ بَيْنَ
هَذِهِ الْجُمُوعِ إِلَّا رَابِطَةُ الشُّعُورِ بِضُرُورَةِ الإِصْلَاحِ السَّرِيعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الْفَسَادِ
أَنْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَحُمُّسًا لِلثَّوْرَةِ هُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ
يُحَاوِلُونَ شَتَّى الْحَاوِلَاتِ لِلتَّرْقِيعِ وَالتَّوْجِيهِ، فَكَانَ شُعُورُهُمْ بِضُرُورَةِ الثَّوْرَةِ مَعْنَاهُ أَنَّ
الْحَزَقَ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاقِعِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْفَوْضَى لَا يَنْجَعُ مَعَهَا إِلَّا الْقَمْعُ الْعَنِيفُ،
فَتَخَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ، أَوْ قُلْ كَانُوا فِي الطَّلِيعَةِ.

ولكن، مع ذلك، فقد ظلَّ حِزْبُ عَلِيٍّ، أَوْ حِزْبُ الْمُحَافِظِينَ، يَبْدُلُ جُهِوداً
جَبَّارَةً بِسَبِيلِ تَقْرِيبِ وَجْهَةِ النَّظَرِ بَيْنَ كُتْلَةِ الشَّعْبِ وَكُتْلَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَحُولُ، جُهْدَ
الْمُسْتَطَاعِ، بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَبَيْنَ مَا رِيهِ الدَّائِمِيَّةِ، وَكَثِيراً مَا جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمَانَةً لِهَيْئَةِ
الْحُكْمِ. وَالشَّيْءُ الْجَدِيدُ بِالتَّسْجِيلِ وَنِصَاعَةِ الذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ بَقِيَ مُوَالِياً، بَعْطَفٍ
صَادِقٍ، لِلْحُكُومَةِ إِلَى السَّاعَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يَغْدُ مُمَكِّناً فِيهَا ضَبْطُ أَغْصَابِ
الْجُمْهُورِ الثَّائِرَةِ، فَطَغَى عَلَى الْحَوَاجِزِ وَبَدَأَ التَّهْدِيمَ.

وَمِنَ الْإِنْصَافِ بَلْ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْجُمْهُورَ، مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَرْعَنَ
فِي ثَوْرَتِهِ، فَقَدْ اتَّصَلَ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالسُّلْطَةِ وَطَالَبَ مُسْتَشْفِعاً بِمُمَثِّلِيهِ مِرَاراً
وَتَكَرَّراً، وَلَكِنْ مَطَالِبَتُهُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَتْ تَبَوُّءُ بِالْفَسْلِ، وَكَانَ فَشْلاً ذَرِيعاً
مُتَوَاصِلاً مِنَ النَّوْعِ الْمُثِيرِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتَهُ الْعَانِيَّةُ، وَتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ
الْإِثْقَامِيَّةُ فِي رَأْسِهِ تَرَكَّزَ الْفِكْرَةُ الثَّابِتَةُ، لَا يَحُولُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

هَبَطَتْ وَفُودُ الْأَمْصَارِ الْمَدِينَةَ مَرَّةً وَأُخْرَى إِلَى مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَتْ، فِي كُلِّ
مُنَاسَبَةٍ، تَحْمِلُ طَائِفَةً مِنْ أَمَانِيهَا، وَهِيَ مَلَأَى بِالرَّجَاءِ تَوَدُّ لَوْ صَدَقَتْ أَحْلَامُ أَمَالِهَا،
وَكَانَتْ تَرْجِعُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، بِوَعْدٍ مَعْسُولَةٍ، وَلَكِنْ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى صَدَى

يَأْسٍ فِيهِ غُرُورُ الشَّرَابِ.

سَاءَهَا، فِي كُلِّ تَجَرِبَةٍ وَكُلِّ مُحَاوَلَةٍ، إِخْفَاقُ الْمُثْقَلِ، فَأُغِظَتْ كَذِي النَّفْسِ
الْجَرِيخَةِ عَلَى مَنْ لَا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِرَاحَهُ وَيُجْرِي دِمَاءَهُ، وَلَمْ يَسْغُهَا كَظْمُ عَوَاطِفِهَا
الْمُلْتَهَبَةِ، فَهَدَرَتْ صَاحِبَةً مُحْتَجَّةً، تُرِيدُ وَضْعَ حَدٍّ لَأَلَامِهَا وَبِأَسَائِهَا الْمُسْتَعِرَّةَ،
فَكَانَتْ تَضْطَلِمُ تَكَرَّاراً وَمِرَاراً بِمَا يَوْقُظُ فِيهَا شُعُورَ الْخَيِّبَةِ الْمُتَّقِمِ. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ
الْجَمَاعَاتُ تُرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا مُلْتَمِئَةً بَعْضاً عَلَى بَعْضٍ تَتَهَامَسُ فِي أَمْرِ خَطِيرٍ.

وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْمُلْتَهَبَةِ كَانَ يَطُوفُ، كَمَا قُلْنَا، فِي أَقْطَارِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ،
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِيمَا زَعَمُوا، فَمَا حَلَّ بُقْعَةً إِلَّا وَسَمِعَ فِيهَا تَجَاوُبَ نَافَةِ وَاحِدَةٍ
مُسْتَشْكِرَةٍ، فَاسْتَمَلَ عَلَى حَفِظَةِ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتِكُلُ فِي حَنَائَاهُ غَيْظاً وَتُحْرِقُ الْأَرْثَمَ. وَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ هَبَطَ الشَّامَ فَاتَّصَلَتْ أَشْبَابُهُ بِأَسْبَابِ أَبِي ذَرٍّ فَقَدْ سَمِعَهُ يَنْتَقِدُ وَلَا يُيَالِي
عَلَى أَيِّ وَجْهِ فُسِّرَ انْتِقَادُهُ، وَيَتَّخِذُ الْمُجْتَمَعُ^(٣) وَالِدَوْلَةَ، وَكُلُّ أُسْرَةِ الْحُكْمِ تَحْدِيّاً
جَارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتُورِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنَاهِجُ السُّلُوكِ
التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَأْخُذُ عَلَى الْإِنْطِلَاقِيِّينَ الْمُتَجَاوِزِينَ مَذَاهِبَ سُلُوكِهِمْ.

رَأَى وَلَمْ يَسْ مِقْدَارَ تَهَاوِي النَّاسِ فِي التَّرَفِ بِالْعُدْوَى، وَتَهَاوُنِهِمْ عَلَى الرِّفَاهِ مِنْ
أَيِّ طَرِيقٍ، وَتَسْتَبِيعُ خُطَّةَ هَذَا السُّلُوكِ إِبَاحِيَّةً وَلَا مُبَالَاةً، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَتْبَاعِهِ
حَاجِزاً يُقَارِمُ التِّيَّارَ، فَوَقَّفَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُشِيرُ بِمِبَادِيهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ
النَّاسِ بِمَا قَدْ عَهِدَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، وَبِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَوَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْضاً مِنَ
النَّاسِ كَانُوا قَدْ اسْتَنَامُوا إِلَى هَذَا الْجَدِيدِ، وَتَذَوَّقُوا وَلَذَّتْهُمْ أَشْيَاؤُهُ، فَأَبْزَوْا عَلَيْهِ وَأَبَى
عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ لَا يُيَالِي غَضَباً وَلَا رِضاً.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَرَى أَنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الْفَضِيلَةُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ

(٣) تَفْصِيلُ رَأْيِنَا فِي مَذْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَتَفْصِيلُ آرَائِهِ فِي الْحَيَاةِ وَغَايَتِهَا، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَنِظَامِهِ، وَفِي الْحُرِّيَّةِ
الْأَدْبِيَّةِ، وَعِلَاقَةِ الْحَيِّ بِاللَّهِ، نَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا: مَدْرَسَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالثَّوْرَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِسْلَامِ.

الفاضلُ فَقَط. فعلى الناسِ إذا أنْ يُجَلِّوا أَشْيَاءَ الْفَضِيلَةِ بَيْنَهُمْ، وأنْ يُؤَفِّروا كُلَّ جُهِودِهِمْ على تَحْقِيقِهَا وَآتِهَاجِ سُنَنِهَا وَأَسَالِيِبِهَا. وأما أولئك الَّذِينَ يَجْمَعُونَ أَكْبَرَ جُهِودِهِمْ وَهُمْهُمْ على التَّزْيِيدِ مِنْ مَخَارِفِ الْحَيَاةِ النَّاعِمَةِ وَأَسْبَابِ الْعَيْشِ الرَّفِيعِ، فَإِنَّهُمْ لَا يُفَضِّلُونَ، فِي آغْتِيَارِهِ، عَنْ سَائِمَاتٍ وَجَدَتْ سَبِيلَ حُظُوظِهَا. وَالْإِنْسَانُ عِنْدَهُ، إِذَا جَمَعَ هَمَّهُ هَذَا الْجَمْعَ، فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ حَيَوَاناً فَقَط مِيزَتُهُ أَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَى التَّحْيِيلِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفِكْرِ، وَأَمَّا الْإِنْسَانِيَّةُ فَإِنَّهَا غُنْصُرٌ غَرِيبٌ عَنْهُ. وَلَكِنِّي يَكُونُ إِنْسَاناً، وَيَظَلُّ كَذَلِكَ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَيَاةٍ أُخْرَى مَادَّتْهَا الْفَضِيلَةُ، وَالْفَضِيلَةُ، فِي نَظَرِهِ، هِيَ التَّجَرُّدُ وَالْعَمَلُ.

هو يُرِيدُنَا أَنْ نَعْمَلَ وَنُكَافِخَ بِمَا آسْتَطَعْنَا إِلَى ذَلِكَ، كَمَا يُرِيدُنَا أَنْ نَتَجَرَّدَ أَيْضاً فَلَا نَنْعَمِسَ فِي مَدَى الْفُتُونِ، يُرِيدُ مِنَّا سَيْراً بِمَا فِيْنَا مِنْ حَيَاةٍ عُضُوبِيَّةٍ ذَاتِ حَرَارَاتٍ، وَآسْتِغْلَاءٍ بِمَا فِيْنَا مِنْ رُوحٍ لَا تَفْتَأُ تَنْشُدُ الشُّمُوءَ.

وَلَيْسَ أَضَرَّ عَلَى الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ أَنْ يَسِيرَ بِالْحَيَاةِ فَقَط، إِذْ بِهَذَا يُشْبِهُ سَيْرَ الرُّوحِ تَتَحَرَّكُ وَهِيَ قَابِعَةٌ بِمَحَلِّهَا. وَفَوْقَ مَا يَبَيِّنُ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ أَنَّ الثَّانِي تَسِيرُ بِهِ الْحَيَاةُ، وَالْأَوَّلُ يَسِيرُ بِالْحَيَاةِ، وَيَسْتَعْلِي دَوْماً بِالرُّوحِ الَّتِي هِيَ فِكْرَةُ الْحَيَاةِ وَغَايَتُهَا وَضَمِيرُهَا وَأَخْلَاقِيَّتُهَا. وَإِذَا كَانَتْ الْحَرَكَةُ ضَرُورِيَّةً لِلْحَيَاةِ، وَالْفَضِيلَةُ، الَّتِي هِيَ التَّجَرُّدُ، ضَرُورِيَّةً لِلْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَكِنِّي نَكُونُ أَحْيَاءَ إِنْسَانِيِّينَ يَجِبُ أَنْ نَعْمَلَ، وَيَجِبُ أَنْ نَتَجَرَّدَ، وَأَمَّا إِذَا عَمِلْنَا فَقَط فَقَدْ نَحَرْنَا غُنْصُرَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيْنَا وَأَسْفَفْنَا، كَمَا نَتَعَقَّدُ الْحَيَاةَ حِينَ نَضَعُهَا فِي مُعْتَرِكِ أَطْمَاعِنَا وَشِبَاكِ شَهَوَاتِنَا. فَكَانَ يُوصِي وَيُلْحِظُ أَنْ نَعْمَلَ، وَأَنْ نَتَجَرَّدَ، أَيْ نَعْمَلَ وَلَا نَدَّخِرَ، فَحَضَّ بِأَقْسَى أُسْلُوبٍ وَأَعْتَفِهِ عَلَى عَدَمِ الْكَنْزِ، وَلَوْحَ مَا شَاءَتْ لَهُ فِكْرَتُهُ وَشَاءَ ضَمِيرُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ».

وهو يرى أيضاً أن الدولة كالفردي سواء بسواء، فإذا كُنْزَتْ وله تَتَجَرَّدُ
أَنَحْصَتْ، وتَوَلَّدَتْ لَدَيْهَا الْأَطْمَاعُ. فَتَحْدَى الدَّوْلَةُ كَمَا تَحْدَى الْأَفْرَادُ، وَحَارَبَ
الْكَنْزُ الْأَجْتِمَاعِي، كَمَا حَارَبَ الْكَنْزُ الْفَرْدِي. وَشَنَّهَا شَعْوَاءٌ عَلَى دُنْيَا الْقُصُورِ وَحَيَاةِ
التَّرْفِ، فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظَرُهُ إِلَى مَائَتِ الْمِثَالِيَةِ الْعُلْيَا وَالْأَحْلَامِ السَّامِيَةِ، فَمَوَكِبُ
الْإِنْسَانِيَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَوَحَّلَ، وَيَنْقَلِبَ مَوَكِبُ رُجْمِ إِذَا شَنَّا الْوُلُوحَ بِهِ فِي دُنْيَا
الشَّهَوَاتِ.

وَمِنْ نَاجِيَةِ أُخْرَى أَحْسَ بِالْأَمِ الْبُؤْسَ فِي النَّاسِ، وَأَحْسَ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَوَسَّلُ
بِالتَّسْمِيَّاتِ الْقَانُونِيَّةِ إِلَى أَنْتِهَابِ الْمُسَمِّيَّاتِ الْحُقُوقِيَّةِ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَالِاسْتِخْوَاذِ عَلَى
الثَّرْوَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَتَبْدِيدِهَا دُونَ مُسْتَحَقِّهَا، فَقَدَّرَ وَاسْتَنْتَجَ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمُتَّخِذَةَ هِيَ
ذَاتُ الْحَقِّ الْأَوَّلِ فِي التَّصَرُّفِ بِالْأَمْوَالِ الشَّائِعَةِ. فَتَسْمِيَّتُهَا مَالِ الْخَزِينَةِ بِمَالِ اللَّهِ
الَّتِي يُرَادُ مِنْهَا الشُّيُوعُ، وَسِيلَةٌ إِذَا لِلتَّلَاغِبِ وَالِاسْتِخْوَاذِ، فَحَمَلَ حَمْلَةً نَكَرَاءَ عَلَى
هَذِهِ التَّسْمِيَّةِ الْمَغْلُوطَةِ، وَنَادَى أَنَّهَا مَالُ الْمُسْلِمِينَ، هَذِهِ التَّسْمِيَّةُ الَّتِي تُؤَدِّي، فِي
تَسْلُسِلِهَا الْمُنَاطِقِيَّ الْحُقُوقِيَّ، إِلَى مَنَعِ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، وَإِلَى وُجُوبِ تَوَزِيْعِهَا عَلَيْهِمْ
وَتَعْلُقِ حُقُوقِهِمْ بِهَا.

وَبَلَغَ مِنْ شِدَّةِ وَطْأَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، أَنْ جَعَلَ الْأُنَانِيُونَ الطَّامِعُونَ يَفِرُّونَ مِنْ
طَرِيقِهِ كُلِّمَا رَأَوْهُ، وَزَادَ فِي تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ وَأَنْتِشَارِهَا أَنَّهُ كَانَ يَشْفَعُ أَقْوَالُهُ هَذِهِ
بِأَحَادِيثَ مَأْثُورَةٍ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ. فَوَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْأٍ فِي هَذِهِ الْأَفْكَارِ، الَّتِي
يَسْمَعُهَا مِنْ أَبِي ذَرٍّ، مَا هُوَ الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِرُوحِ الْمُجْتَمَعِ الْبَائِسَةِ، وَوَجَدَ فِيهَا أَيْضاً
خَالِصَ أَفْكَارِهِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ وَجَدَ فِيهَا مَا تَشْتَوِي إِلَيْهِ رَغْبَةُ الْمُطَالِبِينَ بِالْإِصْلَاحِ
الْحَائِرِينَ، فَانْطَلَقَ عَلَى سُنَّةِ أَبِي ذَرٍّ يُشِيرُ وَلَا يَحْفِلُ.

تَوَقَّفَ فِي الْكُوفَةِ وَهُوَ يَذَرُّعُ الْأَقْطَارَ، فَرَأَى فِيهَا حَرَكََةً أَقْوَى مِنْ سَائِرِ
الْحَرَكَاتِ الْأُخْرَى فِي الْمَدِينِ وَالْعَوَاصِمِ، فَانْخَرَطَ فِيهَا وَنَظَّمَهَا، وَهُنَاكَ وُضِعَتْ

«عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تُقابل من الهيئة الحاكمة بالحسنى بل بالإعراض، فتألبوا، وكان أن توسّط عليّ بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بازحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية بالقبض عليهم في جَمْع، وبعد لأي أُفْرِج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرةً أخرى، بيد أنهم استعدّوا للخُصومة مهماً نجم عنها، ومهما آخَبَكَ ألوانها الكالحة. وكانت عريضة الحق تستميلُ على:

- أ - إبعاد البطانة المشرفة على تسيير الأمور حالياً ولا سيما مزوان بن الحكم.
- ب - الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها التّبي، دون السياسة التي جرى على سنها الخليفة الثاني ولا تزال.
- ج - ضرب اليد على طماعية قُرَيش.
- د - الحد من صلاحية الولاية والأمر، فيقيّد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

هـ - الحيلولة دون الأمر وأستدلال الأهلين.

وفدّت الوفود تحت ستار الحج، وهي تُخفي أغراضها الدائمة الثورية، وشاع الهمس في المدينة، وأنطلقت عبارات الانقياد تُؤجج كالتار في الهشيم، وقد اتّصلت بعلي أخبارهم فتخوّف معبّة الأمر وبادر إلى الاجتماع بعثمان، فقال له:

«الناس ورائي وقد كلّموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنُخبرك عنه، ولا خلّونا بشيء فنبغكه، وما نُخصّصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله وملت صهره، وما أبى أي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا أبى الخطاب بأولى بشيء

مِنَ الْخَيْرِ مِنْكَ...»

ثم يقول:

«فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ. فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلِي، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ بَيْنِي...»

فإذا آغْتَذَرَ عُثْمَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَقْتَفِي أَثَرَ عُمَرَ أَجَابَهُ عَلِيٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطَأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ بَجَلْبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْغَايَةِ. وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، ضَعُفْتَ وَرَفَقْتَ عَلَى أَقْرِبَائِكَ...»

فإذا ذَكَرَ لَهُ عُثْمَانُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَمُنُّ وَلَاهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ يَقْتَدِي كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِّيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ فَقَالَ:

«أَنْشُدْكَ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أَخَوْفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَاً^(٤) غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَفْتَطِخُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ هَذَا أَمْرُ عُثْمَانَ فَيَبْتَلِعُكَ وَلَا تُغَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ».

ولكنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَزَلْ بِعُثْمَانَ يُوْغِرُ صَدْرَهُ عَلَى عَلِيٍّ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ فيقول:

«هَكَذَا يَسْتَقْبِلُكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُ وَسَلَفُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ وَأَبْنُ عَمَّتِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا غَابَ عَنْكَ مِنْهُ؟»، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَسَائِرُ بَطَانَتِهِ (حَتَّى أَجْمَعَ إِلَّا يَقُومَ دُونَهُ). وَعَلِيٌّ جِيَالٌ تَرْدُدُ عُثْمَانُ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

«مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، آتَخَذَ بَطَانَتَهُ أَهْلَ غِشٍّ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا

(٤) يَوْفَاً: اِسْمُ غُلَامٍ عُمَرَ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ يَزْعُمُ مِنْهُ رُغْبًا، فَضْرِبَ الْمَثَلَ بِهِ فِي الرُّغْبِ.

وَقَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَاجَهَا وَيَسْتَذِلُّ أَهْلَهَا».

وكان عمرو بن العاص في هذه الأثناء يُحرّض الناس على عثمان، ويَجَبِّهُ سياستهَ علانيةً ويتجسس عليه، ويفضّخ الأحاديث التي تجري داخل داره، ولا يلقى أحداً إلا أَدْخَلَ في رُوعِهِ كراهيته، ويستغلُّ المناسبات والظروف حتى قال يصف نفسه:

«أنا أبو عبد الله إذا حَكَكَتُ قُرُوحَةً نَكَأْتُهَا، إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّاعِي فَأُحَرِّضُهُ عَلَى عُثْمَانَ... وهذا عُثْمَانُ يَسْتَشِيرُهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ عَمْرُو:

«أرى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ، فَأَعْتَرِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَرِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَرِمُ عَزْماً وَآمُضٍ فِيهِ قَدْماً...» ويقابله حينما خطب عُثْمَانُ على مَلَأٍ مِنَ الصَّاحِبِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِقَوْلِهِ:

«يا أمير المؤمنين: إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَايِرَ وَرَكِبْنَاهَا مَعَكَ، فَتُبْ نَشُب...» وهذه عَائِشَةُ تَجْتَرِيءُ وَهُوَ يَخْطُبُ، فتقول وقد نَشَرَتْ قَمِيصَ النَّبِيِّ:

«هذا قَمِيصُ النَّبِيِّ لَمْ يَبَلِّ، وَقَدْ أَبْلَيْتَ سُنَّتَهُ...». وهذا نَظَرُهُ وَالزُّبَيْرُ يُعِينَانِ الثَّائِرِينَ بِالْمَالِ.

والجُمُوعُ الْمُتَأَلِّبَةُ الْوَافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، حِيَالَ مَا تَرَى وَحِيَالَ مَا تُحِسُّ بِهِ مِنْ آلامٍ فِي قَرَارَتِهَا، تَفْتَحُ ثَائِرَتِهَا، وَمَضَتْ فِي أَنْدِفَائِهَا مُتَنَمِّرَةً غَاضِبَةً. فَبَدَلَ عَلِيٌّ كُلَّ جُهِدٍ لِتَخْفِيفِ ثَائِرَتِهِمْ وَتَبْرِيدِ غُلُوبِهِمْ، وَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى إِعْطَائِهِمْ مُهَلَّةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. فَلَمَّا أَنْتَهَتْ أَجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ، مِثْلَ الْجِيَالِ، عَلَى حَدِّ تَغْيِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ. قَالَ عُثْمَانُ لِمَرْوَانَ: «أَخْرِجْ وَكَلِّمُهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أَكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَرْوَانُ إِلَى الْبَابِ، وَالنَّاسُ يَزْكُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ:

«ما شَأْنُكُمْ قَدْ أَجْتَمَعْتُمْ كَأَنَّمَا جِئْتُمْ لِنَهْيٍ؟ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، كُلُّ إِنْسَانٍ

أَخِذْ بِأُذُنِ صَاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا مُلْكَنَا مِنْ أَيْدِينَا؟ أَخْرِجُوا عَنَّا. أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رُمْتُمُونَا لَيَمُرَّنَّ عَلَيْكُمْ أَمْرٌ لَا يَسُرُّكُمْ، وَلَا تَحْمَدُوا غِبَّ رَأْيِكُمْ. أَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ، وَاللَّهِ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا».

كَانَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْمَمْلُوءَةُ حُمْقًا وَرُعُونَةً، شَرَارَةً شَدِيدَةً الْأَثَرِ فِي إِذْكَاءِ الثُّورَةِ وَتَقْرِيبِ خُطُوبَاتِهَا، وَمَزْوَانٌ لَمْ يُفْلِحْ فِيهَا بِإِثَارَةِ النَّاسِ فَقَطْ، بَلْ أَفْلَحَ أَيْضًا بِإِثَارَةِ عَلِيٍّ نَفْسِهِ، الَّذِي ضَمِنَ لِلْجُمْهُورِ تَسْوِيَةَ الْأُمُورِ عَلَى مَا يَزْعَبُ، وَقَدْ أُسْقِطَ فِي يَدِهِ حَقًّا، وَمَا وَسِعَهُ، تَحَتَّ عَاصِفَةً نَفْسِهِ وَعَاصِفَةَ الْجُمْهُورِ الْمَائِجِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الْمَشْهُورَةَ:

«مَا رَضِيتَ مِنْ مَزْوَانَ وَلَا رَضِي عَنكَ، إِلَّا بِتَحْرِفِكَ عَن دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الطَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ. وَاللَّهِ مَا مَزْوَانٌ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ. وَإِنَّمِ اللَّهُ إِنِّي لِأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا بِعَائِدٍ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمَعَاتِبَتِكَ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ وَغُلِبْتَ عَلَى أَمْرِكَ».

وَدَخَلْتَ عَلَيْهِ آمْرَاتُهُ نَائِلَةٌ آتِنَةُ الْفَرَاغِصَةِ^(٥)، فَقَالَتْ:

«أَتَكَلِّمُ أَوْ أَسْكُتُ»، فَقَالَ: «تَكَلِّمِي» فَقَالَتْ:

«قَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَلِيٍّ لَكَ وَإِنَّهُ لَيْسَ يُعَاوِدُكَ، وَقَدْ أَطَعْتَ مَزْوَانَ يَقُودُكَ

حَيْثُ شَاءَ» قَالَ: «فَمَا أَصْنَعُ؟...» قَالَتْ:

«تَتَّقِي اللَّهَ وَتَتَّبِعُ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فَإِنَّكَ مَتَى أَطَعْتَ مَزْوَانَ قَتَلَكَ.

وَمَزْوَانٌ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَلَا هَيْئَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ. وَإِنَّمَا تَرَكَكَ النَّاسُ لِمَكَانِ مَزْوَانَ مِنْكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ فَاسْتَصْلِحْهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْكَ قَرَابَةً وَهُوَ لَا يُغْصَى». فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَقَالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أَنَّنِي لَسْتُ بِعَائِدٍ».

كَهَرَ عَلَى عَلِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ الْمُنْطِقِ، الَّذِي فَاجَأَ بِهِ الْجُمُوعَ مَزْوَانٌ بِلِسَانِ

(٥) لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَنْ هُوَ يَفْتَحِ الْغَاءَ لَا يَضُمُّهَا سِوَى أَبِي نَائِلَةَ هَذَا وَالْأَخْوَصِ الْكَلْبِيِّ

الْخَلِيفَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْعَصِيْبَةِ وَبَيْنَ التَّلَظِّيِّ وَاللِّهَامِ
الْوَضْعِ الْقَائِمِ، إِلَّا كَلِمَةً رَغْنَاءُ كَالَّتِي فَاهَ بِهَا مَرْوَانُ، عَلَى أَنَّهَا هَدَمَتْ قِيَمَةً
وَسَاطَتِيهِ، وَأَلْقَتْ فِي رُوعِ النَّاسِ آرْتِيَاباً حَقِيقِيّاً حَادّاً فِي جَدْوَى مُدَاخَلَتِهِ، لِهَذَا -
وَهُوَ فِي مِقْيَاسِ كُلِّ عَصْرِ مُبَرَّرٌ - تَنَحَّى وَاعْتَزَلَ وَاعْتَصَمَ فِي حُدُودِ هَذَا التَّنَحِّيِ
وَالِاعْتِزَالِ. وَلَكِنْ عَلَيَّاءُ، مَعَ كُلِّ مَا هُوَ عَاتِبٌ وَوَاجِدٌ، لَمْ يَزَلْ يُقَدِّرُ وَيَذْهَبُ فِي
مَدَى تَقْدِيرِهِ بَعِيداً، فَيَنْتَهِي إِلَى الْكَارِثَةِ وَيَتَرَاءَى لَهُ شَبَحُهَا، فَيَزْهَبُ هَوْلُهَا وَيَخْشَى
وُقُوعَهَا. يَجِبُ إِذَا أَنْ لَا يَظَلَّ بَعِيداً، وَإِنْ تَوَارَى مِنَ الْمَيْدَانِ إِزَاءَ مَوْقِفِ بَطَانَةِ عُثْمَانَ
مِنَ الْجُمْهُورِ، هَذَا الْمَوْقِفَ النَّائِيِ الْمُثِيرَ، فَبَادَرَ إِلَى تَقْدِيمِ وَلَدَيْهِ - لِاعْتِبَارَاتِهِمَا
التَّقْدِيرِيَّةِ - وَمَوَالِيهِ، كَيْ يَنْتَهِيَهُمَا عَوَادِيِ الْأَحْدَاثِ وَطَائِشَاتِ الْخُطُوبِ. وَحِينَ بَلَغَهُ
«أَنَّ النَّاسَ حَصَرُوا دَارَهُ وَمَنَعُوهُ الْمَاءَ بَعَثَ إِلَيْهِ بِثَلَاثِ قِرْبٍ، وَقَالَ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ:
أَذْهَبَا بِسَيْفَيْكُمَا حَتَّى تَقُومَا عَلَى بَابِهِ وَلَا تَدْعَا أَحَدًا يَصِلُ إِلَيْهِ بِمَكْرُوهِ، وَكَانَ أَنَّ
خُضِبَ الْحَسَنُ بِالذَّمَاءِ وَشُجَّ قَنْبَرُ مَوْلَاهُ».

وَبَاتَ عَلِيٌّ مُطْمَئِنّاً، فَقَدْ رَتَّبَ الْأُمُورَ جَيِّداً، وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ مَجْرَى
الْحَادِثِ سَيَسِيرُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ: يُضْطَرُّ عُثْمَانُ تَحْتَ ضَغْطِ الْجُمْهُورِ، إِلَى إِجَابَةِ
مَطَالِبِ الْإِصْلَاحِ وَتَنْجِيَةِ بَطَانَتِهِ وَلَا سَيِّمًا مَرْوَانَ، وَلَوْجُودِ آبْنَيْهِ وَمَوَالِيهِ أَطْمَأَنَّ مِنْ
عَدَمِ دُنُوِّ الْخَطْبِ مِنْهُ. فَإِنَّ وُجُودَهُمْ يُعَبِّرُ عَنْ مُعَارَضَةِ عَمَلِيَّةِ أَكِيدَةِ مَنْ جَانِبِهِ، فَلَا
يَتَّصِلُ بِهِ مَكْرُوهٌ دَامَ يَضَعُ حَدّاً لِحَيَاتِهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ سَيَضَعُ حَدّاً
لَأَسَالِبِ الْحُكْمِ الْأَسْتَبْدَادِيَّةِ وَمَهَازِلِهِ الْعَاطِيَةِ. وَمَا كَانَ يَذْهَبُ أَنَّ الْمُغْرَضِينَ، ذَوِي
الْمَآرِبِ، كَانُوا قَدْ آنَدَسُوا فِي الْجُمْهُورِ الَّذِي غَدَا جِدّاً حَسَنَاسٍ وَجِدّاً مُتَأَثِّرٍ، فَتَدَفَّقَ
السَّيْلُ جَارِفاً وَ«جَرَى الْوَادِي فَطَمَّ عَلَى الْقَرِيِّ».

هَذَا مَا عَرَفَ التَّارِيخُ عَنْ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ إِزَاءَ الْمَضْرَعِ، بَيْنَمَا عَرَفَ مِنْ نَاحِيَةِ
ثَانِيَةِ أَنَّ عُثْمَانَ، وَهُوَ مُحَاصَرٌ، كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَهُوَ بِالشَّامِ:
«إِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَدْ كَفَرُوا، وَأَخْلَفُوا الطَّاعَةَ وَنَكثُوا الْبَيْعَةَ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ مِنْ

قَبِيلِكَ مِنْ مُقَاتِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَغْبٍ وَذُلُولٍ»، فإذا مُعَاوِيَةُ حينَما جاءَهُ كتابُهُ «يَتَرَبَّصُّ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ - عَلَى حَدِّ دَعْوَاهُ - مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ، وَقَدْ عَلِمَ أَجْتِمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَمِنْ تَهَكُّمَاتِ الْقَدَرِ أَنْ يُحَرِّضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، وَتَجَبُّهُ عَائِشَةُ عَلَانِيَةً، وَتَخَلِّي مُعَاوِيَةَ عَنْ نَجْدَتِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرُ كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَنْفِرُ هَؤُلَاءِ أَنْفُسُهُمْ هُنَا وَهُنَاكَ، يُطَالِبُونَ بِدَمِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ النَّصِيحَةَ، وَحَذَرَهُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ، وَكَانَ مِجَنَّهُ دُونَ رَوَاكِضِ الْخُطُوبِ.

*

بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَمُسْتَضْرِحٍ وَنَاكِيلٍ، تَرَاقَصَ الْحُيْطُ مُضْطَرِباً مُتَرَنِّحاً كَبْهِرٍ اسْتَقْبَلَ بَيْنَ حَنَائِيَاهُ الْعَاصِفَةَ...

فَمَاذَ بِهَا وَمَاذَتْ بِهِ زَمَنًا، وَأَنْطَلَقَ يَقْدِفُ بِالزَّبِيدِ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ حَانِقٌ، وَيَزْمِي بِالْمَوْجِ مُتَطَاوِلًا كَأَنَّهُ يَتَهَدَّدُ...

فَقَدْ عَبَثَتِ الْعَاصِفَةُ بِأَبْدِيَّةِ السُّكُونِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهِ. وَهُدُوءِ اللَّانِيَهَايَةِ الْغَامِضَةِ الْحَائِمَةِ فِيهِ...

*

شَعَرَ الْبَحْرُ^(٦) أَنَّ الصُّخُورَ^(٧) الشَّامِيَّةَ فِي أَرْجَائِهِ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِ...
فَاسْتَدَارَ عَلَيْهَا يُزْمِجُ نَائِرًا هَادِرًا، فَقَدْ أُيِّقَنَ أَنَّهَا مَكْمَنُ الْعَاصِفَةِ، فَهُوَ يَنْوُو بِأَقْتِلَاعِهَا...

(٦) كِنَايَةٌ عَنِ الشَّعْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ حَبِيزٌ يَفِيضُ بِالْقُرَى، وَتَارِيخُهُ سَيَلٌ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْعَوَاصِفِ وَالْثَّيَارَاتِ وَالشَّائِحَاتِ بَيْنَ أَحْيَائِهِ.

(٧) كِنَايَةٌ عَنِ الْأَرَسْتَقْرَاطِيَّةِ، وَمَا حَلَّ مَحَلَّهَا فِي الْمَجْتَمَعِ الْحَدِيثِ، وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَرَسْتَقْرَاطِيَّةِ طَبِيعَةَ الصُّخْرِ مِنْ كِبَرِيَاءِ قَاسِيَةٍ وَجِسِّنَ تَلِيدٍ.

وحينَ طاولَتْهُ طَمَأَ عَلَيْهَا وَتَجَاهَلَ وُجُودَهَا...
وهو، وإنْ لَمْ يَفْتَلِعْهَا، رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَكُونُ لَهَا حِسَابٌ فِي كِبَرِيَاءِ
الْوُجُود...
*

إِنَّ كِبَرِيَاءَ الْوَاحِدِ تَجَاهُلٌ لُجُودِ الْآخَرِينَ...
ولكنَّ وُجُودَهُمْ فِي حِسِّ الْوَاقِعِ، أَكْبَرُ مِنْ وُجُودِهِ فِي حِسِّ الْخَيَالِ...
فإنَّ وُجُودَهُ قَبِيضَةٌ مِنَ الظَّلَامِ، وَوُجُودُهُمْ قَبِيضَةٌ مِنَ الشُّعَاعِ...
وما تقابلا إِلَّا ذَابَ الْأَوَّلُ فِي الثَّانِي دُونَ مَا أَثَرٍ يَقْفُو...
إِنَّ الْكِبَرِيَاءَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْكَثَرَةِ، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْعَدَدِ...
وَإِذَا نَجَحَ الْفَرْدُ فِي آتِنَاكِ الْكُلِّ أَخِيَانًا، فَإِنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِحَظَرِ التَّمَرُّعِ دَائِمًا...
فَالْكُلُّ قُبْلَةٌ قَدْ تَبَوَّرَ حِينًا، وَلَكِنْ فِيهَا إِمْكَانِيَّةُ التَّفَجُّرِ أَبَدًا...
*

فِي طَبِيعَةِ الْبَحْرِ رَشَاقَةُ الْحَرَكَةِ، وَفِي طَبِيعَةِ الصَّخْرِ سُكُونٌ بَلِيدٌ، وَأَيْضًا قَاسٍ
مُتَجَهِّمٌ...
وَبَيْنَهُمَا وَقَفَ إِنْسَانٌ^(٨) فِيهِ وَغْيُ السُّكُونِ وَقَصْدُ الْحَرَكَةِ، يَصِلُ أَسْبَابُ
أَحَدِهِمَا بِأَسْبَابِ الْآخَرِ...

وَكَانَتْ كِبَرِيَاءُ الصَّخْرِ عَمِيَاءَ فَلَمْ تَقْنَعْ بِغَيْرِ وُجُودِهَا، فَانْطَلَقَتْ أَعَاصِيرُ
الْبَحْرِ تَزْأُرُ فِي مِثْلِ الْفَحِيحِ...

(٨) كِنَايَةٌ عَنْ كُلِّ مُصْلِحٍ إِنْسَانِيٍّ يَعْمَلُ فِي هَذِي الْمَبَادِيءِ كَعَلِيٍّ.

وَوَقَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّاطِئِ يَنْظُرُ مُتَفَجِّعاً، فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَخْدُوعُ -
الَّذِي أَصْحَى غَوْرًا - تَرَفُّصُ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مَارِحَةٌ... فِي نِعْمَةٍ تُخَيِّرُ: أَنَّهُ كَانَ هُنَا شَيْءٌ
فِيمَا زَعَمُوا...

*

مَضَى ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أَبْصَرَ وَسَمِعَ، مُطَرِّقًا مُرَدِّدًا: بِهَذَا نَطَقَ الْحَقُّ فِي
صَدَى الْمَوْجِ...

وَرَوَى هَذَا الْإِنْسَانُ لَوْلَدِهِ^(٩) أُمَثُولَهُ ابْنَحِرَ، فَلَبِثَ مُتَأَمِّلًا يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ وَعَى...
وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا، حَتَّى كَانَ يَنْفُسِهِ رَجْفَةً رَعَشَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَرَجْعَةً أَصْدَاءِ
الْمَوْجِ...

وَشَرَعَ النَّاسُ يَزُودُونَ، بَعْدَ ذَلِكَ، أُمَثُولَةَ ابْنِ الْإِنْسَانِ...

* * *

(٩) كِنَايَةٌ عَنْ أَهْلِ الْوَعْيِ الْحَدِيدِ كَالْحُسَيْنِ.

في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الأشلاء بالدماء، آنكشف الفصل الأخير
من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحائها الفسيحة
المدى، البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها الهادئة هنا وهناك، قرية
بعيدة، فتتفاعل مع الأحياء تفاعلاً ملوّن الرغشات، فمن يضاء ناصعة كالزبد، ومن
سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالعنم، وأعصاب الجماعات تتمدد
وتتقلص وتغلو وتهبط... فجذلان هناك وعُضبان هنا، وبين هذا وذاك تنبعث
نأبات مُحترقة، أو زفرات مُحترقة، أو بقايا هتافات مُعْطِط طروب.

وهم، وإن لم يجمعهم الأسى، فقد تنفس سائرهم الصعداء، ولكن لم
تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة، فقد آفئت قيادها وهبت طائفة
على قطيها، شاردة في لولها.

كان الجمهور قد ألتهب بروحية الدماء وشرتها، فعدا دمويًا وشرسًا، يضرب
على أسنانه في شكل كرية، كأنه يتأكلها، أو كآتما يتأكل الأشباح والطيوف التي
استوت في مكان الحس من يقمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن
يتحش في مكان الفضاء عمّن أثار عليه حفيظته، والحفاظ قاسية نهمته إذا
انطلقت في مدى الشعور المتضرى، وأعصاب الحي حينما تضرى، وتهيجها

النُّقْمَةُ لَا تَذْهَبُ فِي آتِنَقَامِهَا إِلَى الْإِيقَاعِ السَّاحِقِ بِمَنْ أَسْعَرَهَا فَقَطُّ، بَلْ تَرُوحُ مَاضِيَةً وَرَاءَ ذَلِكَ بَعِيداً. فَهِيَ لَمْ تَرَوْ حُرْقَةَ الظُّلْمِ الْفَائِرِ، فَتَطْلُبَ سَحَقَ أَخِيلَتِيهَا، وَتُصَارِعَ الْخِيَالَ الْبَغِيضَ الَّذِي تَمَدَّدَ عَلَيْهَا فِي تَوَرَّةِ الدِّمَاءِ... وَمِثْلُ هَذَا الْجُمْهُورِ لَا يَوْعَى لِلْمَوْتِ قَدَاسَةً وَحُرْمَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَدْ حَالَ بَيْنَ جَسَدِ الْخَلِيفَةِ الْمَفُؤُودِ وَبَيْنَ الدَّفْنِ، أَنَّهُ حَانِقٌ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَيْعاً يُجَدِّدُ لَهُ الذِّكْرَى أَشَدَّ هَوَلاً.

إِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ أَغْصَابِهِمِ الْمُتَأَزِّمَةِ الْمُتَعَقِّدَةِ دُونَ هَوَادَةٍ أَوْ لِينٍ، يَدَّكُونُ مَعَالِمَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ كَيْفَ حَلَا لَهُمْ، وَيَضْحَكُونَ كَيْفَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ، وَفِي هَذَا التَّجْمُهِرِ الْكَبِيرِ قَامَ الْأَشْتَرُ مُنْتَصِباً فَوْقَ الْجُمُوعِ مُلَوَّحاً بِسَيْفِهِ، هَادِراً بِمَنْطِقِهِ النَّارِيِّ الْمُتَّقِدِ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مُمْتَدِّداً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قَائِلاً:

أَلَا سَحَقاً لِبَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَشْرَارِ،

وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَتُونِ الشَّعْبِ الْقَوَارِ،

فَيَدُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ تَغْتَصِرُ الْمُسْتَبِدِّينَ الْفُجَّارِ،

وَلَا بُدَّ لِلظُّلْمِ مِنْ أَنْ يَلْتَهُمَهُ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ أَفْعَوَانُ جَبَّارِ،

وَرَجِمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ الرَّفِيقَ الَّذِي أَنْقَلَبَ لِيْنُهُ مَعَهُمْ إِلَى أَنْقِيَادٍ وَصْغَارِ،

وَحَيَّا اللَّهُ غَضَبَةَ الْأَحْرَارِ،

وَكَبَّرِيَاءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إِذَا ثَارَ،

الَّتِي أَنْتَصَفَتْ لِلْمَظْلُومِينَ الْأَبْرَارِ،

فَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأُولَئِكَ، أَعْدَاءُ الشَّعْبِ، إِلَى النَّارِ،

وَحَذَارِ أَنْ تَتْرُكُوا لِلْعَادِينَ فُرْصَةَ الْفِرَارِ وَالنُّفَارِ،

فَهَلُّمُوا كَالسَّيْلِ أَنْدِفَاعاً إِلَى بَطْلِ الْأَحْدَاثِ الْكِبَارِ،

فَقَدْ أُعْطِيَتِ الْقَوْسُ بَارِيهَا وَتَمَّ الْإِنْصَافُ وَالْإِنْصَارُ،
 وَأَطْمَأَنَّ مُشَرَّدُو الطُّغْيَانِ فِي الْقِفَارِ،
 وَانْتَحَرَ الْعُدُونُ وَأَنْصَارُهُ أَيَّ أَنْتِحَارِ،
 وَاعْتَلَى الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَابَتْ حُلُكَةُ اللَّيْلِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.
 فَانْطَلَقَ النَّاسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَتَدَافَعُوا فِي كُلِّ طَرِيقٍ كَالْقَلَلِ
 السَّاقِطَةِ الْمُتَدَحِّرِجَةِ، إِلَى دَارِ عَلِيٍّ يُنَادُونَ بِهِ خَلِيفَةً وَزَعِيمًا.
 كَانَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ جَمَاعَةٌ يَتَجَادِبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فِي شَيْءٍ مِنْ
 التَّنَافُرِ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْحَدِيثِ الدَّامِي الَّذِي تَمَّ عَلَى أَيْدِي النَّاسِ.
 قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: لَقَدْ عَدَا النَّاسُ أَقْدَارَهُمْ وَائِيَمُ اللَّهِ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى
 مَقَامِ الْخِلَافَةِ، وَلَمْ يَزَعُوا حَصَانَةَ الْعَهْدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بِالْإِنْخَابِ، وَلَكِنْ:
 مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرَفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَفَانَا
 لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكَاً فِي دِيَارِهِمْ أَلَلَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ
 قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ سُعْبَةَ: مَاذَا تَقُولُ؟ عَدَوْا أَقْدَارَهُمْ فَقَطُّ! بَلْ هُمْ أَثَمَةٌ
 سَفَاكُونَ، وَنَحْنُ لَمْ يَفُتْنَا مِنْ إِيْمِهِمْ، بَلْ نَصِيبُ كَبِيرٍ بِمَا اقْتَرَفُوا. كَانَتْ جِنَايَةٌ مَا
 أَهْوَلُهَا! إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فَلَا أَرَاهَا إِلَّا مُلَطَّخَةً بِالدَّمِ الزَّكِيِّ
 الْبَرِيِّ. لَقَدْ شَارَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، بَلْ كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كُنَّا مَطَايَا
 الْجَرِيْمَةِ.

لَعَلَّكُمْ لَا تَدْرُونَ أَنَّ فِي الْحَادِثَةِ يَدًا مَجْهُولَةً حَاكَتْ هَذِهِ الْمُؤَامَرَةَ الطَّاغِيَةَ مِنْ
 أَطْرَافِهَا، وَأَحْكَمَتْ أَسْبَابَهَا. نَعَمْ اسْتَطِيعُ أَنْ أَتْلِيَهُمْ وَأُعْلِنَ بِمَلَأَةٍ فَمَيَّ أَنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ
 مَا وَرَاءَهَا... وَابْتَسَمَ ابْنُ سَامَةَ صَفْرَاءَ كَالْفَحِيحِ فِي شِفَاوِ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلُوبَةٍ صَحَبَهَا

تَكْثُرُ فِي الْجُفُونِ كَأَنَّهُ يُشِيرُ... وَلَكِنَّهَا أَكْمَةُ شَقَافَةٍ تُرَى مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْبَاحَ.

تَنَمَّرَ جَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ وَرَدَّ عَلَيْهِ: بَلْ بَاءَ أَصْحَابِكَ بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ مَنَ بَقِيَ مِنْهُمْ لَيَنْتَظِرُهُ يَوْمٌ أَكْثَرُ سُوءًا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ لَمَّا تَرَدَّدْتُ فِي أَنْ أَبْطُشَ بِكَ أَوَّلَ مَا أَبْطُشُ، فَأَنْتَ هُوَ رَأْسُ الْأَفْعَى، وَبِنَفْسِي أَنْ أُزِيَّ بِكَ أَعْصَابِي الظَّامِئَةَ.

فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَى آسْتَعْبِذُكُمْ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا»، أَلَمْ يَقُلْهَا لَعَمْرُؤِ بْنِ الْعَاصِ وَأَيْنِهِ يَوْمَ سَامَا الْمِصْرِيِّ الْبَرِيءِ وَأَضْطَهْدَاهُ اسْتِغْلَاءً فِي الْأَرْضِ وَعُتُوًّا. قَالَ هَذَا فِيكُمْ وَلَمْ تَتَرَبَّعُوا عَلَى دَسْتِ الْحُكْمِ، وَلَمَّا تَصِرْ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَأَسْبَابُ السُّلْطَانِ إِلَى أَيْدِيكُمْ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَسَوَّدْتُمْ؟ أَرَدْتُمُوهَا فِرْعَوْنِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً، وَرَكِبْتُمْ النَّاسَ بِالْبَغْيِ مَطَايَا شَهَوَاتٍ... وَثَارَتْ بِهِ حَفِيزَتُهُ، فَانْقَلَبَتْ سَخَنَتُهُ وَتَجَهَّمَتْ عَلَى شَكْلِ مُنْكَرٍ، وَبَدَرَتْ مِنْهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرٍّ، لَوْلَا أَنْ خَفَّ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَحَالَ دُونَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَدِيثَ:

كَمَا تَقُولُ - يَا مُغِيرَةُ - إِنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا، وَلَكِنْ كَمْ يُسْقَطُ فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا بَطَانَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاحِلِ نَفْسُهَا، ثُمَّ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُمْ، فَأَنَا أَرَى كَمَا تَرَى وَأَقْدُرُ مِثْلَمَا تُقَدِّرُ، بَيْنَ أَنِّي كُلَّمَا حَدَّثْتُ بَيْنَ الْخِلَالِ، وَأَطَلْتُ التَّحْدِيقَ وَأُنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرَى وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا مَنْ ذَكَرْتُ لَكَ، ثُمَّ لَا أَرَى إِلَّا إِيَّاكَ وَأَصْحَابَكَ.

نَعَمْ فِي مَضْرَعِ الْخَلِيفَةِ الْفَظِيعِ مُوَامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُمُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ يَقَعُ غَرِيبًا عَلَيْكَ أَنْ يَتَأَمَّرَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ تَشَعَّرَ فِي سِرِّكَ مِنْ قَوْلِي، وَلَكِنَّ الْمُتَهَوِّزَ الطَّائِشَ طَالَمَا نَالَ نَفْسَهُ بِحُسَامِيهِ، كَذَلِكَ الصَّائِدُ الَّذِي حَمَلَ فِخَاخَهُ وَأَنْطَلَقَ يُرِيدُ الظُّبَاءَ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَوْ حَمَلْتُهَا مَفْتُوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى نَيْلِ الْغَايَةِ وَأَرْجَى فِي الْفَائِدَةِ، فَفَعَلَ وَسَارَ... وَلَمْ يَمُضْ بَعِيدًا حَتَّى أَطْبَقَ بِهِ فَخٌّ مَعَ حَرَكَاتِ الْمَسِيرِ،

فَسَقَطَ يَفْحَصُ فِي الْأَرْضِ^(١)، وَقَدْ قَنَصَ نَفْسَهُ فِي شَهْوَةِ الظُّبَاءِ.

إِنَّكَ أَذْرَى مِنْ غَيْرِكَ بِمَا كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعَسْفِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى الْجَمَاجِمِ وَتَنْعَمُ عَلَى أَشْلَاءِ الْأَحْيَاءِ. لَقَدْ ضَنُّوا عَلَيْهِمْ حَتَّى
بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ وَيَبُلُّ حُلُوقَهُمْ، وَيَخْلُوا عَلَيْهِمْ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ، وَسَامُوهُمْ إِذْ لَالًا،
وَأُورِدُوهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

قَبِعَتْ تِلْكَ الْبِطَانَةُ بِشُكْنَى الْقُصُورِ الْمَبْنُوتَةِ بِالرِّيَاشِ، وَأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عَنِ
الْأَنِينِ الصَّارِخِ الْمُنْبِعِثِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَوْهَمُوا الْخَلِيفَةَ الرَّقِيقَ الْحَاسَةَ أَنَّ الشَّعْبَ فِي
أَسْعَدِ مَا يَكُونُ حَيَاةً، وَضَرَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ بِأَسْوَارٍ وَحُجُبٍ، وَمَنَعُوهُ عَنِ الشَّعْبِ
وَمَنَعُوا الشَّعْبَ عَنْهُ، وَسَمُّوا رَأْيَهُ فِي النَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
أَوْصِيَاءَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الَّذِي شَاؤُوا الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْقُصُورَ الَّتِي آغَتَصَمُوا
بِهَا قَامَتْ عَلَى أَجْسَادِ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بِالْآلَامِ، وَكَانَ فِي آتِفَاضَةٍ مِنْ آتِفَاضَاتِهَا مَا
أَحَالَ دُنْيَا تِلْكَ الْقُصُورِ أَطْلَالًا وَخَرَابٍ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّائِرِينَ لَمْ تَحْدُثْهُمْ فِكْرَةُ الْجَرِيمَةِ وَلَا شَهْوَتُهَا، وَإِنَّمَا حَدَاهُمْ تَنَفُّسُ
الْحُرِّيَّةِ الْمَضْغُوطَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، كَمَا رَامُوا، بِإِخْلَاصٍ، إِنْقَادَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَطَانَتِهِ،
وَرَفَعَ وَصَايَتِهَا الْقَسْرِيَّةَ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ خَلِيقًا بِهَذِهِ الْوَصَايَةِ حَقًّا، وَبِمِثْلِ هَؤُلَاءِ
الْأَوْصِيَاءِ، فَمَا هُوَ وَالْخِلَافَةُ إِذَا ؟

وَلَكِنْ طَاشَ بِالثَّائِرِينَ السَّهْمُ فَأَصَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَفًا، يَبْدَأُ أَنَّهُ يُعْزَى أَنَّ
الْبِطَانَةَ أَصِيبَتْ فِي مَقْتَلِهَا بِمَصَابِيهِ، فَمَصَابِيهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فِي حِسَابِ الشُّعُورِ،
فَإِنَّ سُقُوطَ تِلْكَ الْبِطَانَةِ كُلِّ الْعَدْلِ فِي حِسَابِ الْفِكْرِ، وَالْجُمْهُورُ الشَّاعِرُ لَا يُحَدِّدُ
التَّبَعَةَ بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ بَلْ بِمَنْطِقِ الْأَلَمِ، فَلَيْسَ بِدَعَا إِذَا تَجَاوَزَ وَاسْتَفْحَلَ. وَلَوْ تَنَاوَلْنَا

(١) تَغْيِيرُ كِنَائِيٍّ يَغْنَوْنَ بِهِ يَضْرِبُ أَدِيمَ الثَّرَاءِ بِيَاظِنِ الْقَدَمِ.

المَوْقِفَ، حَتَّى بِمَنْطِقِ القانون، فَإِنَّ دَعْوَى التَّغْرِيرِ بِهِ لَا تُنْقِذُهُ مِنَ الْجَزَاءِ، وَلَقَدْ أَلَفَ الشَّعْبُ مَحْكَمَتَهُ، فَلَهُ الْكَلِمَةُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ، وَلَقَدْ قَالَهَا بِكُلِّ وَضُوح.

وإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ مِنْ أَنَّ الثَّائِرِينَ غَضَبُهُ مُجْرِمَةٌ، فَإِنَّ تِيكَ الْبِطَانَةَ أَهْوَلُ جَرِيمَةٍ حِينَ دَخَلُوا بِهَا إِلَى كُلِّ بَيْتٍ. وَلَسْتُ بِهَذَا أُرِيدُ تَبْرِيرَ الْخَطْبِ، وَلَكِنِّي أَقْصِدُ إِلَى هَذِهِ فِكْرَةِ الْجَرِيمَةِ عَلَيْكَ الَّتِي تُغْلِنُهَا، وَلَعَلَّكَ تَعِي.

فَقَالَ جَهَّجَاهُ الْعِفَارِيُّ: تَقُولُ لَعَلَّهُ يَعِي؟ أَأَنْتَ غَرِيبٌ عَنْ شِبَاكِهِ وَأَحَابِيلِهِ. إِنَّهُ يُرِيدُ بِقَصْدٍ تَسْمِيمِ رَأْيِ النَّاسِ وَبَلْبَلِيهِمْ، وَلَا يَلْبَثُ هُوَ وَمَنْ فَاتَنَا مِنْ بِطَانَةِ الْخَلِيفَةِ، حَتَّى يُلَوِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعُثْمَانِيَّةِ، وَيَجْعَلُوا مِنْ عُثْمَانَ مَوْضُوعًا ثَأْرِيًّا قَصْدَ إِلْقَاءِ الشَّعْبِ فِي الْفَوْضَى، وَانْكِفَائِهِ كُتْلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَسْرَعَ تَرَدُّدَ الْجُمُوعِ، فَهِيَ لَا تُحَاكِمُ وَلَكِنَهَا تَشْعُرُ بِمُبَالَغَاتٍ.

فهذا - وأشار إلى المغيرة - يَعْتَمِدُ عَلَى رُوحِيَّةِ الْجُمُهورِ، قَصْدَ الْحَارِزَةِ بِالْعُنْصُرِ النَّفْسِيِّ الْقَلْبِيِّ لِإِيجَادِ حَالَةٍ فَوْضَى شَامِلَةٍ، وَهُوَ لَا يَأْتِيهِ، بِسَبِيلٍ مَا يُرِيدُ، أَنْ تَنْدَكَ مَعَالِمُ مُجْتَمَعِنَا الْعَظِيمِ. لِنَقْرِضَ أَنَّ عُثْمَانَ صُرِعَ بِقَصْدٍ أَنْ يُصْرَعَ فَقَدْ صُرِعَ عُثْمَرُ مِنْ قَبْلِهِ، وَمَا تَهْمُنَا فُرُوقُ الْمُلَابَسَاتِ الَّتِي تَجِدُ قِيَمَتَهَا فِي الْإِعْتِبَارِ الْفَرْدِيِّ دُونَ الْإِعْتِبَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَهُمَا، كَحَادَثَيْنِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ. فَلِمَاذَا يُحَرِّضُ بِالْإِتْهَامِ، وَيَسْتَشِيرُ بِالتَّفْجِيعِ وَالتَّوَجُّعِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ شَرًّا؟

قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: نَعَمْ، أَجْدَى عَلَيْنَا، وَأُولَى بِنَا، أَنْ نَعْتَبِرَ بِالْحَادِثِ وَلَوْ لَمْ يَخْلُ مِنْ خَطَأٍ، فَتُدَاوِيِ الْوَضْعَ وَنَجْتَهِدَ جَيِّدًا بِحُسْنِ التَّائِي، كَيْ نَحُولَ بَيْنَ الشَّعْبِ، بَيْنَ الْأَسْبَابِ، وَبَيْنَ الْعَوْدَةِ إِلَى آوْتِكَابِ خَطَأٍ جَدِيدٍ مِنْ شَاكِلَتِهِ. قَدْ مَاتَ الْمَيِّتُ وَبَقِيَ الْحَيُّ مُضْطَرِبًا، فَلَنَعْرِفَ كَيْفَ نُدْخِلُ الْإِطْمِئْنَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَصْلَحْنَا الْخَطَأَ وَرَبَحْنَا الْمُصِيبَةَ. وَأَمَّا تَرْوِيعُ الْجُمُهورِ، بِتُهْمَةِ الْإِجْرَامِ وَالْدَّمِ، فَإِنَّهُ تَكْبِيرٌ لِدَائِرَةِ الْخَطَأِ وَتَوْسِيعٌ لِحَوَاشِي الدُّمَاءِ، وَمَا أَرَى هَذَا إِلَّا دَعْوَةً جَاهِلِيَّةً تَقُومُ

على الانتقام في غرضها القريب، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد...
وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى إلى هذه النقطة، فقد مضى
يردد قول الشاعر:

قومي هُمُو قتلوا أُميَمَ أخي فإذا رَمَيْتُ بُصِيئتي سَهْمِي
أَصْبَحَ عَلَيَّ الخَلِيفَةُ، واجْتَمَعَتْ في يَدَيْهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، فثَابَ إِلَى الْمُجْتَمَعِ
هُدُوهُ مَشْفُوعاً بِالْأَمَلِ وَآزِيقَابِ فَجْرِ جَدِيدٍ.

وبَدَأَ عَلَيٌّ، أَوَّلَ مَا بَدَأَ، بِإِعْطَاءِ الْحَقِّ إِلَى الشَّعْبِ، فَقَدْ وَجَدَ أَنَّ مَشَاكِلَهُمْ
الْمُعَلَّقَةَ أَصَحَّتْ مُزْمِنَةً لَمْ يُبَيَّنْ فِيهَا بَشَيءٌ، فَعَطَفَ عَلَى آلامِ هَذَا الْجُمْهُورِ، وَوَسَّاهُ
بِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

وَذَهَبَ مَعَ تَقْدِيرِهِ بِأَنَّ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي يَقُومُ النِّظَامُ فِيهِ عَلَى بَرْنَامِجٍ غَيْرِ
مَكْتُوبٍ، يَظَلُّ غُرُضَةً لِلْعَبَثِ وَالتَّلَاغِبِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُضَيِّرَهُ، إِذَا لَمْ
يَقْصِدْ أَوَّلًا، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَى الْإِخْتِيَارِ وَانْتِقَاءِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَصُفُّ، إِلَى
الْكَفَاءَةِ، الْإِخْلَاصِ وَالضَّمِيرِ. بَلْ مِنْ رَأْيِي عَلَيٌّ أَنَّ الْإِصْلَاحَ، حَتَّى فِي الْمُجْتَمَعَاتِ
الَّتِي يَسْتَوِي النِّظَامُ فِيهَا عَلَى بَرَامِجٍ مَكْتُوبَةٍ، لَا يَنْبَغُ عَلَى وَجْهِ مَضْمُونٍ إِلَّا
بِالشَّخْصِيَّةِ الْمُتَنَقَّةِ، وَلَمْ يَسْ، إِلَى ذَلِكَ، أَنَّ أَكْبَرَ عَنَاصِرِ الشُّكُوى وَأَهَمَّ أَجْزَائِهَا هُوَ
الْجُزْءُ الْخَاصُّ بِالْأُمَرَاءِ وَالْوُلاةِ، فَبَادَرَ قُدَمَاءَ إِلَى تَغْيِيرِ التَّغْيِينَاتِ.

وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ كِلَاهُمَا مُرَشَّحًا لِوِلَايَةِ مَنْ وَلايَاتِ الْأُمُصَارِ الْكُبْرَى،
فَلَمَّا أُظْهِرَا عَلَى أَنَّ التَّغْيِينَاتِ الْجَدِيدَةَ لَمْ يُصِيبْهُمَا مِنْهَا نَصِيبٌ، آمْتَعَضَا نَوْعَ
آمْتِعَاضٍ، وَلَمَسَا فِي الظُّرُوفِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ قَلَقًا مُضْطَرِّبًا، مَا يُمَكِّنُهُمَا مِنَ الْقِيَامِ بِحَمَلَةِ
ضَعْفٍ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْجَدِيدِ، لَا سِيَّما وَقَدْ وَجَدُوا فِي النَّاسِ مَنْ يُطَالِبُ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ
الشَّرْعِيِّ عَلَى الَّذِينَ بَاشَرُوا الْأَغْتِيَالَاتِ بِالنَّفْسِ.

وعليّ لم يُؤخّرهما من حيث إنّهما ليسا بالجدّيرين، فهما من ذوي السابِقة،
ومن أقدرِ العناصرِ، بل لأنّ الظّرف لم يزل يُعجّ بالحزبيّة ولم يزل مُتشبّعاً بروحها.
فإذا بعثَ بهما إلى الأقاليم التي تُناصِرهما، كالكوفة بالنّظر إلى الزّبير، والبصرة
بالنّظر إلى طلحة، فقد سهّل لهما حرّيّة التّصرّف والانفراد بالرّأي لمكان الثّقة
الحزبيّة. وحرّيّة التّصرّف هي التي بات يشكو الناس منها، كما كان الحال بمعاوية
في الشّام على عهد عُثمان، على أنّ الأمير يُضبّح، بهذه الحزبيّة المناصرة، قليل
الاهتمام بأوامر السّلطة العُليا، بحيثُ تتخذُ به الأقاليم، في كلّ مكان، شكل
إقطاعيّات لا تتصلّ بالمّرجع الأعلى الإيجابيّ المسؤول إلّا اتّصالاً إسميّاً. وإذا
تأزّمت العلاقة بين الرّئاسة العُليا والأمير، استطاع الانفراد بإقليمه، وقطّع العلاقة
التي لم تكن تُعبّر عن اتّصالٍ إيجابيّ. وهذا خطرٌ يهدّد الدولة، وداءٌ وبيل في جسم
الحكم، خصوصاً إذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العُصيان باتّفاق المصالح
الموجبة، فإنّه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي، كما تظّل هذه الصّلة
الإسميّة للإقليم الإقطاعيّ ينبوعَ ضررٍ للرئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفلُ الأمير
بالأوامر التي تُصدّر له، ولا يزهّب مَرَجَعُهُ فَيَعْبَثُ كيف شاء، ويكونُ المسؤول عن
تصرّفيه هو الرئيس الأعلى في نظرِ الشّعب، فينتهّم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه،
رُغم أنّه، في الواقع، لا يستطيع أن يحيكَ معه خيكا، مثلما كان الحال في زمن
عُثمان، فقد أصبح اتّصالُ الأقاليم بمركزِ الخلافة إسميّاً، والأمير الإقطاعيّ يتصرّف
كيف حلا له، لا ينتظرُ أمراً ولا يخضعُ لأمر. وإنّما يستخدِم ذلك الطّابع
(الإكليشه): «هذا أمرُ الخليفة» سِتاراً فقط، كما كان يفعلُ معاوية في الشّام، فاتّهم
الخليفةَ وأستُحِقَّ ونشبتِ القوضى.

وإذا بعثَ بهما عليّ إلى الأقاليم الأخرى، وليس لهما فيها أنصارٌ وأشياخٌ،
بل على العكس أعداءٌ حزبيّون، فقد أعادَ الوضع إلى القلق، ودفعَ الجمهورَ إلى
التمرد بالشّكوى المُضطنعة، فعَمَدَ إلى مداوَية الحالة العامّة، وحنقَ الحزبيّة وعُنتاتها،

وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً. فبين يديه مجتمع مريض، وهو يتطلّب شخصيات جديدة لم تنحدر في الحقل العام، والحياة السياسية الصاخبة المتناجزة، حتى إذا تمّ له ما يُريد عادَ ففكرَ فيهما وفي سواهما. ولكنهما فسرا إغفالهما بالعداء، فأنصرفا إلى إيجاد الوسائل القمينة بالضغط، فوجها وجههما شطر مكة. وبينهما في بعض الطرق لقياء عائشة وهي قافلة من مكة، فرّوا لها ما كان من أمرِ الثائرين وعثمان، وما كان من أمرهم وعلي، وكاشفاها بما عرّما عليه. وصادف هذا رغبة خفية في ضميرها وهوى كامن، بما استطاع الزبير، بما له من دالة عليها، وهو زوج أختها أسماء، والد من استخلصته لنفسها من أبنائه، حتى اختارت لكنيتها اسمه وذلك هو عبد الله أبنة. فحملها على الرجوع، وسهلا لها الخوض في مغممة سياسية طاحنة، اتصّلت حتى انقلبت دمية حادة.

ولما هبطوا مكة وجدوا فيها فلول الأمويين، فكروا جميعاً باستغلال الموقف وترتيبه على هذا الشكل:

يغصى بالشام معاوية، وهم يغصون بالعراق، حتى إذا استقام لهم الأمر واستقرّوا، حاصروا الحجاز وانتزعوا مقدرات السلطة العليا، وأزعمو الخليفة على التسليم بمطالبهم.

اتّصل بعليّ كلّ ما دار بخلدِهم وما عزموا عليه، واتّصل به، فوق ذلك، أنّ الخطب سيعدو دائرته الضيقة، لنزول عائشة إلى الميدان بما تبعته من خامدات النفوس، وفي المحيط العربي خصوصاً. أليست امرأة وامرأة لها قيمتها ومنزلتها الزوجية الفريدة؟ فهي زوج النبي وأبنة الخليفة الأول، ومزج علمي فقهي. ومن ناحية ثانية، أليس الموضوع نفسه حساساً مثيراً؟ أليس كلّ الثائرين الذين تمّ الحادث على أيديهم في صفوف عليّ؟ أليست نفسيّة الجموع شديدة الحساسية بهول الدم المطلول، وضعيفة المحاكمة والموازنة؟ أليس الظرف متبليلاً يميّد ويمور بالفوضى؟

ففي الأمر إذا عُقِدَ خَطِيرَةٌ، ولا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلَهَا هَؤُلَاءِ الْوَاجِدُونَ.

فَكَرَّ وَقَدَّرَ وَقَلَّبَ وَجُوهَ الرَّأْيِ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى أَنَّ الْحَالَةَ النَّاشِئَةَ الْبَادِيَةَ، سَتَسْتَحِيلُ إِلَى فَوْضَى خَطِيرَةٍ، قَدْ تَنَدَّكَ مَعَهَا ضُرُوحُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْتَهَى أَيْضاً إِلَى أَنَّ صِفَةَ التَّبَلُّلِ، وَهِيَ تُسَاعِدُ عَلَى الدَّسِّ وَالْإِنْتِهَازِ، لَا يَحْسِبُهَا إِلَّا عَمَلٌ سَرِيعٌ عَنيفٌ. وَفَكَرَّ كَثِيراً قَبْلَ أَنْ آتِبْدَأَ بِطَلْحَةِ وَالزُّبَيْرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ، فَقَدْ لَمَسَ خَطَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَسْبَابِ السَّيْطَرَةِ وَالتَّأْثِيرِ الرُّوحِيِّ قَدْرًا كَبِيراً، وَقَدْ أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ:

«بُلِيتُ بِأَنْضُ النَّاسِ، وَأَنْطَقِي النَّاسِ، وَأَطْوَعِ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْضُ النَّاسِ يَغْلَى بِنَ أُمِّيَّةٍ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَنَاضاً، وَأَنْطَقِي النَّاسِ طَلْحَةَ بِنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَأَطْوَعِ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةَ».

وَمِنْ نَاجِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَدْ آسْتَجَلَى طَبِيعَةُ الْبَصَرَةِ، عَلَى ضَوْءِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً فِي الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ التَّفَكُّكِ وَالتَّقْسُّخِ، وَعَدِمَ الْإِنْسِجَامَ وَالتَّمَاشُكَ، بَيْنَمَا الشَّامُ كَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مُتَمَاشِكَةً بِوَحْدَةِ الدَّمِ وَالتَّغْرِيرِ. فَالْبَصَرَةُ إِذَا أَقَلَّ عَنَاءٌ وَأَكْثَرَ خَطَرًا وَأَبْعَدُ نُفُودًا، بِمَا يَمْلِكُ اللَّاجِئُونَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَى بَعِيدٍ، عَمِيقِ التَّجَاوُبِ فِي النَّفْسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَامَةِ. فَكَانَ لِزَاماً أَنْ يَنْبَغِثَ قُورُهُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّخِذَ الْبَصَرَةَ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الْأُولَى الْخَاطِفَةِ السَّاحِقَةِ، فَيُزْهِبَ بِهَا الْمُتَمَرِّدِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَجَالٍ.

وَأَقَامَ خُطَّتَهُ عَلَى حَرْبِ الشُّرْعَةِ لِيَكُونَ نَجَاحُهَا مَضْمُونًا، فَيُعِيدَ الثُّقَّةَ الْمَفْقُودَةَ، بَعْدَ الثُّورَةِ، إِلَى الْهَيْئَةِ الْحَاكِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَضْبُطَ الْعَاصِفَةَ. كَمَا آسْتَعَانَ بِالنَّقْدِ وَالِدَّعَايَةِ أَدَاةَ حَرْبِيَّةٍ هَائِلَةٍ التَّأْثِيرِ، وَأَدْرَكَ ضَرُورَةَ هَذَا الْعُنْصُرِ فِي الْحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ، وَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ، إِلَى أَنْتِقَادِ عَائِشَةَ عَلَى شَكْلِ حَدٍّ، فِيمَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُغَامَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أَذْبَعَ الْكِتَابُ وَهُوَ:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكَتِ سُدَّةٌ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَأُمَّتِهِ. جَمَعَ الْقُرْآنُ ذُبُولَكَ فَلَا تَسْحَبِيهَا، وَسَكَرَ خَفَارَتُكَ فَلَا تَبْتَذِلِيهَا، فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَحْتَمِلْنَ الْجِهَادَ عَهْدَ إِلَيْكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنِ الْفِرَاطَةِ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ عَمُودَ الدِّينِ لَا يَثْبُتُ بِالنِّسَاءِ إِنْ مَالَ، وَلَا يُؤَابُ بِهِنَّ إِنْ أَنْصَدَعَ. جِهَادُ النِّسَاءِ غَضُّ الْأَطْرَافِ وَضَمُّ الذُّيُولِ وَقَصْرُ الْمَوَادَّةِ. مَا كُنْتُ قَائِلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ عَارَضَكَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْقُلُوبِ، نَاضَةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، وَغَدّاً تَرِيدِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَقْسِمُ لَوْ قِيلَ لِي يَا أُمُّ سَلَمَةَ أَدْخُلِي الْجَنَّةَ لَا سَتَحْيِيَّتُ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ هَاتِكَةً حِجَاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فَأَجْعَلِيهِ سِتْرَكَ، وَقَاعَةَ الْبَيْتِ حِصْنَكَ، فَإِنَّكَ أَنْصَحُ مَا تَكُونِينَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا قَعَدْتَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ. وَلَوْ أَنِّي حَدَّثْتُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَنَهَشْتَ نَهْشَ الرَّقْشَاءِ الْمُطْرِقَةِ، وَالسَّلَامِ».

وَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعَايَةِ الْحَرْبِيَّةِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ، فَأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً، وَهِيَ تَسْجُبُ عَلَى عَائِشَةَ حَرَكَتِهَا، وَتَتَنَقَّدُهَا أَنْتِقَاداً لِإِذْعَا. وَقَدْ تَرَكَتْ أَثَرَهَا الْمُرْغُوبَ فِيهِ وَالْمُتَوَخَّى نَيْلُهُ، وَكَانَ أَهْزَ مَا تَرَكَتْ أَثَرَانِ:

١ - إعطاء صورة نائية عَنْ مُحَاوَلَةِ النِّسَاءِ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، فَقَدْ زَوَّوا «أَنَّ ابْنَ أَبِي عَتِيقٍ - وَعَائِشَةُ عَمَّتُهُ - لَقِيَهَا فِي بَعْضِ مَآتِي الطَّرِيقِ رَاكِبَةً عَلَى بَغْلَةٍ، فَقَالَ:

إِلَى أَيْنَ يَا أُمَاهُ؟

قَالَتْ: أَصْلِحُ بَيْنَ حَيَيْنٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَقَاتِلَا.

قال: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا رَجَعْتَ، فَمَا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا مِنْ يَوْمِ الْجَمَلِ حَتَّى نَعُودَ إِلَى يَوْمِ الْبَغْلَةِ».

٢ - شَجَعُ الزُّعَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ صَرْحَانَ رَدًّا عَلَى كِتَابِهَا إِلَيْهِ:

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ أَمَرْتَ بِأَمْرِ وَأَمَرْنَا بِغَيْرِهِ، أَمَرْتَ أَنْ تَقْرِي فِي بَيْتِكَ وَأَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً. فَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَكَتَبْتَ تَنْهَيْتَنَا عَمَّا أَمَرْنَا بِهِ، وَالسَّلَامُ... وَمَضَى الْخُطْبَاءُ يُخْصُونَ عَلَيْهَا تَبْلُغَهَا وَتَنَاقُضُهَا. فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُشِيرُ بَعْلِي فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ طَلَحَةُ وَالزُّبَيْرُ يَنْصَحَانِ بِأَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ الْخَلِيفَةُ، إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ جَمِيعًا لِحَرْبِهِ وَمُقَارَعَتِهِ فِي أَخْرَجِ السَّاعَاتِ الْعَصِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُسَهِّلُونَ سَبِيلَ الْعَمَلِ لِلْإِتِهَازِيِّينَ النَّفْعِيِّينَ.

فَحَزَبُ الدَّعَايَةِ الَّتِي أَصْطَنَعَهَا عَلِيٌّ وَقَذَفَ بِهَا خُصُومَهُ، أَثَرَتْ أَثَرَهَا الْكَبِيرَ، وَفَكَكَّتِ الْوَحْدَةَ فِي الْمُعَسْكَرِ الْآخِرِ. «فَاغْتَزَلَ بِالْجُلْحَاءِ - مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَوْسَخِينَ - الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زُهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ».

وعلى هذا الوُضْعِ فَاجَأَهُمْ عَلِيٌّ بِجُنْدِهِ «وَفِيهِ ثَمَانُمِائَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَرْبَعُمِائَةٌ مِنْ شُهَدَاءِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ رَايَةُ عَلِيٍّ مَعَ آبْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ الْحَسَنُ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْحُسَيْنُ، وَعَلَى الْخَيْلِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَلَى الرِّجَالِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَزَحَفَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْجَمَلِ بِنَفْسِهِ فِي كَتِيبَتِهِ الْخُضْرَاءِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَحَوْلَهُ بَنُوهُ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: أَقْدِمْ بِهَا حَتَّى تَرْكُزَهَا فِي عَيْنِ الْجَمَلِ. يَا بُنَيَّ تَرَوُلُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ، غَضُّ عَلَى نَاجِدِكَ، أَعِيرَ اللَّهُ جُمُجُمَتَكَ، تَدُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ، إِزْمُ يَبْصُرَكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وَغُضُّ بَصْرَكَ وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ فَرَشَقَتُهُ السَّهَامُ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: زُوَيْدًا حَتَّى تَنْقَذَ سِهَامَهُمْ... فَأَنْقَذَ عَلِيٌّ يَسْتَحِثُّهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ جَاءَ بِنَفْسِهِ. وَقَالَ لَهُ: أَقْدِمْ لَا أُمُّ لَكَ. ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ مِنْهُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَذُو الْفِقَارِ مَشْهُورٌ فِي يُمْنَى يَدَيْهِ، وَنَادَى بِعَقْرِ الْجَمَلِ

فَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ».

كانت مَعْرَكَةُ الْجَمَلِ، بِدُونِ رَيْبٍ، أَوْ كَادَتْ تَكُونُ هِيَ الْمَعْرَكَةُ الْفَاصِلَةَ، وَأَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ ثَانَوِيَّةً، وَأَنْ تُعْتَبَرَ حَرَكَةً فَرْعِيَّةً لِتَطْهِيرِ بَعْضِ غَنَاصِرِ الشَّعْبِ الْبَاقِيَةِ، خُصُوصاً وَالْمُقَاوَمَةَ الْكِفَاجِيَّةَ آخِذَةً بِهَذَا الشَّكْلِ مِنَ الشَّرْعَةِ وَالِدُّعَايَةِ الْمُؤَقَّفَةِ، الَّتِي أَشْعَرَتْ النَّاسَ كَافَّةً بِالْأَشْمِئَزَازِ مِنْ شَعْبِ الْمُشَاغِبِينَ. يَبْدُو أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّلَتْ وَجَعَلَتْ لِصِفَيْنِ الصُّفَّةِ الْحَاسِمَةِ الرَّئِيسِيَّةِ لاعتبارات:

١ - إِسْتِحَالَةُ فِكْرَةِ الْعَقِيدَةِ وَرُوحِيَّتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ عِنْدَ عَلِيٍّ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَالْفِكْرَةِ مِنَ الثَّوَابِتِ تَصَرُّفُ كُلِّ قُوَى الْمَرْءِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ إِلَيْهَا، وَتَقِفُ جُهِودُهُ الْعَمَلِيَّةُ فِي سَبِيلِهَا وَمَدَى غَايَتِهَا، فَقَدْ تَرَكَّزَتْ تَرَكَّزَ الْأَعْصَابِ، فَصَاحِبُهَا لَا يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى وَلَا يُحِسُّ أَوْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُفَكِّرَ، وَأَنْ يَرَى، وَأَنْ يُحِسَّ، إِلَّا فِي مَوَاقِعَ مُبَوَّلِهَا، كَمَا لَا يُدَبِّرُ وَيُقَدِّرُ إِلَّا عَلَى ضَوْئِهَا. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ سِيَاسَةُ عَلِيٍّ مُشْتَقَّةً مِنْ صَمِيمِ الْحَيَاةِ كَمَا هِيَ بِمَسَاوِئِهَا، بَلْ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِفَضَائِلِهَا. فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي عَرَفْنَاهُ دَمَوِيًّا فِي قَضِيَّةِ الْإِنْتِصَارِ لِلْعَقِيدَةِ، نَرَاهُ شَدِيدَ الْكَرَاهِيَّةِ لِسِيَاسَةِ الدِّمَاءِ وَأَسَالِيِبِهَا فِي قَضِيَّةِ قَمْعِ حَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدِينَ، فَهُوَ يُفَرِّقُ بَيِّنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ. وَلَكِنَّ وَسْطَهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ هَذَا الْفَرْقَ فَهَمًّا حَسَنًا، أَوْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا أَلْبَتَّةَ، فَقَدْ رَأَيْنَا عُثْمَانَ الْخَلِيفَةَ يُسَمِّي تَمَرُّدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُفْرًا فِي كِتَابِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَنَرَى عَمَّارًا وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا سَائِرُ النَّاسِ، يَنْظُرُونَ إِلَى خُصُومِهِمْ نَظْرَةَ الْمَارِقِينَ مِنَ الدِّينِ، وَبِالتَّالِيِ يَجِبُ أَنْ يُطَبِّقُوا عَلَيْهِمْ أَحْكَامَ الْكُفَّارِ وَقَانُونَ الْإِزْدَادِ.

كَانَ الْجُمْهُورُ مُتَشَبِّعًا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا وَيُلَاحِظُهَا، فَإِذَا عَلِيٌّ وَهُوَ الْمُتَشَرِّعُ الْعَبْقَرِيُّ وَالْمُسْلِمُ الْوَاعِي لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِلُ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، لَعَلَّا يَتَوَرَّطَ النَّاسُ فِي أَسْتِباحَةِ مُقْتَضَيَاتِهَا الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي تُخَوِّلُهَا حَالَةُ الْحَرْبِ

في الأسرة والمال والملك والقيمة الشخصية، التي يتبع فقدّها الأسر والاستيزقاق. وبين للناس، بمنطقه العميق، أنّ هناك صفةً ثالثة هي الفسق، وهو لا يتعدّ بالمرء البتّة عن دائرة الإيمان، كما لا تترتب عليه الاستباحة بل التأديب فقط.

وأنظر كيف يتأتى إلى إقناعهم بخطأ فكرتهم حين قالوا «أحلّ لنا دماءهم وحرّم علينا أموالهم، فقال عليّ:

هي السنة في أهل القبلة.

قالوا: ما نذري ما هذا؟

قال: فهذه عائشة رأس القوم أتساهمون عليها؟

قالوا: سبحان الله! أمّا.

قال: فهي حرام

قالوا: نعم.

قال: فإنه يحرم من أبنائها ما حرّم منها... فنأدى في الناس: لا يسلبن قتيل ولا يتبع مدبر، ولا يُجهز على جريح ولا يُحلّ متاع. ولكنّ الجمهرة الكبرى ساذجة بسيطة في فكرة التدوين، فوقع عليهم هذا الداء وقع اليأس في محلّ الأمل، وجعلهم يلغطون كثيراً، ويتأففون كثيراً، وحملهم على تفكير طويل فيما هو الفرق بين الكفر والعصيان، وفيما هو الفرق بينهما وبين الإيمان.

فأما أولئك البداءة الأعراب الذين لم يفهموا الدين إلا على شكل سطحي، استعصى على تفكيرهم فهم الفروق الدقيقة بينهما، فمضوا على أنه لا فرق، وأقتنعوا بما انتهوا إليه، وأشتملوا على نوع من التسخّط الخفي كان غير مشعور به إلا قليلاً، لأنهم، بمقتضى نظريتهم، حال الخليفة بينهم وبين حقهم في الغنم

وَمَنَعَهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نَوَاهُ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ صَاغُوا فِكْرَتَهُمْ هَذِهِ، فِيمَا بَعْدُ،
بِأَنَّ مُزْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَحَبُوا النَّبِيَّ طَوِيلًا، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ مَنَاطِقِ الدِّينِ، أَشْتَمَلُوا
عَلَى أَطْمِئْنَانٍ كَبِيرٍ، حِينَمَا أَوْضَحَ لَهُمَ عَلَيَّ الْفَرْقَ كَمَا لَوْ لَمَسُوهُ. وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
مَنْ فَهِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، عَلَى نَوْعٍ فِيهِ مُبَالَعَةٌ وَتَكْبِيرٌ، فَقَالَ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ
الْمَنْزِلَتَيْنِ^(٢). وَكَانَتْ هَذِهِ الْاسْتِثْنَاةُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا، حَوْلَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَثَارَتُهُ
مُشْكِلَةُ الْغَنَائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الْجَمَلِ، أَفْكَارًا غَيْرَ وَاضِحَةٍ كَثِيرًا، وَأَتَّخَذْتُ سَبِيلَ وَضُوحِهَا
فِيمَا بَعْدُ، وَقَامْتُ عَلَى أُسَاسِهَا الْفَرْقَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمَائِهَا أَخِيرًا.

٢ - نَظَرِيَّتُهُ فِي خُصُومِهِ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُمْ فِي غَيْرِ حُدُودِ
الْإِسْلَامِ وَقَانُونِهِ، وَهُوَ يُسْتَفْتَى بِهِمْ «أُمُشْرِكُونَ هُمْ؟»

قَالَ: مِنَ الشُّرُكِ فَرَّوْا... قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟

قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟

قَالَ: إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا... وَكَانَ لَا يَقْتَأُ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا كَفَرًا أَهْلُ الشَّامِ،
وَلَكِنْ قُولُوا: فَسَقُوا وَظَلَمُوا». فَلَا بُدَّ إِذَا أَنْ يُفَاوِضَهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ
عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا وَسِعَتْ ذَلِكَ وَوَجَدَ فِيهِمْ أَمَلًا، دُونَ لُجُوءٍ إِلَى
الْعُنْفِ الَّذِي لَا يَسْتَحِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُغْنِيَتْهُ.

فَرَأَاهُ يُفَاوِضُ مُعَاوِيَةَ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الرَّسُولَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَالْكِتَابَ تَلُوَ
الْكِتَابَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ مَعَهُ أُسْلُوبًا يَقْرُبُ مِنَ الرَّجَاءِ. فَإِذَا بِهِ يُذَكِّرُهُ بِمَوْقِفِ أَبِيهِ مِنْهُ،

(٢) أَخْطَأَ مَوْزُوخُو الْفَرْقِ جِئْنَ تَوَهَّمُوا أَنَّ فِكْرَةَ الْإِعْتَزَالِ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَمْ تُعْرَفْ إِلَّا فِي حَلَقَةِ الْحَسَنِ
التَّضَرُّيِّ، عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَعَمَرُو نَبِيَّ عُبَيْدٍ، وَإِنَّمَا أَنْشَأَهَا بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ خَيَالُ مُشْكِلَةِ الْغَنَائِمِ،
وَتَوْضِيحُ عَلَيِّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ.

وإذا به يَتَّهِمُهُ بِالْعُقُوقِ فِي رَفْقٍ. قَالَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ إِلَيْهِ:

«وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ، أَبُو سُفْيَانَ، أَتَانِي حِينَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ آبَسْتُ يَدَكَ أَبَايَعُكَ فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أُبَيِّتُ عَلَيْهِ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِقُرُوبِ عَهْدِ النَّاسِ بِالْكَفْرِ. فَأَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِحَقِّي مِنْكَ، وَإِنْ تَعْرِفَ مِنْ حَقِّي مَا كَانَ أَبُوكَ يَعْرِفُهُ تُصِيبَ رُسْدَكَ وَإِلَّا فَتَتَعَيَّنِ اللَّهُ عَلَيْكَ».

ولكنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ قَدْ سَاوَرَهُ الطَّمَعُ، وَلَبِثَ أَحْلَامُهُ الْكُبْرَى أَمَامَ نَاضِرِيهِ، وَقَدْ فَهِمَ مِثَالِيَّةَ عَلِيٍّ وَتَقَوَاهُ فَعَمَدَ لاسْتِغْلَالِهَا. فَإِذَا هُوَ يُصَانِعُهُ، وَيُظْهِرُ لَهُ خُيُوطاً وَاضِحَةً مِنَ الْأَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَضَعُ عُقْدَةً يَتَعَايَا بِهَا، فَيَعْدُّهُ عَلِيٍّ وَيَمْضِي فِي مُفَاوَضَتِهِ. وَمُعَاوِيَةُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا آكِثَابَ الْوَقْتِ لِتَهْيِئَةِ نَفْسِهِ، وَبَغْثِ رُوحِ الْمَلِكِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ، فَهُوَ يَتَمَتَّى طَوْلَ الْوَقْتِ وَطَوْلَ الصَّرَاحِ مَعَ ظُهُورِهِ بِمُظْهِرِ الْمُسْتَسْلِمِ إِذَا آنَحَلَّتِ الْعُقْدُ أَوْ أَقْتَعَهُ بِحُلِّهَا، وَبِهَذَا الْمَظْهَرِ يَضْمَنُ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ عَلِيٌّ بِحَزَبٍ خَاطِفَةٍ سَاحِقَةٍ، بَلْ يَوْفُقُ بِهِ، فَتَتَحَوَّلُ الْمَعْرَكَةُ الْجِدِّيَّةُ إِلَى حَرْبٍ إِنْهَائِيٍّ وَإِزْعَاجٍ، وَهِيَ لَا مَحَالَةَ سَتُشِيعُ صِفَةُ التَّمْلُلِ وَالْيَأْسِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ. أَضِيفَ إِلَى هَذَا أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ، مُنْذُ حِينَ، قَدْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةِ كُبْرَى، وَمِنْ قَبْلُ كَانَ نَهِيكاً بِالْفَتْوحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَدُورَ هَذَا التَّمْلُلُ دَوْرَتَهُ وَيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتْرُكَ صُدُوعاً وَآخِثَافاً فِي الرَّأْيِ، فَيَنْقَسِمَ الْجَيْشُ شَيْعاً، وَيَقْلِبَ مِنْ يَدِ عَلِيٍّ الزَّمَامَ.

أَمَّا يَرَاهُ يُجِيبُهُ حِينَما طَلَبَ تَأْجِيلَ الْحَرْبِ شَهْراً، أَلَيْسَ يَسْمَحُ لْجَيْشِ الشَّامِ، حِينَ اسْتَوْلَى جَيْشُهُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، بِالسُّقْيَا «حَتَّى آرَدَحَمَ عَلَيْهَا السُّقَاةَ مِنَ الْعَسْكَرَيْنِ وَمَا يُؤْذِي إِنْسَانٌ إِنْسَاناً»^(٣) فَطَالَ أَمَدُ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْماً، وَهَذَا وَقْتُ طَوِيلٍ

(٣) رَوَى الثَّارِخُ أَنَّ جَيْشَ الشَّامِ سَبَقَ إِلَى الشَّرِيعَةِ، فَطَلَبَ عَلِيٌّ السَّمَاخَ لِجَيْشِهِ فَأَبَى مُعَاوِيَةُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا غَلَبَهُ عَلَيْهَا وَطَلَبُوا إِلَيْهِ ذَلِكَ سَمَحَ لَهُمْ. فَتَوَهَّنَ بِهَذَا عَلِيٌّ عَلَى أَنَّهُ يُحَارِبُ لِلْحَقِّ وَلَيْسَ يُحَارِبُ لِلْعَلْبَةِ وَشَهْوَةِ

في عُمرٍ حَرْبٍ مِنْ هَذَا التَّوَعٍ، وَسَمَحَ طَوْلُ الْوَقْتِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي نَبَتْ فِي رُؤُوسِ
الْجُمُوعِ أَنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْجِلَ، وَتُشَكِّلَ نَظَرِيَّةً لَهَا أَسْرُهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي قَرَارَاتِهِمْ، وَكَانَ
هَذَا التَّمَاءُ مَشْفُوعاً بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْمَلِلِ وَالْيَأْسِ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا خَافِياً عَلَى عَلِيٍّ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ وَيَبْتَئِسُ، فَهُوَ يُرِيدُ
أَنْ يَحُلَّ الْمَشْكِلةَ الْقَائِمَةَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ، وَمِنْطِقِ الْقَانُونِ الَّذِي يُقَدِّسُهُ.
وَعَلِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَسْ أَنْ الظُّرُوفَ يَتَّزِمُ عَلَيْهِ، وَالْوَقْتُ يَتَعَقَّدُ، وَالْفُرْصَةُ تَكَادُ تُفْلِتُ مِنْهُ
إِلَى خَصْمِهِ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ حَرْبَ الْحَقِّ، وَيَنْتَصِرَ لِلْعَدَالَةِ بِالْعَدْلِ، وَإِلَّا فَهُوَ، فِي
نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَمِيرَهُ وَيَخْدَعُ النَّاسَ، إِذَا سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِانْتِهَاكِ قَدَاسَةِ الْحَقِّ بِسَبِيلِ
تَأْيِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ.

عَلَى أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً، فَلَمْ يَبْتَئِسْ لِأَنَّهُ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ التَّهْلِيَةَ الظَّافِرَةَ فِي مُتَنَاوِلِ
يَدِهِ، يَضُمُّهَا إِلَيْهِ سَاعَةً يُرِيدُ، وَكَذَلِكَ كَانَ حِينَ يَتَيْسَ مِنْهُمْ، وَضَرَبَهُمُ الضَّرْبَةَ
الْقَاصِمَةَ الَّتِي أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى حِيلَةٍ رَفَعَ الْمَصَاحِفِ الْمُعْتَادَةَ كَثِيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ
يَوْمَ الْجَمَلِ، فَهِيَ إِذَا لَا تَمْلِكُ تَأْثِيرَ الْمُفَاجِئَةِ بَلْ مُعْتَادَةً بَارِدَةً الْأَثَرِ ضَعِيفَةُ الْمَفْعُولِ،
لَوْلَا مَا كَانَ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَى الْجُمُوعِ مِنْ اسْتِيفَحَالِ الْأَفْكَارِ الْخَطِرَةِ الَّتِي سَبَقَ
وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا، فَتَصَدَّعَتْ وَخَدَّةُ الصُّفُوفِ بِهَذَا السَّبَبِ.

لَقَدْ عَادَتِ الزُّوْبَعَةُ إِلَى الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى أَشَدَّ غُنْفًا، فَتَمَزَّقَ شِرَاحُ السَّفِينَةِ،
وَمِثْلَتِهَا الْأَمْوَاجُ الْمُتَعَاطِمَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ عَلَى جَوَانِبِهَا فِي جَبَرُوتٍ. وَعَلِيٍّ فِي هَذِهِ الْعُمْرَةِ
الطَّائِشَةِ كَانَ يَنْشَطُ إِلَى كَشْفِ الْمَهْزَلَةِ وَسَحْقِ طَوَاغِيَّتِهَا، وَلَكِنْ بِجَيْشٍ مَرِيضٍ
فَتَعَايَا عَلَيْهِ وَتَرَكَهُ حَيْثُ يَشَاءُ فِي الْمَيْدَانِ. لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مُسَايَرَةِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ،
وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْخَوْضِ فِي تَيَّارِ الْمَهْزَلَةِ الَّتِي اسْتَوْلَتْ بِرُوحِهَا عَلَى الْجُمْهُورِ إِلَى

= الشُّطَّانِ. وَأُعْطِيَ مَثَلًا قَدْأً فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، إِذَا أَضْطُرَّ إِنْسَانٌ إِلَى الْحَوْبِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا
شَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ.

النهاية. فليس من سبيل مداواة الروحانية العامة على ضوء النفسية الاجتماعية، إلا الأخذ بالناس حتى نهاية الطريق في مدى ما آسَتْخَوْذَ عليهم، فإن الأمراض الاجتماعية، من نوع الهيسْتيريا الحادة، يُداوى معها الوهم بالوهم، وعلى ذلك نزل عند رأيهم ليهيئ الظروف المناسب من جديد.

فعلني إذا لم يشأ قُضداً أن يستغلَّ سرعته، وهي تقتضي البطش، آسْتِغْلَلاً حازماً وسريعاً، وكان هو الواجب إذ ذاك من وجهة نظر عسكرية. نحن نعرف علناً بطل الحرب، فلماذا أعرض هذا الإغراض، واختار البطء في الإيقاع بالخضم بعد تلك السرعة الموقفة في الانتقال والإعداد؟ لأن علناً لم يكن يطلب السلطان من أجل السلطان، بل من أجل إحقاق الحق وإحلال المثل الأعلى الاجتماعي في دنيا الناس، وإلا فالسلطان في كبرياء نفسه وفي كبرياء معتويته «لا يساوي عطفة عنز» كما كان يقول.

هو يريد السلطان من أجل الحق، فإذا انتهك الحق من أجل السلطان فقد خنق ضميره، واعتصر بيديه قلبه في قسوة ووحشية.

فماذا يريد من كفاجه إذا؟ إنه يريد تطبيق قضايا العدل حتى في الساعة التي يجوز فيها الجور، إنه يريد الحق حتى في ساعة جيشان الباطل وطغيان المنكر. ولكن هم قلة الذين تساموا إلى فهمه، وهيئات الحياة الأطماع، المخذوة بالشرابين والأعصاب، أن تنبض بمثل خلجات قلبه، وتحس بحسه، وتندى بمثل شعوره. كان أكبر من محيطه ولا بدع، وأسمى من مجتمعه ولا ريب، فهو ربيب محمد المتبلور من سناء الوحي وضياء النبوة، وهو أكبر اللآلئ التي أنكشفت عنها دنيا القرآن. فهل يغبت بوجوده وضميره في ملهى يديه طائعاً مختاراً، ومن أجل ما لا يراه شيئاً؟!

إنه لم يكن يؤمن بما يقال «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون»، فهذه خطوة

صَغَارٍ وَخِيَانَةٍ وَجُبْنٍ وَخَوَرٍ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بِغَايَةِ أَسْمَى وَيُبَشِّرُ بِمَبْدَأٍ:

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا كَذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً
فَلَا تَحْنُ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ. وَلَا تَأُلْ جُهْدَكَ فِي الدَّعْوَةِ
إِلَى التَّغْيِيرِ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَاطِلِ مِثَالاً يَضْرِبُهُ...

إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَهِكُونَ كُلَّ قَدَاسَةٍ، بِسَبِيلِ الْفَوْزِ، سَاقِطُونَ فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ
وَقِسْطِاسِ الرُّوحِ، وَعَلَيَّ لَيْسَ مِنْ طَيِّبَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ الْأُسْلُوبُ، فِي حِسِّ عَلَيٍّ، أَهْرُزُ
أُسْلُوبٍ مِنْ أُسَالِيبِ الْخِيَانَةِ وَأَنْكَرُهَا. وَالْغَلْبَةُ تَكُونُ مِقْيَاسَ النَّجَاحِ فِي حِسِّ
الْجَامِدِينَ جُمُودَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ الصَّمَاءِ، بَيْنَمَا مِقْيَاسُ نَجَاحِكَ، فِي حِسِّ الشَّاعِرِينَ،
بِمَقْدَارِ مَا تَكُونُ أَبْيَضَ نَاصِعاً فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ وَسَنَى الْفَجْرِ.

وَالْوُجُودُ نَوْعَانِ: وَجُودٌ بِالْحَيَاةِ، وَوُجُودٌ فِي أَبَدِيَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَالثَّانِي مِنْهُمَا
أَكْبَرُ الْوُجُودَيْنِ، فَإِنَّ عُمَرَ أَوَّلِهِمَا فِي مُحَدُودِ اللَّحْمِ وَالدَّمِ، وَعُمُرُ ثَانِيهِمَا فِي مُحَدُودِ
الْخُلُودِ، وَأَيْنَ مَدَاهُ؟...

وَإِذَا بَقِيَ ذُو الْوُجُودِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّمَا يَبْقَى فِي ذِكْرِ التَّارِيخِ شَوْهَةٌ مُوَسِيَاءَ،
بَيْنَمَا يَظَلُّ ذُو الْوُجُودِ الثَّانِي، فِي ذِكْرِ الْأَبَدِ، مِشْكَاةَ حَيَاةٍ تَفِيضُ بِالنُّورِ بِالضِيَاءِ.
وَلَمْ يَشَأْ عَلَيٌّ، وَقَدْ أَخَذَ بِمَقْوَدِ السَّفِينَةِ، أَنْ يَتْرُكَهَا هَائِمَةً، وَيَتْرُكَ لِلْخَاطِفِينَ
(الْقُرُوصَانَ) أَنْتِهَابَهَا. فَعَالَجَهَا بِمَقْدَارٍ وَمِقْدَارٍ كَبِيرٍ، وَالْعَوَاصِفُ تَتَنَاوَحُ مِنْ حَوْلِهَا
وَبَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَيٌّ كَالرُّبَّانِ الْمَاهِرِ يُؤَخِّي الشَّرَاعَ أحياناً، فَيَمْضِي فِي مَدَى مَيْلِ
الْجُمْهُورِ، وَيَرْضَى بِالتَّحْكِيمِ، وَيَشُدُّ الشَّرَاعَ أحياناً فَيَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ بِالنُّهْرَانِ.

وُخْرُوجُ الْخَوَارِجِ إِنَّمَا تَمَّ بِاسْتِفْحَالِ فِكْرَةٍ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ
قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فِي تَفْكِيرِهِمْ، كَقَضِيَّةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ
بَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ يَلْتَقِيَانِ، فِيهَا. فَالتَّحْكِيمُ إِذَا خَطَأَ، وَالْخَطَأُ مَعْصِيَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ كُفْرٌ،
فَانتَهَوْا، فِي سِلْسِلَةِ النَّتَائِجِ، إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ مِنْ جَدِيدٍ. وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ، فِي

جَوهرها، لا تَزِيدُ عَنْ عُقْدَةٍ مَسْرُجِيَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا، مَعَ ضَعْفِ الْحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْدِ
الْفِكْرِيِّ، تَبْدُو عُقْدَةً عَسِيرَةً الْحَلِّ. فَلَدَى الْبُدَاةِ تَسْلِيمٌ عَفْوِيٌّ بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَإِنْ تَكُنْ
سَخِيفَةً، وَفِي نَفْسِيَّتِهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِلِاسْتِخْجَارِ وَالتَّصَلُّبِ عَلَى شَكْلِ عَفْوِيٍّ أَيْضاً،
بَحَيْثُ تَسْتَحِيلُ إِمَاعَتُهُ إِلَّا بِتَخْطِيمِ الرُّؤُوسِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، وَكَذَلِكَ حَدَثَ.

وَلَقَدْ تَمَلَّأَ الْحُسَيْنُ بِعِظَاتِ مَوْقِفِ أَبِيهِ فِي كُلِّ مَرَاكِلهِ، وَحَلَّلَهَا فِي نَفْسِهِ،
وَأَحَلَّهَا مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا ثَابِتًا. وَخَاضَ مَعَ وَالِدِهِ الْعَظِيمِ الصَّرَاعَ عَلَى سَتَى أَلْوَانِهِ،
وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ أَثَرٌ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ الشَّاطِئِ مُتَرَقِّباً بَلْ عَائِثٌ خَائِضٌ يَقُومُ بِهِ لُجَّةٌ
وَتَقَعْدُ بِهِ أُخْرَى، وَتَدْفَعُهُ مَوْجَةً لَتَسْتَقْبِلَهُ الْمَوْجَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالتَّقَى^(٤) سَيْفُهُ بِسَيْفِ أَخِيهِ
مُحَمَّدٍ، فَشَكَّلا قَوْساً قَاعِدَتْهَا الْمَبَادِيءُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَاضَ أَبُوهُمَا الْكَبِيرُ الْكِفَاحَ
دُونَ هُدْنَةٍ أَوْ هَوَادَةٍ.

وَبَقِيَ فِي سَمْعِ التَّارِيخِ وَبَصَرِهِ مَائِلاً حَيًّا:
أَنَّ عَلِيًّا بَطَلَ الْحَقِّ فِي السَّلَامِ وَفِي الْحَزَبِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي آسَتْحَالَ إِلَى
طَاقَةٍ فِي وُجُودِ الْحَقِّ وَكِيَانِهِ...

*

شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُحَقِّقَ مَغْزَى أُمُثُولَةِ عَلِيٍّ إِلَّا آبَنُهُ الْحُسَيْنُ، آبَنُهُ الْحَبِيبُ...
فَرَدَّدَ عَلَى شَكْلِ آخَرَ: إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا
كَذَلِكَ...

فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً، فَلَا تَحْنُ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحَدَكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ
الْفَاضِلَةِ...

(٤) إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ
فَاتَّخَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُمَا كَيْسَانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَسَرَ مَنَكِبَهُ
وَعُضْدَيْهِ، وَشَدَّ عَلَيْهِ أَبْنَاءَ عَلِيٍّ حُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ فَضَرَبَاهُ بِأَشْيَاءِهِمَا فَقَتَلَاهُ.

ولا تألُ جُهداً يبذلِ النفسَ، كي يَبقى لِلحقِّ في تاريخِ البائِلِ مَثَلٌ يَضربُه...
*

على أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا أُمُثْلَتَهُ الأُخْرَى...

إذا لَمْ تُكُنِ الحَيَاةُ كما تُريدُ، فَلْيَكُنِ المَوْتُ كما تُريدُ...

وإِلَّا فَهَيِّهَاتَ أَنْ تُشْعَرَ بِحَلَاوَةِ المِثَالِيَّةِ في الإِيمانِ، وَتَكُونَ مِنَ الأَحْرَارِ...

*

بَقِيَ طابَعُ الإنسانِ الكَامِلِ عَلَيَّ، الَّذِي لَا يُحَرِّكُهُ الحِقْدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهِ
النَّزَعَاتُ والنَّزَوَاتُ...

طابَعاً لأَبْنَائِهِ، فَقَدْ قِيلَ لِأَبْنَيْهِ مُحَمَّدٍ، دَسّاً، تَوَلِيداً لِلْمَوْجِدَةِ:

لِمَ يَدْفَعُ بَكَ أَبُوكَ فِي الحَرْبِ وَلَا يَدْفَعُ بِالْحَسَنِ والحُسَيْنِ؟...

فَقَالَ بُوْحَي القَلْبِ المِثَالِيّ: هُمَا عَيْنَاهُ وَأَنَا يُمْنَاهُ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ

يَمِينِهِ...

هَذَا طابَعُ عَلَيٍّ فِي الأُخُوَّةِ والإِخاءِ، فَأَيُّ دُنْيَا، بَلْ أَيُّ خُلْدٍ سَعِيدٍ، لَوْ تَسَنَّى

لِلحَيَاةِ أَنْ تَبْزُرَ بِطَوَائِعِهِ الأُخْرَى...

* * *

إلتِياع

في دَارَةِ قَرِيْبَةٍ مِنَ الْكُوفَةِ اَنْعَقَدَ اَوَّلُ مُؤْتَمَرٍ سِيَّاسِيٍّ اِزْهَابِيٍّ، وَاَنْفَضَ عَنْ مُؤَامَرَةٍ دَمَوِيَّةٍ وَاسِعَةِ النُّطَاقِ، تَوَلَّى اَمْرَهَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فِدَائِيَّوْنَ كُلُّهُمْ خَارِجِيٍّ. فَقَدْ كَانَ لِمَعْرَكَةِ التَّهْرَوَانِ، الَّتِي اَنْكَشَفَتْ عَنْ مَأْسَاةٍ مَرِيْرَةٍ، وَقَعَ حَادٌّ فِي نَفُوسِ الْخَوَارِجِ كَافَّةً، فَتَشَطُّوا، تَحْتَ اِلْحَاحِ سَوْرَةِ الْاِنْتِقَامِ، يَجْتَمِعُونَ هُنَا وَهُنَاكَ، وَيُوَالُونَ الْاِجْتِمَاعَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَمَا مِنْ بَيْتٍ اِلَّا وَدَخَلَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْاَزْوَاجِ، وَاَنْطَلَقَتِ الْعِيُونُ كَأَقْوَاهِ الْقَرَبِ تَتَحَدَّرُ عَنْ مِثْلِ خُيُوطِ الْقَطَارِ الْمُرْفُضَةِ اَرْفِضَا ضَرْعٍ نَظِيمٍ، وَبِالْاُخْرَى الْمُتَحَدِّرَةِ مُؤْتَلِفَةً اَثِيْلًا فِ نَوَاطِئِ شَتِيَّتٍ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ مِنْ اَبْنَاءِ الْهَوَى وَالشَّبَابِ، فَهُوَ عَاشِقٌ مُدْنَفٌ الْفُؤَادِ مُتَيِّمٌ الصَّبْوَةِ، لَقِيَ قَطَامَ ابْنَةِ الشُّجْنَةِ مِنْ تَيْمِ الرُّبَابِ، فِي اَصِيلِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيْلَاتِ الصَّخْرَاءِ الَّتِي يَخْتَلِطُ فِيهَا سُكُونُ الْجَمَالِ وَجَمَالُ السُّكُونِ، بِرَجَفَاتِ الْقَوَافِلِ، وَهِيَ تَهْوُمُ رَاجِعَةً اَوْ مُنْطَلِقَةً، كَأَنَّهَا سَارِحَةٌ فِي طَفْلِ الْاَبَدِ، اَوْ سَانِحَةٌ مَعَ رَأْدِ الْأَمَلِ الْخَاطِي.

وَقَطَامُ هَذِهِ فَتَاةٌ اَفْتَنَّتْ بِهَا طَبِيعَةُ الْجَمَالِ اَيَّ اَفْتِنَانٍ، وَمَشَتْ فِي تَقَاطِيعِهَا زَوَائِعَ الْحُسْنِ وَآيَاتِ الْفَنِّ، فَبَرَزَتْ كَالزُّهْرَةِ اَوَّلُ مَا تَتَشَقَّقُ عَنْهَا الْأَكْمَامُ، اَوْ كَالْفِتْنَةِ الْحَيَّةِ الْمَائِجَةِ الَّتِي اَضَافَتْ اِلَيْهَا الصَّخْرَاءُ اَنْبِيَاهَا، فَجَاءَتْ بِسَاطَةِ فِي

تَرْكِيْبٍ، وَوُضُوْحاً فِي غُمُوضٍ... تَخْطُرُ كَيْفَمَا آتَّفَقَ لَهَا، فَتُثِيرُ، فِي مَدَى خُطَاهَا،
تَهَاوِيلَ السَّحْرِ وَعَبَقاً مِنْ الهَوَى الْمَسْفُوحِ، وَضَجَّةَ الْجَوَى الشَّرُودِ.
وَالْجَمَالَ، فِي الْعَوَانِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَتُعَبِّرَ عَنْ تَذَوُّقِهَا الْفَنِّيِّ،
وَعَنْ أَنَّ غَايَةَ التَّفَاعُلِ الْكَوْنِيَّ يَنْتَهِي بِالْكَوْنِ إِلَى الْفَنِّ وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَقَاءَ
الْوُجُودِ قَائِمٌ عَلَى الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ فَقَطْ.

فَالطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ تُحَاوِلُ مُحَاوَلَاتِهَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ، لَتَنْتَهِيَ إِلَى الْفَنِّ
الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْجَمُودِ، وَتَبْتَدِيءُ الْحَيَاةَ أَوْ الطَّبِيعَةَ مِنَ الْفَنِّ
الصَّامِتِ، لَتَنْتَهِيَ كَذَلِكَ إِلَى الْفَنِّ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ أَيْضاً، وَتَبْتَدِيءُ
الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ، لَتَنْتَهِيَ فِي غَايَتِهَا إِلَى الْفَنِّ الْوَاعِي الَّذِي هُوَ الْمَثَلُ
الْعُلْيَا.

وإِلَى هَذَا الْفَنِّ الْوَاعِي تَنْتَمِي فِكْرَةُ الرُّوحِ وَالْخُلْدِ، حَتَّى اللَّهُ فِي الْأَذْيَانِ فِكْرَةُ
الْفَنِّ الْمُطْلَقِ، وَالْوُجُودُ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ، لِيَسْمُوَ تَحْتَ هَذِهِ الرَّغْبَةِ الْجَاذِبَةِ
بِالشَّوْقِ. وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صَوْرَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي
الْإِنْسَانِ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ فَنِّ الْوَعْيِ، أَوْ فَنِّ الْقَصْدِ، إِذْ فِيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ
الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لَا قَاصِدَةَ إِلَى قَصْدٍ فِي الْحَرَكَةِ... هَذَا حَدِيثٌ فَادٍ بِهِ آيُنُ
أَبِي عَتِيْقٍ فِي أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَمَاسِي الطَّائِفِ، عِنْدَ مَعْنَى نَضِيرٍ، جَمَعَهُ وَعُمَرَ بِنَ أَبِي
رَبِيعَةَ وَالثَّرِيَّا، وَزُمَرَةً كَبِيرَةً يَمُنُّ يَطْلُبُونَ الْحَيَاةَ اللَّاهِيَّةَ الْحَالِمَةَ، كَانَ بَيْنَهُمْ آيُنُ
مُلْجَمٍ.

فَقَالَ عُمَرُ يُحَاوِرُهُ: لَكَأَنِّي بَكَ - يَا آيُنَ أَبِي عَتِيْقٍ - وَأَنْتَ حُشِيَّةٌ فُتُونِ وَدُنْيَا
غَرَامٍ، وَلَمْ أَخْطِئْكَ الصَّفَةَ حِينَمَا قُلْتُ:

أَأَهْجُرُهَا؟! وَأَنْتَ زَيَّنْتَهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَقَهَقَةً مُشِيرًا إِلَى الثَّرِيَّا.

قال آبنُ أبي عَتِيقٍ: لا تُثْرِبْ عَلَيْكَ، فـ «اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». نَحْنُ
بِرَادَةِ الْفَنِّ يَسْتَحْفِنَا سِحْرُهُ، فَتَتَوَاقَعُ عَلَى الرِّمَالِ مُنْتَشِسِينَ بِمَوْجَةِ الزَّبَدِ، وَلَعَلَّ ثُرَيَّاكَ
أَكْبَرُ مَوْجَاتِ الزَّبَدِ الْحَائِمِ فِي شَاطِئِ الْفَنِّ الْمَسْحُورِ.

قَالَتِ الثُّرَيَّا: فَأَنَا فِي خَيَالِكَ إِذَا - يَا آبنُ أَبِي عَتِيقٍ - بَعْضُ مِنْ غَايَةِ الْكَوْنِ
فِي تَفَاعُلِهِ الْأَبَدِيِّ، لِأَنَّنِي بَعْضُ مِنْ فِئْتَةِ الْفَنِّ فِيهِ... وَرَاحَتْ تَرْمُقُ آبنُ أَبِي رَبِيعَةَ.

قال عُمَرُ: ماذا تقولين؟ لَأَنْتِ، وَاللَّهِ، كُلُّ فِئْتَةِ الْفَنِّ إِنْ كَانَ هَذَا يَفِي
بِمَوْعِدِكَ فِي قَلْبِي، وَلَأَنْتِ كُلُّ غَايَةِ الْكَوْنِ إِنْ كَانَتْ لِلْكَوْنِ غَايَةً... فَرَاخَتْ
تَضْحَكُ فِي خَفَرٍ، وَكَانَتْ ضِحْكَةً تُعْبِرُ عَنْ نَشْوَتِهَا فـ «الْعَوَانِي يَغُرُّهُنَّ الشَّاءُ»، وَلَمْ
تَلْبَثْ هُنَيْهَةً حَتَّى قَالَتْ:

«لَوْ أَنَا نَادَيْتُكَ وَاعْمَرَاهُ فَمَاذَا تَقُولُ؟... وَكَأَنَّهَا اسْتَحَفَّتُهُ فَهَبَّ يَفْعَلُ
كَالْمُسْتَوْبِ: أَقُولُ، أَقُولُ: لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ» وَمَدَّ صَوْتَهُ.

لَأَوَّلَ لِقَاءٍ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقَطَامٍ، مَرَّتْ فِي مُحَايَلَتِهِ قِصَّةُ أُمِّسَيَّةِ الطَّائِفِ،
وَشَعَرَ بِحِلَاوَةِ الْحُلُمِ، لَوْ كَانَ لَهُ مِنْ قَطَامٍ مَا كَانَ لِعُمَرَ مِنَ الثُّرَيَّا.

وَكَانَ أَنْ رَأَتْ قَطَامٍ مِنْهُ مَا رَأَى مِنْهَا، وَأَحْسَسَتْ بِمِثْلِ مَا اجْتَمَعَ فِي أَحَاسِيهِ
مِنْ أَخْلَامٍ، فَقَدْ تَوَاصَلَ بَيْنَهُمَا هَوًى، وَمَشَى بَيْنَ قُوَادِيهِمَا غَرَامٌ، وَلَفَّهُمَا وَجْدٌ،
وَأَسْتَدَارَ عَلَى قَلْبَيْهِمَا جَوًى وَهِيَامٌ. كَانَ فِي نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ قَلْبُهَا، وَفِي إِطَارِ الدَّائِرَةِ
قَلْبُهُ يَدُورُ، وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَبْتَدَأَ أَوْ إِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي، وَدَائِمًا يَكُونُ قَلْبُ الْمَرْأَةِ مِنَ
الثَّوَابِتِ، فَهِيَ غَنِيَّةٌ بِالْإِعْرَاءِ، وَقَلَمًا تَكُونُ غَنِيَّةٌ بِالْحِسِّ الصَّافِي، وَهِيَ قَلَمًا تَتَحَرَّكُ
بِالْحُبِّ مِنَ التَّرْجِسِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا دَائِمًا تَتَحَرَّكُ بِالْكَرَاهِيَّةِ وَالْبُغْضِ.

كَانَ بَيْنَهُمَا لِقَاءٌ إِثْرَ لِقَاءٍ، وَكَمْ تَمَنَّى لَوْ أَفْنَا الْعُمَرَ فِي لِقَاءِ سَكْرَى تَضِلُّ
عَنْ صَحْوِهَا، أَوْ تَدْفَعُ بِهِمَا فِي لَانِهَائِيَةِ الْفَنَاءِ قَبْلَ فَنَائِهَا.

عِنْدَ مَهْوَى أَحَدِ الْكُتُبَانِ الَّذِي حَفِظَ لَهُمَا أَوَّلَ أَنْتِشَاءَةٍ مِنْ غَرَامِيهِمَا وَآخِرَ
 أَنْتِشَاءَةٍ، كَانَا يَخْلُمَانِ، وَمَا أَصْحِيَا، إِلَّا عَلَى صَوْتِ النَّعِيِّ أَنَّ وَقْعَةَ النَّهْرَوَانِ ذَهَبَتْ
 بِكُلِّ الشُّيُوخِ وَأَكْثَرِ الْفُتَيَانِ، وَأَنَّ تَيَّارَ الْأَرْزَاءِ جَرَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، وَعَمَرَ أَعْلَى
 الْعَرَصَاتِ حَتَّى أَدْنَى الْأَوْدِيَةِ. فَتَمَايَلَتْ مَعَ النَّعِيِّ مُرْتَعِدَةً كَمَا تَمَايَلَتْ قَصَبَاتُ الْغَوْرِ
 فِي حُرُوفِ الْأَوْدِيَةِ وَالْمُنْعَرَجَاتِ، وَأَنَّهُمْ رَتُّ عَيْنَاهَا بِالْذُمُوعِ الْمُتَنَائِرَةِ تَنَائِرُ الْبَرَدِ،
 وَثَارَتْ ثَائِرَةٌ أَبْنِ مُلْجَمٍ عَلَى لَحْنِ دُمُوعِهَا الْقَانِيَةِ... وَتَحْتَ عَوَامِلِ الثَّأْرِ الْفَائِرِ وَسُورَةِ
 الْإِنْتِقَامِ الْعَاصِفِ، إِلَى أَلْيَتِهِ الرَّهِيْبَةِ لِيَسْتَقِيمَنَّ لَهَا وَلَهُ، وَلِيَشْفَيْنَ نَفْسَهَا وَنَفْسَهُ
 وَلِيَقَرَّ عَيْنُهَا وَعَيْنُهُ!

وَطَبِيعَةُ الْجَبَرُوتِ فِي الرَّجُلِ تَأْبَى أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فَضَاءٍ نَظَرِ الْمَرْأَةِ،
 كَمَا تَأْبَى طَبِيعَةُ الْإِغْرَاءِ فِي الْمَرْأَةِ أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فَضَاءٍ نَظَرِ الرَّجُلِ،
 كَأَنَّهُمَا، بَعْدَ تَنَاحُرٍ طَوِيلٍ، أَصْطَلَحَا عَلَى أَنْ تَسْتَنِيْمَ الْمَرْأَةُ إِلَى جَبَرُوتِهِ، فَهِيَ تُطَالِبُهُ
 بِهِ فِي الْخُطُوبِ، وَعَلَى أَنْ يَسْتَنِيْمَ الرَّجُلُ إِلَى إِغْرَائِهَا، فَهُوَ يُطَالِبُهَا بِهِ فِي الشُّوَابِ،
 وَهَيْئَتِ الْأَحْلَامِ، وَدَغْدَغَاتِ الشُّكُونِ الَّذِي يَتَمَدَّدُ فِي فَضَاءِ النَّفْسِ بِاسْتِرْخَاءٍ.

فِي دَارَةِ لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْكُوفَةِ، تَسَارَعَ إِلَيْهَا مَفْجُوعُونَ وَمَفْجُوعَاتٌ،
 وَلَبِثُوا يُزْعِدُونَ وَيُثِرِقُونَ، تَحْتَ إِيْحَاءِ الْمَأْسَاةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِأَعْصَابِهِمْ
 فَتُحَرِّكُهَا، مُتَصَلِّبَةً مُتَعَقِّدَةً تَشْتَهِي لَوْ تَمَدَّدَتْ خَائِنَةً سَاحِقَةً...

قَامَ الْحَرِيْتُ بْنُ رَاشِدٍ النَّاجِيَّ يَخْطُبُهُمْ:

لَقَدْ كَبِرَ عَلَيْنَا وَاللَّهِ مَصْرَعُ إِخْوَانِنَا الْأَبْرَارِ، وَمَا بَقَاؤُنَا بَعْدَهُمْ؟ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ
 يَنْخَطِفَكُمْ جَيْشٌ عَلَيَّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وَطَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ؟ إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْهُ إِلَّا
 الْمَوْتُ، الْمَوْتُ الدَّلِيلُ الْوَضِيعُ! الْمَوْتُ الْغَائِلُ الرُّؤْمُ! أَلَا فَانْفِرُوا وَمُوتُوا فِي عَقْرِ
 الْحِرَابِ، وَلَا تُمَوْتُنَّ فِي عَقْرِ الدِّيَارِ!

فَهَبَ الْقَطَرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ يُنْشِدُهُمْ:

أَقُولُ لَهَا، وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً، مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحَكِّ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبٍ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنِيعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ قَدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُغْتَبِطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسَلِّمُهُ الْمَنُونُ إِلَى أَنْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
وَوَقَفَ فَرَوْهُ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ:

أَلَا فَاسْمَعُوا: إِنَّ عَلِيًّا أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَقْعَةِ النَّهْرَوَانِ أُمْتُولَةً رَهْبِيَّةً، يُلَوِّحُ بِهَا
فِي وَجْهِ خَصْمِهِ، فَيَقْلُ غَرْبَهُ، وَيُدْخِلُ الرُّوْعَ إِلَى قَلْبِهِ، وَيُحْذِلُ عَلَيْهِ أَعْصَابَهُ، فَيَبْطِشُ
بِنَا تِلْكَ الْبَطْشَةَ السَّاحِقَةَ.

إِنَّ عَلِيًّا هُوَ أَخْوَجُ مَا يَكُونُ - وَقَدْ تَهَيَّأَ لِحَرْبِ خَصْمِهِ - إِلَى مَثَلِ جَبَّارٍ
مُرْعِدٍ يُعِيدُ بِهِ إِلَى الْأُذْهَانِ مَثَلَ رَهْبَةٍ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَيُدْخِلُ فِي رُوعِ خُصُومِهِ مَثَلَ
آثَارِهَا فَيَمْتَلِئُونَ دُغْرًا وَخَوْفًا، كَمَا أَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعِيدَ الثِّقَّةَ إِلَى نَفُوسِ جَيْشِهِ، فَقَدْ
عَرَاها وَهْنٌ وَخَوْزٌ، وَأَنْ يُعِيدَ الثِّقَّةَ بِالْجَيْشِ وَهُوَ يُقْبَلُ عَلَى مُغَامَرَةِ كُبْرَى فَاصِلَةٍ.
وعَلِيٌّ لَمْ يَضْرِبْنَا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ فِي النَّهْرَوَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ أَقْصَى الْجُهْدِ
لِلْعُودَةِ إِلَيْهِ، أَوْ الْفَيْقَةِ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي نِزَالِ خَصْمِهِ، وَلَقَدْ أَرْخَى لَنَا مِنْ عِنَانِهِ حَتَّى
أَخَذْنَا سَهْلَ بَنٍ حُثَيْفٍ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَابِقَتَهُ وَلَا تَجْهَلُونَ مَكَانَهُ، فَوَجَدَ إِذْ ذَاكَ
السَّبِيلَ لَتَجْرِبَتِهِ، وَهُوَ وَائِمٌ اللَّهُ قَدْ أَعْدَرَ.

وَلَسْتُ أَقُولُ تَنْبِيْطاً عَنْهُ، بَلِ اخْتِيَاطاً لِدِمَائِنَا، وَعَلَيَّ «لَمْ يَزَلْ عِنْدَنَا فِي الشُّبْهَةِ وَالشُّكِّ»... وَهَا إِنِّي مُعْتَرِلٌ.

فَوَثَبَ الْخَرِيْتُ يَخْفُقُ بِرَأْسِهِ وَيُثْرِقُ بِعَيْنَيْهِ، وَيُوعِدُ بِصَوْتِهِ، وَيُلَوِّحُ بِكُلْتَا يَدَيْهِ: أَدْعُوهُ إِلَى التُّفَاقِي وَالْكَفْرِ؟ إِنَّتَفَخَ سَحْرُكَ وَجَبُنْتُ وَهَدَرْتُ دِمَاءَ الْأَطْهَارِ. أَلَا فَمِيئَةُ السَّوْءِ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْفِرُونَ! وَهَا إِنِّي نَافِرٌ نَائِرًا!

فَأَشْتَعَلَتْ حِمَاسَةُ الشَّبَابِ خُصُوصاً، وَأَنْدَفَعُوا فِي تَيَّارِ أَصْوَاتِهِمْ كَالْجُنُونِ يُرَدِّدُونَ: أَلَا فَمِيئَةُ السَّوْءِ لَنَا إِنْ كُنَّا لَا نَنْفِرُ وَنَنْتَقِمُ!... وَأَنْكَشَفَ الْجَمْعُ عَنِ اعْتِزَالِ قَزْوَةِ الْأَشْجَعِيِّ بِشَهْرَزُورٍ، وَنَفَارِ الْخَرِيْتِ النَّاجِي بِالْأَهْوَازِ ثُمَّ بِالْأَسْيَافِ.

وَلَكِنَّ الشَّبَابَ تَنَادَوْا إِلَى بَعْضِهِمْ وَوَالَوْا الْاجْتِمَاعَ، وَتَزَيَّبَ الْخَطَطُ وَبَرَامِجَ السَّيْرِ بِالمُؤَامَرَةِ الْاِثْتِقَامِيَّةِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ جَهْراً، فَلْيَعْمَلُوا سِرّاً، وَلْيَعْمِدُوا إِلَى الْغِيْلَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ تَحُمُّساً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ، الَّذِي أَنْدَفَعَ بِحَفِيظَةِ الْحُبِّ، وَعَمِلَ كَنِي يُرْضِي قَلْباً بَاتَ مَعْمُوداً... إِنَّهُ سَيَجَازِفُ كَيْفَمَا شَاءَتْ الْمَجَازَفَةُ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ تُحْطَرُثُهَا.

أَلَيْسَ فِيهَا مَا يُرْضِي مَحْبُوبَتَهُ الْمَفْجُوعَةَ بِأَيِّهَا وَأَخِيهَا؟ أَلَيْسَتْ سَشَشِيْعُهُ بِرَعَشَاتٍ قَلْبِهَا وَخُفُوقِهِ؟

أَمَا سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرِي نَابِضَةً تَشِيْعُ بَيْنَ أَهْتَازَاتِهَا آتِيَسَامُهُ حُبٌّ بَاكِئُهُ، وَمَعْنَى هَوًى كَسِيْفٍ؟

فِي إِحْسَاسِ آبِنِ مُلْجَمٍ أَنَّ هَذَا كَافٍ بَلْ كَثِيْرٌ، لَا سِيَّما وَقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَلِيٍّ مَهْرَ قَلْبِهَا وَحُبُّهَا وَجَسَدِهَا، فَلْيَعْتَزِضْهُ إِذَا كُلُّ خَطَرٍ، وَلْتَقُمْ فِي طَرِيقِهِ أَيُّهُ الْعَقَابَاتِ، فَهُوَ لَا بُدَّ مُفْتَحِحُهَا. إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى سِوَى عَرُوسِ أَحْلَامِهِ

ثَبَارُكُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِتَشْجِيعٍ وَتَخَوُّفٍ.

أَلَيْسَتْ الْآنَ تَوَدُّعُهُ وَهِيَ بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ، تَهْتَزُّ تَحْتَ عَنيفِ صِرَاعِهِمَا، هَا هِيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَسْرُورَةٌ تَحْتَ فُورَةِ الثَّأْرِ وَالْمَوْجِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكَادُ يَخْطُو، حَتَّى يَطْغَى حُبُّهُ فِي خَنَايَا رُوحِهَا فَتَنْبَعِثُ وَلَهَى وَرَاءَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا، وَتَعْتِنُقُهُ أَعْتِنَاقًا عَنيفًا.

إِنَّهَا بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ بِمَوَاقِعِهِمَا عَلَى قَلْبِهَا، فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، وَتَخَافُ مِنْهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ. إِنَّهَا فِي خَيْرَةِ يَقْظَى لَيْسَ تَغْفَى، وَنَفْسُهَا سَكْرَى تُعَرِّبُ. ظَلَّتْ حِينًا بَيْنَ سَخَاءٍ بِهِ فَتُشْرِقُ عَلَى وَجْهِهَا آبِتِسَامَةٌ رَاعِدَةٌ، وَبَيْنَ بُخْلِ بِهِ فَتَتَوَلَّى وَتَذُوبُ آبِتِسَامَتُهَا فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَسَى السَّاهِمِ. يَبْدُ أَنَّهَا لَمْ تُطِقْ فَأَعْيَتْ بَيْنَ عَوَاطِفِهَا الْمُتَنَاقِضَةِ، فَاسْتَنْدَتْ إِلَيْهِ وَجُفُونُهَا غَافِيَةً تَحْتَ أَطْبَاقِ مِنَ الدَّمُوعِ، غَيْرَ أَنَّهَا رَمَقَتْهُ أَخِيرًا، وَقَالَتْ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخُفُوتِ:

«الْتِمِسْ غِرَّتَهُ، فَإِنْ أَصَبْتَ شَفِيتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي، وَيُهِينُكَ الْعَيْشُ مَعِي، وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا أَهْلِهَا»... لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهَا فِي النَّهَايَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وَأَنْطَلَقَ ابْنُ مُلْجَمٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ جَمَاعَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ الْحَطِيمِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ، كَيْفَمَا سَارَ، إِلَّا أَصْوَاتَ رَهِيَّةِ النَّأْمَاتِ، فَتَيَلَّفَتْ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْعًا، وَلَكِنَّهُ يَقِفُ كَالْمَذْعُورِ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ مَوْضِعُهُ أَنَا، وَيَنْطَلِقُ أَنَا كَالِهَائِمِ الْمَشْرُورِ تَتَفَادَفُهُ طَرِيقُهُ مِثْلَ كُرَّةٍ، لَقَدْ غَدَا، تَحْتَ مَا تَجِيئُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَعْتَلِجُ بَيْنَ خَنَايَاهُ مِنْهَا، كَالْمَرُورِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْعَكِسُ أَصْدَاءُ نَفْسِهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَيَسْمَعُ ضَجَّجَتَهَا فِي الْخَلَاءِ حَزِينَةً أَوْ مُعْتَبِطَةً.

إِنْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَتْرَابِهِ «فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ النَّاسِ، وَعَابُوا عَلَى وَلَا تِيهِمْ،

وَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهْرِ فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ. إِخْوَانُنَا الَّذِينَ
كَانُوا دُعَاةَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا، فَلَوْ شَرِينَا
أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا الرُّؤُوسَ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ فَأَرْخَنَّا مِنْهُمْ الْبِلَادَ وَثَارْنَا بِهِمْ إِخْوَانَنَا.

قَالَ آبْنُ مُلْجَمٍ - وَتَعَرَّضَ لَهُ طَيْفٌ قَطَامٍ يَبْتَئِسُ لَهُ وَيُبَارِكُهُ - أَنَا أَكْفِيكُمْ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْبَزْكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ... فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاتَقُوا بِاللَّهِ:
لَا يَنْكُصُ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

بَعْدَمَا غَابَ آبْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنَيْ قَطَامٍ، شَعَرَتْ بِغِبْطَةٍ، لَمْ تَلْبِثْ أَنْ
مَارَجَتْهَا حَشْرَةٌ كَانَتْ تَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهَا، عَلَى شَكْلِ مَوْجَاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، وَلَمْ تَلْبِثْ
أَنْ فَارَتْ وَأَصْطَحَبَتْ. فَخَفَّتْ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ تَوَدُّ لَوْ أَدْرَكَتْهُ، وَلَكِنَّهَا
تَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ وَلَوْ فِي الْقَتَامِ. فَظَلَّتْ تَزْنُو جَاحِظَةً وَشَفَتْهَا بَيْنَ
أَسْنَانِهَا، وَظَلَّتْ تُنْمِسُكَ وَجِيبَ قَلْبِهَا يَبِيدُ، وَتُكْفِكُفُ مِنْ غَرْبِ دَمْعِهَا بَيْدٍ، وَطَالَ
بِهَا الْمَقَامُ وَلَفَّهَا اللَّيْلُ كَأَنَّهُ يُجْلِبِيهَا بِثَوْبِ الْحِدَادِ.

سَمِعَتْ، بَعْدَ حِينٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَبَطَ الْكُوفَةَ فَهَالَهَا مَا سَوْفَ يُقْدِمُ
عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْمِهَا، رَجُلًا أَسْمُهُ وَزْدَانُ، تَمَنَّتْ، فِي أَقْصَى عَوَاطِفِهَا، لَوْ
أَنَّهُ سَقَطَ طُعْمُ الْفَرِيسَةِ وَنَجَا صَيَّادُهَا الْحَبِيبُ الْمَقْدِيُّ.

مَا لَبِثَ آبْنُ مُلْجَمٍ أَنْ لَقِيَ أَصْحَابَهُ فِي الْكُوفَةِ وَكَاتَمَهُمْ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَارَ إِلَى
«سَبِيبِ بْنِ بَجْرَةَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَتَلَ عَلِيٌّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

قال: ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ. لَقَدْ جِئْتُ شَيْئاً إِذَا، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قال: أَكْمُنُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ لِصَلَاةِ الْغَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، فَإِنْ نَجَّوْنَا شَفَيْتَنَا أَنْفُسَنَا وَأَذْرَكْنَا ثَأْرَنَا، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قال: وَيُحْكُ! لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيٍّ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ، فَقَدْ عَرَفْتُ بَلَاءَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ (ص)، وَمَا أُجِدُّنِي أَنْشِرُحُ لِقَتْلِهِ.

قال: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهْرِ! إِمَادَ الصَّالِحِينَ؟

قال: بلى... فَأَجَابَهُ، وَأَتَى الثَّلَاثَةَ إِلَى قَطَامٍ وَهِيَ مُعْتَكِفَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالْحَرِيرِ فَعَصَبَتْهُمْ بِهِ، وَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَقَفِيَّةِ: إِنِّي لِأُصَلِّيَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ فِي رِجَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ، مَا هُمْ إِلَّا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ، مَا يَشَأُمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ، إِذْ خَرَجَ عَلِيٌّ لِصَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَجَعَلَ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ. فَتَنَظَرْتُ إِلَى بَرِيقٍ وَسَمِعْتُ: الْحُكْمُ لِلَّهِ يَا عَلِيُّ، لَا لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفاً ثُمَّ رَأَيْتُ ثَانِياً ثُمَّ سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ: لَا يَفُوتَنَّكُمُ الرَّجُلُ! وَشَدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَخِذَ وَأُذْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ:

النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنْ أَنَا مِثٌ، وَإِنْ بَقِيَتْ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي... ثُمَّ آلَفَتْ إِلَى ذَوِيهِ فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَلْفَيْتُكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ إِلَّا قَاتِلِي، أَنْظِرُوا يَا حَسَنُ، إِنْ أَنَا مِثٌ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَاضْرِبْهُ ضَرْبَةً بَضْرِبَةٍ، وَلَا تُثْمِّلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمِثْلَةَ وَلَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ... وَلَمَّا أَحَسَّ دُنُوهُ جَمَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ:

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا، وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَبْكِيَا عَلَى شَيْءٍ

زَوَى عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَأَرْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغْنِيَا الْمَلْهُوفَ، وَأَصْنَعَا لِلْآخِرَةِ وَكُونَا
لِلظَّالِمِ نَحْضًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَأَعْمَلَا بِنَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةً
لَايِم... ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أُوصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ، الْعَظِيمِ حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، فَاتَّبِعْ أَمْرَهُمَا
وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا. ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَأَبْنُ أَيْكُمَا، وَقَدْ
عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى
قُبِضَ...»

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ!

*

خَاضَ عَلِيٌّ الْكِفَاحَ الْإِسْلَامِيَّ وَلَمْ يُذْرِكْ مَذْرَكَ الرِّجَالِ، وَقَضَى فِي سَاحَةِ
هَذَا الْكِفَاحِ وَهُوَ أَسْمَى الرِّجَالِ...
وَكَأَنَّهُ بِكِفَاحِهِ أَتَمَّ عَلَى الْإِسْلَامِ كِفَاحَهُ، فَالنَّبِيُّ كَافَحَ الشُّرُكَ، وَعَلِيٌّ كَافَحَ
النِّفَاقَ...

وَالنَّبِيُّ ظَفَرَ بِالْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَعَلِيٌّ ظَفَرَ بِمَعْرَكَةِ التَّطْهِيرِ الْحَاسِمَةِ أَيْضًا...
فِي كُلِّ عَيْنٍ أَنْتَ قُرَّتْهَا فِي كُلِّ جِيلٍ أَنْتَ عَلَيْهَا
شَاءَ الْحَقُّ أَنْ يُقَدَّمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ نَمُودَجُهُ فَكَانَ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا أَنْ تَعْتَرِضَ مُتَأَلِّقَةً فِي أَفْقِ الْأَحْيَاءِ فَكَانَتْ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ السَّمَاءُ أَنْ لَا تُسَلِّمَهُ إِلَى أَطْبَاقِ الثَّرَى الْمُظْلِمِ، فَاخْتَارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ
الْحَقِّ شَهِيدًا!...

*

إِسْتَعْبَرَ الْحَسَنُ، وَتَوَلَّى الْحُسَيْنُ مُلْتاعاً، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ مَاتَ فِيهَا الْبَطْلُ...
وَأَعْوَزَهُ الدَّمْعُ، وَلَكِنَّ عَلِيّاً لَا يُشَيِّعُ بِالدَّمْعِ...
فَإِنَّ تَكْرِيمَ الْبَطْلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَضْحِيَةٍ فِي بُطُولَةٍ، وَبُطُولَةٍ فِي التَّضْحِيَةِ...
فَبَكَاهُ وَلَكِنْ لَمْ يَبْكِهِ بِالدَّمْعِ بَلْ بِالدَّمَاءِ الْخَالِدَاتِ!...

*

تَنْظَّمُ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ إِكْلِيلُ أَسَى، وَلَكِنَّهُ إِكْلِيلُ غَارٍ يُعْبَرُ عَنْ خَالِدِ
الْمَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدَّهُ وَأُمُّهُ وَأَبَاهُ فِي آخِثِيكَ وَضِيء...
وَكَانَ شِعَارُهُ أَنِّي سَارَ وَكَيْفَ سَعَى...
وَوَظَلَ الْإِكْلِيلُ كَأَنَّ فِيهِ مَحَلّاً لَزَهْرَةِ حُمْرَاءٍ أَيْضاً...
فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ كَانَ يَنْفُسِهِ تِلْكَ الزَّهْرَةَ الْحُمْرَاءَ...
وَوَظَلَ إِكْلِيلُ الْغَارِ الْعَظِيمِ ذِكْرَى رَائِعَةٍ فِي صَمِيرِ الْوُجُودِ!...

*

إِسْتَفْرَقَ الْحُسَيْنُ فِي أَسَى مُذِيبٍ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنْ مَرُوثِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ
الدُّوَلِيِّ:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَذَرَ رَاعَ النَّاطِرِينَ
لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنْكَ خَيْرُهَا حَسَباً وَدِيناً
ثُمَّ تَمَتَّعَ: لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يَقُولُ «أَبِي حُسَيْنٍ»؟...
لَا شَكَّ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ يُنَادِينِي، يُنَادِينِي أَنَا...
وَحَلِيقُ بِي أَنْ أُجِيبَ النَّدَاءَ!...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْحُسَيْنِ السَّبِّطِ (٤)

في الهيكل

هَجَرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَسَمِعَ الْحَيَاةَ الصَّاحِبَةَ، وَقَدْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ بِأَرْزَائِهَا،
وَأَتَّصَلَتْ إِلَى قَرَارَةِ حَوْبَائِهِ بِأَسْبَابِ بِأَسَائِهَا، فَمَا بَشَّتْ فِي وَجْهِهِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ الْقَلِيلَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَالْفَتْرَةِ بَيْنَ تَجَهُّمَيْنِ.

بَلَّةٌ فِكْرَتُهُ عَنِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ لَا تَزِيدُ فِي آغْتِبَارِهِ عَنْ مَسْرَحِيَّةِ مُوسَلَةٍ
إِرْسَالاً، لَا تَتَقَيَّدُ بِوَاحِدَةٍ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، تَسُرُّ فِي بَعْضٍ مِنْهَا، وَتُشْقِي فِي بَعْضٍ،
وَتُضْحِكُ وَتُبْكِي وَتُلْدُ وَتُؤْلِمُ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُؤْلِمُ حَقِيقَةً كَمَا لَا تُلْدُ حَقِيقَةً،
وَلَكِنَّهَا تُغْرِي بِالْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى أَشْيَائِهِمَا الشُّعُورُ، فَتَلَوَّنَ بِهَا وَتَعَلَّقَ فِي
الْفِكْرِ رَغْبَةً تُصْدِيقُهَا، وَإِلَّا فَهِيَ، فِي حَقِيقَتِهَا، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُهَا وَنَحْنُ نَعُودُ
فَنُصَدِّقُهَا وَنُؤَكِّدُهَا.

أَمَّا أَنَّهَا وَقَعَ فَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا تَكُونُ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ
قَوْمٍ فَوَائِدَ؟... وَلِمَاذَا لَا تَمْتَلِكُنَا مَشَاعِرُ وَاحِدَةٍ حِيَالَ الْحَادِثِ الْوَاحِدِ؟

أَلَيْسَ هُوَ حَادِثًا وَاحِدًا لَا يَمْلِكُ هَذَا التَّبَايُنَ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِذَا؟ إِنْ كَانَ
الْحَادِثُ عِلَّةً وَالْمَشَاعِرُ الْمُتَبَايِنَةُ تَنْشَأُ عَنْهُ بِالْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ؟

وَلِمَاذَا أَقْتَنِعُ أَنَا بِأُسْلُوبٍ وَمَنْطِقٍ لَا يَقْتَنِعُ بِهِمَا الْآخَرُ فِي زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَيْسَا
مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَيُحِسُّ كُلُّ مِتَا أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ، وَشَعَرَ بِهِ شُعُورًا فِكْرِيًّا أَوْ

مَعْنَوِيًّا. أما يُحِسُّ كُلُّ مِنَّا، إذا اقْتَنَعَ بِأَمْرٍ أو بِرَأْيٍ، أَنَّهُ آتَقَلَّ مِنْ واقعٍ لم يَعُدْ لَهُ هذا الأسم، إلى واقعٍ ليس سِوَاهُ خَلِيقاً بِإِطْلَاقِ الأسم؟ أَلَسْنَا لَا نَبْتَئِسُ وَنَحْنُ نَعْبَثُ جَدَلِينَ بِأَسْلاِءِ الأعداءِ وِدْمَائِهِمْ؟

فَالطَّبِيعَةُ الحَيَّةُ إِذَا تَهْدِمُ العِلَاقَةَ السَّبَبِيَّةَ فِي نَفْسِهَا، ثُمَّ لَا تَخْضَعُ لِنَامُوسِهَا، وَالْعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةُ الوَاقِعِ، فَلَا يَدْعُ، بَعْدَ هَذَا، إِنْ كَانَتِ الحَيَاةُ لَيْسَتْ وَاقِعاً، أَوْ لَا تُعْبِرُ عَنِ واقعٍ فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

إِنَّ الحَيَاةَ إِنَّمَا تَجِدُ وَاقِعَهَا فِي آنِفَعَالِنَا الضَّمِيرِيِّ^(١) أَوِ الِوِجْدَانِيِّ، فَكُلُّ مَا لَا يَجِدُ طَرِيقَ أَنْتِهَائِهِ إِلَى مَزَكِرِ الانْفِعَالِ الضَّمِيرِيِّ لَيْسَ بِحَيَاةٍ. فَلِكِنِّي يَكُونُ إِذَا لِلْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ فِي الطَّبِيعَةِ الحَيَّةِ فَتَنْشُجُ وَخْدَةٌ أَثَرٍ، لَا بُدَّ مِنْ وَخْدَةٍ زَمَانٍ وَوَخْدَةٍ مَكَانٍ، وَوَخْدَةٍ حَادِثٍ وَوَخْدَةٍ ضَمِيرٍ، وَهَذِهِ الأَخِيرَةُ أَهَمُّ الوُحْدَاتِ مِنْ حَيْثُ تَجِدُ الحَيَاةَ الإِنْسَانِيَّةَ فِي بَيْدَائِهَا وَاقِعَهَا. فَأَشْيَاءُ الحَيَاةِ لَا تَجِدُ حَيَاتِهَا، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا تَجِدُ حَقِيقَتَهَا، إِلَّا إِذَا اسْتَجَابَ إِلَيْهَا الشُّعُورُ، وَإِلَّا فَأَيُّنَ الأَلَمِ وَاللَّذَّةِ؟ وَأَيَّانَ تَقُومُ المُغْرِيَّاتُ وَالْفُتُونُ؟ فَلَنُجَرِّبُ إِذَا جَيِّداً أَنْ لَا نَضْحَبَ أَلْوَانَ الحَيَاةِ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا بِاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرُوحِيَّةً تَافِهَةً القِيَمَةِ. وَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْرُوحِيَّةِ نَفْسِهَا - وَهِيَ آنِفَعَالُنَا - نُسَرُّ وَنَأْسَى إِذَا اسْتَجَبْنَا إِلَيْهَا بِشُعُورِنَا، فَسِرُّ مَا يَنْتَابُنَا مِنْ شَقَاءِ الحَيَاةِ، أَوْ سَعَادَتِهَا، قَائِمٌ فِي الاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِيَّةِ فَقَطْ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ تَمْلِكُ سِوَى أَسْمَاءٍ نَحْنُ نُفَرِّغُ فِيهَا مُسَمِّيَاتِهَا. فَإِذَا حُلْنَا بَيْنَ الشُّعُورِ وَالاسْتِجَابَةِ، أَذَرَكْنَا سِرَّ الحَيَاةِ وَحَقِيقَتَهَا، وَاسْتَشْعَرْنَا بِهَيْئَمَاتِ الخُلْدِ، وَأَنْشَنِينَا نَتَقَلَّبُ فِي حَيَاةٍ ذَابَتْ عَلَيْهَا كِبَرِيَاءُ أَبَدِيَّةِ السَّمَاءِ، وَكِبَرِيَاءُ مَعَانِيهَا وَأَحْلَامِهَا... رَنٌّ فِي أُذُنِ الحُسَيْنِ وَهُوَ فِي مَذْهَبِ تَفْكِيرِهِ هَذَا أَوْ تَأْمُلِهِ... فَلَنَتَجَرَّدُ! هَلُمَّ إِلَى الهَيْكَلِ! إِلَى مِخْرَابِ الْمُعْبَدِ، مِخْرَابِ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ وَالْخَيْرِ!

(١) نَعْنِي بِالضَّمِيرِ هُنَا الْمُضَمَّرُ، أَيْ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ دُونَ الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْوِجْدَانِ.

ظَلَّ في حَيَاةِ تَمَوُّجِ النَّشْوَةِ وَسَكْرَةِ الحُلُمِ، وَخَيْنِ الرُّوحِ، وَرَفَّةِ الطُّهْرِ،
وَحَفَقَةِ الحُبِّ، وَظَلَّ النَّاسُ خَارِجَ الهَيْكَلِ يَتَقَلَّبُونَ في حَيَاةِ تَمَوُّجِ الْفُتُونِ
وَالشَّهَوَاتِ، وَرَشَحَاتِ الأعْصَابِ مِنْ لَذَّةِ وَأَلَمِ، وَلِكِنَّهَا دُنْيَا مِنْ السَّرَابِ.

كَانَ كَأَنَّهُ في مِخْرَابِهِ بَيَّتَ الْقَصِيدِ في أَنْشُودَةِ الحَيَاةِ، أَوْ أَنْشُودَةِ الطُّهْرِ في
شِعْرِ الوجودِ.

ظَلَّ في مِخْرَابِ الرُّوحِ رَانِيَا شَاخِصًا، زَمَنًا طَوِيلًا، في حِسَابِ مَنْ دُونَ
حُدُودِ الهَيْكَلِ، وَإِنْ كَانَ، في حِسَابِهِ، لَمْ يُفْنِ اللَّحْظَةَ الْأُولَى بَعْدُ، وَهَلْ في لَحْظَةِ
الإِشْرَاقِ وُجُودٌ لِلزَّمَنِ؟ إِنَّ لَحْظَةَ الإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدٌ، وَأَوَّلُ آخِرٍ في الْأَبَدِ إلْغَاءُ فِكْرَةِ
الزَّمَانِ مِنْهُ.

وفي لَحْظَةِ الإِشْرَاقِ سِرُّ الحَيَاةِ، وَلِمَكَانِ هَذَا السِّرِّ فِينَا لَا نَفْتًا نَنْشُدُ النَّشْوَةَ
في الحُبِّ وفي الْفَنِّ. وَلَآنَ في لَحْظَةِ الإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لَا يَشْعُرُ الْحَبِيبُونَ بِدُنْيَا
الحَيَاةِ وَمَا آجَتَمَعَ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِ دُنْيَاهُمْ، لَقَدْ آتَشَسُوا فَهَمَ يَحْلُمُونَ.

في كُلِّ أَشْيَاءِ الوجودِ لَفَتَاتُ إِشْرَاقٍ، وَهِيَ تَتَنَادَى بِالْحَيِّ إِلَى التَّأَمُّلِ لِيَتَنَجَّوْا
مِنْ عُبابِ السَّرَابِ، قَبْلَمَا يُعْتَصِرُ في الْإِلْتِمَاعِ السَّاخِرِ.

إِنَّ لَحْظَةَ الإِشْرَاقِ في الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الإِشْرَاقِ في الحُبِّ، وَلَحْظَةُ الإِشْرَاقِ
في الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الإِشْرَاقِ في الهَيْكَلِ أَيْ التَّأَمُّلِ، وَهُنَا تَرْتَفِعُ سُدُودُ الشُّعُورِ
في الْقَلْبِ، فَتَدْفُقُ لُجُجُ الإِشْرَاقِ، وَفِي عُبابِهَا بَاتَ الْحُسَيْنُ يَطْفُو حَالِمًا يَشْمُو بِهِ
الْمَدُّ. إِنَّهُ نَشْوَانُ. أَلَيْسَتْ مُحْشَاةً تُنْدِيهَا خَمْرَةُ اللَّهِ، تُرَابٌ بِقَمِي: إِنَّهَا تُنْدِي بِرَحِيقِ
الْأَزَلِ.

بَدَأَ الْحُسَيْنُ لَا يَرَى شَيْعًا، إِلَّا رَأَى اللَّهَ وَرَاءَهُ، وَأَنْتَهَى وَهُوَ لَا يَرَى شَيْعًا إِلَّا
رَأَى اللَّهَ أَمَامَهُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْعًا، فَقَدْ فَتَيْتِ الظَّلَالُ كُلُّهَا في الإِشْرَاقِ،

وَأَمْحَى خَيَالُ الْأَشْيَاءِ فِي مُقَلَّةِ الشَّمْسِ.

فَلَا يَدْعُ إِنْ آسَتْوَى قَلْبُهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ، كَمَا آسَتْوَى فِكْرُهُ عَلَى الْقَاعِدَةِ عَيْنِهَا، وَتَمَلَّأَ ضَمِيرُهُ بِالْمَثَالِيَةِ وَشَاعَ فِي وَجْدَانِهِ الْحَقُّ بِقَضَايَاهُ الْعُلْيَا. فَهُوَ نَخِصِبُ الرُّوحِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ خُصُوبَةٌ، وَمِنْ فُؤَادِهِ يَتَدَفَّقُ نَمِيرُ صَالِحٍ لَخَيْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ يَنَابِيعُ الْفَضَائِلِ. فَظَلَّ مُصَدَّرَ نَمُودَجَاتِ تُشِيرُ إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي قِيلَ عَنْهَا: إِنَّهَا أَحْلَامُ الشَّاعِرِ وَأُغْنِيَةُ الْعَنْدَلِيبِ، أَلَا لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْلَامُ الْعُلْيَا تُشِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ وَتَقُولُ: إِنِّي هُنَا!

كَانَ قَدْ آسَتْطِيرَ قَلْبُهُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَفْتَأُ يَنْشُدُهَا وَيَسْتَعْرِقُ مُتَأَمِّلًا فِي بَيْدَاءِ بَجَمَالِهَا، فَكَأَنَّهُ وَهُوَ فِي الْحِرَابِ قَدْ جَسَدَ الْحِرَابِ فِيهِ مَعْنَاهُ. فَلَمْ يَغْدُ يَمُدُّ خَيَالَ الْإِنْسَانِ بَلْ غَدَا يَمُدُّ وَاقِعَ الْإِنْسَانِ، حِينَ أَضْحَى مَعْنَى الْحِرَابِ إِنْسَانًا يَعِيشُ فِي النَّاسِ، فَكَانَ مِثَالَ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَمِثَالَ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مُصَلِّيًا حَتَّى كَأَنَّ حَيَاتَهُ جَاءَتْ عَلَى مِقْدَارِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا سَخِيئًا جَوَادًا حَتَّى كَأَنَّ غَايَةَ الْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْجُودِ، وَإِلَّا مُمْتَطِيًا صَهَوَاتِ خِيُولِهِ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْحَجِّ أَنَّهُ - مِثْلَمَا نُعَبِّرُ الْيَوْمَ - تَسْجِيلٌ لِلْأَسْمِ فِي سِجْلِ التَّشْرِيفَاتِ، وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ ذَلِكَ؟

لِذَا، كَانَ الْحُسَيْنُ، بِجَاذِبِيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوًى الْقُلُوبِ وَنَدَى الْأَفْعِدَةِ تَحُومُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّهُا تَزْوِي غُلَّتْهَا، فَقَدْ سَقَطَ الْعِطَاشُ مِنْهُ بَعْدَ التَّيِّهِ عَلَى رَقَارِقِ التَّيْبُوعِ، فَمَا كُنْتُ تَرَى النَّاسَ «إِلَّا عُكْفًا حَوْلَهُ» مُنْتَشِينَ، يَنْعَمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحَنِينِ إِلَى الْمَجْهُولِ «كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ».

فَكَانَ مَحَلُّهُ مِنَ النَّاسِ مَحَلُّ جَدِّهِ النَّبِيِّ، تَجِدُ فِيهِ الْأَزْوَاحَ الشَّارِدَةَ الْحَائِرَةَ مَا تَشْتَهِي مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وَمَا تَشَاءُ مِنْ سَكِينَةٍ. فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ يَأْخُذُ بِرِكَابِهِ فِي شُعُورٍ وَدُونَ شُعُورٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا آتِبُنْ رَسُولَ اللَّهِ،

أَفَلَيْسَ مِنْ سَعَادَتِي أَنْ آخُذَ بِرِكَابِهِ؟... وإذا أبو هُرَيْرَةَ يَسِيرُ وَالْحُسَيْنُ فِي جَنَازَةٍ فَأَغْيَا الْحُسَيْنُ وَقَعَدَ، «فَجَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَنْقُضُ التُّرَابَ عَنْ قَدَمَيْهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَفْعَلُ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمَ لَحَمَلُوكَ عَلَى رِقَابِهِمْ!... وإذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «رَأَى الْحُسَيْنَ مُقْبِلًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فِي جَمَاعَةٍ، فَيَقُولُ: هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الْيَوْمَ».

وكان، على هذه المكانة، لا تَزِدْهِ كِبَرِيَاءُ الْمُتَخَايِلِ، فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ شُعُورٌ بِنَقْصِ الذَّاتِ، وَجَبْرٌ لِهَذَا النِّقْصِ بِالتَّظَاهِرِ، وَمَا حَاجَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْأَنْوَابِ، وَالْعَظُمَةُ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ أَكْثَرَ أَسْرًا كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُزُوبًا.

فَالْكِبَرِيَاءُ مَرَضٌ يَبِينُ أَنْ يَكُونَ فِي الذَّاتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِدْرَاكِ، وَفِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا تُعْبَرُ عَنْ أَنَّهَا كَشَجَرَةِ الْأُزْرَاقِ فِي الْخَرِيفِ، أَوْ كَزَعْبِ النَّعَامِ فِي الْإِغْصَارِ.

زَعَمُوا أَنْ تُفَاحَةً نَبَتَتْ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ، فَأَطْلَتْ عَلَيْهَا مِنْ غُلْيَاهَا الشَّامِيخُ بِخَيْلَاءٍ وَأَزْدِهَاءٍ، وَقَالَتْ: أَنْتِ حَقِيرَةٌ، حَقِيرٌ جَنَّاكِ الَّذِي تَحْمِلِينَ، حَتَّى صَوْتُكَ حَقِيرٌ فِي نَجْوَى النَّسِيمِ سَاعَةً يَنْطَلِقُ فِي السَّحْرِ يُغَارِلُ غَايِبَاتِ الْأَشْجَارِ وَيُسَامِرُهَا... وَأَنْتَفَضَتْ تَصْفُقُ، فَقَدْ مَرَّ الرِّيحُ يُهْدِئُهَا، وَذَهَبَتْ تَضْحَكُ مُتَمَائِلَةً فِي سُخْرِيَّةٍ وَكِبَرِيَاءٍ. وَهَبَتْ فِي أَثَرِ الرِّيحِ أَعَاصِيرُ تَزْأُرُ فَطَالَتْ ضِحْكُهَا وَاسْتَحَالَتْ قَهْقَهَةً لَمْ تَزَلْ تَمْتَدُّ، وَلَكِنَّهَا أَنْقَلَبَتْ فَجَاءَةً إِلَى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهِيْبَةٍ أَنْكَفَأَتْ مَعَهَا تَوَتَّطُمُ بِالْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِ الثُّفَاحَةِ، فَمَالَتْ هَذِهِ عَلَيْهَا رَائِيَةً تَقُولُ:

لَعَلَّكَ الْآنَ - أَثِيْتُهَا الْأُخْتُ - أَصْدَقُ زَمْرًا فِي الْكِبَرِيَاءِ...

وَمَرَّ سَائِرُ طَرِيقِي بَدْدَ بِهِ الْمَسِيرُ، فَوَقَفَ عِنْدَهُمَا تَعْبًا ضَارِيًا، وَأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ مِنْ ثَمَرِ الْبَلُوطَةِ، فَخَبَطَتْهُ مَرَارَةٌ حَادَّةٌ، فَتَقَرَّرَ مُسْتَنْغِصًا كَالَّذِي مَسَّهُ أَفْعَى، وَتَرَايَدَ

بِهِ الظُّلْمَاءُ، وَتَلَبَّثَ فِي حَيْرَةٍ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الْأُخْرَى، فَاخْلَوْلَى وَشَاعَ الرَّيُّ فِي جَوَانِحِهِ، فَقَالَ:

مُبَارَكَةٌ أَنْتِ! فَإِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الذَّاتِ فِي شَكْلِ خُدُودِ الْحِسَانِ، وَأَمَّا أَنْتِ الْأُخْرَى فَبَعْدًا لَكَ! إِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الْكِبْرِيَاءِ فِي شَكْلِ بَجَلَةِ الْجَمَالِ! فَسَمِعَتْ كِلْتَاهُمَا مُحْكَمَ الْحَقِيقَةِ عَلَيْهِمَا، فَمَا تَاهَتْ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ كَبِيرَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ الْوُجُودِ، وَلَقَدْ تَضَاءَلَتِ الْأُخْرَى وَهِيَ عَدِيمَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةٌ فِي الْعَدَمِ، وَرَاحَتْ وَقَدْ آخُضِرَتْ عَلَيْهَا الْكِبْرِيَاءُ كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى أَشْلَائِهَا مُمَزَّقَةً... وَقِيلَ، بَعْدَ حِينٍ، إِنَّ الْمَوَاقِدَ أَنْتَهَبَتْهَا، وَحَالَتْ فِي الرَّمَادِ وَالْدُّخَانِ تَقُولُ أَيْضًا: إِنَّنِي لَمْ أَزَلْ كِبْرِيَاءً تَعْلُوا...!

«مَرَّ الْحُسَيْنُ بِمَسَاكِينٍ يَأْكُلُونَ فِي الصُّفَّةِ^(٢)، فَقَالُوا: الْغَدَاءُ. فَتَزَلَّ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ. فَتَغَدَّى ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجْبِئْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، قَالُوا: نَعَمْ... فَمَضَى بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لَخَادِمِهِ: أَخْرِجْنِي مَا كُنْتُ تَدْخِرِينَ».

وَالْحُسَيْنُ كَانَ، وَهُوَ فِي الْهَيْكَلِ، لَا يَفْتَأُ يُعِينُ النَّظَرَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَغْشَاهَا، يُضْلِحُ فِيهَا وَيُضْلِحُ لَهَا حَتَّى آذَنَهُ الْهَيْكَلُ بِالْخُرُوجِ، كَمَا خَرَجَ جَدُّهُ مِنْ غَارِ جِرَاءَ قَبْلُ، لِيَأْخُذَ الْحَيَاةَ طَبَقَ قَاعِدَةِ الْإِسْلَامِ، فَتَحَدَّثَهُ أَوْثَانُ الْأَحْيَاءِ، فَحَارَبَهُمْ مُنْتَشِرِينَ وَمُجْتَمِعِينَ.

فَالنَّبِيُّ الْجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حَارَبَ الْوَثْنِيَّةَ فِي الْفِكْرِ وَدَحَضَهَا؛ وَالْحُسَيْنُ السَّبْطُ حَارَبَ الْوَثْنِيَّةَ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَهُوَ، وَإِنْ لَمْ يَدْحَضْهَا، فَقَدْ رَسَمَ الطَّرِيقَ لِحَرْبِهَا، وَأَبَاحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ عَلَى آيَةِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا.

*

(٢) الْمَكَانُ الْمَقْدَرُ لِطَعَامِ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ.

ذَابَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي الْقُشُورِ...
وَرَاخَ الْأَحْيَاءُ يَتَعَلَّقُونَ مِنْهَا بِالْغُثَاءِ وَالظُّلَالِ...
فِي نَشْوَةِ كَنْشَوَةِ الْخَمْرِ تُعْبِزُ عَنْ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، تَمُدُّ بِالْعَرَبَدَةِ دُونَ مَا
أَحْلَام!...

*

وَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ نَفَذُوا مِنَ الْقُشُورِ إِلَى اللَّبَابِ...
فَطَعِمُوا الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ هَيْبَةُ الْأَبَدِيَّةِ...
فَاسْتَعْلَوْا وَوَقَّفُوا عَلَى هَامِ الْقُشُورِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَلَاءِ...
وَتَحَدَّثَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أَفْقِ الْأَبَدِيَّةِ، إِنْسَانًا يُمِيعُ فِي السَّمَاءِ...
عَرَفُوا فِي طَلْعَتِهِ إِنْسَانَ الْهَيْكَلِ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِاللَّحَاقِ!...

* * *

في وجه الظُّلم

في جَوْفِ اللَّيْلِ الْعَمِيقِ عُمُقَ الْأَبَدِيَّةِ وَالْمَجْهُولِ، حِينَ كَانَ الظُّلَامُ يَنْتَشِرُ عَلَى
شَكْلِ أَرْدِيَّةٍ فَاجِمَةٍ، تُلْفَعُ وَجْهَ الْكَوْنِ وتُلْقِيهِ فِي سُكُونٍ حَائِرٍ وَسُبَاتٍ وَاجِمٍ
مُخِيفٍ، أَنْطَلَقَتْ أَنَّهُ تَتَّبِعُهَا أُخْرَى وَأُخْرَى، فِي تَلَاوُحٍ بَدَأَ بِطَيْئاً ثُمَّ كَرَّ سَرِيعاً،
وَكَانَتْ أُنَاتٌ تُسْمَعُ جَرِيحَةً، وَيُخَيَّلُ أَنَّهَا تُرَى دَامِيَةً كَلِيمَةً، تَجْمَعُ فَتَشْكُلُ صَرَوَحَةً
بَاغِتَةً أَوْ بَعْتَةً صَارِخَةً، وَتَتَوَزَّعُ مُتَقَطَّعَةً مُتَنَاوِحَةً فَتُؤَلَّفُ لَحْناً فَانِيَاً، كَأَنَّهُ لَحْنُ
التَّلَاشِيِ الْمُحْتَضِرِ، أَوْ نَعْمَةُ الْفَنَاءِ الدَّائِبِ فِي أَفْوَاهِ الْقُبُورِ.

أَصْغَى الْحُسَيْنُ إِلَى مَا يَتَنَاهَى فِي سَمْعِهِ، وَمَالَ بِأُذُنِهِ كَأَنَّهُ يَسْأَلُ: مَاذَا؟ وَقَدْ
خَفَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا يُسَابِقُ السَّمْعَ، وَلَكِنَّ التَّأَمَّاتِ اخْتَلَطَتْ فَأَدَارَ أُذُنَيْهِ كِلْتَيْهِمَا إِلَى
الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَهَذَا قَلْبُهُ يَتَوَثَّبُ يَمِيناً وَشِمَالاً، يَبْدُو أَنَّهَا ظَلَّتْ تَقُولُ فِي مَنْطِقِ
الصَّدَى: أَوَاهُ! وَظَلَّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَاذَا؟ وَاخْتَلَطَتِ الْآهَاتُ وَأَنْبَهَمَتْ... فَهَبَّ
يَسْتَدُّ خَارِجَ الْهَيْكَلِ مُسْتَطِلِعاً وَهُوَ يُرَدِّدُ:

أَلِّلِيلُ لَيْلٍ، وَهَوَ وَيْلٌ وَيْلٌ وَسَالَ بِالْقَوْمِ الطَّغَاةِ السَّيْلُ

وَيْلٌ لِلظُّلَمِ وَالظَّالِمِينَ، «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَطْلَ مِنَ الْهَيْكَلِ، وَأَطْلَعَ رَأْسَهُ، وَالنَّاسُ مُتَجَمِّهُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ كَالْعَمَامِ

المُرِفُّ يَقُولُونَ: أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ضَحِيَّةٌ وَدَمٌ يُطَلُّ؟ أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تُمَرَّقُ أَكْبَادُ وَتُنْشَرُ أَشْلَاءُ؟

لَقَدْ جَاءَ النَّعِيُّ بِأَنَّ حُجَرَ بْنَ عَدِيٍّ طُلَّ دَمُهُ مُنْذُ لَيَالٍ فِي نَفَرٍ مِنْ صَحْبِهِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكُوفَةِ يَسْتَضِرُّونَ وَيَنْتَصِفُونَ.

قَالَ الْحُسَيْنُ: رَبَّاهُ مَا أَسْمَعُ... أَحُجَرُ يُقْتَلُ وَلَا نَصْنَعُ شَيْئاً؟ فَيَا حَيَاةَ أَشِيحِي وَأَعْرَبِي، وَيَا دُنْيَا الْآثِمِينَ ذُوبِي وَأَضْمَحِلِّي!

وَكَانَ قَدْ آذَنَهُمُ الْفَجْرُ بِالصَّلَاةِ فَعَاجُوا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالتَّأَمَّوْا صُفُوفاً، وَمَا أَنْصَرَفُوا حَتَّى تَحَلَّقُوا عَلَى شَكْلِ دَوَائِرٍ فِي بَعْضِهَا... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْتُمْ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، وَإِلَيْكُمْ تَتَّجِعُ الْأَنْظَارُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَإِلَى ظِلَالِكُمْ يَفِيعُونَ قَصْدَ تَطْهِيرِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْأَذْرَانِ.

أَنْتُمْ هُمْ الْأَنْصَارُ، وَبَيْنَكُمْ تَرَعَّرَعَتِ الثُّبُوءُ، وَاشْتَدَّتْ قَوَادِمُهَا، وَرَبَّتْ خَوَافِهَا. فَاسْتَوَى النَّسْرُ وَحَلَّقَ صُعْدَاً فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْبُغَاثِ، وَأَهْوَى الْخُفَاشُ إِلَى الْحَفَائِرِ يَسْتَخْفِي. وَلَقَدْ عَادَ النَّسْرُ الْآنَ إِلَى وَكْرِهِ، وَأَخَذَهُ رُقَادٌ عَمِيقٌ، فَاسْتَنْسَرَ الْبُغَاثُ وَعَدَتِ الْهَوَامُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ نَسْرُ الثُّبُوءِ، فَأَهْبِئُوا بِالنَّسْرِ إِلَى التَّحْلِيقِ لِتَرْتَعِدَ الْهَوَامُّ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَنْسَحِقَ فِي الرُّغَامِ أَبَدًا.

أَلَا فَأَنْتُمْ حَفَظَةُ الْوَحْيِ، وَحَامُو ذِمَارِ الرِّسَالَةِ دُونَ الْعَابِثِينَ. أَلَا لَقَدْ آرَتَدَّ الْمُجْتَمَعُ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ الرَّعْنَاءِ، وَلَكِنْ بِأَثْوَابٍ أُخْرَى تَتَمَاقُجُ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَيْتَ هَذَا فَقَطْ، إِنَّهُ ضَمَّ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ، جَاهِلِيَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَبِيلٍ.

أُنْظُرُوا! أُنْظُرُوا! لَقَدْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ عُدُوًّا لِلْمُلْكِيَّاتِ، فَبِشَا نَتَقَلَّبُ فِي أَرْدَا أَشْكَالِهَا. وَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرُورَةَ الْحَدِّ مِنْ طُغْيَانِ رِجَالِ الْمَالِ، فَصَارَتْ كُلُّ الْقُورَى فِي

أَيديهم. وَأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ، وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ بِالْحَيَاةِ كَيْفَ شَاءَ فِي حُدُودِ الصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِّ، وَفِي حُدُودِ الْأَخْلَاقِ الْمُسْلِكِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّامِلِ، فَإِذَا نَحْنُ نَحْيَا فِي اسْتِعْبَادِ اجْتِمَاعِي مُنْكَرٍ، حَتَّى لَقَدْ تَنَاهَوْا فَانْتَزَعُوا حَقَّ الْحَيَاةِ مِنْ أَيْدِينَا، وَبَاتُوا يُنْعِمُونَ عَلَيْنَا، إِذَا شَاءَتْ شَهَوَاتُهُمْ، بِقَدْرِ حَقِيرٍ بَلِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيَّةِ، وَأَفْضَلُ مِنْهَا الْمَوْتُ خُطَّةً، وَاللَّهُ.

وَضَجَّ الْكِنْدِيُّونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجُمُوعِ وَبَيْنَهَا: يَا لَثَارَاتِ حُجْرٍ! وَأَنْطَلَقَ الْمُتَكَلِّمُ الْكُوفِيُّ يَصِلُ مَا أَنْقَطَعَ مُلْتَاعاً مُهْتَاجاً: لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي ثَارَاتُهُمْ مَضْرَعُ حُجْرٍ بْنِ عَدِيِّ الْكِنْدِيِّ، وَمَنْ يَجْهَلُهُ؟ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ الرِّجَالِ، وَنُقْطَةُ الْفَضْلِ مِنْهُمْ، فَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَأَظْهَرَ أَرْوَاحَ أَنْوَاعِ الْبَطُولَاتِ فِي فَتْحِ الشَّامِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ «أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمَغِيرَةَ بَنَى شُعْبَةَ الْكُوفَةِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ، وَالْعَيْبِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِإِطْرَائِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِذْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ. فَأَقَامَ الْمَغِيرَةَ عَامِلاً مُعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا، لَا يَدْعُ ذَمَّ عَلِيٍّ، وَالْوُقُوعَ فِيهِ، وَالِدُّعَاءَ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ، وَالتَّزْكِيَةَ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ.

فَكَانَ حُجْرٌ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: بَلْ إِيَّاكُمْ قَدَّمَ اللَّهُ وَلَعَنَ... ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذَمَّنَ وَتَعْتَرُونَ لِأَحَقِّ بِالْفَضْلِ... أَلَا لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ سِيَاسَةً تَذُلُّ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لِنَفْسِيَّةِ الْجَمَاهِيرِ، وَعَدَمِ تَغْلُغٍ بَيْنَ حَنَائِيهَا وَفِي خِلَالِهَا، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا التَّنْقِصِ مَا يَكْفِي لِبَعْثِ الدَّفَائِنِ وَإِذْكَاءِ نَارِ الْحَفَائِظِ إِذْكَاءَ جَهَنَّمِيٍّ سَاجِرًا، قَدْ يَأْتِي عَلَى أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَيُطَوِّحُ بِهَا شَرَّ تَطَوَّاحٍ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوِي عَلَى أَحْقَادِ طَامِسَةٍ دَفِينَةٍ وَتَغْدُو فِي آتِيَمَارَاتِ تَرْوِي بِهَا سَخَائِمَهَا. نَعَمْ هِيَ حِمَاقَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَزْمِي بِهَا إِلَى جُمْلَةِ غَايَاتِ:

أ - التَّشْفِي، وتوكيد ما سَبَقَ ونَشَرَهُ مِنْ دَعَايَاتِ ضِدِّ عَلِيٍّ فِي الشَّامِ وَسَائِرِ
مَنَاطِقِ نُفُوذِهِ.

ب - بَثَّ عَقِيدَةَ سَيِّئَةٍ تَنُمُو مَعَ الْأَيَّامِ لَدَى النَّاسِ فِي الْبَطْلِ الْإِسْلَامِيِّ
الْحَالِدِ عَلَيَّ، وَفِي بَنِيهِ، وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الطَّرِيقَ دُونَهُمْ إِذَا رَامُوا مُحَاوَلَةً مِنْ نَوْعِ
الْمُحَاوَلَاتِ الْكُبْرَى، فَقَدْ سَمَّمَ الْجَوَّ عَلَيْهِمْ. وَغَيَّرَ خَفِيَّ أَنَّ الْأَرَاءَ وَالْمُعْتَقَدَاتِ إِنَّمَا
تَنْشَأُ بِالتَّلْقِينِ وَالتَّكْرَارِ وَالْمُعَاوَدَةِ.

ج - تَحْرِيكَ أَنْصَارِ عَلِيٍّ لِلتَّمَرُّدِ وَاسْتِثَارَتِهِمْ لِلشَّعْبِ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ
وَالدَّوْلَةِ، وَبِذَلِكَ يَجِدُ السَّبَبَ لِإِدَانَتِهِمْ وَأَخْذِهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَهَذَا مَا وَقَعَ
لِحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةِ كُبْرَى هُنَا وَهُنَاكَ.

ولكن، رُغْمَ أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى كُلِّ هَذَا، فَقَدْ كَانَتْ سِيَاسَةً هَوَاجَاءَ أَعْمَشَى
فِيهَا غُنْصُرُ الْإِنْتِقَامِ وَغَلَبَ عَلَى قَصْدِ السَّلَامِ الصَّرُورِيِّ إِذْ ذَاكَ، لِإِيجَادِ حَالَةٍ تَوَاضُلٍ
صَحِيحٍ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ.

وَالْمُغِيرَةُ كَانَتْ، إِلَى ذَلِكَ، حَسَنَ التَّأْتِي، فَهَوَ يَفْعَلُ مَا يَأْمُرُ بِهِ مَرْجِعُهُ،
وَيَتَرَكُ لِلنَّاسِ حُرِّيَّتَهُمْ فِي التَّغْلِيْقِ كَيْفَ شَاءُوا. «وَلَمَّا هَلَكَ، سَنَةَ إِحْدَى
وَخَمْسِينَ، جُمِعَتِ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ لِرِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَذَكَرَ عُثْمَانَ
وَأَصْحَابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وَذَكَرَ قَتْلَهُ وَلَعَنَهُمْ، فَقَامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ
بِالْمُغِيرَةِ، وَرَجَعَ زِيَادٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَوَلِيَ الْكُوفَةَ عَمْرُو بْنُ الْحُرَيْثِ، فَبَلَغَهُ - أَيْ
زِيَاداً - أَنَّ حُجْرًا يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ شِيعَةُ عَلِيٍّ، وَيُظْهِرُونَ أَلَهُمْ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ مُعَاوِيَةَ
وَعَمَلِهِ. فَشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ وَخَطَبَ الْجُمُعَةَ، وَأَطَالَ الْخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ
حُجْرٌ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا
خَشِيَ قُوَّةَ الصَّلَاةِ ثَارَ إِلَيْهَا وَثَارَ النَّاسُ مَعَهُ. وَلَمْ يَسْغَ زِيَاداً إِلَّا التَّزُولَ وَالصَّلَاةَ
بِالنَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: أَنَّ شُدَّةَ فِي الْحَدِيدِ ثُمَّ

أَحْمِلْهُ إِلَيَّ... فَأَخَذَ زِيَادٌ حُجْرًا وَحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ
سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أُقِيلُكَ وَلَا أَسْتَقِيلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرِبُوا غُنْقَهُ... فَقَالَ
حُجْرٌ لِلَّذِينَ يَلُونِ أَمْرَهُ:

دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!

قالوا: صَلِّه... فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفَّفَ فِيهِمَا، ثُمَّ قَالَ:

لَوْلَا أَنَّ تَطُنُّوا بِي غَيْرَ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَا أَطْوَلَ يَمًّا كَانْتَا، وَلَئِنْ
لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى مِنَ الصَّلَاةِ خَيْرٌ فَمَا فِي هَاتَيْنِ خَيْرٌ... ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ
أَهْلِهِ:

لَا تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلَا تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا، فَإِنِّي أَلَاقِي بِهَا مُعَاوِيَةَ غَدًا عَلَى
الْجَادَّةِ... ثُمَّ تَتَبَعَ أَصْحَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، فَقَتَلَ عُمَرَ بْنَ الْحَيَّاقِ وَرِفَاعَةَ بْنَ شَدَادٍ
إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَوْنَ.

أَلَا يَا سِبْطَ مُحَمَّدٍ! إِنَّ مَبَادِيءَ مُحَمَّدٍ تُنَادِيكَ، وَقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهيبُ بِكَ،
إِلَى الْعَمَلِ، إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ، فَلَمْ يَغْدُ فِي الْقَوْسِ مَنْرَعٌ، وَلَا فِي الصَّبْرِ مُعْتَصِمٌ،
فَقَدْ تَشَقَّقَ الْحِزَامُ عَلَى الطُّبَّيِّينِ، بَلْ تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسِيلِ الرُّعْبِ.

وَهَبْتُ تُعَوِّلُ أُخْتُ حُجْرٍ بَنِي عَدِيٍّ بِقَوْلِهَا:

تَرْفَعُ أَهْلُهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَعَلَّكَ أَنْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْخَبِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسَّيْدِيرُ
وَأَضْبَحَتِ الْبِلَادُ بِهِ مُحُولًا كَأَنَّ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمَ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرَ حُجْرَ بَنِي عَدِيٍّ تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ

أَخَافُ عَلَيْكَ... مَا أُرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زُرَيْرُ
أَلَا يَا لَيْتَ حُجْرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُنَحَرْ كَمَا نُحَرُّ الْبَعِيرُ
فَإِنْ يَهْلِكَ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٍ إِلَى هُلْكِ مِنَ الدُّنْيَا يَصِيرُ
وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مُفْعَمُ الْحُزْنِ كَالَّذِي فَقَدَ كُلَّ
ذَوِيهِ، أَوْ كُلَّ بَنِيهِ:

يَا حُجْرُ يَا ذَا الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ يَا ذَا الْفَضَائِلِ نَايَةَ الذُّكْرِ
كُنْتُ الْمُدَافِعَ عَنْ ظُلَامَتِنَا عِنْدَ الظُّلُومِ وَمَانِعَ الثُّغْرِ
كَانَتْ حَيَاتُكَ إِذْ حَيَّتْ لَنَا عِزًّا، وَمَوْتُكَ قَاصِمُ الظَّهِيرِ
يَا طُولَ مُكْتَابِي لِقَتْلِهِمْ حُجْرًا، وَطُولَ خَزَاةِ الْبُصْدِرِ
قَدْ كِدْتُ أَضَعُقُ جَارِعًا أَسِفًا وَأَمُوتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَى حُجْرٍ
فَدَمَعْتُ مُقَلَّتَا الْحُسَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْلَا بَيْعَةُ سَبَقَتْ
لَسِرْتُ بِالنَّاسِ، وَتَوُتُ بِالظَّالِمِينَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.
وَبَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَمْ يَتَفَرَّقُوا بَعْدُ، جَاءَ الْبَرِيدُ بِكُتُبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ، فَكَانَ هَذَا أَسْرَعَهُمَا إِلَى فَضْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا زِيَادُ «يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ حُجْرٍ
وَأَصْحَابِهِ، فَأَلْقَى الْكِتَابَ رَاجِفًا مُرْتَعِدًا وَهُوَ يَقُولُ كَذَبَ! كَذَبَ! ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ:
إِنِّي حِينَما كُنْتُ فِي الْبَصْرَةِ كَبَّرَ بِي النَّاسُ تَكْبِيرَةً، ثُمَّ كَبَّرُوا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَدَخَلَ
عَلَيَّ زِيَادُ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي يَسْتَقِيمُ لَكَ النَّاسُ... فَقُلْتُ: مَاذَا؟

فَقَالَ: أُرْسِلْ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نَاسٍ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَأَضْرِبْ رِقَابَهُمْ، فَإِنَّهُ
يَسْتَقِيمُ لَكَ الْأَمْرُ... فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَنَعَ بِحُجْرٍ وَأَصْحَابِهِ مِثْلَ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ».

وكان على المدينة يؤمِّد مزوان بن الحكم، فتزقي الخبر إليه، فكتب إلى معاوية «يُعلمه أن رجالاً من أهل العراق قدِموا على الحسين وهم مُقيمون عنده يَحْتَلِفُونَ إليه... فكتب معاوية إلى الحسين:

أما بعد: فقد انتهت إليّ أمورُ عنك لستَ بها حريّاً، إن كانت حقّاً فقد أظنك تركتها رغبةً فدعها، ولعمري الله إن من أعطى الله عهداً وميثاقه لجديرٍ بالوفاء، وإن أحقّ الناس بالوفاء لمن أعطى يبعثه، من كان مثلك، في خطرك وشرفك ومنزلك التي أنزلك الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً، فإنك أنت أعدل الناس لذلك. فِعْظُ نَفْسِكَ، وبعهد الله أوف، فإنك متى تُنكرني أنكركَ، ومتى تُكذني أكذكَ. فاتقِ شقَّ عصا هذه الأمة، وأن يردّهم الله على يدك في فتنة. فقد عرفت الناس وبلوتهم، فأنظروا لأنفسك ولدينك ولأمة محمد، ولا يستخفك الشفهاء والذين لا يعلمون».

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين، وهو يرى من مهازل الحكم ومآسيه، وقع النار في الهشيم، فما تلبث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقة اتهامية خطيرة للسلطات العليا، وقائمة إحصاء بالأعمال الاغتيالية التي أرتكبتها، وكان، إلى هذا، استجواباً وإنذاراً شعبياً، قال:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، تذكُر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يُسدّد إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه إنما رفاه إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإغذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين... ألسنت القاتل حُجر بن عديّ أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين، الذين كانوا

يُنْكِرُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَفْطِعُونَ الْبِدْعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّا تَمِمْ، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَغَدَوَانًا مِنْ بَعْدِ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْإِيمَانَ الْمُغَلَّظَةَ وَالْمَوَاقِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ، جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافًا بَعْهْدِهِ؟ أَوَلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرُو أَبِي الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَثْبَتَهُ الْعِبَادَةُ، فَتَحَلَ جِسْمُهُ وَأَصْفَرَ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا أُمِنْتَهُ وَأُعْطِيَتْهُ مِنَ الْعَهْدِ مَا لَوْ فَهِمْتَهُ الْعُصْمَ لَنَزَلْتَ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ أَوَلَسْتَ قَدْ سَلَّطْتَ زِيَادًا عَلَى النَّاسِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمُلُ أَعْيُنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟ أَوَلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ أَبِي عَمٍّ الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَسَّمُ الرَّحْلَتَيْنِ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظِرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، وَآتَقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَى فِتْنَةٍ. وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَا يَتِيكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمَ نَظَرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُنِي وَإِنْ أَكَيْدَكَ تَكِيدُنِي، فِكَيْدُنِي مَا بَدَا لَكَ، فَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ. لَأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَهْدِ وَالْمَوَاقِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتَلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، فَقَتَلْتَهُمْ مَخَافَةَ أَمْرٍ، لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتُّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُذْرَكُوا.

فَاتَّبِعُوا يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ، وَاسْتَيْقِنِ الْحِسَابَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَأَخَذِكُمُ بِالْظَنَّةِ، وَقَتْلِكُمُ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى التُّهْمِ، وَتَقْلِيكُمُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دَوْرِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُرْبَةِ. مَا أَرَاكُمْ إِلَّا قَدْ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَبَدَّدَتْ دِينُكُمْ، وَغَشَشْتُمْ رَعِيَّتَكُمْ، وَأَخْرَبْتُمْ أَمَانَتَكُمْ، وَسَمِعْتُمْ مَقَالَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفْتُمْ الْوَرَعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامَ».

كَانَ جَدِيرًا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُحَرِّكَ فِي هَيْئَةِ الْحُكْمِ ضَمَائِرَهُمْ وَيُرَدِّدَهُمْ عَنْ غَوَايَاتِهِمْ، وَيَضَعُ حَذًّا لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَطْشِ وَالِاعْتِسَافِ. فَإِنَّ صِلَةَ الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ صِلَةُ الْعَاطِفَةِ بِالْمُخْلِصَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ صِلَةُ الْمُنْفَعَةِ بِالْمُخْلِصَةِ فَهَنَّاكَ يَوْجَدُ أَفْطَحُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ اللَّصُوصِيَّةِ وَالِاعْتِصَابِ.

نَعْرِفُ أَنَّ إِحْصَاءَ الْأَخْطَاءِ عَلَى الْمُخْطِئِ يَدْفَعُهُ نَفْسِيًّا إِلَى تَصْحِيحِ الْخَطَأِ، إِلَّا إِذَا بُنِيَتْ النَّفْسُ عَلَى الشَّدْوِذِ، كَمَنْ يَتَغَطَّشُ إِلَى الدَّمَاءِ، بِمَا فِيهِ مِنْ وَخْشِيَّةٍ كَامِنَةٍ، فَهَذَا يُجَسِّسُ بِلَذَّةٍ فِي نَهْرِ الدَّمَاءِ وَإِهْرَاقِهَا، وَتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ يَتَرَدَّدُهَا وَتَعْدَادُهَا؛ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَ حُبُّ الذَّاتِ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، فَيَسْتَحِيلُ الْخَطَأُ إِلَى صِفَةِ نَفْسِيَّةٍ ثَابِتَةٍ أَيْضًا، هِيَ قَصْدُ الْخَطَأِ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْأَخْطَاءَ وَيَفْعَلُ الْإِجْرَامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ فِي تَوْفِيرِ شَهَوَاتِ الذَّاتِ وَتَنْمِيَةِ كِبْرِيَائِهَا.

وهذا ما قد حَدَّثَ بِالْفِعْلِ فِي حَاشِيَةِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ رِوَايَةُ التَّارِيخِ أَرْبَعُ تَعْبِيرٍ: لَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ قَالَ:

«لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ ضَبٌّ - أَيْ حَقْدٌ - مَا أَشْعُرُ بِهِ.

فَقَالَ يَزِيدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجِبْنِي بِجَوَابٍ يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، تَذَكَّرْ فِيهِ أَبَاهُ بَشَرٌ فَعَلَهُ... وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:

أَمَا رَأَيْتَ مَا كَتَبَ الْحُسَيْنُ؟

قال: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ، فقال: وما يَمْنَعُكَ أَنْ تُجِيبَهُ بِمَا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ
نَفْسَهُ؟ قَالَ يَزِيدُ:

أَرَأَيْتَ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رَأْيِي؟ فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ، وقال:

أَمَّا يَزِيدُ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِكَ.

قَالَ مُحَمَّدٌ: قَدْ أَصَابَ يَزِيدُ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: أَخْطَأْتُمَا. أَرَأَيْتُمَا لَوْ أَنِّي ذَهَبْتُ لِعَيْبِ عَلِيٍّ، فَمَا عَسَيْتُ أَنْ
أَقُولَ فِيهِ، وَمَتَى مَا عَيْبْتُ رَجُلًا بِمَا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لَمْ يَخْفُلْ بِهِ، وَلَا يَرَاهُ النَّاسُ شَيْئًا
وَكَذَّبُوهُ، وَمَا عَسَيْتُ أَنْ أَعْيِبَ حُسَيْنًا، وَاللَّهِ مَا أَرَى لِلْعَيْبِ فِيهِ مَوْضِعًا؛ قَدْ رَأَيْتُ
أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ أَتَوَعَّدُهُ وَأَتَهَدَّدُهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلَ.

بَعْدَ هَذَا لَمْ يَسْعَ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يُشْرِفَ كَثِيرًا مِنْ دُنْيَا الْهَيْكَلِ، الَّتِي يَتَحَنَّنُهَا
وَيُعْيَاهَا، إِلَى دُنْيَا النَّاسِ الَّتِي تَعُجُّ بِمَجْمُوعَةِ الْأَحْيَاءِ، وَتَخْتَلِطُ وَتَمُورُ بِالْبَغْيِ، يُصْلِحُ
مِنْهَا مَا وَسِعَتْ إِضْلَاحُهُ وَيَحُدُّ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُغْيَانِ السُّلْطَاتِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ
وَالْأَفْرَادِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ السُّلْطَةَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَانَتْ قَدْ اتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْهَاجَ عَمَلٍ
شَاذٍّ، فَهِيَ تَسْعَى لِلحَيَازَةِ مَا وَسِعَتْهَا، دُونَ التَّقْيِيدِ بِقَانُونٍ أَوْ نِظَامٍ، فَضَاعَتْ حُقُوقُ
الضُّعْفَاءِ ضِيَاعًا تَامًا، وَأَضْطُرُّ الْأَفْرَادُ إِلَى اسْتِعْمَالِ وَسَائِلِ قُوَّتِهِمْ لِلِاخْتِفَافِ
بِحُقُوقِهِمْ، أَوْ دَفْعِ عَادِيَةِ الضُّعِيمِ عَنْهُمْ، حَتَّى أَضْطُرُّوا أَخِيرًا إِلَى إِحْيَاءِ الْوَسَائِلِ
الشَّائِعَةِ وَاعْتِمَادِهَا قَبْلَ نُشُوءِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ مَا يُسَمَّوْنَ «جُلَفَ
الْفُضُولِ»، وَهُوَ يُعَبَّرُ عَنْ تَكْثُلِ أَفْرَادٍ، أَوْ جَمَاعَاتٍ، عَلَى وَجْهَةٍ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ
وَحِمَايَةِ الضُّعِيفِ. وَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ ضَرُورِيَّةً فِي غَيْرِ وَسْطِ الْحُكُومَةِ
النَّظَامِيَّةِ بِالطَّبَعِ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي وَسْطِهَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْحُكُومَةَ نَفْسَهَا بَاتَتْ

خَطَرًا عَلَى الْأَمْنِ وَالْحُقُوقِ.

«كَانَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ، وَهَذَا يَوْمَئِذٍ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ، مُنَازَعَةٌ فِي مَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا، فَتَحَامَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ فِي حَقِّهِ لِسُلْطَانِهِ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ: أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَتُنْصِفَنِّي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَا أَخْذَنْ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ لَأَدْعُوَنَّ بِحِلْفِ الْفُضُولِ!

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ عِنْدَ الْوَلِيدِ: وَأَنَا أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَعِنَ دَعَا بِهِ لَأَخْذَنْ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ تَمُوتَ جَمِيعًا... وَبَلَغَتْ الْمِسْوَرَةُ بْنُ مَخْرَمَةَ الزُّهْرِيَّ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ التَّيْمِيَّ فَقَالَ: «... وَيُظْهَرُ أَنَّ الْخِلَافَ رُفِعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَاسْتَضَرَّخَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَكَانَ مِنْ مُعَاوِيَةَ تَدْخُلُ، وَكَانَ مِنْهُ مِثْلٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْوَلِيدِ.

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ لِمُعَاوِيَةَ: إِخْتَرِ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ، إِمَّا أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي حَقِّي، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أَوْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ آبَنَ عُمَرَ أَوْ آبَنَ الزُّبَيْرِ، وَإِلَّا فَالرَّابِعَةُ وَهِيَ الصَّيْلَمُ^(١).

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَمَا هِيَ؟

(١) الصَّيْلَمُ فِي أَصْلِهِ مَعْنَاهُ السَّيْفُ، ثُمَّ جَرَى كِنَايَةً عَنِ الْإِخْذِ بِالشُّدَّةِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْعُنْفِ. وَحِلْفُ الْفُضُولِ هَذَا، كَانَ وَسِيلَةً أَنْتِصَافٍ مِنْ غَاشِمٍ أَوْ ظَالِمٍ، وَهُوَ مُزَوَّرٌ مِنْ مَتَابِعَاتٍ مَا قُتِلَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَمَرَّ فِيهِ... يُشَاكِلُ مَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالْإِضْرَابِ الْعَامِّ بِمَعْنَاهُ الْإِجْبَائِيَّ أَيْ الْمَضْحُوبِ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَلَيْسَ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيِّ فَقَطْ أَيْ الْإِفْتِنَاعِ عَنِ الْعَمَلِ.

وَالْمَعْنَى الْإِجْبَائِيَّ الْمُبَاحُ لَا يَتَلَعُّ دَرَجَةَ الْعُضْيَانِ الثَّمَرُودِيِّ التَّخْرِيبيِّ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَمِّيَهُ: الْقَبْقَبَةُ، وَهِيَ فِي الْغَرِيْبَةِ الْأَصْبَلَةُ: الْقَعْقَعَةُ بِالسُّنَانِ أَوْ الْأَشْنَانِ... وَأَخْيَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ لِيَكُونَ مُقَابِلًا لِكَلِمَةِ Sabotage الَّتِي هِيَ مِنْ كَلِمَةِ Sabot الْقَبْقَابِ. وَكَانَ الْعَمَالُ فِي مَطْلَعِ مَدِينَتِنَا الصَّنَاعِيَّةِ يَتَعَمَّلُونَ الْقَبَابِيبَ الْحَشْيِيَّةَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ الْعَمَلِ وَمُبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا تَقَمَّوْا لِأَمْرِ مَا لَجَّوْا إِلَى الْأَسْتِثْنَائِيَّاتِ وَالضَّرْبِ بِالْقَبَابِيبِ عَلَى الْأَلَاتِ إِلَى حَدِّ الْإِثْلَافِ أَعْيَانًا.

قال: أَهْتَفُ بِحِلْفِ الْفُضُولِ... ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مُغَضَّباً، فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَئِنْ هَتَفْتُ بِهِ وَأَنَا مُضْطَّجِعٌ لَأَقْعُدَنَّ، أَوْ قَاعِدٌ لَأَقُومَنَّ، أَوْ قَائِمٌ لَأَمْشِيَنَّ، أَوْ مَاشٍ لَأَسْعِيَنَّ، ثُمَّ لَتَنُقْذَنَّ رُوحِي مَعَ رُوحِكَ أَوْ لَيُنْصِفَنَّكَ! فَبَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِالصَّيْلَمِ... ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ أَبْعَثَ فَاَنْتَقِدْ مَا لَكَ، فَقَدْ آتَبْتَنَاهُ مِنْكَ».

إِنَّ حِلْفَ الْفُضُولِ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ ثَوْرَةِ اسْتِنْكَارٍ مُنَظَّمَةٍ غَيْرِ هَائِجَةٍ وَلَا مُتَخَبِّطَةٍ، دَائِمَةِ الْحَيَاةِ دَائِمَةِ التَّزْوِيعِ، يُطْلَقُهَا الشَّعْبُ بِمِقْدَارٍ وَيَضُمُّهَا بِمِقْدَارٍ، يَجْمَعُهَا الصَّالِحُ الْاجْتِمَاعِيُّ كَمَا يَنْشُرُهَا هُوَ أَيْضاً، فِي تَقْدِيرٍ مُوزُونٍ.

*

فِي جِسْمِ الْبَاطِلِ حَاوَلَ الْحَقُّ أَنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَرْتَكِزُ فِيهَا...
وَمَا هُوَ حَتَّى أَمْتَدَّ وَتَفَرَّغَ، وَأَخَذَ عَلَى الْبَاطِلِ سَبِيلَ امْتِدَادِهِ...
فَذَهَبَ فِي ضُمُورٍ شَيْئاً وَرَاءَ شَيْءٍ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحَيَاةُ فَلَفَظَتْهُ...
وَإِذَا بِهِ يَبْحَثُ عَنْ وُجُودِهِ فِي عَرَاءِ الْعَدَمِ، وَهُوَ خِضَمُّ سَرَابٍ لَا يَمُدُّ
بِالْوُجُودِ...

*

فِي الْمُحِيطِ الْمِلْحِ يُنْبِثُ نَبْعٌ عَذْبٌ يَكُونُ بَيْئَةً لِلْأَلَى...
فَأُغْرِيَ الْمُحِيطُ بِلَالِيهِ فَرَاخٌ يَغْتَصِرُ طَبِيعَتَهُ فِي مِثْلِهَا...
وَلَكِنَّهُ تَمَحَّضَ طَوِيلاً، وَأَنْكَشَفَ عَنْ حَصَى تَارَةٍ، وَتَارَةً عَنْ دُنْيَا مِنَ الْمِلْحِ
الْمَرِيرِ...

*

في لَوْحِ حَالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةٌ نور...
فَنَشَرَتْ أَشِعَّتَهَا، وَكَانَ السَّوَادُ أَكْثَرَ إِظْهَاراً لَطَبِيعَتِهَا، وَإِبْدَاءً لِمَا آجَتَمَعَ فِي
وُجُودِهَا مِنْ سَنَى وَسَنَاء...
وراح السَّوَادُ، كُلَّمَا تَغَيَّظَ وَبَالَغَ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ، يُضِيفُ إِلَى كَوَكِبَةِ الثَّوْرِ
جِدَّةَ إِشْرَاق...
*

وَكَانَ كُلُّمَا ذَهَبَ يَقُولُ: «أَنَا» يَشْرُقُ بِحَسَكِ الشُّعَاعِ وَأَشْوَالِكِ الضِّيَاءِ،
فَتُحْتَضَرُ كَلِمَتُهُ دُونَ لِسَانِهِ...
فَلَمْ يَقَعْ فِي سَمْعِ الْحَيَاةِ إِلَّا كَلِمَةً قَالَتْهَا كَوَكِبَةُ الثَّوْرِ، وَمَشَتْ بِهَا الْحَيَاةُ فِي
التَّارِيخِ، وَرَجَعَتْهَا أَبَدِيَّةُ الضَّمِيرِ...
* * *

مع أُرَيْنب

هناك على شاطئ دجلة، في زاوية خليج البصرة، كانت الأُبلة^(١) مهوى
مُتَمَاجِنِينَ ومُتَمَاجِنَاتٍ، ومَهْبِطٌ وَحْيِي الهوى والشباب، وملهى كُلِّ فَتَى وَفَتَاةٍ بَلَوَرِ
المرح طبعتهما، ثُمَّ أَطْلَّ يُنْظَرُ إِلَى صَوْرَتِهِ فِيهَا. وليس في جس هؤلاء عَنِ الحَيَاةِ
سِوَى أَنَّهَا شَيْءٌ يَحْلُو وَيَلْهُو، كأنداء السحر في شفاهِ الأَقَاحِ والياسمين،
وَكُلُّوْلُواتِ الطَّلِّ في حُدُودِ الزُّرُودِ والرياحين... فَهُمْ يُفَنُونَهَا سَكْرَى مَرِحٍ وَنَشَاوَى
مُجَوِّنٍ... وَلَا يَطِيفُ بِسَمْعِهِمْ سِوَى نَعَمَاتٍ تَتَنَاهَى مُتَلَاشِيَةً فِي هَذَا الْقَرَارِ:

يا للشبابِ المَرَحِ، التَّصَابِي... زَوَائِحُ الجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ

ففي أَعْمَاقِهِمْ صَوْتُ يُهَيِّبُ بِهِمْ إِلَى التَّعْجِيبِ فِي فَضَاءِ المَرَاكِ، وَالْفَنَاءِ فِي لَا
وَعْيِي الظُّرْفِ الغَزَلِ... وَهَلِ الحَيَاةُ، مِنْ وَاجِهَةِ الشَّبَابِ، سِوَى إِغْرَاءَةٍ تَقُومُ فِي اللُّهُوِ
العَابِثِ إِلَى أُخْرَى تَسْتَوِي فِي المَجَانَةِ اللَّاعِبَةِ؟! ثُمَّ هَلِ الدُّنْيَا سِوَى إِغْرَاءِ مُتَجَلِّبٍ
بِإِغْرَاءٍ، يُبَالِغُ فِي أَشْرِهِ حَتَّى لَيْسْتَذَنِي إِلَيْهِ مَنْ آخِطُصِرَ الشَّبَابُ فِي قُلُوبِهِمْ بِالْعُمْرِ أَوْ
بِالْفِكْرِ، فَيَسْتَهْوِيهِمْ، وَرُبَّمَا آسْتَهْوَاهُمْ أَيْضاً بِمَا يَتَنَفَّسُ بِهِ مِنْ خَلْبٍ:

إِنَّ بِالْحَيَاةِ قَسّاً قَدْ مَجَّنَ فَتَنَ الرُّهْبَانَ فِيهَا وَأَفْتَنَنَ

(١) نَهْرُ الأُبلة كَانَ مُنْتَرِهاً مَقْدُوداً فِي جَنَاتِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ.

تَرَكَ الإِنْجِيلَ حِيناً لِلصَّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجَوَّناً... فَوَكَّنَ

هَذِهِ قِصَّةُ شَابٍّ آخِضٍ الشَّبَابَ بَيْنَ بُرُودِيهِ بِفِكْرَةِ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ كُوءِ الْمَعْبِدِ الْمُتَكَلِّلِ بِالصَّمْتِ الْوَقُورِ، فَرَأَى مَا تَجِيْشُ بِهِ مِنْ إِغْرَاءٍ، وَمَا يَتَمَوَّجُ فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، فَأَخَذَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَاسْتَوَتْ طُيُوفُهَا فِي نَاطِرِيهِ، فَاسْتَيْقَظَ شَبَابُهُ الْغَافِي، وَمَشَتْ رُوحُ الشَّبَابِ تَتَرَاقِصُ فِي قَلْبِهِ سَكْرَى.

مَضَى فِي ظَنِّهِ سَاحِراً... يُجَرِّبُ هَذَا الْمَجُونُ حِيناً فَقَطْ، وَيَزْوِي ظِلْمَةَ الصَّبَا الْمَكْبُوحِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَحْمِلُ كِتَابَ تَقْوَاهُ... يَبْدَأُ أَنَّهُ رَأَى الدُّنْيَا لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا عَنْ مُجَوَّنٍ. وَكُلَّمَا نَضَتْ ثَوْباً مَسَّتْهُ لَمَسَةُ فُتُونٍ، وَدَبَّ فِي حَنَائِيهِ مِنْ شَوَاطِئِ الشَّبَابِ طَائِفٌ مُجَنُّونَ، فَكَانَ طَبِيعِيّاً أَنْ رَكَنَ... وَإِذَا فِكْرَةُ التَّقْوَى لَدَيْهِ تَنْقَلِبُ هِيَ التَّجَرِبَةُ، وَيَسْتَنِيهِمْ مُسْتَوْحِياً عَلَى مَتْنٍ مُوْجِعَةٍ مُزْبَدَةٍ، مِنْ مَجَانَةِ هَذَا الْوُجُودِ الْمَسْحُورِ. بِهَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلَالُ^(٢) فِي جَمْعٍ مِنْ ظُرَفَاءِ الْحِجَازِ جَمَعَهُمُ التَّصَادُفُ فِي الْأُبْلَةِ، بَيْنَهُمْ أَشْعَبُ، فَقَالَ لَهُ هَذَا:

مِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أَبَداً إِلَّا جَمْعُ الرِّجَالِ إِلَى النِّسَاءِ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا بِصَحْبِ الْمَجُونِ وَعَزِيدَاتِ الْجُفُونِ. إِنْ كَانَ هَذَا رَأَيْكَ فَعَسَى أَنْ تَضَعِ الْأَقْدَارُ فِي طَرِيقِكَ صَاحِبَنَا الْأَعْرَابِيَّ الشَّوْهَةَ، فَتَمْتَعَ حَوْبَاءَ قَلْبِكَ بِالْمَجَانَةِ إِلَيْهِ، أَشْحَنَ اللَّهُ عَيْنَكَ، إِنْ الْمَجُونُ لَا يَمْلُحُ إِلَّا مَعَ جَمَالٍ أَوْ ظَرْفٍ... فَقَهْقَهَ الدَّلَالُ، وَأَنْقَلَبَ الصَّخْبُ يُسَائِلُونَ أَشْعَبَ عَنْ خَبْرِهِ فَحَدَّثَهُمْ:

دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ قُبْحًا، مُخْتَلِفُ الْخِلْقَةِ مُشَوَّهًا، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّفًا، وَزَادَ بِي التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي. أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَسْلَحَ عَلَيْهِ... فَأَبْتَسَمَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ يَعْرِفُنِي بِالْمِزَاجِ

(٢) الدَّلَالُ كَسَحَابِ شَخْصِيَّةٍ قَدِيمَةٍ غَرِلَةٍ، وَكَانَ يَتَعَاطَى سَمْسَرَةَ الزَّوْجِ، وَلَهُ أَشْبَهُ مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ بِمَكْتَبِ الزَّوْجِ. رَاجِعْ أَخْبَارَهُ فِي: الْأَعْرَابِيِّ لِلْأَصْفَهَانِيِّ، وَمَحَامِيحِ كُتُبِ الْأَدَبِ كُلِّهَا..

فَيَحْتَمِلُهَا مِنِّي.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ مُتَهَكِّمًا: إِنَّ شَيْئًا... وَمَعَهُ قَوْسٌ وَكِنَانَةٌ، فَقَوَّقَ نَحْوِي سَهْمًا، وَوَاصَلَ: وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكُونَنَّ آخِرَ سَلْحَةٍ سَلَحَتْهَا... وَأَنْقَدَحَتْ عَيْنَاهُ، وَلَمَسْتُ مِنْهُ الْجِدَّ فِي الشَّرِّ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ. أَخَذَنِي الْقَوْلُنْجُ وَعُشْرُ الْخُرُوجِ! وَطَفِقَ الصَّعْبُ يَضْحَكُونَ فِي رَنِينَ مُتَجَاوِبٍ طَوِيلٍ.

كَانَ يَوْمًا مُفْعَمًا بِسَيْلٍ مِنْ غَرَانِيْقِ الْفَتَيَانِ وَغَوَانِيِ الْفَتَيَاتِ، هَذَا الثَّيْرُوزُ... حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ آتَّخَذَتْ فِيهِ مَعْرِضَهَا، فَأُطْلَعْتُ أَقْصَى مَا فِي إِبْدَاعِهَا الْفَنِّيِّ مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ النَّاطِقَةِ بِالْهَوَى، وَالذَّاعِيَةِ بِأَلْقَى الْإِعْرَاءِ إِلَى الْحُبِّ، وَالْمُشِيرَةِ بِأَسْرِ السُّخْرِ فِي الْعُيُونِ وَالشُّفَاهِ إِلَى فِرْدَوْسِ الْخُلْدِ السَّعِيدِ، وَلَا عَجَبَ، فَتَهَرَّ الْأُبْلَةُ مَعْدُودٌ أَحَدَ مَسَارِحِ الْجِنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ.

وَكَانَ يَزِيدُ - الشَّابُّ الطَّرِيرُ الَّذِي بَالَعَ فِيهِ نَزَقُ الشَّبَابِ، وَذَابَ فِي لُعَابِهِ - قَدْ ذَهَبَ مَوْغَلًا فِي الصَّحْرَاءِ مُنْذُ حِينَ يَصِيدُ الطُّبَاءَ، وَيَتَّبِعُ آثَارَ السَّوَانِحِ مِنَ الْجَاذِرِ وَالْأَرَامِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَائِلِ، كَيْفَمَا ذَهَبَتْ وَأَنْعَرَجَتْ. وَلَذَّتْهُ الْمَطَارِدَةُ وَأَخَذَتْهُ نَشْوَتُهَا، فَمَضَى يَلْهُو وَلَا يَأْلُو، وَزُمْرَةٌ لَهْوِهِ تَتَّبَعُهُ، إِنَّهُ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ فِي مَدَاهِ.

لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ جُمُوعِ اللَّاهِمِينَ فِي نَهْرِ الْأُبْلَةِ، فَالْتَفَتَ يَضْحَكُ إِلَى رِفَاقِهِ مُتَعَجِّبًا: لَقَدْ قَطَعْنَا صَحْرَاءَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَنَحْنُ لَمْ نُذْرِكْ... وَمَالَ يُرْبُتُ عَلَى كَيْفِ تَزُوبٍ مِنْ أَتْرَابِهِ ضَاحِكًا مُنْتَشِيًا، وَيَتَأَبَّطُ ذِرَاعَ هَذَا، وَيَدْفَعُ ذَاكَ لِأُخْرَى عَابَثًا. إِنَّهُ يُحِسُّ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

رَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْجُمُوعِ وَفِي إِثْرِهِ سُرُجُونَ رَاعِي طُفُولَتَيْهِ وَصِبَاهُ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ فَجْأَةً عِنْدَ سُرَادِقِ مُنِيفٍ، عَرَفَ أَنَّهُ سُرَادِقُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْقُرَشِيِّ. فَقَدْ أَخَذَتْهُ بَغْتَةً وَجْهِ غَانِيَةٍ نَصَفٍ، كَبَعْتُهُ بِذَرٍّ أَنْشَقَ عَنْهُ الْعَمَامُ، وَأَسْتَعْرَى دُونَهُ لَيْلٌ

بِهِمْ حَالِكٌ، فَرَجَّ نَفْسُهُ رَجًّا غَنِيًّا، وَتَلَبَّسَهُ دُورُ الْجَمَالِ الَّذِي مَالَ يَتَلَاشَى بَطِيئاً
لِيَتَكَيِّفَ عَنْ غَفْوَةٍ فِي حُبِّ الْقَلْبِ، وَتَلَهَّفَ الْعَقْلُ السَّلِيبَ، تَمُدُّهُ يَقْظَةٌ فِي الْعَرَائِزِ
الْمُفْعَمَةِ.

كَانَ فِي خَيَالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبْقِي الزَّهْرِ، وَعَيْنَانِ تَبْثَنَانِ مِثْلَ السَّحْرِ،
وَشَفَتَانِ تَنْطَلِقَانِ بِمِثْلِ ذَوْبِ الْغَرَامِ. وَزَادَهُ بِهَا أَنَّ قَلْبَهَا لَا يَتَجَاوَبُ بِصَدَى عَوَاطِفِهِ،
فَتَدُورُ عَاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وَتَتَكَيَّرُ مُتَلَاشِيَةً فَلَا تُتِمُّ دَوْرَتَهَا، بَلْ تَمْحِي رُسُومَهَا فِي
أَنْفِهِامِ كَالِجِ، وَغَمُوضِ يَائِسٍ مُتَجَهِّمٍ وَتَغَوُّرٍ فِيهِ صَجِيجُ الْإْتِحَارِ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ فِيهَا جَاذِبِيَّةُ الْأُنُوثَةِ نُضْجاً وَرُوءاً إِذَا أَضَحَّتْ زَوْجَةً، فَقَدْ
أَنَحَسَرَتْ أَكْمَامُ طَبِيعَتِهَا الْمُغْلَقَةِ تَنْشُرُ أَرْبَجَهَا كَالزَّهْرَةِ مَيَّاسَةً نَاعِمَةً فِي الْهَوَاءِ.
إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحِسُّ بِشَيْءٍ مُبْهَمٍ، وَهُوَ جَوْهَرَةُ الْأُنُوثَةِ فِي أَقْصَى كِيَانِهَا، فَهِيَ تَزْعَاهُ بِسِيَاجِ
الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ كَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ. فَإِذَا آسَتْحَالَتْ زَوْجَةً فَقَدْ آسَتْحَالَتْ الْآنَ فَقَطُّ أُنْثَى
كَامِلَةً الْمَعْنَى. لَقَدْ أَضَحَّتْ لُؤْلُؤَةُ الْأُنُوثَةِ الْحَيَّةِ فِي حِقَاقِهَا، وَالْمُنْطَوِيَّةِ عَلَيْهَا
صَدَفْتُهَا، وَهِيَ جَلِيَّةٌ مَنْشُورَةٌ.

فِيمَا بَعْدُ عَرَفَ يَزِيدُ عَنْ عُرُوسِ أَحْلَامِهِ هَذِهِ أَنَّهَا أُرْنِيبُ آئِنَةُ إِسْحَقِ الْأَمِيرِ،
وَسَيِّدَةُ السَّرَادِقِ. فَعَرَضَتْ فِي خَاطِرِهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ هَاذِيَّةٌ، فَرَاخَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:
كَيْفَ لِي بِهَا؟ بَيْنِي وَبَيْنَهَا هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ، وَمَسَافَةٌ تَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَنَائِيًّا
وَبُعْدًا...

وَتَلَبَّثَ زَمَنًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ، يَرُودُ مَعْنَاهَا وَيُرَاوِدُ قَلْبَهَا، وَلَكِنَّهَا عَرِيضَةُ
الْأَعْرَاقِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّابَّ النَّضِيرَ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِينِهَا مَا شَاءَ الْهَوَى الْعَبِيقُ، وَمَا
شَاءَتْ سَعَادَةُ الْأَزْوَاجِ الْخُلَطَاءِ.

بَاتَ كَاسِفًا أَرْقًا يُرَدِّدُ وَلَا يَفْتَأُ:

وفي الحَيِّ نَعْمَ قُوَّةُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى وَأَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ نَعْمٍ
وَتَخَوَّفَ مُرَبِّهِ سَرَجُونُ، فَزَيَّنَ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ لَعَلَّهُ يَسْلُو، فَأَجَابَهُ وَعَادَ
بَصَحْبِهِ يُرِيدُونَ دِمَشْقَ. وَبَيْنَمَا هُوَ آخِذٌ بِمَحَاجِزِ الصَّحَرَاءِ وَمَفَاوِزِهَا، حَانَتْ مِنْ يَدِهِ
لَمَسَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَوْسِيهِ، الَّذِي فَضَلَ فِي غُدُوهِ يَصِيدُ بِهِ الظُّبَاءَ، فَتَذَكَّرَ رِيْمَهُ الَّذِي
صَادَهُ... فَشَدَّ الْقَوْسَ إِلَيْهِ وَاعْتَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي ثَوْرَةِ قَلْبٍ:

حَطَّمِ الْقَوْسَ عَلَى صَحْرَائِهِ وَأَتَكَى يَشْقِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّكَاةِ
أَيْهِذَا الْقَوْسُ أَنْتَ مَثَلُ مِثْلُ قَلْبِي، حَطَّمْتُهُ الْعَاصِفَاتِ
وَسَأُخِيكَ بِمِثْلِ الدُّمُوعِ إِنَّمَا دَمَعُ الْحَبِيبِ حَيَاةُ

لَمْ يَزِدْهُ بُعَادُهُ فِي دِمَشْقَ إِلَّا كَمَدًا وَأَسَى، وَلَمْ يُورِثْهُ الْهَجْرَانُ إِلَّا لَهْفَةً
وَجَوَى. شَأْنُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَعْرَائِرَهُمْ، فَعَوَاطِفُهُمْ أَبَدًا تَكُونُ عَنِيْفَةً مُهْتَاجَةً عَلَى
الذِّكْرِ، لِأَنِّهَا وَحْيِي الْأَعْصَابِ... بَيْنَمَا الْعَوَاطِفُ إِذَا كَانَتْ مِنْ وَحْيِ الْقَلْبِ أَوْ
حَاسَّةِ الْفَنِّ، فَإِنَّهَا تَذْكُو وَتَسْمُو بِالتَّلَهُّفِ الْعَاطِفِيِّ، فَالْحُبُّ الَّذِي يَكُونُ عَامِلَهُ الْقَلْبُ
أَوْ حَاسَّةُ الْفَنِّ، يَذْهَبُ فِي آسْتِحَالَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ: غُذْرِيًّا، فِيمَا لَيْتَا؛ بَيْنَمَا حُبُّ
الْأَعْصَابِ يَشْتَهِي أَعْصَابًا وَجَسَدًا فَقَطْ، يَهْبِجُ بِالْفَرَاغِ، وَيَهْمَدُ بِالْأَمْتِلَاءِ؛ أَمْتِلَاءِ
الْيَدِ مِنْهُ.

فَتَنَاهَى «أَمْرُ يَزِيدَ إِلَى ضُمُورٍ» وَسَلَوَى الْمُتَعِ وَالْإِنْكَمَاشِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَيِّ
مَكَانٍ آسْتَمَلَ عَلَيْهِ... فَهَذَا الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ الْقَصْرَ لَهْوًا وَمَرَحًا، وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ عَزْبَةً
سَكْرَى، وَيَزِينُ مَعَانِي الْأَنْسِ بِشَاشَةٍ وَحُبُورًا... وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا أَنْ
يَقْطِفَ مِنْ رِيَاضِ الْعَوَانِي الْكَوَاعِبِ بَاقَاتِ زَنَايِقِ وَوُرُودِ، وَيَهْتَصِرَ مِنْهُنَّ غُصُونًا
لَذَنَةً، وَيَعْتَصِرَ عَلَيَّهِنَّ زُمَانًا شَهِيًّا... غَدَا ذَاهِلًا ذُهُولَ الْمُقْبِلِ عَلَى الْمَوْتِ، ضَاوِيًّا
كَأَنَّهُ نِضْرُ فَلَاقَةٍ أَوْ مَنْزُوفُ دِمَاءٍ، حَبِيسَ هَوَى وَمُبْتَلَسَ خَيَالٍ، غَيْرَ شَهِيٍّ إِلَى شَيْءٍ

مِنْ مَلاهِهِ الَّتِي كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا صَبْرًا، وَلَهَا مُجَانِبَةٌ، وَفِي أَنْتَهَا جِهَا
أَخْتِشَامًا... حَتَّى أَضْطُرَّ مُعَاوِيَةً أَنْ يَزْجُرَهُ فِي رَفْقِي، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِ تَهْتُّكُهُ فِي تَحْيِيلٍ،
فَقَالَ:

«يَا بُنَيَّ: مَا أَقْدَرَكَ عَلَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى حَاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهْتُّكِ يَذْهَبُ
بُروءَتِكَ وَقَدْرِكَ، وَأَنْشَدَهُ:

إِنْصَبْ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْغُلَا وَأَصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَتَى بِالْذُّجَى وَاسْتَحَلَّتْ بِالْغَمَضِ عَيْنُ الرَّقِيبِ
فَبَاشِرِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ فَايَسِقِي تَحْسَبُهُ نَاسِكًا قَدْ بَاشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبِ»
أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ مُذْنَفٌ كَلِيفٌ مَضْرُوفُ الْهَوَى، لَا يُرَى إِلَّا مُنْتَحِيًا إِلَى نَفْسِهِ،
فِي ظِلِّ شُجَيْرَاتٍ كَانَ يَتَشَهَّى فَيَقَعُ سَاعَةً غَزَلٍ أَوْ طَرْبِ.

وَكَانَ سَرُجُونُ مُرَبِّيهِ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَلْزَمُهُ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَلْمَحَهُ. فَانْتَهَى
إِلَى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوَى يَزِيدَ لِنَفْسِهِ:

أَوَاهُ، أَرَيْنَبُ! يَا مَنْ لَا تَشْغُرِينَ بِوُجُودِي وَآلَامِي وَخَلَجَاتِ قَلْبِي، وَأَرَاكِ مِلْءَ
الدُّنْيَا لَذَاذَةً وَمُتَعَةً وَنَعِيمًا، أَوْ لَيْتَكَ تَشْغُرِينَ! إِذَا لَكُنْتُ سَعِيدًا.

أَو! هَلْ تَصُدِّقُ أَخْلَامِي فَأَرَاكِ عِنْدَ يَدَيَّ، تَنْحَنِينَ عَلَيَّ فَتُضَمِّدِينَ جِرَاحَ
فُؤَادِي، وَتَمْلَأِينَ وُجُودِي إِشْرَاقًا بِأَلْقَى وَجْهِكَ الْعَبْقَرِيِّ الْحُسْنِ. حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَلَكِنْ
دُونَهُ مَفَاوِزَ الْجَحِيمِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْأَشْوَاكِ وَالْأَهْوَالِ أَيْضًا. ثُمَّ أَطْرَقَ وَتَنَاهَى بِهِ الْإِطْرَاقُ،
وَلَيْتَ طَوِيلًا كَأَنَّمَا آتَبَلَعَهُ ضَبَابُ الْمَسَاءِ فِي لَيْلَةٍ رَمَى بِهَا الشِّتَاءُ فِي الْعَاصِيفَةِ. عَلَى
أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ أَخِيرًا، وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي بَرَقٍ مُخِيفٍ، يَقُولُ:

لا ! لا ! إني لَنَ أَنْتَظِرَ هِبَةَ الْأَقْدَارِ حَتَّى تَضَعَهَا فِي طَرِيقِي وَرَدَّةَ مُصَوِّحَةٍ نَاضِبَةٍ، إِنَّ الضَّعِيفَ فِي شَرْعِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ حَمَلٌ مَنُهَوَّبٌ، وَالْقَوِيُّ هُوَ آئِنُ الطَّبِيعَةِ الْبَكْرُ، وَقَدْ وَهَبَتْهُ، سَائِعاً زُلَالاً، كُلُّ مَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَلْفَهُ قُوَّتُهُ، أَوْ يَمُرُّ فِي جَوْهَا. هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْغَدَّةُ الَّتِي نَرَاهَا بَيْنَ الْأَحْيَاءِ وَأَعْلَاهَا، مِنْ بَدْيِ النَّبَاتِ إِلَى رَفِيعِ التَّكْوُنِ؛ الْإِنْسَانُ.

وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ شَرَعُوا الشَّرَائِعَ وَالنُّظُمَ، وَحَدَّدُوا مَسِيرَ الْحَيِّ فِيمَا سَمَّوُهُ أَخْلَاقاً، فَإِنَّهُمْ مُجْتَنَاءُ ضُعْفَاءُ وَأَنَانِيُونَ أَيْضاً، قَعَدَتْ بِهِمْ قُوَّتُهُمْ عَنْ أَنْ يُدْرِكُوا أَيَّ نَصِيبٍ مِنْ مُتَمَعِ الْحَيَاةِ وَلَذَائِهَا، أَوْ أَذْرَكُوا نَصِيباً خَفِيراً فَابْتَكَرُوا قَانُونَ الْأَخْلَاقِ وَالْقَانُونَ، وَحَدَّدُوا سَعْيَ الْأَحْيَاءِ وَفَقَّهَا وَعَلَى طَبَقِهَا، فَأَوَجَّدُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَوْفَرَ فُرْصِ الْحَيَاةِ الْمَتَاعَةِ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ أَذْنَأُ مِنْ أَنْ أُحْتَرِمَهُمْ، إِنَّهُمْ ضُعْفَاءُ مُمَوَّهُونَ، خَلَبُوا النَّاسَ بِأَسَاطِيرِهِمْ، فَيَا وَئِخَ الْجَاهِلِينَ.

إِنَّهُمْ شَاؤُوا الْعَيْشَ عَلَى حِسَابِنَا نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ، وَحِيَاةَ التَّصِيبِ الْأَوْفَرَ أَيْضاً، أَلَا كَيْفَ يُفَكِّرُ النَّاسُ الْحَقْمَى التَّعَسَاءُ؟ لَا أَذْرِي...

إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِهَذِهِ النُّظُمِ سِوَى أَنَّهَا سُمُومُ الضُّعْفَاءِ، يُنْفُثُونَهَا فِي جَوْنَا، نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ، لِنَسْتَرْخِي، فَيَجِدَ الضَّعْفُ فِي جَوْ الْقُوَّةِ فُرْصَةَ الْبَقَاءِ.

إِنَّ مَا أَفْهَمُ ، هُوَ هَذَا فَقَطْ، أَنَّ الْحَيَاةَ وَاللَّذَّةَ وَالسَّعَادَةَ فُرْصٌ، وَالْقُوَّةُ وَحْدَهَا سَبِيلُ الاسْتِحْوَاذِ عَلَيْهَا، فَالْحَيَاةُ هِيَ الْقُوَّةُ.

إِنَّ الْأَسَدَ قَدْ يَعِفُّ - وَهُوَ نَهِيكَ جَوْع - عَنِ الطَّعَامِ الْحَقِيرِ الْوَضِيعِ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ فِيهِ لَذَّةَ الْقُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعِفُّ أَلْبَتَّةَ عَنِ الضَّرَاوَةِ، وَعَنِ الْخَثَلِ وَالْأَفْرَاصِ أَحْيَاناً، وَهِيَ مَجْلَى الْقُوَّةِ. فَالَّذِي تُمْلِيهِ طَبِيعَةُ الْأَحْيَاءِ: قَسْوَةٌ، وَبَغْيٌ، وَلَذَاتٌ. هَذَا مَا

نَحْدُهُ كُلَّمَا حَلَلْنَا عُنَاصِرَ الْحَيَاةِ وَأَنْوَاعَ الْأَحْيَاءِ، فَمَنْ أَمْلَى عَلَى أَوْلِيكَ الْجُبْنَاءِ
أَسَاطِيرَهُمْ؟ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا سِوَى الْجُبْنِ وَالْعَجْزِ وَخَوْفِ الْآلَامِ.

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ

نعم! نعم! إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ!

أُرَيْنَبُ! أَنْتِ حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَقَدْ بَتَّ مُتَعَةً قَرِيبَةً الْمَنَالِ مِنِّي!

أُرَيْنَبُ! لَتَقُمْ فِي سَبِيلِكَ شَيْوُلُ الدَّمَاءِ وَرَايِبَاتُ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ، فَإِنِّي
سَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَيْكَ، فِي آبِتْسَامَةِ الْقَسْوَةِ وَقَهْقَهَةِ جَبْرَوَتِ الْبَطْشِ! إِنَّ أَيْنَ الْفَرِيسَةِ
- وَعِظَامُهَا تَتَقَضَّبُ بَيْنَ فَكِّي الْأَسَدِ - يُطْرِبُهُ وَيُشْهِيه، لِأَنَّهُ مَقَاطِعُ مِنْ أَنْشُودَةٍ
كِبْرِيَاءِ الذَّاتِ وَكِبْرِيَاءِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى تَشْيِيدِ الْأَيْنِ: أَنْتَ أَنْتَ هُوَ الْجَدِيرُ بِالْوُجُودِ
وَحَدِّكَ... وَلِذَا كَانَ الْأَسَدُ لَا يَطْعَمُ إِلَّا عَلَى أَلْحَانِ نَائِي الْأَشْلَاءِ.

أُرَيْنَبُ! أَنْتِ عَرُوسُ أَخْلَامِي، وَسَتْصَبِيحِينَ عَمَّا قَرِيبٍ عَرُوسَ لَذَاتِي! فَمَا
أَجْمَلَهَا نَشْوَةٌ، وَجِسْمُكَ الْبَضُّ أَهْتَصِرُهُ بَيْنَ ذِرَاعِيِ الْمُشْتَعِلَيْنِ، وَأَعْتَصِرُهُ فِي وَقْدَةِ
الضُّلُوعِ الْمُتَلَطِّئَةِ، وَقَوَائِمِكَ يَتَأَطَّرُ وَيَتَشَتَّى تَشَتَّى الْأَفْعُوانِ، وَيَتَلَوَّى تَلَوَّى الْحَيْزُرَانِ.
فَمَا أَخْيَلِي قُورَبِكَ!... إِنَّهُ دُنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ الْعِذَابِ، وَلَوْ لَفَّ فِي جَحِيمِ الْعَذَابِ!

أُرَيْنَبُ! إِنِّي سَوْفَ أَلْهُو بِكَ أَمْدًا كَالزَّهْرَةِ تَرُودُهَا التُّحَالُ بِتَلَهُّفٍ إِلَى
الْامْتِصَاصِ، ثُمَّ سَيَّانٍ عِنْدِي أَذْكُرْتُكَ أَمْ نَسَيْتُكَ بَعْدُ، أَلَسْتَ أَمْرَأَةً، وَالْمَرْأَةُ لُغْبَةٌ
الرَّجُلِ وَمُتَعَتُهُ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَهُمَا؟ ثُمَّ أَلَيْسَتْ النِّسَاءُ فِي النَّوْعِ رِيَّاحِينَ كَمَا
قِيلَ، وَهِيَ تَذْهَبُ فِي شَمَاتٍ أَوْ دُونَهَا، وَتَبْلَى فِتْنَتُهَا... فَاعْتَمِيهَا فُرُصَةً لَدَاذَةٍ
كُبْرَى مُعْرَبَدَةٍ، وَأَنْتِ فِيهَا فَوَاحَةٌ بِالْعَبِيرِ.

آه! إِنَّ ظَمَائِي لَا يَزْوِيهِ إِلَّا سَيْلٌ مِنْ دِمَاءٍ، إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِهِ ذَلِكَ الْعِلْجُ
أَبْنُ سَلَامٍ. إِنِّي أَحْسُ بِأَسْنَانِي تَتَأَكَّلُ كَأَنَّ عَلَيْهَا حِكَّةَ جَرَبٍ. إِنَّهَا تَشْتَهِي مُضْغَةً

مِنْ كَبِيدِهِ أَلَوْكُهَا! إِنِّي لَأَشْعُرُ أَنَّ فِي أَسْنَانِي أَسْنَانَ هِنْدٍ جَدَّتِي يَوْمَ أَحَدٍ، وَهِيَ تُحْرِقُ الْأُرُمَّ عَلَى كَبِيدِ حَمْرَةٍ! سَوْفَ أُبَارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أَوْ أُرْصِدُهُ فَأُعِمِدُ فِيهِ وَرَاءَ السَّيْفِ يَدِي.

وَلَمْ يَزَلْ مَعَ طُيُوفِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَتَجَسَّسُ لَهُ، فَبَرَّاهَا قَرِيبَةً مِنْهُ دَانِيَةً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ طَيْفَ آبْنِ سَلَامٍ عَرَضَ لَهُ فِي بَعْضِ الطُّيُوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وَقَبَضَ عَلَى قَائِمَتِهِ، وَهَزَّهَ فِي الْهَوَاءِ هَزَاتٍ، ضَحِكَ فِي إِثْرِهَا ضِحْكَاً عَصَبِيّاً، وَفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقَاطِيعُ وَجْهِهِ، وَارْتَدَّتْ إِلَى الْوَرَاءِ فِرْعَاءً مُتَعَقِّدَةً الْإَيْدِي يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ طَيْفُ الْعَدَالَةِ: إِنِّي يَزِيدُ! يَزِيدُ الْأَمِيرُ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزُودُ إِلَى الْوَرَاءِ فِي دُعْرِ يَقُولُ: لَسْتُ، لَسْتُ أَنَا! هِيَ هِيَ أَغْرَثَنِي!... وَغَرَاهُ دُورًا، فَقَدْ أَخَذَتْهُ أَغْرَاضُ حُمَيَّ خَبِيثَةٍ، وَكَانَ يَهْذِي تَحْتَ وَطْأَةِ الدَّاءِ. فَوَجَلَ سَرَجُونٌ وَجَلًّا شَدِيدًا، وَلَمْ يَجِدْ بُدْأً مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيَالَاتٍ.

أَفَاقَ بَعْدَ حِينٍ، وَزَايَلَهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَذَيَانٍ، فَقَدْ تَمَاطَلَ نَحْوُ الشُّفَاءِ وَالْإِبْلَالِ مِنَ الدَّاءِ، وَبَقِيَ فِي تَضَمُّيمِهِ ثَابِتًا: آغْتِيَالُ الرَّجُلِ وَانْتِزَاعُ مَعْشُوقَتِهِ أَنْتِزَاعًا، رَضِيحَتِ أُمُّ أَبْت. وَعَرَفَ مِنْهُ سَرَجُونُ ذَلِكَ الْعَزَمَ وَخَشِي مُجَازَفَتَهُ، فَأَسْرَّ إِلَى وَالِدَتِهِ مَيْسُونَ ابْنَةَ بَحْدَلِ الْكَلْبِيَّةِ بِكُلِّ خَبْرِهِ، فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

فَذَاكَ مَرَضُهُ إِذَا... وَكَانَ يَزِيدُ وَلِيدَهَا الْأَوْحَدَ الْمَفْدَى، فَلَمْ تُطِيقْ آلَامَهُ فِي سَبِيلِ أَمْرَأَةٍ، وَلَمْ تُطِيقْ أَلْبَسَتَهُ لِرَجُلٍ، مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ، أَنْ يَحُولَ بَيْنَ آبِنِهَا وَرَعْبَاتِهِ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ سَرَجُونَ: وَمَنْ هَذَا آبْنُ سَلَامٍ زَوْجُهَا؟ قَالَ: هُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ مِنْ قَبْلِ الْمَلِكِ... فَأَنْقَلَبَتْ ضَاحِكَةً، تَقُولُ:

يَكُونُ مِنْ عُمَّالِنَا وَيُقِيمُ لَهُ يَزِيدُ هَذَا الْوَزْنَ؟ إِنَّا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أَوْ نَخْفِضُهُ. ثُمَّ هَلْ هُوَ إِلَّا مُتَقَدِّدٌ لِرَعْبَاتِنَا عَلَيْهِ، هُوَ صَنِيعُنَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ إِحْدَى إِمَائِنَا، نَتَصَرَّفُ فِيهِ وَفِيهَا كَيْفَمَا نَهْوَى. إِنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ وَاجِمًا مِنْ أَجْلِ أَمْرَأَةٍ

يَشْتَهِيهَا، وَلَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّهُ يُمْنَعُ عَنْهَا بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ مَنَزِلَتُهَا.
بَلِّغِ الْمَلِكَ أَنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ مَحْزُونًا يَبْكِي، بَلِّغْهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَجِبُ
أَنْ تَكُونَ فِي جُمْلَةِ إِمَاءِ يَزِيدَ يَغْبِثُ بِهَا وَيَلْهَوُ!
قَالَ سَرُجُونُ: لَعَلَّ زَوْجَهَا لَا يُرْضِيهِ تَزُكُّهَا، أَوْ لَعَلَّهَا لَا تَرْضَى هِيَ إِنْ كَانَ
مِنْهُ ذَلِكَ...

قَالَتْ، وَضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى رِسَادَةٍ بِجَنْبِ مَقْعِدِهَا: وَمَا قِيَمَةُ رِضَاؤِهَا أَوْ
رِضَاها؟ إِنَّا نُرِيدُ ذَلِكَ وَكَفَى!

فَاتَّبَعَهُمْ سَرُجُونُ وَقَالَ: أَظُنُّ الْأَمِيرَةَ لَا تَغْنِي تَمَامًا مَا تَقُولُ، أَوْ لَا تَجِدُ كُلَّ
الْجِدِّ. فَلَا بَيْنَ سَلَامٍ خَطَرُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِذِي خَطَرٍ فَلَا يَسَعُنَا أَنْتِهَاكُ أَنْتِهَاكَ
مَكْشُوفًا، وَتَحْدِيدِهِ فِي شَرَفِهِ. وَلَكِنْ نَشْتَاتِيهِ فِي غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ.

قَالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وَهِيَ تَهْزُ كَتِفَيْهَا: إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِحْشِيَّتِكَ...
فَقَالَ، وَتَمَثَّلَ لَهُ عَهْدُهُ فِي بِلَاطِ الْعَسَاسِيَّةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ رِعَايَةٍ لِلْحُقُوقِ:
وَلَكِنَّكَ تَفْهَمِينَ فَقَطْ مَعْنَى خَدَشِ كَرَامَةِ الرَّجُلِ؟

قَالَتْ: إِذَا كُنْتُ تَرَى فِي ذَلِكَ بَأْسًا فَاسْتَأْتِ كَيْفَ شِئْتُ، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ يَصِلَ
يَزِيدُ إِلَى غَرْضِهِ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَيْسَتْ تَهْمُنِي الطَّرُقُ الَّتِي سَتَسْلُكُهَا. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
تَقَرَّ عَيْنُ يَزِيدَ بِهَا، وَلَا يَغْنِينِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... فَاسْتَدَارَ سَرُجُونُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَهُوَ
يَقُولُ:

أَمَّا كَذَلِكَ فَتَنَعَم...

*

دَخَلَ سَرُجُونُ مَجْلِسَ الْمَلِكِ، وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ يَزِيدَ، وَمَا

عساه أن يكون طراً عليه. وبدا معاوية مُعْتَمِلاً، فهو لا يطيق سماع أن يريد مُكْتَسِبٌ، وهو يَكُرُّ الإِمَارَةَ المُتَرَعُّ بالدلال، وفي قَرَارَةٍ نَفْسِهِ أن يَقَرَّ بِهِ عَيْناً وهو وَلِيُّ عَهْدِهِ، كما زادَ بِهِ ضَنْناً بَعْدَ أن «أصابَ مِنْهُ سَيْفُ الخَارِجِيِّ مَسْرَى البَنِينَ».

كَانَ فيما يُسَيِّطِرُ على المَجْلِسِ مِنْ وُجُومٍ، ما جَعَلَ سَرَجُونٌ يَقِفُ طَوِيلاً قَبْلَمَا أَسَرَ إلى مُعَاوِيَةَ بِشَأْنِ آبْنِهِ الْبَكْرِ، رُغِمَ قُورَيْهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمَنْزِلَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ الْحِجَابِ لَدَيْهِ. وَظَلَّ واجِماً هو أيضاً، فَقَدْ عَدَّتْهُ رُوحُ المَجْلِسِ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِ جَوْهُهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوُجُومَ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَوْلِهِ:

وماذا تَظُنُّونَ أَصَابَهُ وهو في جِشَمِ الفِيلِ وَنَشْطَةِ الثَّمْرِ؟... وَآبَتَسَمَ، لَعَلَّ
إِخْدَى غَانِيَاتِهِ الْمُدَلَّلَاتِ فَارَكَّتْهُ وَقَطَعَتْ أَشْيَابَ وَدَّهِ.

قالَ مُعَاوِيَةُ: ما هذا يا عَمْرُو؟

قالَ: لَمْ يَقَعْ في مَدَى خَاطِرِي سِوَى هذا، وعلى كُلِّ «فهو أَمَرٌ لا يُوقَفُ
عليه إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَالِدَتِهِ»، لَعَلَّهَا تَنْتَرِخُ مِنْ بَيْنِ شَفَثَيْهِ كَلِمَةً سِرِّهِ الرَّهِيْبِ... وَأَطَالَهَا
كَالسَّاحِرِ... وَهنا وَجَدَ سَرَجُونٌ مُنَاسَبَةَ الإِفْضَاءِ إِلَيْهِ، فَمَالَ على أُذُنِهِ يُسَارُهُ، وما
لَبِثَ أَنْ ضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وهو يَقُولُ:

عِنْدَ ظَنِّكَ يا عَمْرُو، وَلَكِنَّهَا غَانِيَةٌ جَدِيدَةٌ!

قالَ عَمْرُو: وَإِنْ شِئْتَ قُلْ صَبِيَّةٌ جَدِيدَةٌ... فَأَبْتَسَمَ الحُضُورُ، وَطَلَبَ مُعَاوِيَةُ
أَنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ سِوَى عَمْرُو، فَقَالَ:

مَنْ أَرَيْنِبُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئاً؟

قالَ: نَعَمْ، هِيَ مِنْ «أَعْرَقِ الحِجَارِيَّاتِ نَسَباً، وَأَكْثَرَهُنَّ مَالاً، وَمَثَلٌ فِي الجَمَالِ
بَيْنَ غَرَائِرِ زَمَانِهَا»، كَانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
سَلَامٍ أَمِيرِ العِرَاقِ اليَوْمِ.

قال معاوية: ترى أنه عزيز علينا أضيأها؟

قال: هو ذاك، وأمتع ما تكون.

قال: ولكن كيف برغبة يزيد الحارة، فإنه يحز في نفسي أن يبيت آسفاً، لا يقضي لبانتة، ويشبع شهوة نفسه، ويروي ظمأ قلبه.

قال: وما هذا؟ أنت أيضاً تسأله في مجونه وعبثه، وما يذريك لعل ما يتظاهر به من كمد هو من حيله على المجون، ومن دلاله على التئويل كني يجعل منا مطايا شهوات وأوطار. إن الناس تحملوا منا ضراوة في السياسة، وضراوة في الأموال، إلى ضراوة وضراوة في الأحكام، ولا أراهم إلا ثائرين بنا، إذا جعلنا يوتهم هدفاً لضراوة شهواتنا أيضاً...

قال معاوية: هو ذاك. ولكن كيف لي بالتروفيه عن يزيد، فإني لا أقدر أن أراه كاسفاً؟ ألا فكرو معي وتحائل ما وسعتك لباقة الحيلة. فكرو ملياً وكان عمرو أسبقهما، فهتف: لقد وجدتها، وإن كان فيها تسخيرك إياي حتى ليشهوات ولديك أيضاً.

قال معاوية يغبطة: هات! هات! وعساها أن تكون من وحي شيطانك يوم صفين، وخدعة كخدعة رفع المصاحف... يعني موقعة...

قال عمرو: أتأخذها علي وبها أنقذتك وبؤأتك عرشك، وجمعت بها عليك ما هو مجتمع في يدك من أسباب الملك، ومحتبك عليك من مظاهر السلطان؟ قال: كانت من أجل دنيا جزيناك عليها بدنيا، وما أظنني بحشتك الأجر. وكسر جفن عينه اليسرى، وكان لا يفعل هذا إلا «وهو يتحدى» وما يجهل عمرو منه ذلك.

فقال وشملته رهبة: رؤيدك، إنني لا أتحدأك وإنما ظننتك تغير علي...

فَصَحِّحْكَ مُعَاوِيَةُ وَقَدْ أَدْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِهِ، وَقَالَ:

لَكَ الْعُثْبِيُّ يَا عَمْرُو حَتَّى تَرْضَى. وَهَلْ مِثْلُكَ يُنْعَسُ قَدْرُهُ وَيُرْوَعُ؟ وَإِنَّمَا
فَصَدْتُ مَدَاعِبَتَكَ فَلَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ. لَطَالَمَا خَدَمْتَ آلَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَسْتُ أَنْسَى
بِالْأَمْسِ كَيْفَ أَنْقَذْتَنِي وَكَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدِي، وَأَنَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ تَأْتِيكَ لِإِنْقَاذِ يَرِيدٍ
وَلَدِي، وَهِيَ يَدٌ لَكَ عِنْدَهُ لَيْسَ يُنْقِصُهَا.

قَالَ عَمْرُو: حُمَادَاكَ، فَإِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أَنْ تَسْتَدْرِجَ ابْنَ سَلَامٍ
بِالْأُلْطَافِ «وَكِرَائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْخِلَعِ»، وَثَرِيَّةَ جَانِبِ الْوِدِّ مِنْكَ، وَتُعْرِيهَ بِرِيَارَتِكَ
وَالْقُدُومِ عَلَيْكَ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَبَعْدُ؟

قَالَ عَمْرُو: ذَلِكَ عَلَيَّ حِينَهُ...

*

فَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مُذِ اقْتَرَنَ بِأُرَيْنَبَ، وَهُوَ يَرَى حُلَمَ سَعَادَتِهِ يَنْتَشِرُ
لِيَجْتَمِعَ فِي حُدُودِهَا، فَأَحْلَاهَا مِنْهُ مَحَلُّ الْقَلْبِ، فَكَانَ إِذَا خَلَا إِلَى قَلْبِهِ وَجَدَ
أُرَيْنَبَ، وَإِذَا خَلَا إِلَى أُرَيْنَبَ وَجَدَ قَلْبَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا: لِيَخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ
لَسْتَ سِوَى قَلْبِي مُصَوَّرًا، وَشَاءَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي شَكْلِ بَنَاتِ الْخُلْدِ، فَيُرِيَنِي كَمَ هُوَ
سَعَادَةٌ، وَكَمْ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ سَعِيدًا. لَوِدِدْتُ يَا أُرَيْنَبُ أَنَّي أَتَحَوَّلُ هَالَةً فِي أَبَدِيَّةِ
عَيْنَيْكَ الْفَاتِنَتَيْنِ... أُرَيْنَبُ! آه أُرَيْنَبُ!...

آه! يَا مَا أَسْعَدَ الْأَزْوَاجَ إِذَا كَانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيْنَبَ!...

وَكَانَتْ أُرَيْنَبُ لَا تَقِلُّ عَنْهُ إِحْسَاسًا بِسَعَادَتِهَا بِهِ، فَقَدْ عَاطَتْهُ مِنْهَا أَيْضًا مِثْلُ
عَوَاطِفِهِ فَقَالَتْ: أَوْ قُلْ مَا أَسْعَدَهُنَّ حَقًّا إِذَا كَانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ.

قالت له صباحَ يومٍ، وقد قَطَفا أَوَّلَ إشراقَةٍ مِنْ شُعاعَةِ الشَّمْسِ: لا أَذْري
لِمَذا؟ لِمَذا يُعاوِدُنِي في أَقصى هَواجِسِي العَمِيقَةِ الخَفِيَّةِ مُنْذُ لَيالٍ، أَنتَ لَمْ تَعُدْ لي،
وتَعْتادُنِي طُيُوفَ خَبِيثَةٍ أَظْلَمُ مِنْها في رَهْبَةٍ؟ وتَعَلَّقْتُ به. إِنِّي خائِفَةٌ.

تَرَفَّرَتْ في عَيْنَيْها دَمْعَتانِ كَبيرَتانِ، تَراخَتْ إِحداهُما ساقِطَةً، وآسَمتَسَكَتِ
الأُخرى مُتَبَلِّوَرَةً بَيْنَ جَفَتَيْها اللَّذِينَ كانا في نِصْفِ إِعْماصَةٍ، فَأَهوَى يَضُمُّها إِلَيْهِ
ضَمًّا عَنيفاً كَأَنَّهُ يُحاذِرُ، فَقَدْ عَراهُ مِثْلُ هاجِسِها أو شَرٌّ مِنْهُ، عَراهُ أَنَّ هُناكَ مَنْ
يُحاوِلُ آخِطافَها، فَهو يَشُدُّها إِلَيْهِ، يَضُرُّ بها وَيَفْتَدِيها.

إِسْتَويا في مَقْعَدِهما، ثُمَّ لَمْ يَخْطُوا إِلَّا قَلِيلًا في حَدِيقَةِ القَصْرِ، حَتَّى آسَتاذَنَ
حامِلُ البَرِيدِ يُسَلِّمُهُ كِتابَ المَلِكِ.

اسْتَظِيرَ فَرَحاً، وآسَتْخَفَّهُ الإِنعامُ المَلِكِيُّ عَلَیْهِ، وَكانَ مُفاجِئاً حَتَّى لَقَدْ ذَهَلَ
عَنْ أَنَّهُ يُعادِرُ زَوْجَتَهُ الخَفِيَّةَ عِنْدَهُ، دُونَ أَنْ يُلْقِيَ عَلَیْها نَظَرَةً وامِقَةً تُشيرُ إلى أَنَّهُ
سَيَعُودُ إِلَیْها، بَعْدَ مُتَعَةٍ قَصارَةٍ بالنَّظَرِ إلى ما أَهْدَى إِلَیْهِ.

وَقَفَّتْ تَنْظُرُ باهِتَةً وَعاوَدَتْها هَواجِسُها. فَلَمْ تُطِلقْ وَقُوفَها طَوِيلًا، فأنشَنَتْ إلى
مَقْعَدِ قَامتِ مِنْ فَوْقِهِ مُتَعانِقاتِ «البواري» في شَكلٍ جَعَلَ مِنْهُ وَكَانَ عاشِقَينِ أو
طَيرَينِ حُبٍّ. وَقالتِ تُناجِي نَفْسَها: آه! لَقَدْ وَقَعَ ما كُنْتُ أَهْجِسُ بِهِ في خاطِرِي،
والَّذي كانَ يَحِيكُ في صَدْرِي مِنْ وَساوسٍ؛ لَيتَ الهَدايا الَّتِي آسَتْخَفَّتُهُ كانَتْ عِنْدَ
قَدَمِي لأَطأها مُسْتَخِفَّةً بِأَنفَسِ ما فِيها، ولا أَقْطَعُ على نَفْسي لِحَظَةً قَلْبٍ كانَ يَخْفِقُ
فَیْها بِمَعْنى الحُبِّ، وَهو كُلُّ الحَياةِ وَكُلُّ السَّعادةِ...

أَتَشْغَلُهُ عَنِّي هَدايا حَقيرَةٌ؟ مَهْما بَلَغَتْ نَفاستُها، فَلَنْ تَكونَ إِلَّا حَقيرَةً
بِجَنبِ ما هو دُونَ حَسوَةِ طائِرٍ مِنْ نَسوَةٍ ما كُنَّا فِيهِ، بَلْ بِجَنبِ خَلْجَةٍ راعِشَةٍ مِنْ
تِلْكَ الخَلْجاتِ المُفَعِّمةِ...

الآن فقط، بدا لي طفلاً تفتنه لعبة عن لعبة، وتأخذ أيتها وقع عليه بكل بصره. لم يكن إذاً إلا طفلاً، ولم أكن، كل هذا الوقت، سوى لعبة كبيرة يلهو بها دمية، ودمية حية تمتع قلبه البارد بحرارة أنفاسها المتدّاة... وهؤلاء الذين يرون المرأة دمية ذات حرارات، هم باردو القلوب، وإنما يطلبون فيها الاضطلاء والدّفء فقط، أما أنا، وأحسّ بقلبي مُشتِعلاً، فأريد قلباً مُشتِعلاً أيضاً يفتنان على بعضهما في تلّهب جميعاً...

أف للرجل! إنه طفل في حس القلب ولا يريد، ثم لا يشعر من العاطفة إلا على مقدار العبث، وليست للأشياء قيمة عنده، إلا على قدر ما تمكك من إحياء اللهو عليه وتشيّعه فيه.

لا، لا! لست أرضى أن أكون عنده متاعاً صِنو هذه الهدايا، بل خيّل إليّ أنّي أحقر منها في نظره. فغادرني يخفّ إليها، ولم يترك، عند موقفنا، نظرة أشغل بها حتى يثوب، إنها أخذت بكلّ هواه، حتى لم أعُد شيئاً أذكر...

أف للرجل! إنه في دنيا القلب طفل، وأيضاً طفل ذو طبع بليد خشن...

يا لك من هدايا مشؤومة! إنك هدايا فيك كل ما في السموم من روح، وكل ما في الأفاعي من معنى مخيف ووجود راعب... وما يُدريني فلعلها حبايل وشباك منسوجة من حُمات العقارب وأوبارها... وما هو حتى رائه مُقبلاً مُغتبطاً، تشيع الابتسامة المشعة الضاحكة في وجهه، يحيل بين يديه كرائم الجوهر وعقود اللآلئ البعيدة الشطوع، المتماوجة بالسنى والسناء، يقول وهو يُقلّبها في كفّيه:

إليك! إليك! لقد جاءت كأنها تقول: كنتُ جوهرة يتيمة حتى وجدتك! أما تسمعين؟ أما تسمعينها؟... وراح في نشوة ضاحكة، ولكنها ظلت جامدة لا تحير جواباً. فبهت وعراه خدر كالدهول، فاسترخى كفاه، وتساقط ما استوى

عَلَيْهِمَا مِنْ دُرِّي الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ لَمْ يُحَسِّ. وَكَانَتْ تَنْظُرُ وَتَرَى، فَأَلَمْتُ بِمَا
عَرَاهُ فَأَغْتَبَطْتُ، وَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى أَخَذْتُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا نَشْوَى.

عِنْدَ شُرْفَةِ الصَّبَاحِ، بَعْدَ أَيَّامٍ، حَيْثُ كَانَا وَاقِفَيْنِ يَنْظُرَانِ إِلَى الْأُفُقِ الْبَعِيدِ،
قَالَ، وَهُوَ يَحْسِسُ بَعْضاً مِنْ أَنْفَاسِهِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمَّ لَا تَعُودُ:

لَعَلِّي لَا أَغِيبُ عَنْكَ طَوِيلًا، وَسَوْفَ... قَالَتْ مُرْتَعِدَةً:

تَغِيبُ عَنِّي؟ مَاذَا تَقُولُ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ مِنْكَ، يَوْمَ الْهَدَايَا، أَنَّكَ غَيْرُ مُغْتَبِطَةٍ فَلَمْ أُخْبِرْكَ. جَاءَ فِي كِتَابِ
الْمَلِكِ أَيْضًا أَنَّهُ يَغْزِمُ عَلَيَّ بِالْحُضُورِ، وَلَا أَدْرِي لِمَذَا؟ هَدَايَا مُفَاجِئَةٌ وَدَعْوَةٌ مُفَاجِئَةٌ!
وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ سَعَادَتِي بِكَ جَذَبَتْ إِلَيَّ سَعَادَةً أُخْرَى... وَرَبَّتْ عَلَى كَيْفِهَا.

إِثْنَفَخَتْ أَوْدَاجُ أَرْبِيبٍ، وَغُصَّتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا، وَلَكِنَّهَا حَوَّلَتْهَا
كَأَنَّهَا تَلُوكُ حُرُوفَهَا لَوْكَ:

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا فَإِنَّ مَا تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

فَقَالَ يُدَاعِبُهَا: هَذَا قَوْلُ أَوْسَ بْنِ حَجَرٍ يَزُثِي بِهِ. وَهَا أَنَا فَجُئِسِي يَدِي...
قَالَتْ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ تَأْخُذُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، فَقَدْ أَرْهَبَهَا مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ ظَنُّهُ وَلَوْ مُدَاعَبَةً:

إِنِّي لَسْتُ أَرُثِي سِوَى نَفْسِي إِلَى نَفْسِي... وَحَاوَلَ الْكَلَامَ فَقَطَعَتْهُ عَلَيْهِ
بَقَوْلِهَا: لَسْتُ مُغْتَبِطَةً بِسَفَرِكَ، وَبِوَدِّي أَنَّكَ لَا تَذْهَبُ، بَلْ بِوَدِّي أَنْ تَزُدَّ عَلَيْهِ عَمَلَهُ
وَتَقْتَرِلَ. فَلِي مِنْ أَمْوَالِي الْكَثِيرَةِ وَدُنْيَايَ مَا يُغْنِيكَ عَنْ أَمْوَالِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلَكَ مِنْ
سَيَادَتِكَ وَنَشَبِكَ مَا يُغْنِيكَ عَنِ الشُّؤْدِ بِهِ.

إِنَّهُ يُزْهِنِي! إِنِّي لَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَبِهِ تُحِيطُ عِصَابَةٌ لَا أَدْرِي بِمَاذَا أَنْعَتْهَا...

إِنْتَزَعْنَهَا مِنْ لِسَانِهَا كَلِمَةً: إِنَّهَا دَمَوِيَّةٌ تَجْرِي وَرَاءَ شَهَوَاتِ حُمْرَاءَ، ثُمَّ لَا يَحُولُ بِهَا عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ عَارِفَةٍ أَوْ قَانُونٍ.

قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ وَلَكِنِّي لَا أَذْرِي كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْهِ. إِنْ هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَصِيرَاتُ الْمَدَى، أَعُودُ إِلَيْكَ عَلَى أَثَرِهَا، وَأَصِيرُ إِلَى رَغْبَتِكَ بِأَعْتَزَالِ عَمَلِهِ... وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ تَرْغَبُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَزُولَ، وَحَانَتْ مِنْهَا لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أَفْرَاسَ الْبَرِيدِ جَاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فَلَمْ تُطِيقْ تَرَاهُ يَسِيرُ، فَذَهَبَتْ تَذْفِيقُ وَجْهَهَا فِي رَاخَتَيْهَا، وَتُجْهِشُ كَأَنَّهَا هِيَ مُنْخَرِطَةٌ فِي نَشِيجِ مَرِيرٍ، وَرَدَّدَتْ عَبْدُ اللَّهِ، وَقَدْ تَمَادَى بِهِ الْمَسِيرُ، وَلَفَّهُ قَتَامُ الرُّكْبِ.

وَكَمْ تَشَبَّهَتْ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضُحَى وَأَذْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمَعُهُ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكَ الْأُزَارِ مَطْلَعُهُ
وَدَعُّهُ وَبُودِي لَوْ يُودِّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ، وَأَتِي لَا أُوَدِّعُهُ...

*

كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَيَّامٍ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً، فِي غَيْرِ حِسِّ أَرِيذٍ وَحِسَابِ عَبْدِ اللَّهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَلْطَافِ وَالْأُنْسِ النَّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثِيرًا وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ لَوَجْهِ الْأَمْرِ، وَتَحَيَّرَ بِهِ تَقْدِيرُهُ، فَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى أَيِّ وَجْهِ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ. بَيِّنَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ مُغْتَبِطًا، وَتَرَايَدَ بِهِ الْاِغْتِيَابُ لِإِزَاءِ مَا يَلْقَى مِنْ حِفَاوَةٍ وَآخِثِرَامٍ وَرِعَايَةِ مَقَامٍ، حَتَّى لَمْ يَغْذُ يُفَكِّرُ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِالزَّمَنِ.

لَمَسَ صِدْقًا فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَظَاهِرٍ، وَبَاتَ آمِلًا بِشَيْءٍ لَمْ يَذَرِ كُنْهَهُ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ بُشْرَى عَلَى أَيِّ حَالٍ. لَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مَدْعُوًّا إِلَى مَجَالِسِ أُنْسٍ مُعَاوِيَةَ، وَأُنْدِيَةِ السَّمَرِ الْغَزَلِيَّةِ، وَإِلَّا مُنْتَشِيًا عَلَى مِثْلِ الطَّيْشِ فِي لَيَالِي الْقُصُورِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَاجِنَةِ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ نَسَبٍ قَرِيبٍ بَلْيَالِي أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا بَعْدُ، الْغَارِقَةِ فِي أَخْلَامِ الشَّهَوَاتِ الْمُعْرَبَةِ.

إِسْتَيْقَظْتُ فِي نَفْسِ آبِنِ سَلَامٍ صَبُوءٌ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهَا، صَبُوءٌ مِنْ نَوْعِ
الصَّبُوءَاتِ الْحَادَّةِ، فَلَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ فِي مَدَى أَنْطِلَاقِهَا إِلَّا بِإِزْوَائِهَا، وَدَارَتْ فِيهِ نَهْمَةٌ
كَأَنَّهَا أَنْفَطَرَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الظَّمَأِ. فَقَدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الْحُبِّ الْقَلْبِيُّ السَّعِيدِ،
أَنْبَعَثَتْ جَيَاشَةٌ عَلَيْهِ، نَزَوَاتٌ كَانَ يَكْبُتُهَا الْقَلْبُ فِي نَشَوَاتِهِ الْعَبَقَرِيَّةِ الْإِلَهَابِ،
الْمُتَلَطِّئَةِ بِالشُّعْلِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ فِي هَذَا الْجَوْ الحَمَرِيِّ اللَّذَاتِ الْمَهْوَدِ بِخِمَائِلِ الشَّهَوَاتِ، مَا أَحَالَ
أُرَيْنَبَ، فِي جَوْ نَفْسِهِ، إِلَى ذِكْرِي مِنَ الضَّبَابِ لَمْ تَزَلْ تَتَلَبَّدُ وَتَحْتَجِبُ، وَعَادَ لَا
يَذْكُرُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ، وَتَمَنَّى لَوْ طَالَ أَمَدُ هَذِهِ الْمُتَعَةِ اللَّازِوَرْدِيَّةِ فِي لِسَانِ اللَّهَبِ،
وَتَشْهَى أَنْ لَا تَنْقُضِي، وَكَانَ مِنْذُ قَرِيبٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَاعَةً بُعَادٍ عَنْ أُرَيْنَبِ مَهَاتِهِ
النَّابِضَةِ بِالطُّهْرِ فِي وَثَبَاتِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ الْخَالِصِ...

إِنَّهُ أَسَفٌ مُنْحَدِرًا إِلَى مُحِيطٍ مِنَ الْحَقَاقَةِ الْبَعِيدِ الْقَرَارِ، وَأَضْفَقَتْ عَلَى نَاطِرِيهِ
الْوُحُولُ فَلَمْ يَعُدْ يَرَى، وَأَمَّا بَاتَ يُحِسُّ فِي طَرَاوَةِ الْوُحُولِ نُعُومَةَ الرَّبْدِ، فَرَاخَ يَهِيْمُ
فِي خَيَالِ الْوُحُولِ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي حَقِيقَتِهِ رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ، وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ رَغْبَةٌ فِي التَّحْوِيلِ،
وَلِمَكَانِ الشُّعُورِ بَوُجُودِ الذَّاتِ يَذْهَبُ الْكَائِنُ، إِذَا صَدَّمَ مَشَاعِرَهُ أَنْفِعَالٌ خَدِرٌ
كَأَنْفِعَالَاتِ اللَّذَّةِ عَلَى أَنْوَاعِهَا، يُحَاوِلُ الْإِسْتِحَالَةَ بِهَذَا الْإِنْفِعَالِ إِلَى وُجُودِ شُعُورِيٍّ
آخَرَ، وَلَا يَزَالُ يُبَالِغُ، تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَتَزَايَدُ وَضُوحًا، رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ
حَتَّى يَطْلُبَ مُلَاشَاةَ كِيَانٍ فِي كِيَانٍ، حِينَمَا تَسْتَوِي هَذِهِ الرَّغْبَةُ فِي الْأَعْصَابِ،
وَكُلَّمَا زَادَتْ تَمَكُّنًا وَاسْتِوَاءً زَادَ الْكَائِنُ نَهْمًا، وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ آبِنُ
الرُّومِيَّ بِقَوْلِهِ:

أُعَانِقُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي؟

وَأَلَيْسَ فَمَا كَيْ تَزُولُ صَبَابَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ

كَأَنَّ فُرَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرِجَانِ

فالحُبُّ البقائِيُّ، أو الزَّوْجِيُّ، رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْوَلَدِ، وَالْحُبُّ الاستِغْلَائِيُّ
رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْعَاطِفَةِ فِي الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ؛ فِي الرَّبَّانِيَّةِ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ الشَّهْوِيُّ
رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الشَّهْوَةِ.

وَإِذَا كَانَتْ رَغْبَةُ الاستِحَالَةِ فِي كُلِّ الْوُجُودِ، فَفِي طَبِيعَةِ الْوُجُودِ إِذَا طَبِيعَةُ
الْحُبِّ، بَلِ الْبَقَاءِ لِحَظَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ رَغْبَةِ الاستِحَالَةِ، وَاسْتِحَالَاتٍ بِالْفِعْلِ، فَإِذَا
أَنْقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أَسْبَابُ الْبَقَاءِ، وَذَهَبَ مُضْمَجِلًا.

تَمَلَّكَ آيَنَ سَلَامٍ، فِي لِيَالِي الْقَصْرِ الْمَشْهُورِ، أَنْفِعَالَاتٍ حُبِّ شَهْوِيٍّ طَلَبَ
مَعَهَا التَّمَادِي فِي دُنْيَا الشَّهَوَاتِ، وَأَمْتَلَأَ رَغْبَةً بِالتَّعَرُّفِ إِلَى كُلِّ فُنُونِهَا وَفُنُونِهَا،
وَشَتَّى أَلْوَانِهَا.

فِي لَيْلَةٍ مَاتِعَةٍ مِنْ لِيَالِي الْقَصْرِ الزَّاهِيَةِ الْعَبْقَةِ، أَذْنَاهُ مُعَاوِيَةُ مِنْهُ، وَعَاطَاهُ حَدِيثًا
مُذَهَّبَ الْأَطْرَافِ، مُعْرِِي الْبَدَوَاتِ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ:

هَلْ لَكَ زَوْجَةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ... فَضَرَبَ يَدًا عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ وَجْهَهُ بِتَغْضِ يَدِهِ، فَمَالَ عَلَى
أُذُنِهِ عَمَرُو، وَقَدْ أَظْهَرَ أَنَّهُ آغْتَمَّ مِنْ إِجَابَتِهِ، وَسَارَّهُ:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ ابْنَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وَأَنْتَ
تَعْرِفُ أَنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا تَدْخُلُ عَلَى ضَرَائِرٍ».

فَقَالَ لِعَمَرُو: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟

قَالَ لَهُ: إِذَا دَخَلْتَ غَدًا وَسَأَلْتَ، «فَقُلْ لَيْسَ لِي زَوْجَةٌ فَقَدْ طَلَّقْتُهَا»

وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَةَ وأبا الدَّرْدَاءِ... بَاتَ لَيْلَتَهُ أَرْقَا، فَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ ذِكْرَى أُرَيْبٍ
الْغَافِيَةِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قَوِيَّةً عَنيفَةً، وَأَخَذَتْهُ طُيُوفُهَا الْبَادِيَةُ كَالْمَلَائِكِ فِي أَثْوَابِ
طَهَارَتِهَا...

فَرَاخَ يُتَمَنِّمُ: أَنَا أَخَوْنَهَا. أَنَا؟ كَلَّا يَا مَلَاحِي! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِ
رَعْنَاءٍ تَذَوُّبُ لَذَائِهَا سَرِيعًا، وَتَبْقَى آلَامُهَا مُسْتَطِيرَةً مُسْتَفْجِلَةً... وَإِذَا بِهِ يَبْدُو
مُبْتَسِمًا، فَقَدْ بَارَكَهُ طَيْفُهَا، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ حَتَّى تَسْتَجِيشَ بِهِ شَهَوَاتُ مَوَارَةِ، تُرِيهِ
الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةَ، بَلْ وَالْخُلْدَ فِي حُدُودِهَا، وَتُطْلِعُ لَهُ رُؤُوسَ فُتُونِهَا، فَيَسْتَرْخِي وَهُوَ
يَرَى السُّلْطَانَ وَالْجَاةَ وَكِبْرِيَاءَ الْحُكْمِ تَغْنُو أَمَامَ قَدَمَيْهِ، إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى مُعَاوِيَةَ،
وَرَضِيَ مِنْهُ بِالْأَقْثَرِ إِلَى آبَتَيْهِ... وَتَمَتَّمَ:

حَسْبُ أُرَيْبٍ بِكُرُونَا خَالِدًا، وَأَنَا إِذَا طَلَّقْتُهَا فَلَمْ أَفَارِقْهَا وَإِلَى الْأَبَدِ، فَصِلَةٌ
بَيْنَنَا أَبَدًا وَلِيدُنَا الْعَزِيزُ... وَصَمَتَ قَلِيلًا، وَعَادَ يُنَاجِي نَفْسَهُ:

وَأَنَا إِذَا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخُونُ خَالِدًا أَيْضًا فَوْقَ خِيَانَتِي أُمِّهِ؟ أَلَسْتُ أَكُونُ قَدْ
دَفَعْتُهُ إِلَى الْحَقْدِ عَلَيَّ؟ وَكَيْفَ أَطِيقُ هَذَا، وَلَوْ فِي التَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ؟ إِنَّنِي لَا أَطِيقُ...
وَبَدَأَ لَهُ طَيْفٌ وَلَدِهِ خَالِدٍ فِي طُفُولَتِهِ السَّادِجَةِ بِالْحُبِّ، كَأَنَّهُ يَرُوجُو أَنْ لَا يَفْعَلَ،
وَسَاوَرَتْهُ عَاطِفَةٌ قَلْبِهِ مُسَاوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَهَا:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وَاسْتَعْرِقَ فِي لَحْظَةٍ تَهْوِي أَنْكَشَفَتْ لَهَا فِيهَا زَوَايا الْمَجْهُولِ
مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اسْتَفَاقَ وَعَلَى لِسَانِهِ:

أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّسْوُدِ الشَّامِخِ مَا يَخْدِمُ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ؟ فَلَا شَكَّ فِي
أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي خِيَانَتِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أُرَيْبَ تَغْفِرُهَا لِي أَيْضًا. فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَزَمَ
عَلَى الْخِيَانَةِ يُعْلَلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا خِيَانَةً قَلْبٍ وَلِذَلِكَ هُوَ لَنْ يَنْسَاهَا، وَحَمَلَ
الْهَوَاءَ قُبْلَةَ وَدَاعٍ مِنْ بَعِيدٍ، فَهَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِأُرَيْبٍ...

وَتَعَرَّضَتْ لَهُ أَطْيَافٌ رَاقِصَةٌ مِنْ بَدَوَاتِ الْأَطْمَاعِ الْكُبْرَى، فَسَارَ فِي بَهْجَتِهَا
كَأَنَّهُ يَجْنَحُ طَائِرًا، وَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَذْكُرَ شَيْئًا، يَجْتَهِدُ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَخْلُوقُ الْيَوْمِ،
وَلَيْسَ لَهُ عَهْدٌ سَابِقٌ بِالْوُجُودِ.

سَارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بِأَيَّةِ ذِكْرٍ مِنَ التَّارِيخِ، وَأَيَّةِ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بِمَاضِيهِ، إِنَّهُ وَلِيدٌ
مُصَادَفَةٌ جَدِيدَةٍ، وَوَلِيدٌ بِهَجَةٍ جَدِيدَةٍ، يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاءُ مِنْ بَهْجَاتٍ، فَكَانَ مِنْهُ
مَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ:

«أَدْخُلَا عَلَى ابْنَتِي فَأُعَلِّمَاهَا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ»... فَتَطَاهَرَتْ لَدَيْهِمَا
بِالاهْتِمَامِ وَالشُّرُورِ، وَصَرَفَتْهُمَا لِتَشَأَلَ عَنْ دَخِيلَةِ أَمْرِهِ «وَأَنْتِ عَلَى ابْنِ سَلَامٍ».

وَلَكِنَّ ابْنَ سَلَامٍ شَعَرَ، فَوَزَّ طَلَّاقَهُ أَرْثِيْبَ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَعُدْ لَهُ كَمَا كَانَ،
بَلْ عَدَا يَلْقَاهُ بِفُتُورِ نَفْسٍ، وَأَنْكِمَاشٍ تَرْجِيْبٍ، فَأَوْجَسَ شَرًّا «وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ
وَصَاحِبِهِ يَسْتَحِثُّهُمَا» فَاتِيَا ابْنَةَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ:

«إِنِّهَا سَأَلَتْ عَنْهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا تُرِيدُ»... فَلَمَّا بَلَغَاهُ جُنَّ جُنُونُهُ،
وَأَسْقِطَ فِي يَدِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ ذَهَبَ ضَحِيَّةً خِدْعَةً لَعِيْمَةٍ لَيْسَ يَدْرِي غَايَتَهَا.

إِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلزُّوْلَةِ، فَوَجَدَهَا تَعُجُّ بِالشُّبَّاحِ الْمُخِيفَةِ، وَتَزَارُّ
فِي مِثْلِ تَجَاوِبِ الذُّنَابِ، فَاسْتُطِيرَ دُغْرًا، وَمَشَى فِي أَنْفَاسِهِ هَلَجٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَغْدُو إِلَى
الْحَلَاءِ وَقَدْ أَنْطَبَعَتِ الْأَشْبَاحُ فِي عَيْنَيْهِ، وَالتَفَّتِ الْأَصْوَاتُ تَمُورٌ فِي أُذُنَيْهِ. فَرَاخَ
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَكَفَاهُ عَلَى أُذُنَيْهِ يَجْرِي، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعَ، يُرِيدُ غَفْوَةً فِي
الذُّهُولِ وَلَا هَذِهِ الْيَقِظَةُ الْمَجْنُونَةِ. وَمَا اسْتَرْخَتْ كَفَاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حَتَّى اسْتَعْوَى بِهِ
صَوْتُ:

خَائِنٌ! خَائِنٌ! وَعَلَى يَدَيْكَ دِمَاءُ الْحَرِيْمَةِ، تَمْشِي عَلَيْهَا أَرْوَاحُ ضَحَايَا ثَلَاثِ:
قَلْبِ زَوْجَةٍ هِيَ تَمَثَّلُ الْإِخْلَاصِ فِي الْحُبِّ، وَقَلْبِ غُلَامٍ هُوَ تَمَثَّلُ طُفُولَةِ الْأَحْلَامِ

البريئة البيضاء، والثالثة هي قلبك أنت...

بعد ذلك أضحى ينطلق كالذي فاز في خياله جنوناً، ينقل الواقعة، ويبحث
الشكاة، ويثر الطعن نثراً دون رهبة أو وعي. وتسامع الناس بالخبر، وعلقوا عليه
بأشمئزاز ونفور، وبات الكثير ينظر بعضهم إلى بعض في شفاة مقلوبة وتتكبر،
«وهكذا ذاع أمره وشاع، وتناقله الناس إلى الأمصار، وتحدثوا به في الأسفار».
ورثوا كثيراً لما انتهى إليه حاله، فكنت لا تسمع في كل مكان إلا من يقول:

أتبلع القحة بهذه العصابة حد التأمير بسعادة أسرة هائلة، تمرح في حب
وتسرح في وارف إخلاص، أما يسرها يوم، أما تحلو لها حياة، إلا إذا ولغت في دم
أو عبثت بكرامة، لقد عدوا أقدار أنفسهم، فلا يرون إلا راقصين على الأشلاء،
لاهين بالجماجم.

وتناهت بعيد الله الحال إلى حيرة يائسة وذ هول شقي يائس، تلاحقه طيوف
وتتكبر له أشباح، وتتفوز من حوله الآلام، وكان لا يفتأ يقول، ينجي نفسه:

لوددت أنني أفر إلى أرينب، ولكن هيهات! أنا الذي نكبتها وأشقيتها،
أزيتها شقاء بوجهي الذي غدا تمثال الخيانة الزوجية على أفتح صورها؟ فلا تجزع
آلام قلبي وغصص ضميري ومرارتي وحيداً منعزلاً كيف أعذر إليها؟ كيف
أستغفر وليدي الصغير؟...

رحمك ربي وخنائك! أبق الله على قلبي لا يتمزع!

*

ظلت أرينب، منذ غادرها زوجها الحبيب، لا تشيع على شفيتها إلا آتيسامة
مماوتة إذا ألحت عليها أحاديث وصيفاتها بالابتسام.

وكان الاكتئاب يتزايدها، يوماً بعد يوم، في إحساس يليح عليها بهول

غامِضٍ تَشْعُرُ بِهِ فِي أَعْمَاقِهَا يُنْذِرُ بِالْوَيْلِ.

وكانَ لها في كُلِّ يَوْمٍ جَلْسَةٌ، تَارَةً عِنْدَ مَقْعَدِ أَصْطِباحِهما في أَقْيَاءِ البُوارِي
المُحَيِّماتِ، وتَارَةً في شُرُوفِ المَساءِ تُودِّعُ النَّهارَ، وتَسْتَقْبِلُ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ تَبْشُّها نَجْواها
وَزَفَراتِها، وتَتَوَلَّاهُ في وَقْفَةٍ إِلى ذَوْبِ الشَّفَقِ الَّذي كَأَنَّهُ ذَوْبُ قَلْبِها.

وفي يَوْمٍ، على عَادَتِها وهي في شُرُوفِ المَساءِ، رَأَتْ عِنْدَ أَقْصَى الصَّحراءِ،
الَّتِي تَسْتَوْخِي مُتَكَيِّفَةً على عَتَبَةِ دارِها وفي فَنائِها، قَافِلَةً كَأَنَّها مُقْبِلَةٌ مِن جَانِبِ
الشَّامِ، فَلَبِثَتْ تَنْشُدُ فيها أَمَلِها، وَإِنْ لَمْ تَطْمَئِنْجْ بِهِ فلا أَقْلَ مِنْ أَنْ تَرْسُمَ هَذِهِ القَافِلَةَ
في نَفْسِها رُسوماً مُبْهَمَةً، إِلَّا أَنَّها مُفْرِحَةٌ أَيْضاً، تَتَنَفَّسُ في فُؤادِها بِنَدَى رَوِيٍّ.
مَرَّتِ القَافِلَةُ تُحِبُّ تَحْتَ شُرُوفِها، وكانَ حادي الإِبِلِ يُشْجِي الرِّكَبَ بِصَوْتِهِ
العَذْبِ النُّعَماتِ:

أُرَيْيْبُ لَيْتَنِي وُسُدْتُ قَبْراً وَلَمْ أَفْعَلْ، فَفِي الْأَحْشاءِ نارُ
«نَدِمْتُ نَدَامَةً الْكُسْعِيِّ لَمَّا غَدَتْ مِنِّي مُطْلَقَةً نُوارُ»
يَطِيفُ على فُؤادِي رُوحُ آهِ وَذَوْبُ أَسَى، وفي كَيْدِي أَنْفَطارُ
أُرَيْيْبُ، أَنْتِ ذِكْرِي مِنْ نَعِيمٍ وَمِنْ طُهيرٍ، وَمِنْ عَبَقٍ يُثَارُ
أُرَيْيْبُ، هَلْ تَرِفُّ عَلَيَّ دُنْيا مِنْ الْأَحْلامِ، هَلْ ثَوْبٌ يُعَازُ؟
ذَكَرْتُ وفي فُؤادِي نَوْحُ بِالٍ هَوانا، والضَّمِيرُ بِهِ أَوَاؤُ
وَهَلْ قَدَرُ يُطالِعُنا بِفَجْرِ وَيَمْرُخُ في مَسارِحِهِ النَّهارُ
فَنَسْعَدُ، والأَصِيلُ لَهُ أَفْتِراؤُ وَنَنشَى، والغُدُّ لَهُ آزْدِهاؤُ

فَسَقَطَتْ على نَفْسِها هَلْكَى. وَلَمْ تَكْ إِلَّا أَيَّامٌ مِنْ حُلُولِ الرِّكَبِ حَتَّى شاعَ
خَبَرُ عَبْدِ اللَّهِ في العِراقِ، وتَناهى إِلى سَمْعِها، فلمْ تَعُدْ تَعِي. وكانَتْ لا تُرى إِلَّا

مَوْلَاهُ حَتَّى عَنْ وَحِيدِهَا الْمَفْدَى. وَكَانَتْ لَا تُرَى إِلَّا مُعْتَنَقَةً لَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا مُدْلَهَةً،
كَأَنَّهَا تَطْلُبُ فِيهِ رِيًّا، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ ظِلْمًا، وَظَلَّتْ كَأَنَّهَا لَاهِئَةٌ تَطْلُبُ التَّدَى
وَالرَّيَّ.

لَمْ تُطْلَقْ بَقَاءً فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ، فَقَدْ آسَوْدَّتْ نَوَاحِيهِ فِي نَوَاحِي نَفْسِهَا،
فَانْطَلَقَتْ بِحَشَمِهَا وَذَوِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، تَطْلُبُ فِيهَا دُنْيَا جَدِيدَةً، تُغْرِى خَيَالَهَا فِي
أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَخْلُوقًا جَدِيدًا آخِضَرِ فِي نَفْسِهِ الْمَاضِي، وَالذُّكْرِيَّاتِ. رَثَتْ لَهَا نِسَاءَ
الْمَدِينَةِ، وَذَهَبْنَ يَوَاسِيَتِهَا بِكُلِّ مَا عِنْدَ الْمَرْأَةِ مِنْ خِصْبٍ عَاطِفَةٍ، وَالنِّسَاءِ يُحْسِنْنَ،
بِالْمَاسِي بَنُوعٍ خَاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذَاتَ مُبَالَغَاتٍ، وَفِي شُعُورِهِنَّ شُيُوعٌ، فَهِنَّ يُحْسِنْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ فِي كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، وَيَجِدْنَ قُلُوبَهُنَّ فِي التَّكَبُّاتِ، وَهَذَا الشُّيُوعُ فِي
الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بِأَحْدَاثِ الْآلَامِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَجَعَلَهُنَّ أَصْدَقَ تَطْلُعًا،
وَأَرْهَفَ حِسًّا بِالْجَانِحَاتِ الصَّاعِدَاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَجْهُولِ، وَالْغَارِبَاتِ الْهَاطِطَاتِ
إِلَى أَعْمَاقِهِ.

فَتَجَاوَبَتِ الْمَدِينَةُ بِمَأْسَاةٍ أُرِينَبَ، عَلَى مَا أَضَافَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ مِنْ رُوحِهِنَّ
الْآسِيَةِ، فَكَانَتْ لِادْعَةِ الْوَقْعِ، وَقِيْدَةِ الْأَثَرِ، شَائِكَةً فِي نَوَاحِي الضَّمِيرِ...

أَرْسَلَ مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، رَسُولَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ، يَخْطُبَانِ أُرِينَبَ عَلَى
أَيْنِهِ يَزِيدَ، فَذَهَبَا إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَلَّغَهُمَا أَنَّهَا آتَقَلَّتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَنَيَا رَوَاجِلَهُمَا إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ، إِذْ ذَاكَ، قَبَسَ الْهِدَايَةَ، وَمِشْكَاتَةَ الطُّهْرِ، وَنَمُوذَجَ الْأَخْلَاقِ
الْفَاضِلَةِ، وَفَيْلَةَ الْأَنْظَارِ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ، مَفْزَعُ الْهَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلَمِ، وَفِي
رِحَابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضُومُو الْحُقُوقِ الضَّعَفَاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُحِسُّ فِي أَعْمَاقِهِ أَنَّ
وَاجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَعَ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَشْعُرُونَ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّهُ رَأْسُ
الْوَاجِبَاتِ. فَلَمْ يَجِدْ كُلُّ مَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَصَاحِبِهِ، حَيْثَمَا هَبَطَا الْمَدِينَةَ، بُدْأَ مِنْ أَنْ
يَبْدَأَ بِرِيَارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مَهْمَا سَمَتْ بِهِ قِيَمَتُهُ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمَانِ

إليه أنواع الاحترام بمُناسَبَةِ قُدُومِهِمَا، أُنِسَ إِلَيْهِمَا وَقَابَلَهُمَا بِخَفَاوَتِهِ الَّتِي تَعَوَّدَهَا النَّاسُ مِنْهُ، عَلَى اخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ، وَكَانَتْ فِيهِ خَلِيقَةٌ وَطِيبَةٌ.

لَكِنَّهُ أَحْسَنَ، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ فِي مَقْدَمِهِمَا الْمُفَاجِئِ حَدَثًا هَامًا، فَقَالَ لَهُمَا:
الْأَمْرُ قَدِمْتُمَا؟

قالا: نَعَمْ.

قال: وما هو؟ فَمَا كَتَمَاهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ وَجَّهَهُمَا فِي خِطْبَةٍ أَرِيذٍ عَلَى آبِيهِ يَزِيدَ. فَابْتَسَمَ الْحُسَيْنُ ابْتِسَامَةً مَنْ قَدْ أَدْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ قَدْ فَهِمَ غَايَةَ الْمُنَازَرَةِ وَبَالِغَةَ الْمُدَاوَرَةِ الَّتِي بَاتَ مُعَاوِيَةُ يَحِيكُ خُيُوطَهَا، وَيُنْسِجُهَا كَالْعَنْكَبُوتِ حَوْلَ فَرِيضَتِهِ... وَنَغَى إِلَى نَفْسِهِ «خَدَعَهُ مُعَاوِيَةُ حَتَّى طَلَّقَ أَمْرَأَتَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَهَا لِأَبْنِيهِ. فَبِئْسَ مَنْ آسَرَعَاهُ اللَّهُ أَمْرَ عِبَادِهِ، وَمَكَّنَهُ فِي بِلَادِهِ، وَأَشْرَكَهُ فِي سُلْطَانِهِ، يَطْلُبُ أَمْرًا بِخِدْعَةٍ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ أَمْرَهُ»... وَوَصَلَ: لَنْ تَهْنَأَ لِي حَيَاةٌ إِلَّا بِإِعَادَةِ مِيَاهِ حَيَاتِهِمَا إِلَى مَجْرَاهَا، وَلَنْ تَقَرَّ عَيْنَايَ وَأُسْعَدَ، إِلَّا إِذَا قَرَّتْ عَيْنَاهُمَا بِالْعَوْدَةِ وَسَعِيدَا، فَفِي سَعَادَةٍ قَلْبَيْنِ مُخْلِصَيْنِ يَنْبِضَانِ بِالْحُبِّ، وَيَخْفُقَانِ بِالْعَاطِفَةِ الْبَرِيَّةِ سِرِّ سَعَادَتِي. فَعَلَيَّ أَنْ أَهْدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ أَحْيَالَهُ، وَأَصِيدَهُ بِشِبَاكِهِ. أَفُ لِلْغَاشِمِينَ الَّذِينَ يَرْقُصُونَ عَلَى الْأَشْلَاءِ، وَيَبْتَسِمُونَ فِي دُمُوعِ النَّاسِ وَيَنْتَشُونَ كَمَا لَوْ بِهَا يَغْتَسِلُونَ؟ لَقَدْ آسَتُغَوَاهُ فَبَاتَ ابْنُ سَلَامٍ طُغْمًا فِي حِبَالَتِهِ.

فَقَالَ الْحُسَيْنُ لَهُمَا: لَقَدْ «كُنْتُ أَرَدْتُ يَكَاخَهَا، وَقَصَدْتُ الْإِزْسَالَ إِلَيْهَا، فَاخْطُبَا عَلَيَّ وَعَلَيْهِ، وَأَعْطِيَاهَا مِنَ الْمَهْرِ مِثْلَ مَا بَدَلَ عَنِ ابْنِي وَلِتَنْخَيَّرَ»...

إِسْتَأْذَنَاهَا بِالْدُخُولِ، وَبَعْدَ أَنْ آسَتَوَى بِهِمَا مَقْعَدُهُمَا، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

أَيُّ بُنْيَةٍ! إِنَّكَ لَمْ تَزَالِي شَابَّةً فِي عُثُفَوَانِ الشَّبَابِ وَمِيعَةِ النَّشَاطِ، وَأَنَا بِكَ جَدُّ صَنِينٍ أَنْ تَذْهَبِي نَهْبًا لِلخَوَاطِرِ، وَتَذْهَبَ نَضَارَتُكَ شَعَاعًا فِي أَكْثَابِ. وَإِذَا

سَاعَكَ مِنْ آئِنِ سَلَامٍ مَا لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ وَمَا لَمْ تَكُونِي بِهِ جَدِيرَةً، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي سِوَاهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ، فَقَدْ خَبِرْتُ الرِّجَالَ وَبَلَوْتُ عَاطِفَةَ قُلُوبِهِمْ فَمَا حَمِدْتُهَا، وَبَحَسْبِي فَتَايَ أَرْعَاهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَمَنَيْتُ لَوْ كُنْتُكَ، وَفَعَلْتُ مَا يُشِيرُ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ... فَأَبْتَسَمَتْ وَهِيَ لَا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مُدَاعَبَةً، وَوَاصَلَ: وَهَلْ مِثْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ يُرَدُّ وَيُخْتَلَفُ عَلَيْهِ... وَلَمْ يَزَالَا بِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهَا خِيَانَةُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَالَتْ إِلَى التَّكَايَةِ، وَرَغِبَتْ بِالْإِنْتِقَامِ.

فَقَالَتْ: وَبَعْدُ... فَعَرَفَا بِذَلِكَ إِجَابَتَهَا.

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَرَادَكَ لِنَفْسِهِ «أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآبُنُ مَلِكِهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ». وَكَذَلِكَ أَرَادَكَ الْحُسَيْنُ آبُنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ خَاطِبَيْنِ عَلَيْهِمَا، فَأَخْتَارِي أَيُّهُمَا شِئْتَ... وَهِيَ مَا سَمِعَتْ أَسْمَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ حَتَّى وَجَعَتْ، وَكَظَمَتْ بُرُكَانَ حَفِيطَتَيْهَا، وَهَلْ هَدَمَ سَعَادَتَهَا، وَهَنَاءَةً مَا كَانَتْ فِيهِ إِلَّا هَذَانِ وَعِصَابَتُهُمَا؟! وَهِيَ الَّتِي طَالَمَا حَدَّثَتْ شَقِيقَ قَلْبِهَا مِنْ شَبَابِكِهِمَا، وَوَدَّتْ لَوْ آعْتَزَلَ عَمَلُهُمَا، فَهَلْ تُلْقِي نَفْسَهَا، بِكُلِّ اخْتِيَارٍ وَطَوَاعِيَةٍ، فِي قَبْضَتَيْهِمَا الْقَاسِيَةِ الرَّهِيْبَةِ، فَتُغْتَصَرُ لَا لَا! إِنِّي لَسْتُ فَاعِلَةً وَلَوْ أَوْطَأَنِي يَزِيدُ الدِّيَابِجَ وَأَحَاطَنِي بِمِثْلِ رَغَبِ النَّعَامِ!

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ أَرْضَى بِهِ، وَهَلِ اجْتَوَيْتُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِسَبِيلٍ مِنْهُمَا؟ وَهَلْ فَرَزْتُ وَتَشَرَّدْتُ إِلَّا عَنْهُمَا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ أَعِيشَ فِي دُنْيَا لَا تَعْرِفُ عِصَابَتَهُمَا أَوْ لَا يَغْرِفُونَهَا. وَطَالَ بِهَا الصُّمْتُ وَهِيَ فِي مَعْرِضِ خَوَاطِرِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

عَلَامَ عَوَّلْتَ؟ وَأَيُّهُمَا اخْتَرْتِ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لِي صَمْتُكَ أَنَّكَ عَدَوْتُ دُمِيَّةً لَا

تَنْطِقِينَ... فَأَنْقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَوَاطِرِهَا، وَكَرِهَتْ رَدَّ وَسِيلَتَيْهِمَا، فَقَالَتْ:

وَمَنْ تَخْتَارُ أَنْتِ؟

قَالَ: الْأَمْرُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ، مُخْرِجَةً لَهُ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ يُفْضَلَ يَزِيدَ بِحَالٍ: لَوْ أَنَّ «هَذَا الْأَمْرَ جَاءَنِي وَأَنْتِ غَائِبٌ، لَأَشْخَصْتُ فِيهِ الرُّسْلُ إِلَيْكَ وَآتَبَعْتُ فِيهِ رَأْيَكَ، فَيْكَفَ وَأَنْتِ الْمُرْسَلُ. فَقَدْ قَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، فَأَخْتَرْتُ لِي أَرْضَاهُمَا.

فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَةٍ إِنْ «أَبْنَى رَسُولُ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَيَّ وَأَرْضَى عِنْدِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِخَيْرِهِمَا إِلَيْكَ»... فَأَتَّبَعْتُ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

نَعَمْ. نَعَمْ. وَأَنَا وَاللَّهِ «لَا أَقْدُمُ أَحَدًا عَلَى صَاحِبٍ فَمَ قَبْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ»، فَيَا لِيُغْبَطَ لَكَ بِهَذَا الْقَمِ وَهَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ! لِيَتَنِي كُنْتُ أَرْيِبُ، إِذَا لَسَالُ لُعَايِي! وَتَلَمَّظَ... فَقَالَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدْ آخَرْتُهُ.. فَتَزَوَّجَهَا الْحُسَيْنُ وَسَاقَ لَهَا مَهْرًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَتَعَاظَمَهُ، وَلَا مَهْمَا أَشَدُّ لَوْمٍ، وَقَرَّعَهُمَا أَعْنَفَ تَقْرِيعٍ، وَلَكِنَّهُ أَنْقَلَبَ مَعَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

كَانَ جُهْدُ الْحُسَيْنِ، بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهَا، أَنَّهُ يُوَاسِيهَا، وَإِذَا ذَكَرَتْ أَبْنَ سَلَامٍ وَمَا سَمِعَتْهُ خِيَانَةً زَوْجِيَّةً، أَتْنَى عَلَيْهِ وَهَوَّنَ فِعْلَتَهُ، وَأَفْهَمَهَا إِسَاحَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي رَاحَتْ تَفْهَمُهَا عَلَيْهِ، وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الْحَادِثَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ عَظِيمٌ نَكِيرٌ، فَإِنَّمَا هُوَ إِقْدَامٌ مِنْ هَيَأَ لَهُمَا أَسْبَابُ الشَّقَاءِ. ثُمَّ أَلَمَ تَقُولِي فِي بَعْضِ كَلَامِكَ إِنَّهُ طِفْلٌ، فَلَا عَجَبَ إِذَا آخَتَلَبُوا فِيهِ عَقْلَهُ، وَاسْتَبَدُّوا بِهِوَاهُ. فَإِذَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَى مَا أَقْتَرَفَ أَبْنَى سَلَامٍ مِنْ أَفْتِي جَدِيدٍ، وَإِذَا هِيَ تَرَى فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صَحِيَّةً أَغْرَاضٍ وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ مِثْلَهَا، وَإِذَا بِهَا تُذَرِّكُ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُوَاسِيَهُ جُهْدَهَا، وَقَدْ بَاتَ شَقِيئًا. فَبَدَأَتْ تَحِينُ

إليه، وبدأت تُعاوِدُها ذِكْرُاهُ في رَغِيبةِ قَلْبٍ، وكانَ الحُسَيْنُ يُحِسُّ هذا منها، فيفيضُ
بِشْراً وتَتَنَصَّرُ تقاسيمُ وَجْهِهِ بِشاشةٍ وإشراقاً، فقد نَجَحَ وأدنى قَلْباً باتَ نفوراً، مِنْ
قَلْبٍ باتَ وقد تَشَطَّرَ وَيلاً وثُبوراً.

*

أما عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فقد ظَلَّ في الشَّامِ يَزِيهِ الهَيْعَةُ الحَاكِمَةُ بِكُلِّ سَناءٍ
وعارٍ، وَيَطْعُنُ فيها أَبْلَغَ ما وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وهو لا يُبالي غَضَباً ولا رِضى، إِنَّهُ مُفْجوعٌ
مؤتور.

فأَطْرَحَهُ مُعاوِيَةُ لِمَكانٍ هذا الطَّعْنِ والتَّعْرِيضِ بالتَّشْنِيعِ، وَعَزَلَهُ عَنِ إِمارةِ
العِراقِ، وَقَطَعَ عَنْهُ رِوافِدَهُ، فَقَلَّ ما في يَدَيْهِ قِلَّةً باتَ مَعَهَا مُعْدِماً، وغداً مثلاً
للبُؤْسِ الحَيِّ والشَّقَاءِ الشَّاخِصِ.

وَتَحْتَ إلْحاحِ البُؤْسِ عَلَيْهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ قَدِ اسْتَوْدَعَ أَرِيْبَ ما لا عَظِيماً،
وتَذَكَّرَ أَنَّها أَضْحَتْ في عِصْمَةِ الحُسَيْنِ، وهو لَنْ يَدَعَ لها سَبِيلاً لِلانْتِقَامِ «فَتَجَحَّدَهُ
إِيَّاهُ لَطَلاقِها مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»، فانتَقَلَ إلى المَدِينَةِ وَلَقِيَ الحُسَيْنَ وَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وهو
في شَكْلِ الصُّحْبَةِ الشَّقِيَّةِ، والفَرِيْسَةِ الطَّرِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ آثارُ أَثابِ السَّبْعِ بارِزَةً
فيها، راسِمةً أَنْكَرَ آياتِ وَحْشِيَّتِها، فَزَنَى لِمَراهُ، وَرَقَّ لَهُ كَثيراً وواساهُ كَثيراً. فَدَخَلَ
الحُسَيْنُ عَلَيْها وَحَضَّها على رَدِّ مالِهِ إِلَيْهِ، فَقالَتْ:

ها هو بِطائِعِهِ لَمْ أَمْسِسْهُ... وَقَصَدَ حُسَيْنٌ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْها بِشَقائِهِ، فلا بُدَّ
أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِشَفَقَتِها وَحَنايَها دُونَ غِلْظَةٍ أو جَفْوَةٍ. وَكَذلِكَ كانَ، فَتَلاقَيا وَاسْتَضَبَرا
طَوِيلاً في ذُھولٍ وَوُجومٍ، وَغَفَلا عَنِ وُجودِ الحُسَيْنِ بِقُربِهما، فَتَوافَقَتْ نَظَراتُهما
ناطِقَةً بِالحُبِّ والدَّمْعَةِ طائِفَةً، يُحَيِّلُ لِمَنْ رَأَها أَنَّ مِنْ وَراءِ عَينَئِهما قَلْبَينِ يُطِلانِ،
وقَدْ تَدانَيا كَثيراً حَتَّى رَسَما دائِرَةً تَدورُ فيها لَحْظَةُ حُبٍّ نَشوى.

وكانت عينا الحسين تشعان بالسرور؛ وأخذ طريقه إلى الهيكل وقد أنصرف
عنهما زوجين، كي يشتمل عليه الحراب من جديد، إنه جدُّ مُعْتَبِطِ الروح.

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتيف غصن يمس، وكانت ناعمة
تلهو بأغاني سعادتها...

فبصر بها عنكبوت صغير، ودَّ لو يزوي بهناءتها شهوات نفسه الحرة...
وما لبث حتى جاء قزم القناكب يُبادر، وراح ينسج شباكهُ من حولها...
وإذ ذاك حوّم بلبلٌ غريدٌ كان ينشرُ بألحانه في الأزواج نشوات مُنعشات،
وحطَّ حيثُ انتصبت أشرارُ المأساة...

فتقدَّ القزم نقدةً، ومضى يُغرِّدُ تغريداً كان مغناه: «ومكروا ومكر الله، والله
خيرُ الماكرين...».

*

ظنَّ «الصغير» أنَّ القوَّة هي كُلُّ شيءٍ، وفوقَ كُلِّ شيءٍ...
وظنَّ «الكبير» أنَّ الحيلة هي كُلُّ شيءٍ، وفوقَ كُلِّ شيءٍ...
ولكن حين وقع الحقُّ في شخصِ الإنسانِ الكاملِ، «بطل ما كانوا يعملون،
فعلوا هتالك وأنقلبوا صاغرين»!...

* * *

تقوى

كَانَ يَوْمًا أَرْدَهَتْ فِيهِ دَمَشْقُ بِكُلِّ أَفَانِيْنِهَا، وَبَرَزَتْ فِيهِ بِكُلِّ قُتُونِهَا، هَذَا
الْيَوْمُ الَّذِي أَطْلَلَ مَعَهُ الرَّبِيعُ فِي آيْتِسَامَةِ الْأَزْهَارِ وَعَبَقِي آيْتِسَامَتِهَا، مُرْصَعًا بِخُيُوطِ
الشَّمْسِ الْمُفْتَنَّةِ يَقْنَاعٍ مِنَ الْمَزْنِ الرَّقِيقِ الشَّفَافِ.
كَانَ عَادَةً، عِنْدَ نَاسِهَا، آسْتَقْبَالُ الرَّبِيعِ بِأَشْيَاءِ الْأُنْسِ وَالْحَفَاوَةِ، وَبِمَا تُوحِيهِ
الْمُتَعَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ، فَكَانَ يُخَيَّلُ لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُمْ نَسُوا حَتَّى الزَّمَانَ فِي وُجُودِهِمْ، ثُمَّ لَمْ
يَذْكُرُوا إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ اللّٰهُوَ الْعَابِثِ الْبَرِيِّ، فَيَقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِلَهْفَةِ الظَّامِي
عَلَى الْيَنْبُوعِ، وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى كُلِّ مَعْنَى نَضِيرٍ، وَيَنْتَشِرُونَ أَنْتِشَارَ الطَّيْرِ فِي كُلِّ
فَضَاءٍ.

فَمِنْ هُنَا تَنْبَعُ ضَحِكَاتٌ، وَمِنْ هُنَاكَ تَنْطَلِقُ زَفَرَاتٌ مِنْ غَنِّ الطُّفُولَةِ،
وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ جَمْعٌ يَحْلُمُونَ فِي أَنْسٍ وَمُتَعَةٍ شَرُودٍ، وَعَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ قَوْمٌ يَنْعَمُونَ
فِي مِثْلِ وَثْبِ الطُّبَاءِ وَخَطَرَاتِ الْوُعُولِ، وَتَلَفَّعَتِ الْآفَاقُ، فِي حِسِّ هَوْلٍ لِّلَّاهِينَ،
يَكْلَلُ مِنْ أَلْقَى فَرْحَةٍ كُبْرَى.

وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ كَأَنَّهُ، فِي حِسِّ الْقَلَلِ، سَاعَةً مِنْ لَاوَعِي الزَّمَنِ، يَسْتَبِخُ مِنْهَا
فِي عَزَبَدَةٍ حَالِمَةٍ أَوْ أَحْلَامٍ مُعَزَّبَةٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الْحَيِّ الشَّاعِرِ، أَنْ تَطْيِفَ بِهِ هَذِهِ
السَّاعَةُ مِنَ لَاوَعِي الزَّمَانِ، وَلَا يَغْرُقُ مَعَهَا فِي خِصْمِ النَّسِيَانِ مِنْ قِيُودِ الْوَعْيِ
وَالْفِكْرِ.

في هذا اليوم كَانَ مُعَاوِيَةُ فِي قَصْرِهِ الْمَشِيدِ، وَفِي الْجَنَاحِ الْغَارِقِ بِالْمَتَعِ، يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِنْ حَاشِيَتَيْهِ زَنْبَقَةً زَهْوِ الْيَوْمِ. وَكَانَ بُدَيْخُ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ يُؤْنِسُهُمْ بِطَرَائِفِ أَخْبَارِهِ وَمُلَحِ نَوَادِرِهِ، فَأَنْتَهَى بِهِ الْحَدِيثُ إِلَى أَخْبَارِ صَائِعَةِ الْإِغْرِيقِ الْحَرَائِيَيْنِ، وَعَجَائِبِ مَا شَاهَدَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

كَأَنَّ نِسَاءَهُمْ خُلِقْنَ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَمَالِ، إِنَّ لَمْ تَكُنْ فِكْرَةُ الْجَمَالِ صِغَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِنَّ، بَلْ لَعَلَّهُنَّ فِي بَحْرِ الْجَمَالِ لَآلِيَةٌ. فَقَدْ آفَتَنَّ فِيهِنَّ إِبْدَاعُ الْخَلْقِ حَدًّا أَبْرَزَهُنَّ مَثَلًا نَاطِقَةً بِالْفَنِّ... فَأَيُّهُ تَقَاطِيعَ فِي أَيِّ وَجْهِ؟... وَدَارَ بِهِ نَاضِرُهُ كَالَّذِي تَذَكَّرَ صَبَابَةَ قَدِيمَةٍ طَبَعَ عَلَيْهَا الْإِخْفَاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَوِيلَةً آخَتَنَقَتْ فِي حَلْقِهِ قَبْلَ نَهَائَتِهَا...

قَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: لَكَ لَكَّاءٌ لِكَيْ يَنْهَنُّ ذِكْرِي طَرِيقَةً بِمَوْقِعِهَا عَلَى قَلْبِكَ، وَإِنْ قَدَّمَ بِهَا الْعَهْدُ... فَرَاخَ يُحَاوِلُ الْإِخْفَاءَ عَلَى شَتَّى مَزَاهِيهِ وَأَسَالِيهِ، وَلَكِنْ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ مَا يُفْصِحُ بِكُلِّ خَبَرٍ قَلْبِهِ، فَقَدْ غَدَتَا تُغْفِيَانِ تَحْتَ هَبَاءَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الدُّهُولِ، حَتَّى لَيْظُنَّ النَّاضِرُ إِلَى مُقْلَتَيْهِ أَنَّهُمَا جَمَدَتَا فِي غَيْرِ حَيَاةٍ، لَوْلَا بِصِصٌ رَفِيعُ الْخُيُوطِ كَانَتَا تُوسِلَانِيهِ قَلْبًا، عَلَى أَنَّهُ مَالٌ يَتَخَافُ فِيمَا تَمَوَّهَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ دَمْعِ رَقِيقٍ، لَمَّا يُؤْذَنُ لَهُ فَيَتَحَدَّرُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تَرْسُلِهِمْ وَتَبَشُّطِهِمْ، آسَتْ أَذَنُ الْحَاجِبِ، وَأَعْلَمَ الْمَلِكُ أَنَّ كَبِيرَ النَّحَّاسِينَ أَتَى بِجَارِيَةٍ فَائِقَةٍ «يَوْدُ عَرَضُهَا» فَقَدْ كَانَ مُتَعَارِفًا أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالْقَصْرِ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْغِلْمَانِ، فَأَذِنَ الْمَلِكُ، وَأُجْرِيَتْ «مَرَاسِيمُ» الدُّخُولِ.

وَكَانَ عَجَبُ الْحُضُورِ كَبِيرًا حِينَمَا مَثَلَتْ بَيْنَهُمْ، فَهِيَ تَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قَسْطٍ مِنْ جَمَالِ الرُّؤْيَى فَوْقَ الْخَوَالِبِ مِنَ الْقَسَمَاتِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَتَرَاوَى لِلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُنْصِرُونَ مَنْظَرًا مِنْ جَمَالِ فَنِّ خَيَالِيٍّ، يَجِيءُ مِنْ دُونِهِ كُلُّ مَا فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ

مِنْ فَنِّ الْجَمَالِ.

هَبَطَتْ عَلَى جَمْعِهِمْ هُبُوطَ الْبِرْعَةِ عَلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فِي الْغَابِ مَعَ ظِلَامِ الْمَسَاءِ. فَاهْتَزَّتْ أَغْصَابُهُمْ كَالْأَوْتَارِ، وَنَطَقَتْ بِلَحْنِ الْحَنِينِ الْمَوَاجِ، فَحَامَتْ فِي مَدَى بَدَوَاتِ هَذَا الْإِبْدَاعِ. كَانَتْ عَلَى أَغْصَابِهِمْ صَدْمَةٌ جَمَالٍ فَعَلَتْ فِيهَا مِثْلَمَا تَفْعَلُ صَدْمَةُ الضُّوءِ، أَوْ النَّعْمِ، الَّتِي يَتَجَاوَزُ مَعَهَا فَضَاءُ النَّفْسِ الْخَلَاءِ بِتَوْنِ اهْتِزَازِهَا، فَتَمِيدُ أَوْ تَذْهَلُ، وَالصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنَ الْأَغْصَابِ كَانَتْ أَكْثَرَ تَأْتِيرًا، وَأَدْوَمَ أَمْدًا.

وهذه الفتاة الكاعبة تركت فيهم أثراً أخذوا حاداً لم يزل يترأى، حتى باتوا منها مثل النحال، وقد عرض لها مضباح كثير التوقيد والألق في لسان الشعاع.

وكان في هذا الدُّهول الذي عراهم، ما جعل أحداً لا يفطن إلى ما استبدَّ ببدنهم من اضطراب، وما تملكه من تلهم، كما لم يفطن أحد أيضاً إلى ما ساورها من خلجات غنيفة كظمثها، فعزبت على قمم مقلتيها ناطقة باللحظ الثواب. كان لناظر أن يقدر أن بدحاً أكثرهم أخذاً بها لأنه كان أكثر تذوقاً للجمال، وأما أن يقدر أنها بالذات نفس فائتيه التي احتفظ بها ذكرى نديّة بالغرام، وعرضت لنفسه منذ هنيهة في بعض الحديث، فهذا ما لم يكن يقع في مذهب الخاطر المرسَل.

لقد قطع هداةُ وجوم الانجذاب، معاويةً بقوله مخاطباً كبير النخاسين: لشد ما أذهشتنا حوزاًؤك، فمن أين هي؟ وما أسمها؟

قال الرجل: «إسمها هوى»... فانبعث بفسر بن أوطاة أنبعثاً يقول:

«هي والله كاسمها هوى»، تخفيض منه وترفع، وتطيل به وتقصير، وتتشرب منه وتطوي.

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَمَاذَا يَكُونُ الْهَوَىٰ إِنْ لَمْ تَكُنْهُ؟ وَكَانَ بُدَيْعٌ قَدْ ضَبَطَ أَرْشِيَّةَ قَلْبِهِ الْفَائِرِ بِالذِّكْرِى وَالْحُبِّ، وَالْآلَامِ وَالْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، أَوِ الْقُرْبِ الَّذِي كَانَ فِي مَعْنَاهُ نُقْطَةُ الْغَوْرِ فِي الْبُعْدِ السَّحِيقِ. شَعَرَ الْآنَ فَقَطُ أَنَّهَا نَأَتْ عَنْهُ وَإِلَى الْأَبَدِ، أَمَا غُرِضْتُ عَلَى الْمَلِكِ وَنَالَتْ أَشْتَحْسَانَهُ وَحَظِيَّتْ بِإِعْجَابِهِ، فَهُوَ لَا مَحَالَةَ سَيَضُمُّهَا إِلَى جُمْلَةِ وَصَائِفِ الْقَصْرِ وَوَلَائِدِهِ، فَكَانَ فِي حِسِّ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ يَعْصُ عَلَى جَانِبِ قَلْبِهِ يَمْضَعُهُ.

كَيْفَ لَمْ يَتَّبِعْهُ الْقَدَرُ إِلَى الْحُزُوجِ مُنْذُ هُنَيْهَةٍ وَتَلَقَّاهَا عَرَضًا، فَقَدْ كَانَ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدُّخُولِ وَيَحْظِي بِهَا لِنَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي ظَلَّ يَتَمَنَّى حَيَاتَهُ لَحْظَةً لِقَاءٍ مِنْهَا. لَقَدْ مَدَّهُ الْقَدَرُ بِسَاعَةٍ لِقَاءِ عَفْوًا، وَلَكِنْ فِيهَا مَرَارَةُ التَّكَايَةِ وَالتَّلَوِيحِ الْيَائِسِ، فَقَاضَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ، يَبْدَأُ أَنَّهُ ظَلَّ يُعَالِجُ مَشَاعِرَهُ، وَيَحْتَمِي وَرَاءَ بَرَاقِعِ صَفِيْقَةٍ مِنَ التَّجَلُّدِ، فَقَالَ:

مِثْلَمَا هِيَ بَرَاعِمُ الْأَزْهَارِ كَانَتْ حُقًّا لِلْجَمَالِ وَالْعَبِيرِ فِي الزَّهْرَةِ، فَلِلْعَوَاطِفِ الْحَيَّةِ حِقَاقٌ أَوْ بَرَاعِمُ، تَتَفَقَّحُ عَنْ زَهْرَةٍ جَمَالٍ أَيْضًا، وَعَنْ زَهْرَةٍ هَوَىٰ أُخْيَانًا، وَعَنْ زَهْرَاتٍ مَعَانٍ أُخْرَى أَيْضًا.

وَهَذِهِ آلِغَادَةُ كَمَا أَرَاكُمْ تُحِشُونَ - بُرْعُمَةُ الْهَوَىٰ فِي دُنْيَا الْقَلْبِ الشَّاعِرِ - تَتَنَفَّسُ بِأَرْبِجِهِ مَعَ السَّحْرِ النَّدِيِّ كَمَا تَتَنَفَّسُ الْوُرُودُ. وَفِي حِسِّي أَنَّ الْأَزْهَارَ تُعَبِّرُ عَنِ الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي قَلْبِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ، كَمَا تُعَبِّرُ هَذِهِ الْغَانِيَاتُ عَنِ الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي ضَمِيرِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ، وَقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

وَفِي غَايِرِ أَيَّامِي، مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ شَبَابِ الْقَلْبِ، أَحَدْتُ هَوَىٰ وَأَحَدْتُ فِيهِ بِهَذَا الْمَعْنَى شِعْرًا:

يَا وَرْدَةً فِي رِيَاضِ الْحُبِّ يَانِعَةً تَرْجِي الْهَوَىٰ، كُلَّمَا مَرَّ الْهَوَا فِيهَا
هَيَّا أَنْشُرِي عِطْرَكَ الْغَانِي الَّذِي أَمْتَرَجْتُ بِهِ الدُّمُوعَ، وَرَوْتُهُ مَاقِيهَا

فَسِرُّ عِطْرِكَ هَذَا، أَدْمَعُ سَكَبَتْ عَلَى جُذُورِكَ فِي نَجْوَى لَيَالِيهَا
ثُمَّ اسْتَحَالَتْ عَبِيرًا مِنْ طَهَارَتِهَا فَتَوَّهِيَ بِالْهَوَى مَا شَبَّتِ تَثْوِيهَا
فَأَنْتِ ذِكْرِي مُجِبٌّ طَالَمَا آخَتَبَسْتُ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ خَانَتْهُ خَوَافِيهَا
كَمْ مِنْ صَرِيحِ هَوَى، قَدْ عَاجَ مُنْتَجِيًا إِلَى ظِلَالِكَ شَاقَتْهُ مَغَانِيهَا
فَرَاخَ يَنْظِمُ آهَاتِ مُقْطَعَةٍ وَرَاخَ يَنْثُرُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا
حَتَّى أَنْتَهَى، فِي خِصَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدَى وَأَنْتِ ذِكْرِي هَوَاهُ بِتِ تَحْيِيهَا^(١)

وَكَانَ بُدَيْخٌ يُنْشِدُهَا بِصَوْتِ زَافِرِ الرِّثَائِ، خَافِتِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ، وَبَوَاجِ
سَاهِمِ النَّظَرَاتِ بَادِي الدُّهُولِ، حَتَّى لَقَدْ خَيَّلَ لكَثِيرٍ مِمَّنْ حَضَرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ صَدَى،
كَمَا رَاخَ يُنْشِدُ وَيَقُولُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكَأَنِّي بِكَ، يَا بُدَيْخُ، أَخَذْتُ بِهَا هَوَى جَدِيدًا.

قَالَ بُدَيْخُ: بَلْ إِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِأَسْبَابِ هَوَى قَدِيمٍ، وَاسْتَيْقَظَ فِي قَلْبِي رَسِيسُ
حُبِّ ضَاقَ بِهِ النَّسِيَانُ. وَأَنْقَطَعَ بِهِمْ عَارِضُ الْحَدِيثِ، فَعَادَ النَّخَاسُ إِلَى مَقَالِهِ:

وَهِيَ صَابِئَةُ الْمَنِيِّ وَالنَّجَارِ، تَرَقَّى إِلَيَّ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لَتَكُونَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ
رَبَّةِ الْجَمَالِ عِنْدَهُمْ، وَالصَّابِئَةُ يَتَخَرَّوْنَ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَكُونَ نَسَقًا فِي الْمَلَامِجِ
وَالنَّقَاطِيعِ وَالشُّكْلِ مَعَ آلِهَتِهِمْ، لِيُبْرَزَ لَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ، وَكَأَنَّ رَبَّةَ الْجَمَالِ
بَرَزَتْ لَهُمْ أَوْ تَقَمَّصَتْهَا، فَأَنْتَهَتْ بِهَا صُرُوفُ الْأَقْدَارِ إِلَى حَيْثُ تَرَى.

وَالْعَجَبُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهَا ذَاتُ فَلَسَفَةٍ فِي الْحَيَاةِ رَغِبَتْ بِهَا عَنْ مُتَعِ
الْحَيَاةِ، أَلْفَتْهَا فِي مِثْلِ الزُّهْدِ.

(١) من قصيدة لي في وردة كُنْتُ غَرَسْتُهَا «أَيَّامُ زَمَانٍ»، كما يقولون، حين كانت لي دَارٌ وكانت لي
حديقة... كما هو الشأن في المقطعات الشعرية الأخرى المبتوثة في أقصوصة «مع أزييب».

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّهَا سَكَنَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَتْهُ،
وَأَتَتْ فِي فَهْمِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ نَاشِطًا: كَيْفَ تَقُولُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ... فَضَمَّهَا إِلَى قَصْرِهِ، وَقَدْ بَذَلَ فِيهَا «مِائَةَ أَلْفِ
دِرْهَمٍ». وَوَاصَلَ: لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ بُدَيْخٌ فِي مَا مَضَى يُحَدِّثُكُمْ بِهِ...

وَلَكِنْ لَمْ تَبْعُدِ الْوَصَائِفُ بِهَا، حَتَّى أَشْتَوَى وَكَانَ مُتَكِنًا، فَقَالَ:

«لِمَنْ تَصْلُحُ هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟»

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: مَنْ «سِوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلُحُ لَهُ؟» وَكَذَلِكَ «قَالَ
آخَرُ وَآخَرُ»، وَمُعَاوِيَةُ يَقُولُ لَا، وَيَبْتَسِمُ كَالَّذِي يُعَايِيهِمْ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ التَّشَوُّفَ مَا أَخَذَهُ، وَتَرَائِدَهُمُ التَّلَهُفُ - وَالرَّاعِبُ يَكُونُ
أَمِلًا أَبَدًا - فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَشَوُّقًا بُدَيْخَ، فَقَدْ عَرَضَ فِي خَاطِرِهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَرَأَ قَلْبَهُ.
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَتِ التَّظَنُّةُ الْبَادِيَّةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْضًا، وَبَعْدَ لَأْيٍ، قَالَ لَهُمْ
مُعَاوِيَةُ:

إِنَّهَا بَرُوحِيَّتُهَا وَكَمَالُهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْحُسَيْنِ، «فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، لِمَا لَهُ مِنَ
الشَّرَفِ، وَلِمَا كَانَ قَدْ شَجَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَبِيهِ»... فَأَوْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ آثَارُ
مَشَاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ. أَمَّا بُدَيْخٌ فَكَانَ مَحَلًّا لَأَنْوَاعِ شَتَّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدْ
أَنْشَرَخَ وَآكْتَأَبَ، وَطَرِبَ وَحَزِنَ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَنْفِعَالِ. إِنَّهُ أَمَلَ أَنْ يَكُونَ
مَوْضِعًا لِسُقُوطِ هَذَا النَّدَى، وَتَمَنَّى، وَهُوَ الظَّامِئُ بِالْهَوَى، أَنْ تَكُونَ رِيَّةُ هَذِهِ
الْغَادَةِ الَّتِي هِيَ غَادَةُ قَلْبِهِ، وَلَكِنْ خَابَ أَمَلُهُ فَأَكْتَأَبَ. يَبْدَأُ أَنَّهُ مَشَى فِي حَوَاشِي هَذَا
الْاِكْتِئَابِ عِنْدَهُ أَنْشِرَاخٌ، مَصْدَرُهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ، وَهُوَ الْمُنْتَشِي بِرَحِيقِ الْهَيْكَلِ
وَالْمُسْتَغْرِقُ فِي التَّأْمُلِ الْإِلَهِيِّ، أَصْحَتْ صِنُوَ مَقَامِهِ بَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، هُوَ يَتَشَهَّى

أَنْ تَكُونَ قَرِيْبَةً مِنْهُ وَكَفَى، إِنَّهُ يُرِيدُهَا مُتَعَةً قَلْبٍ وَقَدْ سَقَطَ عَلَى أُمْنِيَّتِيْهِ مِنْهَا.

فَقَارَ فِي نَفْسِهِ يَنْبُوْعُ بِشْرِ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكاً خَفِيّاً فِي الْخِيَالِ، وَزَادَ بِهِ حَتَّى أَنْفَجَرَ يَضْحَكُ كَالْمُعْرَبِدِ الْغَرْدِ، يَمَّا جَعَلَ الْحُضُورَ يَرْمُقُوْنَهُ بِأَشْتِغَابٍ، وَطَافَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا بَالُ بُدَيْحٍ؟... وَلَكِنْ قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجِئَةً لَذَّةَ الْوَقْعِ عَلَى الْحُسَيْنِ، لَا سِيَّما وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ رَبِّةِ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحَالِمُ الْهَائِمُ بِالْجَمَالِ الْمُفْعَمِ بِهِ ضَمِيرُ الْوُجُودِ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلَتْهَا الْوَصَائِفُ بِالتَّطَرُّيَةِ وَالْهَنْدَمَةِ مَعَ أَصْلُوبِ الْقَصْرِ، بَرَزَتْ كَالرَّبِّيةِ الَّتِي تَحْلُمُ، وَالْبَحِيرَةُ تَضْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقِيقَةِ عِنْدَ الشَّاطِئِ.

كَانَتْ سَاحِرَةً اللَّفْتَةِ صَارِخَةً الْفِتْنَةِ، مُعْرِيةَ الْجَمَالِ، وَلَكِنَّهَا تُرَى، مَعَ ذَلِكَ، كَالْهَائِمَةِ مَعَ ضَمِيرِهَا. فَلَمْ تَكُنْ يَمْنُظَرُهَا ثُبُرُ أَصْدَاءِ الشَّهَوَاتِ، بَلْ تَنْشُرُ أَحْلَاماً نَشَوَى مِنْ أَحْلَامِ الرُّوحِ، تُلْقِي النَّاطِرَ قَسْراً فِي مِثْلِ الْمِخْرَابِ الَّذِي يُشْبِعُ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ مَعْنَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ.

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْجَمَالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إِلَّا لِلْهَائِمِينَ فِي دُنْيَا ضَمَائِرِهِمْ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَهَيِّمُونَ فِي دُنْيَا أَعْصَابِهِمْ وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى رُسُومِهَا، فَإِنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الَّذِي يُغْرِيهُمْ بِمَعْنَى مُبْهِمٍ لَا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيَطْعَمُونَ فِيهِ مَرَارَةً الْفَقْدِ، ثُمَّ لَا يُحَرِّكُ أَيْ وَتَرٍ مِنْ أَوْتَارِ قَيْثَارَةِ خِيَالِهِمْ الْمُرَكَّبَةِ تَرْكِيباً لَا تَنْطِقُ مَعَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَمَالِ، أَوْ تَنْطِقُ بِنَعَمَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ تُوْحِي بِالْمَرَارَةِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ الْمُعْنَويَّةَ مُرَكَّبَةً تَرْكِيباً نَعْمِيّاً (مُوسِيقِيّاً) لِأَنَّهُ مُتَنَاعِمٌ بِطَبِيعَةِ تَأْلِيفِهِ الْمُحْضُويِّ، وَهِيَ - عَلَى نَسَقِ أَوْتَارِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ بِرِيشَةِ الْبَوَاعِثِ، إِذَا صَحَّ هَذَا التَّغْيِيرُ - مُتَنَوِّعَةٌ الْأَلْحَانِ وَالْإِيْحَاءِ. فَمِنْهَا مَا يُوْحِي بِالشَّهْوَةِ، وَمِنْهَا مَا يُغْرِي بِالتَّأَمُّلِ، وَمِنْهَا مَا يَجِيْشُ بِالدَّمَاءِ، وَمِنْهَا مَا يَمُورُ بِالْحَنَانِ وَالْحُبِّ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ إِلَى

الاستغلاء. إِنَّ اللَّذَّةَ، فِي حَقِيقَتِهَا، أَنْطِبَاعَاتٌ وَأَرْتَسَامَاتٌ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّفْسِ
نَمَازِجُهَا أَشْتَجَابَتْ إِلَيْهَا، وَتَحَوَّكَتْ مَعَهَا حَرَكَةَ أَنْسِجَامِ لَذَّةٍ.

أَمَضْتُ فِي الْقَصْرِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، كَانَتْ لَا تَفْتَأُ خِلَالَهَا تُفَكِّرُ فِي مُصَادَفَةِ هَذَا
الَلِّقَاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وَهِيَ الَّتِي بَاتَتْ فِي يَأْسٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَقَدْ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابٌ
وَأَزْمَانٌ.

وَدَهَبَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: وَيَحْ بُدَيْحٍ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مِثْلِ يَقْظَةِ عَوَاطِفِهِ لَيْلَةً
لِقَائِنَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، بَيْنَ أَرْوَاقِ هَيْكَلِ فِينُوسَ. وَيَحْ بُدَيْحٍ! لَقَدْ كَابَدَ فِي سَبِيلِي كَثِيراً،
وَتَجَرَّعَ أَمْرَ الْغُصَصِ وَالْآلَامِ مِنْ أَجْلِي، ثُمَّ تَنَاهَى بِهِ بُعَادُ يَغْتَصِرُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، فَكُمُ ذَا
يُقَاسِي؟

يَا مَا أَلَذَّ وَقَفَّةَ أَنْتِظَارٍ، فِي لَحْظَاتِ تَوَلُّهِ وَتَلَهُّفٍ، كُنْتُ أَقْفُهَا عِنْدَ بَعْضِ
أَعْمَدَةِ الْهَيْكَلِ، وَبُدَيْحٍ مُقْبِلٍ تَحْتَ رِداءِ اللَّيْلِ يُمْتِعُنِي بِنَفْسِهِ فِي جُلُوءِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ،
أَضَفْتُ عَلَيْهَا خُلُوءَ الْأَحْلَامِ! يَا مَا أَقْدَسَ تِلْكَ الرَّعْشَاتِ، وَأَعَذَّبَ وَقَفَّعَهَا!!

إِنِّي لَا ذُكْرُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ، وَلَعِبَتْ فِي مَسْرِحِهَا
الْعَاصِيفَةُ، وَكَانَتْ الْآفَاقُ تَزْأَرُ زَرْأً مُخِيفاً، وَالْعَمَامُ يَهْبِطُ مَعَ جُنْحِ الظُّلَامِ كَثِيفاً
كَثِيفاً، كَأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَطْمُرَ الْأَرْضَ بِمَا هُوَ مُنْزَرَعٌ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَكَانَتْ
الرِّمَالُ تَتَعَالَى وَتَتَعَانَقُ فِي شَكْلِ الْأَقْوَاسِ، وَذُعِرَتْ فِيهَا حَتَّى طُبُورُ اللَّيْلِ،
فَانْكَفَأَتْ مُنْكَمِشَةً مُنْخَنِسَةً... فِي الْمَغَاوِرِ وَالْحَفَائِرِ، وَقَدْ أُمْسَكَتْ حَتَّى الرُّكُزَ
وَالْهَمْسَ مِنْ نَأْمَتِهَا.

وَإِنِّي لَتَمَنِّيْتُ، وَأَنَا وَاقِفَةٌ عِنْدَ عَمُودِ الرُّوَاقِ الدَّاخِلِيِّ، أَنْ لَا يَأْتِيَ فِي لَيْلَةٍ
بُزُكَانِ السَّمَاءِ. وَبَيْنَا أَنَا وَاجِفَةُ اللَّبِّ بِالتَّخَوُّفِ وَالتَّرْقُبِ، أُحْرِقُ قَلْبِي لِلرَّبِّ قُرْبَاناً
كِي تَحُوطَهُ وَتَرْعَاهُ، إِذَا هُوَ مُقْبِلٌ كَأَنَّمَا رَمَى بِهِ الْإِعْصَارُ فِي الْعَرَاءِ، وَتَمَخَّضَتْ عَنْهُ

العاصِفَةُ وَوَضَعَتْهُ فِي التِّيَّارِ الدَّائِرِ فِي جُنُونٍ.

أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أَعْتَنِقُهُ دُونَ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ يُلْقِنِي كُثْلَةَ طُفُولَةٍ، حَدَرًا عَلَيَّ مِنْ طَيْشِ هَذَا اللَّيْلِ، وَفِي الْهَيْكَلِ آسْتَنِدُ إِلَى صَدْرِي كَالَّذِي خَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرًا، يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ فِي حِمْسٍ مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، إِنَّهُ خَرَجَ ظَافِرًا مِنْ مَعْرَكَةِ الْعَنَاصِرِ، وَقَدْ آسْتَدَارْتُ عَلَيْهِ بَصَرًا وَتَهَا. إِسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي وَأَطْمَأَنَّ كَأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ يَنْبُوعَ حَيَاةٍ، فَهُوَ يَسْتَمِدهُ بَعْضَ مَا أَنْتَهَبَتْهُ الْعَاصِفَةُ، وَهُوَ يُصَارِعُ الْإِغْصَارَ.

قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَدْعِدُّ جَبْهَتَهُ وَأَعْبْتُ بِشَعْرِهِ الْمُتَطَلِّلِ^(٢) الَّذِي كَمَنْتُ فِيهِ أَصَابِغَ الْعَاصِفَةِ: لِمَاذَا رُكِبْتُ الْإِغْصَارَ إِلَى مِخْرَابِ حُبِّنَا؟ لَكَأَنَّكَ مِنْ عَدَمِ مُبَالَاتِكَ مُحِبِّ فَوْقَ بُرْكَانٍ... فَأَبْتَسَمَ وَأَخَذَ وَجْهِي بَيْنَ كَفَّيْهِ يَقُولُ:

أَعْرِفُ أَنَّكَ تُصَلِّينَ فِي مِخْرَابِ الْحُبِّ وَلَا أَسْعَى إِلَيْكَ بِأَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أَشَارَكَ تَزْنِيمَةَ الْهَوَى وَتَزْنِيلَةَ الْهَيْامِ؟ إِنَّكَ لَتَنْقَسِينَ عَلَيَّ فِي الظَّنِّ بِي.

قُلْتُ: عَفْوُكَ! أَرَدْتُ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِخْرَابًا فِي الذِّكْرِ، وَلَا تَتَجَشَّمْ هَذِهِ الْأَخْطَارَ إِلَيَّ.

قَالَ: إِنَّ مِخْرَابَ الذِّكْرِ يُغْرِي بِالظُّلْمِ فِي الْحُبِّ وَيُضَاعِفُ شُعُورَهُ، وَأَمَّا الرَّيُّ فِي الْحُبِّ فَاِئْمًا يَهْبِطُ فِي مِخْرَابِ هَذَا الصَّدْرِ الَّذِي يَمْرُحُ فِي فَضَائِهِ قَلْبٌ يَمُدُّ بِنَدَى الْغَرَامِ.

إِلَيْهِ غَادَةٌ أُحْلَامِي! لَيْسَتْ الْعَاصِفَةُ الرَّعُوبُ هِيَ الَّتِي تَشْهَدِينَ فِي حَوَاشِي هَذَا اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَاصِفَةُ الْقَلْبِ وَقَدْ فَارَتْ فِيهِ فَائِزَةُ الْبِتْيَاعِ، بَلْ يَلُوكُ، بِجَنْبِ هَذِهِ، زَعْرَدَاتُ وَأَبْتِسَامَاتُ وَزَفَرَاتُ تُرْسِلُهَا الطَّيْرُ مَعَ السَّحْرِ... قَسَمًا لَوْ حَالَتْ دُونَكَ أَرْضُ زُرْعَتٍ فِيهَا كُلُّ الْبَرَائِكِ، لَتَخَطَّيْتُهَا إِلَيْكَ مُغْتَبِطًا مَسْرُورًا.

(٢) نَعْنِي بِالْمُتَطَلِّلِ الْمُتَّخِذَ شَكْلَ الْأَطْلَالِ، وَتَقَعَلَ بِهِدَا الْمَغْنَى قِيَاسِي.

فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لَا تُبَالِغْ، فَإِنَّ هَذَا بَيْنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ طِبَاعِ
الرَّبَّاتِ وَالْأَرْبَابِ... فَذَهَبَ ضَاحِكاً يُقْصِرُ عَلَيَّ قِصَّةَ ذَلِكَ الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ الَّذِي
طَلَبَتْ مِنْهُ فَتَاةٌ هَوَاهُ وَرَدَّةَ حَمْرَاءَ وَأُخْرَى صَفْرَاءَ، وَكَانَتْ حَدِيقَةُ الْوُرُودِ فِي يَقْظَةٍ
حُرَّاسٍ أَشِدَّاءَ، وَفِي عَيْنٍ أَسْوَدَ غِضَابٍ، وَتَفْصِلُ دُونَهَا نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتَّيَّارَاتِ، فَانْطَلَقَ
الْعَاشِقُ فِي مَدَى رَغَبَتِهَا يَخْوِضُ النَّهْرَ، وَتَقَلَّبَ فِي حَدِيقَةِ الْوُرُودِ يَبْحَثُ عَنْ
الْوَرْدَةِ الْحَمْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَعَادَ مُبَلَّلَ الثِّيَابِ يَقُولُ لَهَا مُبْتَهَجاً: لَقَدْ أَتَيْتُكَ
بِهِمَا... فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ الْوَرْدَةَ الصَّفْرَاءَ، وَأَمَّا الْوَرْدَةُ الْحَمْرَاءُ فَكَانَ يَحْمِلُهَا
فِي صَدْرِهِ تُغَرَّةَ فَوَازَةٍ بِالدَّمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَ سَهْمُ الْحُرَّاسِ قَلْبَهُ فَشَطَرَهُ...

قُلْتُ لَهُ مُفْجَعَةً: أَيْكُونُ ذَلِكَ حَقًّا؟!

قَالَ: لَيْسَ هُوَ بَعِيداً عَنْكَ، أَلَا فَامْتَحِنِي فِي الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ. أَقُولُ لَكَ وَأَنَا
أُعْنِي مَا أَقُولُ، لَوْ تَحَدَّثْتَنِي كُلُّ أَرْبَابِ الْأُولَمِ كَمَا تَحَدَّثُ هِرْقَلٌ لِقَاوِمَتِهَا فِي سَبِيلِكَ
سَاحِرًا بِقُوَّتِهَا... فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، وَقُلْتُ لَهُ:

يَحَقِّي لَا «تُجَدِّفْ» عَلَى الْأَرْبَابِ، وَأَيْضاً فِي هَيْكَلِ رَبَّةِ الْجَمَالِ فِينُوسَ، إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكَ... فَانْقَلَبَ يُفَهِّمُهُ قَائِلاً:

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرِينَ أَنَّكَ أَنْتِ الرَّبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا فِينُوسُ فَرَبَّةٌ خَيَالِيَّةٌ أَثِيرِيَّةٌ
فَقَدَتْ حَرَارَتَهَا، وَبِإِبْرَازِكَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِهَا، يَمْدُونُ وُجُودَهَا الْبَارِدَ فِي الْخِيَالِ،
بِحَرَارَةِ أَنْتِ تَنْشُرِينَهَا وَتُوزِّعِينَهَا. فَوَضَعْتُ يَدِي مُتَوَلِّهَةً عَلَى فَمِهِ أَقُولُ:

لَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَجْدِيفاً. أَوِ لَقَدْ فَجَعْتَنِي، أَأَنْتِ أَيْضاً يَا بُدَيْحُ
تَتَكَلَّمُ بِ «الْهَرُطَقَاتِ»؟...

لَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرَّبَّاتِ، وَأَنَا أَرْغَبُ عَلَى مَنْ أُحِبُّ
بأن يكون مثلي رأياً وإيماناً، لكنني عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ بُدَيْحاً كَانَ أَعَمَّقَ مِنِّي

مَعْرِفَةً وَأَهْدَى تَفْكِيرًا.

لَقَدْ كُنْتُ مُفَعَّمَةً بِالْإِيمَانِ، فَصَوَّرَهُ لِي حَدِيثُهُ صُورَةً مُنْكَرَةً تُوْحِي بِالشَّرِّ الْكَرِيمِ، فَانْقَبَضْتُ عَنْهُ وَدُعِزْتُ مِنْهُ، وَبَالَغَ بِي هَذَا الدُّعُورُ فَكَرِهْتُهُ، وَغَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَحَاشَاهُ وَأَنْفِرُ مِنْهُ، أَوْدُ أَنْ لَا أَرَاهُ. وَكُنْتُ أُسَائِلُ نَفْسِي: أَيْكُونُ بُدَيْحٌ مُجَدِّفًا وَهُوَ فِي نَفْسِي صُورَةٌ مِنْ مَلَائِكَةٍ؟ كَلَّا لَا أَوْدُ أَنْ أَخْنُقَ يَدَيَّ بُدَيْحًا الْعَائِشَ فِي خَيَالِي، أَوْدُ أَلَّا تَتَشَوَّهَ صُورَتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا، إِذَا اجْتَمَعْتُ إِلَى بُدَيْحٍ سَتَمَتُّ يَدُهُ إِلَى تَشْوِيهِ مَا آسَتَى فِي خَيَالِي عَنْهُ. وَلَكِنْ بُدَيْحًا الْخَيَالِي مُحَبَّبٌ إِلَيَّ الْحُبُّ كُلُّهُ، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَظَلَّ مُتَمَتِّعَةً بِهِ، مُنْتَشِيَةً بِمِثَالِيَّتِهِ، وَمِثْلِي كَاهِنَةٌ رَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَى الْأَحْلَامِ، إِنَّمَا تُحِبُّ فِي أَحْلَامِ الرُّوحِ دُونَ حُبِّ فِي أَحْلَامِ الْأَعْصَابِ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ كُنْتُ أَتَوَارَى كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا مَا يَقَعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فِكْرَةً فِي النَّفْسِ، بَلْ كَانَ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ؛ أَوْ أَزْمَةً فِي الْوُجْدَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ إِيمَانُ الْمَرْءِ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ تَكُونُ عَوَاطِفُهُ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ يُشَارِكُهُ هَذَا الْإِيمَانُ دُونَ سِوَاهُ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتُسَاوِرُهُ نَزَعَاتٌ يَتَحَرَّكُ مَعَهَا تَعَصُّبُهُ.

أَمَّا الْفِكْرُ الْمُجَرَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَعَصُّبًا، وَإِنَّمَا التَّعَصُّبُ فِي مَكَانِ الْوُجْدَانِ مِنَ النَّفْسِ، فَهِيَ، أَيُّ نَزَوَاتِ النَّفْسِ، تَتَحَكَّمُ بِالْعَوَاطِفِ وَتُكْسِبُهَا لَوْنَهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْفِكْرُ أَكْثَرَ ضَبِيقًا، وَالْوُجْدَانُ أَكْبَرَ عُقْدًا، فَهُنَاكَ يَوْجَدُ شَرُّ أَنْوَاعِ التَّعَصُّبِ، وَعِنْدَهُ يَسْتَضِيْقُ الْمَرْءُ حَتَّى بُوْجُودِ مَنْ لَا يُشَارِكُوهُ عُقِيدَةَ الْإِيمَانِ عَلَى لَوْنِ مَا وَنَحْوِ مَا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا بَعْضُ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْبَشَرِيِّ وَلَا أَقُولُ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا كَانَ فِي التَّدِينِ فِكْرَةً إِيمَانٍ فَهُنَاكَ تَدِينُ صَحِيحٌ عَلَى نَهْجِ إِنْسَانِيٍّ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي التَّدِينِ إِنْسَانِيَّةً إِيمَانٍ فَهُنَاكَ أَخْطَرُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْتُّكْرَاءِ.

فَنَزَعَةُ التَّدِينِ الصَّحِيحَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الْإِيمَانَ بِالْفِكْرِ، دُونَ الْعَكْسِ الَّذِي يَقُولُ مَنْ أَرْمَةِ نَفْسٍ وَيُؤَلِّدُ أَرْمَةَ نَفْسٍ وَحَيَاةٍ أَيْضًا. أَمَّا الْفِكْرُ فَلَيْسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بَلْ مِنْ وَظِيفَتِهِ أَنْ يَحُلَّ الْعُقْدَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ... وهو إذا قِيلَ الْعُقْدَ أحياناً فَإِنَّمَا يَقْبَلُهَا فِي ضَرْبٍ مِنَ الْامْتِحَانِ، وَفِي ضَرْبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الْارْتِيَابِ، فَالْفِكْرُ يُرَادُفُ الْامْتِحَانَ أَوْ النَّقْدَ الْمُجَرَّدَ. وَتَقْدُّمُ الْإِنْسَانِ مَعْنَاهُ تَقْدُّمُهُ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يُنتِجُ حُلَّ أَكْبَرَ مِقْدَارٍ مِنَ الْعُقْدِ. وَفِي ظَنِّي الْيَوْمَ أَنَّ تَقْدُّمَ الْفِكْرِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الْقُدْرَةُ أَوْ الْغِنَى فِي التَّفْكِيرِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْكَفَاءَةُ عَلَى التَّفْكِيرِ بِدُونِ أَغْصَابٍ، أَيْ بِتَجَرُّدٍ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا نُحِبُّ أَوْ نَكْرَهُ وَفَقَّ مَا نَعْتَقِدُ وَنَهْوَى، وَلَا يَضُرُّ بِنَا الْقُرْبُ أَوْ الْبُعْدُ، بَلْ تَمَّحِي فِكْرُتُهُمَا ثَمَّ لَا تَتَصَرَّفُ بِعَوَاطِفِنَا تَبَعاً لَهَا.

لَيْتَنِي كُنْتُ أَعْرِفُ هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِذَا لَمَّا جَفَوْتُهُ وَنَفَرْتُ مِنْهُ، وَظَلَلْنَا فِي مُتَعَةِ الْحُبِّ الْخَالِدِ... لَقَدْ رَأَى بُدَيْخٌ مِنِّي ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ فَلَمْ يُطِيقِ الْحَيَاةَ وَاجْتَوَاهَا، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ، لَا أَذْرِي أَيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَسْتُ وَاللَّهِ، بَعْدَ مَا فَقَدْتُهُ، بِالْأَسَى الْوَاحِشِ الْأَسِيفِ، فَطَلَبْتُ السَّلْوَةَ فِي الشُّرُودِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَأَنْدَفَعْتُ إِلَى فِكْرِ جَدِيدٍ؛ وَهَجَرْتُ الْهَيْكَلَ وَابْتَدَأْتُ رِخْلَتِي وَرَاءَهُ مِنْ نُقْطَةِ هَائِمَةٍ، فَأَنْتَهَتْ بِي قَرَايِنُهُ الرُّومَ إِلَى حَيْثُ مَكَانِي، وَكَانَ قَدَرًا مَايَعًا، فَقَدْ رَأَيْتُ بُدَيْخًا...

بَعْدَ مَقَامٍ قَصِيرٍ فِي الْبَلَاطِ «حُمِلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشْفُوعَةً بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمُحَاطَةً بِكُوكَبَةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَزَوَّدَ الْمَلِكُ رَئِيسَ الرُّكْبِ كِتَابَهُ إِلَى الْحُسَيْنِ، جَاءَ فِيهِ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اشْتَرَى جَارِيَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَأَثَرَكَ بِهَا».

أَدْخِلْتَ عَلَى الْحُسَيْنِ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى قُرْبَانِهِ، سَابِخْ فِي مَدَى تَأْمُلَاتِهِ يَقْرَأُ «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَايَ، هَذَا غُلَامٌ. وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

وكانَ في الجوّ الَّذي يَكْتَنِفُ الحُسَيْنَ ما أَعَادَ إِلَيْها ذِكْرَ الهَيْكَلِ، ونَقَلها إلى مِثْلِ الحِرَابِ، وزادَ بها هذا الشُّعورُ، فَأَعْتَقَدْتُ يَقِيناً أَنَّها لم تَعُدْ في شَيْءٍ مِمَّا يَنْصِلُ بَدْئاً النَّاسَ، فَحَفَّتْها سَكِينَةٌ، وَلَفَّتْها هَذَاهُ رُوحٌ، وَغَرَقَتْ في خِضَمِّ بَعِيدِ القَرَارِ. وَأَحْسَسْتُ أَنَّها مِثْلُ غِرْنِيكِ (طَيْرِ المَاءِ) تَتَرَجَّحُ به الأمْواجُ الحَالِمَاتُ، وَكَانَتْ سَكْرَى بِمَا يَسْأَقُطُ إلى سَمْعِها مِن نَعَمَاتٍ مَسْحُورَةٍ، تَشْعُرُ بها في مَدَى رُوحِها عَذْبَةٌ نَدِيَّةٌ.

كَانَتْ لَهَا هَذَاهُ طَوِيلَةٌ لم تُفِقْ مِنْها إِلَّا على صَوْتِ الحُسَيْنِ يَسْتَقْبِلُ رَئِيسَ الرُّكْبِ، وراحَ هذا يُخْبِرُهُ بِكُلِّ خَبَرِها، وَيَزُوي لَه كُلُّ ما تَرَقَّى إلى سَمْعِهِ مِن أنْبائِها. فَالْتَفَتَ الحُسَيْنُ إِلَيْها في آبِتِسامَةٍ مُواسِيَةٍ يَقولُ:

لَظَنِّي بِكَ، وَأَنْتِ جَدِيدَةٌ عَهْدٍ بِالْأَغْرَابِ، أَنْتِ مَوْحِشَةُ النَّفْسِ، وَبِوَدِّي أَنْ تَتَذَارَكَ حَالَ تَأَنَسِينَ بِها وَتَطْمَئِنِّي.

قالتَ لَهُ هَوَى: كُنْتُ خَلِيقَةً بِالْوَحْشَةِ في غَيْرِ مَكَانِكَ. وَلِكِنِّي، وَأنا فِيهِ، فَإِنِّي جَدِيرَةٌ بِأَطْمَئِنَانٍ فِي النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ...

شاعَتْ على وَجْهِ الحُسَيْنِ آبِتِسامَةٌ هادِئَةٌ هانِئَةٌ، وقالَ دَهْشاً: لَقَدْ سَبَقَ إلى ظَنِّي أَنَّكَ لا تُجِيدِينَ العَرَبِيَّةَ على نَسَقٍ ما أَسْمَعُ، وَلَكِنْ أَمَّا وَأَنْتِ مِثْلُ أَصِيلَةٍ في اللِّسانِ، فَلَنْ تَكُونِي غَرِيبَةً عن حَيَاةِ بَيْعَتِنَا العَرَبِيَّةِ، إِنْ لم تَتَذَوَّقِها مِثْلَ أَصِيلَةٍ فِيها أَيْضاً...

فآبِتَسَمَتْ في اسْتِحياءٍ وإِغْضاءٍ وَقالتَ: بَلْ يا مُولاي - لأَحْسُ في كَتِفِكَ أَنِّي عَرَبِيَّةٌ صَلِيبَةٌ، عَرِيقَةُ الهَوَى وَالْقَلْبِ في مَوَاقِعَ رَغَبَاتِها ومُيُولِها، وَلَقَدْ حَبَّبَ إِلَيَّ لِسَانُ العَرَبِ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِأكْبَرِ قَسْطٍ مِن وَحْيِ الطَّبِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ، فِيهِ صُورُ وَأَصْداءُ، وَمَنَاطِرُ تامَّةٌ صادِقَةٌ أَنْتَزَعَتْ مِنَ الطَّبِيعَةِ مُباشَرَةً، وَشَكِبَتْ في قَوالبِ

الألفاظ بِدِقَّةٍ وَحَقِيقَةٍ، بَلْ لَقَدْ أَفْرَعَتِ الطَّبِيعَةُ أَشْيَاءَ ذَاتِيَّيْهَا فِي الْكَلِمَاتِ، كَأَنَّهَا طَلَبَتْ حَرَكَتَهَا الْحَيَّةَ فِي اللَّغَةِ.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَيْضاً مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ إِنْسَانِيَّةٌ وَحَيَوِيَّةٌ، لَمْ تَتَحَرَّفْ وَتَتَكَسَّرْ بِتَحَكُّمِ الْفِكْرِ وَآخْتِلَافِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ تَشْوِيهِهِ. فَهَذَا اللَّسَانُ طَبِيعَةٌ وَحَيَاةٌ وَإِنْسَانِيَّةٌ فِي أَصْدَقِ أَلْوَانِهَا، وَمُفْرَدَاتُهُ كَلِمَاتُ الطَّبِيعَةِ أَوَّلَ مَا تَحَرَّكَتْ وَنَطَقَتْ، فَقَدْ تَصَيَّدَهَا الْعَرَبِيُّ وَأَنْتَحَتْهَا، وَهُوَ بَعْدُ يَتَوَجَّهُ بِالْقَرِيبَةِ النَّقِيبَةِ، دُونَ آلِتِوَاءَاتِ الْفِكْرِ وَالتَّيْفَافَاتِ، فَهِيَ أَنْتَى مَا تَكُونُ لُغَةٌ فِي مَذْهَبِ التَّعْبِيرِ.

وَلَقَدْ عَمَدْتُ إِلَى كَهْفٍ رُوحِي فَوَجَدْتُهُ قَائِماً حَالِكاً، وَرَأَيْتُ مِضْبَاحَ فِكْرِي خَائِباً، وَهُوَ إِذَا تَوَقَّدَ وَشَعَّ، فَلَا يُضِيءُ كَهْفَ رُوحِي، وَأَظْلَمُ مِنْهُ فِي دَيْجُورٍ، فَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمَا بِشُدُودِ كَثِيفَةٍ صَفِيقَةٍ، لَكِنِّي وَجَدْتُ دِينَكُمْ الْجَدِيدَ قَدْ حَاوَلَ، وَنَجَحَ إِلَى أَكْبَرِ حَدٍّ، فِي رَفْعِ هَذِهِ الشُّدُودِ الْقَائِمَةِ فِي دُرُوبِ النَّفْسِ، وَأَذَكَّى شُعْلَةَ الْفِكْرِ، فَاتَّصَلَ مَا بَيْنَ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ بِالشُّعَاعِ وَبُتُّ مُتَأَلِّقَةً الْمَعْنَى، فَسَكَنْتُ إِلَى دِينِكُمْ، وَطَعِمْتُهُ أَيْضاً فَتَعَشَّقْتُهُ، إِنَّهُ رَفَعَ الشُّدُودَ فِي دُرُوبِ رُوحِي، وَكَانَتْ هَائِمَةً مُتَخَبِّطَةً بَيْنَ سَدٍّ وَسَدٍّ، وَأَطْلَالٍ خُرَافَاتٍ وَأَسَاطِيرِ.

قَالَ: لِلَّهِ أَنْتَ! أَكُنْتَ حَكِيمَةً أَمْ أَدِيبَةً؟ هَلْ «تُجِيدِينَ الْقُرْآنَ» تِلَاوَةً؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: فَأَقْرَأِي عَلَيَّ، إِنْ شِئْتَ... فَرَأَحَتْ تَتْلُو «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ... وَكَانَتْ تَتَوَاجَدُ فِي تِلَاوَتِهَا تَوَاجَدَ مَنْ قَدْ أُخِذَ بِنَشْوَةِ مُفَعَّمَةٍ.

قَالَ لَهَا: يُحَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَكْثَرُ وَغِيًّا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِمَا رَأَيْتُ عَلَيْكَ مِنْ سَبَحَاتِ الْحَشْيَةِ.

قَالَتْ: بِوَدِّي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ مَوْلَايَ بِي. وَلِمَ لَا يَغْرُونِي مَا قَدْ عَرَانِي؟ وَأَنَا أَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَوَارِعَ الَّتِي تَجْعَلُنِي فِي مُحِيطِ عِلْمِ اللَّهِ وَكَأَنِّي كُلُّ مَا فِي الْحُيْطِ أَوْ لَيْسَ غَيْرِي فِيهِ، عَلَى أَنَّنا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي مَسْرَحِ نَقُومٍ عَلَيْهِ بِأَدْوَارِنَا، وَلَسْنَا نَدْرِي أَمْحَسِينُونَ نَحْنُ فِي أَدْوَارِنَا أَمْ مُسَيِّئُونَ، ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ أَنْقَى تَصْوِيرًا لِعَلَّاقَةِ اللَّهِ السَّبَبِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، وَلِعَلَّاقَةِ اللَّهِ الْأَدَبِيَّةِ بِالْإِنْسَانِ؟ أَمَا فِي كُلِّ هَذَا مَا يَنْبَغُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالْحَشْيَةِ جَمِيعًا؟ أَمَا فِيهِ مَا يُغْرِي الرُّوحَ بِلَحْظَةِ سَكِينَةٍ وَهَذَاةٍ تَأْمُلُ؟

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُقَاطِعُهَا بِقَوْلِهِ: إِلَيْهِ! إِلَيْهِ! أَيْ بُنْيَّةً، فَقَدْ أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ!...

وَوَاصَلَتْ تَقُولُ: أَمَا يَجِدُ مَوْلَايَ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» مَا يَنْبَغُ عَلَى التَّأْمُلِ الطَّوِيلِ، وَيَنْشُرُ فِي الْقَلْبِ وَجَمَةً تَفْكِيرٍ مَدِيدٍ؟ هَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي يَرْسُمُ الْغَيْبَ فِي الْخَيَالِ عَلَى هَيْئَةِ أَذْرَاجٍ قَامَتْ عَلَيْهَا الْأَغْلَاقُ، وَفِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ وَالطَّبِيعَةِ غَيْبٌ مَسْتَوْرٍ، أَوْ فُضَاءٌ وَدُنْيَا مِنْ عَالَمٍ غَيْبِيٍّ مَخْجُوبٍ، فَالْشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ دَرَجٌ غَيْبِيٍّ يَسْبَحُ فِيهِ عَالَمٌ خَفِيٍّ مَدِيدٍ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِفْتَاحُهُ، وَمَا مُحَاوَلَاتُنَا الْحَثِيئَةَ فِي اسْتِكْنَاهِهِ إِلَّا غَوْضٌ وَوُقُوفٌ عِنْدَ الشَّاطِئِءِ بِإِزَاءِ هَذَا الْمَجْهُولِ الْمُتَنْظَرِ وَضُوحُهُ بِكَلِمَةِ «مِفْتَاحِ» الدَّائِرَةِ فِي حَرَكَتِهَا عَلَى الْأَغْلَاقِ.

قَالَ: لَقَدْ زِدْتِ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَيْ بُنْيَّةً... وَأَضْفَى صُمُوتٌ طَوِيلٌ كَانَ

مَشْرَحَ خِوَاطِرَ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْحُسَيْنَ قَطَعَهُ بِقَوْلِهِ:

أَلَا تَزَوِينَ «شَيْعاً مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ» وَأَدْبِهِمْ؟

قالت: بلى... وكانت لم تزل في إثارةٍ من صوفيَّتها، فَأَنشَدَتْهُ أَيْبَاتاً جاءَ

بينها:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

وَلَدَّهَا الْإِنْشَادُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الْمُبْطِنِ بِالرَّوْحِ وَلَفَاتِ الْإِشْرَاقِ، فَأَنشَدَتْهُ شِعْراً
سَبَقَ لَهَا أَنَّهَا أَنْشَأَتْهُ مُعَبَّرَةً عَنْ شُعُورِ نَفْسِهَا «فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ»، وَمَا قَدْ كَوَّنَتْهُ مِنْ
نَظَرَةٍ إِلَى الْحَيَاةِ وَقِيمَتِهَا وَجُهْدِ الْحَيِّ فِيهَا:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَمْضِي وَيَجْمَعُ جُهْدَهُ رَجَاءَ الْغِنَى، وَالْوَارِثُونَ قُعُودُ

وَمَا لِلْفَتَى إِلَّا نَصِيبٌ مِنَ الثَّقَى إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَعُودُ

فَلَمْ يَمْلِكِ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاجَدَ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَاضَ فِي قَلْبِهِ يَتْبُوغُ حَنَانٍ،
تَنَدَّتْ مَعَهُ مَقْلَنَاهُ، وَتَبَلَّوَرَا فِيهِمَا مِثْلُ الدَّمْعِ، وَإِلَّا فَهُوَ عُصَارَةُ شُعُورِ بَعَثِي الثَّقَى.
ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِذْهَبِي «فَأَنْتِ حُرَّةٌ، وَمَا بَعَثَ بِهِ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ فَهُوَ لَكَ»، عَلَى أَنَّكَ
عِنْدِي أَبَدًا مِثْلُ كَرِيمَةٍ عَزِيزَةِ الْمَكَانِ فِي هَوَى أَهْلِهَا...

وَمَا هُوَ حَتَّى أَقْبَلَ بُدَيْحَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ
إِلَى دَعْوَةِ الْحُسَيْنِ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنَّ مِثْلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى مَهَاةَ قَلْبِهِ مَرَّةً أُخْرَى، بَيَّنَّ
أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ أَغْتَفَ شُعُوراً بِهَا، فَقَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَوَاهُ فِي دِمَشْقَ، وَقَدْ
أَحَالَتْ قَلْبَهُ الَّذِي كَانَ كَشِلُو تَنَاهَى فِي حُبِّ ضَامِرٍ قَدِيمٍ، إِلَى قَلْبٍ جَدِيدٍ حَيَاةٍ،
أَنْصَبَ فِيهِ جَدِيدُ حُبٍّ مَا فَصَلَ عَنْهُ أَمْسٌ وَعَدَّ. فَتَاهَتْ حُرُوفُ كَلِمَاتِهِ فِي فَمِهِ،
وَاحْتَضِرَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى لِسَانِهِ، وَقَسَراً وَجَمَ فِي دُهُولٍ طَالَ بِهِ مَدَاهُ...

وتداركها مثلُ شعوره وغُصّة قلبه فأنحطَفَ لَوْنُها، والحُسَيْنُ يرى فَأُطْرَقَ
إِطْرَاقَةً مَائِجَةً بالإِيحَاءِ. مرَّ في خَاطِرِهِ مَعَهَا أَنَّ بُدَيْحاً يَنْتَهِي إلى مِثْلِ غُزْبَتِها، فَغَيْرُ
بَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ ذاتَ هَوًى بِهِ وَضَرَبَ الزَّمانُ بَيْنَهُما، فَباعَدَهُما قَدَرٌ عادَ في دَوْرَةٍ
أُخْرى يَضُئُهُما... وَجَدِيذٌ بي أَنْ أَكونَ خَطَّ النِّهايةِ في دَوْرَةِ القَدَرِ المُبْهَمَةِ،
فالتَفَتَ إلى بُدَيْحٍ وقال:

كُنْتُ على أَهْبَةٍ أَنْ أَسْتَقْدِمَكَ إِلَيَّ يا بُدَيْحُ، فَسَقَطَتْ مِنْ نَفْسِي على مَوْعِدٍ،
أَنْتَ عِنْدِي مِثْلُ كَرِيمٍ عَزِيزٍ، وَهِيَ عِنْدِي مِثْلُ... فَاسْتَحَفَّ بِبُدَيْحٍ عاصِفُ فَرْحَةٍ
كُبْرى، حَتَّى كَأَنَّهُ دُفِعَ إلى الخُلْدِ مِنْ نَافَذَةٍ، بَعْدَ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ البابِ طَوِيلاً.
وَلَمْ يُزِ إِلَّا مُكَبِّباً على يَدِ الحُسَيْنِ يُقْبِلُها، في مَوْضِعٍ تَلَاقَى عَلَيْهِ ثَغْران: ثَغْرُهُ وَثَغْرُها.
وَكانَ في مَنظَرٍ وَضَعِيهِما ما أَفْعَمَ قَلْبَ الحُسَيْنِ بِغِبْطَةِ الرُّوحِ «ففاضَتْ مُقْلَتاهُ»
بَدَمَعِ الشُّرُورِ، الشُّرُورِ غَيْرِ المَحْدُودِ. وَبَدَّلَ لُهُما «أَلْفَ دِينَارٍ، وَقامَ إلى صَلاتِهِ»
هائِئِ القَلْبِ رَيَّان، ناعِمَ الضُّميرِ نَشوان...
*

جاؤوا يَفْتَنِصُونَهُ بِغائِيَةٍ مِنْ فُتُونِ الدُّنْيا...
لَعَلَّهُمْ يَهْبِطُونَ بِهِ إلى مِثْلِ حَضِيضِهِمْ وَرُغامِهِمْ...
يَبْدَأُ أَنَّها ما آسَتْهُوَتْهُ، على أَنَّهُ قَدْ آسَتْهُواها...
فَقَدْ مَسَّها بِشُعْلَةٍ مِنَ الإِشراقِ، غَدَتْ بِها خَلْقاً آخَر...
*

وَجَدَ قَلْباً حائِراً يَنْحُتُ عن قَلْبِ تائِهِ...
وَكُلَّمَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْتَقِيَا، يُضِيعانِ الطَّرِيقَ مَرَّةً أُخْرى...

فَكَانَ هَمُّهُ أَنْ يَصْنَعَهُمَا سَعِيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ، وَمَزَجَ نَفْسًا
بِنَفْسٍ!....

* * *

إشارة

أَفَاقَ مَنْ فِي الْبَلَاطِ الْأُمَوِيِّ، عَلَى حَرَكَاتٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ، آمْتَاَزَتْ بِالنَّشَاطِ فِي تَجْمَعَاتِ تَشَاوُرِ هَامِسٍ، وَكَانَ جَوْ هَذَا التَّجْمَعِ مَطْبُوعاً بِطَابِعِ الْاهْتِمَامِ وَالْجِدِّ، فَقَدْ أَرْمَعَ أُسَاطِينُهُ إِحْدَاثَ أَنْقِلَابٍ خَطِيرٍ يَمَسُّ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحُكْمِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَرْمَعُوا عَلَى أَخْذِ الْعَرَبِ بِحُكُومَةِ الْفَرْدِ، بَعْدَ أَنْ رَاضُوهُمْ عَلَيْهَا أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَبِأَسَالِيبِ كُلِّهَا الْعُنْفُ وَالْاِغْتِسَافُ فِي فَتْرَةٍ طَالَتْ ذُؤَابَتُهَا، فَكَانَتْ تَارِيخًا آمْتَلَأَ بِشُهَدَاءِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فِي مَذْهَبِ الْحُكْمِ.

وَكَانَ قَدْ سَبَقَ الْمَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عَامَّةً إِلَى أُمَرَاءِ الْأُمُصَارِ، فَاجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرُونَ سَمَاعَ الْمَفَاجِئَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ هَذَا الْاهْتِمَامِ أَنْ يَنْطَوِيَ عَلَيْهَا. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَكَانَتْ السُّنُّ قَدْ تَنَاهَتْ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقَالَ: تَعْرِفُونَ أَنَّكُمْ الشُّعُورُ دُونَ الدُّنَا عِنْدَ الْمَلِكِ، فَعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وَأَنْتُمْ الْبِطَانَةُ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَّكِلُ، فَمَصَالِحُكُمْ مُرْتَبِطَةٌ، وَأَمْرُكُمْ بِأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وَقَدْ آتَجَّهَ رَأْيُ الْمَلِكِ إِلَى أَمْرِ خَطِيرٍ أَحَبُّ أَنْ يُفَاوَضَ بِكُمْ بِهِ، وَيَسْتَشِيرَ بِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْتَزِمَهُ وَيَعْقِدَهُ... فَاشْرَأَبْتُ أَعْنَافُهُمْ وَتَطَلَّلُوا فِي إِضْغَاءٍ مُزْهَفٍ، وَوَاصَلَ الْمُغِيرَةَ:

رَأَى الْمَلِكُ أَنْ لَا يُتْرَكَ النَّاسُ، بَعْدَهُ، سُدَى «كَالضَّائِنِ لَا رَاعِي لَهَا»، وَقَدْ اخْتَارَ ابْنَتَهُ الرَّشِيدَ يَزِيدَ، وَمَنْ أَكْفَأُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ؟ وَرَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ

مُتَّحِدِيَّة، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَقَّهْم صَمْتُ طَوِيلٍ قَطَعَهُ زِيَادٌ بِقَوْلِهِ:

«إِنَّ عِلَاقَةَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَضْمَانَهُ عَظِيمٌ، وَيَزِيدُ صَاحِبَ رِسَالَةٍ وَتَهَاوُنٍ، مَعَ مَا قَدْ أُولَعَ بِهِ مِنَ الصَّبِيِّ، فَرَوَيْدُنَا بِالْأَمْرِ... فَأَقِمْنِ أَنْ يَتِمَّ لَنَا مَا نُرِيدُ. وَلَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ دَرَكَاً فِي تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِنْ تَعْجِيلٍ عَاقِبَتُهُ الْقَوْتُ»، فَقَدَفَهُ الْمَغِيرَةُ بِنَظَرَةٍ شَرَزَةٍ صَاعِقَةٍ، وَقَالَ:

أَكُنْتُ تَظُنُّ أَنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَعْنَاهَا إِبْدَاءُ الرَّأْيِ؟ وَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَأْيٍ أَمْثَالِكَ؟ إِنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَعْنَاهَا السَّمَاعُ وَالتَّنْفِيزُ وَالطَّاعَةُ فَقَطْ حَسَبُ. فَهَبْ عُيَيْدُ بْنُ كَعْبٍ التَّمِيرِي، وَكَانَ مُسْتَشَارَ زِيَادٍ، يَشْرَحُ كَلَامَهُ وَمَا قَصَدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

نَعَمْ. هُوَ مَا تَقُولُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَزِيَادٌ «لَمْ يُرِدْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى الْمَلِكِ رَأْيَهُ وَيُمَقِّتَ إِلَيْهِ آبَتَهُ. وَإِنَّمَا قَصَدَ أَنْ يُخَوِّفَ يَزِيدَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ لِهَنَاتٍ يَنْقُمُونَهَا عَلَيْهِ، فَتَسْتَحْكِمَ لِلْمَلِكِ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يُرِيدُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نِعَمْ مَا قُلْتَ، وَنِعَمْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ زِيَادٌ».

وَلَمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُغْلِنَ ذَلِكَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ عَلَى النَّاسِ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ قَدْ حَفَلَ لَهُ، وَطَلَبَ الْوُفُودَ مِنْ كُلِّ الْأَمْصَارِ، «وَقَرَأَ عَلَى الْجُمُوعِ عَهْدَهُ، وَفِيهِ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِيَزِيدَ»، فَأَصِيبَ بَعْضٌ بِمِثْلِ الذُّهُولِ، وَبَعْضٌ بِمِثْلِ الطَّيْشِ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ صَنَائِعُ ذَهَبُوا يُطَرَّبُونَ وَيُزَيَّنُونَ، «فَقَامَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَالٍ يَغْدَكَ، وَالْأَنْفُسُ يُغْدِي عَلَيْهَا وَيُرَاحُ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، وَلَا تَذْرِي مَا يَخْتَلِفُ بِهِ الْعَصْرَانِ. وَيَزِيدُ أَبْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي حُسْنِ مَعْدِنِهِ وَقَصْدِ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنَا جِلْماً وَأَحْكَمِنَا عِلْماً، فَوَلِّهِ عَهْدَكَ، وَاجْعَلْهُ لَنَا عِلْماً يَغْدَكَ. فَإِنَّا قَدْ بَلَوْنَا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلُفَّةَ، فَوَجَدْنَاهَا أَحْقَنَ لِلدَّمَاءِ وَأَمَنَ لِلْسُّبُلِ وَخَيْرَاً فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ».

وقال عمرو بن سعيد:

«أيها الناس: إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفته أغناكم. جذع قارع، شويق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع. خلفاً من أمير المؤمنين، ولا خلف منه...»
فقال معاوية: إجلس، أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسن.

فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: «أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضى ولهذه الأمة، فلا تُشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تُزوذه الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة». فأحس يزيد بن الملقع، فوثب مُرعداً مبرقاً، وقال:

«أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية «فإن هلك فهذا» وأشار إلى يزيد، «فمن أبى فهذا...» وأشار إلى السيف.

فقال معاوية: آجلس فإنك سيّد الخطباء.

وقام المسكين الدارمي الشاعر، فأنشد:

إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
وتهيأ معاوية، فدعا الناس إلى المبيعة «فقال رجل: اللهم إني أعوذ بك من شره».

قال معاوية له: تعوذ من شر نفسك فإنه أشد عليك، وبايع.

فقال: إني أبايع وأنا كاره للبيعة.

قال له: بايع أيها الرجل، فإن الله يقول: فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

وما هو إلا أن حمَلَ النَّاسَ على البيعة في الشَّامِ والعِراقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لِإِعْدَادِ الرَّأْيِ العامِّ في المَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ البيعةِ. «فَكَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، وَكَانَ عَامِلَهُ على المَدِينَةِ، أَنْ آذِغَ النَّاسَ عِنْدَكَ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ والعِراقِ قد بَايَعُوا. فَخَطَبَهُمْ مَرْوَانُ فَحَضَّهُمْ على الطَّاعَةِ وَحَذَّرَهُمُ الفِتْنَةَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، وَقَالَ هِيَ سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الهَادِيَةِ الْمَهْدِيَّةِ».

فَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَقَعُ النَّارِ فِي الهَشِيمِ، وَسَرَتْ بَيْنَ الْجُمُوعِ نَأْمَاتُ اسْتِثْكَارٍ، وَأَصْوَاتُ تَسْخِطٍ، وَتَزَايِدَ بِهِمْ هَذَا الاسْتِثْكَارُ وَهَذَا التَّسْخِطُ، فَأَنْدَفَعُوا يَطْعَنُونَ وَيُقْذِعُونَ فِي الطَّعْنِ، وَمَضَوْا يَنْثُرُونَ الْاِخْتِجَاجَ نَثْرًا دُونَ رِعَايَةٍ وَحَذَرٍ.

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: «مَا صَدَقْتُ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ والعَشِيرَةَ، وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَاخْتَارَهُ لِأُمَةِ مُحَمَّدٍ... وَتَرَادَا طَوِيلًا، وَأَنْتَقَلَ بِهِمَا التَّجَاوُبُ إِلَى التَّنَاوُشِ والمُهَاوَرَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ «هَذَا الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دِينِي أَفُّ لَكُمْ، أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفِينَا تَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؟»...

وَقَطَعَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا، إِذْ هَبَّ وَاقِفًا، وَعَلَى سِيَمَائِهِ مَشَتْ غَضَبُهُ مَكْظُومَةٌ رَاخَتْ تَنْطَلِقُ، وَقَدْ وَجَدَتْ سَبِيلَهَا:

«إِلَى النَّارِ تَذْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ الْعَارِ»، لَفَذَ حَمَلُوا أَطْمَاعَكُمْ مُتَبَرِّمِينَ، وَتَرَكَوْا لَكُمْ أَنْتِهَابَ الدُّنْيَا كَمَا شِئْتُمْ وَشَاءَ الْهَوَى، وَلَكِنْ آخِلَوْا فِي أَفْوَاهِكُمُ الْمُسْتَوْخِمَ فَتَخَطَّيْتُمُ الدُّنْيَا إِلَى الْعَبَثِ بِالْدِّينِ، فَأَحْرِ بِنَا أَنْ نَذْفَعَ النَّارَ بِالنَّارِ.. وَمَا هُوَ حَتَّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكِرُونَ وَلَايَةَ يَزِيدَ فِي مِثْلِ الزُّبَيْرِ الدَّامِي.

فَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَى المَدِينَةِ فِي أَلْفٍ، فَلَمَّا قَارَبَهَا تَلَقَّيْتُهُ

الْجُمُوعُ عِنْدَ مَا تِيهَا وَمَدَاخِلُهَا، وَمَا أَخَذَ نَظَرُهُ الْحُسَيْنَ حَتَّى قَالَ: مَرْحَبًا بِ «سَيِّدِ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ»، قَرَّبُوا دَابَّةً لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ. وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلِابْنِ الزُّبَيْرِ. ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِمْ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَقَضَى حَاجَتَهُ، وَلَمَّا أَرَادَ الشُّخُوصَ أَمَرَ بِأَثْقَالِهِ فَقُدِّمَتْ، وَأَمَرَ بِالْمِئْبَرِ فَقُرِّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَهُنَا بَدَأَ مُفَاجَأَتُهُ الْإِنْتِخَابِيَّةَ دُونَ تَقْيِيدِ بَعُوفٍ أَوْ قَانُونٍ، فَأُرْسِلَ إِلَى الْحُسَيْنِ وَغُصْبَتِهِ، وَهُؤُلَاءِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِمْ مَا يَغْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ، فَاجْتَمَعُوا وَتَدَبَّرُوا الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ وَجْهِهِ، وَتَرَكَوا الْمُرَادَّةَ وَالْمُدَارَهَةَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَرَحَّبَ بِهِمْ، وَقَالَ:

«قَدْ عَلِمْتُمْ نَظَرِي لَكُمْ وَتَعَطُّفِي عَلَيْكُمْ وَصِلَتِي أَرْحَامَكُمْ، وَيَزِيدُ أُوْحُوكُمْ وَابْنُ عَمِّكُمْ. وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ الْأَمْرِينَ النَّاهِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ». فَزَدَ ابْنُ الزُّبَيْرِ:

«عِنْدَنَا إِحْدَى ثَلَاثٍ، أُيُّهَا أَخَذَتْ فَهِيَ لَكَ رَغْبَةٌ وَفِيهَا بَحَارٌ، إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص)، قَبْضُهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلِفْ، فَدَعُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ لِأَنْفُسِهِمْ. وَإِنْ شِئْتَ فَمَا صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ: عَهْدَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَاصِيَةِ قُرَيْشٍ، وَتَرَكَ مِنْ وَلَدِهِ وَمِنْ رَهْطِهِ الْأَذْنَيْنِ مَنْ كَانَ لَهَا أَهْلًا. وَإِنْ شِئْتَ فَكَمَا صَنَعَ عُمَرُ: صَيَّرَهَا إِلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْتَارُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَتَرَكَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَوْ وَلِيَهَا لَكَانَ لَهَا أَهْلًا».

قَالَ مُعَاوِيَةُ: هَلْ غَيَّرَ هَذَا؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِينَ: مَا عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنِّي أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ أَعْذَرْتُ مَنْ أُنْذَرُ، «فَأَنَا قَائِمٌ فَقَائِلٌ مَقَالَةً، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَئِنْ رَدَّ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ كَلِمَةً فِي مَقَامِي هَذَا، لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِ كَلِمَتُهُ حَتَّى يُضْرَبَ رَأْسُهُ»... وَأَمَرَ أَنْ يَقُومَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلَانِ يَسِفِفِيهِمَا، وَخَرَجَ وَأَخْرَجَهُمْ مَعَهُ حَتَّى رَفِيَ الْمِئْبَرُ، وَخَفَّ بِهِ أَهْلُ الشَّامِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ.

فقال، بعد حمد الله والثناء عليه: «إِنَّا وَجَدْنَا أَحَادِيثَ النَّاسِ ذَاتَ غَوَارٍ، قالوا: إِنَّ حُسَيْنًا، وَأَبْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبْنَ عُمَرَ، وَأَبْنَ الزُّبَيْرِ لَمْ يُبَايَعُوا لِيَزِيدَ، وهؤلاءِ الرَّهْطُ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارُهُمْ لَا تُبْرِمُ أَمْرًا دُونَهُمْ، وَلَا تَقْضِي أَمْرًا إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِمْ، وَإِنِّي دَعَوْتُهُمْ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَبَايَعُوا وَسَلَّمُوا وَأَطَاعُوا... ثُمَّ قُرِبَتْ رَوَاحِلُهُ فَرَكِبَ وَمَضَى إِلَى الشَّامِ، تَارِكًا النَّاسَ فِي دَهْشَةٍ الْمَفَاجَأَةِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنَّهُلُوا أَخِيرًا عَلَى الْحُسَيْنِ وَأَصْحَابِهِ يَسْتَشْتَبُونَهُمْ، فَأَجَابُوا: «كَادَنَا بِكُمْ وَكَادَكُمْ بِنَا».

كَذَلِكَ آتَتْهُ الْمَفَاجَأَةُ الَّتِي حَبَّكَهَا مُعَاوِيَةُ، وَطَلَعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، غَيْرِ عَابِيٍّ بِأَنَّهُ أَقَامَ وِلَايَةَ وَلَدِهِ عَلَى الْبُرُكَانِ، وَوَضَعَ الْقُنْبَلَةَ فِي أُسُسِ الْبِنَاءِ.

فَإِنَّ الْحُسَيْنَ - الَّذِي شَهِدَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْحُكْمِ أَزْمَانَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ وَمَنْ بَيْنَهُمَا، وَتَقَلَّبَ فِي الثُّورَةِ عَلَى الْحُكْمِ الشَّاذِّ، وَخَاضَ مَعْمَعَةَ الْبُطْشَةِ الْكُبْرَى الَّتِي كَالَهَا وَالِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَأَسَّبَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الشَّعْبِ وَخُصُومُ حُرِّيَّتِهِ، وَرَافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهِيرِ الَّتِي بَدَلَ فِيهَا مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ - يَجِبُ أَنْ يَغْضَبَ، وَأَنْ يَتَتَمَّرَ، وَأَنْ يَنْدَفِعَ مُتَلَطِّيًا، وَأَنْ يَثُورَ مُبَغِّثًا قَبْنَاءَ.

فَإِنَّ الْبِنَاءَ عَلَى الْفَسَادِ تَزْمِيْمٌ لِلْفَسَادِ، وَأَضْطِرَانٌ لِفَسَادٍ آخَرَ جَدِيدٍ. بَيِّنْدَ أَنَّهُ فِي صُورَتِهِ الْجَدِيدَةِ فَسَادٌ مُرَكَّبٌ، وَهُوَ أَعْقَدُ أَمْرًا، وَأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وَأَطْوَلُ بَقَاءً وَنِضَالًا.

لِذَلِكَ كَانَ عَمَلُ الْمُصْلِحِينَ الْحَقِيقِيِّينَ هَدْمًا وَبِنَاءً، وَلِذَلِكَ كَانَ الشُّطْرُ الْأَوَّلُ دَائِمًا أَرْوَغَ وَأَشَقَّ وَأَقْدَسَ، فَهُوَ كِفَاحٌ وَتَضَحِيَّةٌ وَتَعْبِيدٌ.

وبهذا، وله فقط، رَأَيْنَا الْحُسَيْنَ يُؤَلِّي وَجْهَهُ قَبْلَ الثُّورَةِ، قَبْلَ الْإِنْتِشَاءِ وَالْخَلْقِ مِنْ جَدِيدٍ.

*

قَلَمًا يَبْزُرُ الْأَسَدُ، إِلَّا عِنْدَمَا تَتَنَاوَحُ الْأَرْجَاءُ بِالْعَوَاصِفِ...
كَأَنَّهُ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ تُبَدَّدَ أَمْنُ الْغَابِ وَشُكُونُ جَلَالِهِ...
وعندما آخَتَدَمَتْ عَوَاصِفُ الْأَهْوَاءِ، أَنْطَلَقَ أَسَدُ الْإِنْسَانِيَّةِ يَدْفَعُ الْعَادِيَاتِ
عَنِ الْإِنْسَانِ...

*

أَلْبُزْكَانُ تَذِيرٌ بِالْإِنْقِلَابِ...
وَكَانَ الْحُسَيْنُ بُزْكَانَ الْإِصْلَاحِ...
وَقَدْ مَضَى كُلُّ مُصْلِحٍ بِقَبَسٍ مِنْ ذَلِكَ الْبُزْكَانِ، يُوسِلُهُ مَنَاراً يَهْدِي فِي
الْحَلَكِ!...

* * *

إلى الله

في صَبِيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، أَفَاقَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى أَصْوَاتِ
الْغَلَمَةِ، يَمْرُحُونَ فِي الْأَرْقَةِ، وَهُمْ يَتَنَاشِدُونَ مَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِلَالِ السَّلُولِيِّ:
إِصْبِرْ يَزِيدُ... فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَةِ وَأَشْكُرُ جِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَاكَ

لَا رُزْءَ أَعْظَمَ فِي الْأَقْوَامِ، قَدْ عَلِمُوا بِمَا رُزِئْتَ، وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ

فَأَذْرَكُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ قَضَى، وَأَنَّ يَزِيدَ قَدْ خَلَفَهُ، فَانْقَلَبُوا وَبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ
الْأَرْمَ، وَيَتَمَيِّزُ حَنْقًا، وَبَعْضُهُمْ يَشُدُّ غَضُوبَهُ تَجَهُّمًا، وَيَدْعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ
دَهْشَةً وَرُغْبًا. وَمَشَى الْحَبَرُ كَمَا يَمْشِي النَّعْيُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى الْحُسَيْنِ فَعِينَ عَلَيْهِ
حَتَّى الْإِعْمَاءِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ دَارَتْ بِهِ دَوْرَتَهَا سَرِيعَةً سَرِيعَةً، وَالْمُ بِه إِطْرَاقٌ عَنيفٌ،
كَانَ مَزِيجًا مِنَ اللَّوْعَةِ الْمُرَّةِ، وَالْأَسَى الْحَادِّ، وَالتَّنَمُّرِ الْغَضُوبِ. عَلَى أَنَّهُ طَفِيقٌ يُنَاجِي
نَفْسَهُ، وَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ مَاضِيَاتُ الثَّبُوتِ وَدُنْيَا الْقُرْآنِ وَجَلَائِلُ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ:

إِلَهِي! مَاذَا أَسْمَعُ؟ أَيْكُونُ يَزِيدُ خَلِيفَتَكَ فِي عِبَادِكَ، وَهُوَ مَنْ عَرَفْتَهُ صَارِمًا لَا
يَشْعُرُ بغيرِ وُجُودِهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ فِي مَذْهَبِ نَهْمِهِ الدَّامِي
الْمُفْتَرِسِ، مِثْلَمَا تَشْعُرُ الذُّنَابُ بِوُجُودِ فَرَائِسِهَا الَّذِي هُوَ مُبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الشُّعُورِ بِغيرِ
وُجُودِهَا فَقَطْ، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِهِمْ شُعُورَ الْامْتِصَاصِ وَإِرْوَاءِ نَهْمِ الذَّاتِ، إِنَّ ظِلْمَاتُهُ
تَطِيفُ بِهِمْ مُحَاوَلَةً لَوْ تُحْيِيهِمْ قَطْرَةً تُنْذِي بِهَا لُعَابَهَا.

أَيَكُونُ يَزِيدُ الْقَائِمَ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِكَ؟ وَشَرِيعَتُهُ ذَوْبٌ رَحْمَةٍ فِي ذَوْبٍ
عَدَالَةٍ وَرَفَقَةٍ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي غَيْرِ ضَمِيرٍ فِيهِ مِنْ مَغْنَاهَا، وَفِيهِ مِنْ
رُوحِهَا؛ وَإِلَّا فَهِيَ عَافِيَةٌ كَالطَّلَلِ، وَذَاوِيَّةٌ كَالهَشِيمِ يَغْبِثُ بِهَا الْهَوَى، وَيَتَقَادُفُهَا
مِثْلَ أَوْرَاقِ الْحَرِيفِ، فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، وَيَنْ الْمَغَاوِرِ وَالْكُھُوفِ الصَّاجَةِ بِالْفُسُوقِ.

إِنَّ الشَّرِيعَةَ، كَكُلِّ تَعْلِيمٍ، كَائِنٌ يَزْدَوِجُ بِالْحَيَاةِ، فَيَنْفَعِلُ بِهَا لِيَحْيَا، وَيَفْعَلُ فِيهَا
لِتَرْقَى. فَإِذَا لَمْ يَتِمَّاسًا ظَلَّتِ الْحَيَاةُ جَامِحَةً فَاجِرَةً، وَظَلَّتِ الشَّرِيعَةُ مِثْلَ شَرَارَةٍ
مَخْزُونَةٍ لَمْ تَنْقُدِخْ فِي فَمِ الْمِصْبَاحِ فَتَحْيَا بِهِ وَيَنْطِقُ بِهَا، صَادِعًا بِلِسَانِ الضِّيَاءِ،
وَمُغْلِنًا بِنِدَاءِ النُّورِ.

إِنَّ شَرِيعَةَ رَسُولِكَ وَجَدَتْ حَيَاتَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَاسْتَمَدَّتْ رُوحَهَا مِنْ رُوحِهِ،
فَقَرَأَتْ بِالضِّيَاءِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَطَبَعَتْ بِحَقِيقَتِهَا مَادَّةَ الزَّمَانِ، فَسَعِدْنَا حِينَا بِدُنْيَا
الْقُرْآنِ.

عَلَى أَنَّهُ عَادَ إِلَى آسْتِغْرَافِهِ، وَكَانَ أَيْضًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَبْرَحْ حَتَّى سَاوَرَهُ
غَضَبٌ مَكْظُومٌ آسْتَعَلَ فِي عَيْنَيْهِ، وَرَاحَ يُنَاجِي نَفْسَهُ فِي نَبْرَاتٍ حَادَّةٍ كَأَنَّهَا
تَلْتَهَبُ:

نعم. نعم. نَحْنُ بَايَعْنَا اللَّهَ عَلَى التَّقْوَى، وَلَنْ نُبَايِعَ إِلَّا عَلَيْهَا، أَوْ نَمُوتَ فِي
سَبِيلِهَا. أَلَا إِنَّهُ آخْتَارَنَا لِحَمْلِ أَمَانَتِهِ الْعُظْمَى، وَأَنْتَظِرُ مِنَّا الْوَفَاءَ وَالْإِفْتِدَاءَ بِكُلِّ
عَظِيمٍ. وَمَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرْخَصَهَا لَهُ.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ السَّمَوَاتِ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ لَمْ يَتَأَنَسْ قَلْبُهُ بِالْإِشْرَاقِ - عَاهَدَ إِنْسَانًا،
وَاسْتَجَابَ حِينَ دَعَاهُ الْوَفَاءُ، وَكَانَ دَائِمًا.

إِسْتَجَابَ جَاهِلِيٌّ لِلشَّرَفِ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَجِيبُ لِلإِيمَانِ؟ إِنِّي إِذَا لَتَكَلُّ
خَوَازٍ...

«الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ...»

وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ...

وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، جَارِي...»

فَكَيْفَ إِذَا بِالْعَارِ وَالنَّارِ، أَجْمَعُهُمَا عَلَى نَفْسِي فِي دُنْيَا الظَّالِمِينَ...!
وَبَيْنَمَا الْحُسَيْنُ فِي سَبْحَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَنَجْوَاهُ الْمَائِجَةِ بِرُوحِ الاِصْطِفَاءِ، تَبَدَّى
لِنَاضِرِيهِ، فِي وَجْهَةِ قَلْبِهِ، أَطْيَافٌ يَشْتَمِلُهَا الرِّضَا، وَتَلْفَعُهَا نَشْوَةُ الاِغْتِبَاطِ، وَهِيَ
تُبَارِكُهُ وَتَشْدُّ عَزْمَهُ، وَتُهَيِّبُ بِهِ إِلَى الْوَثْبَةِ، إِلَى الْوَثْبَةِ الْكُبْرَى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِرًا:
رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟ إِنَّهَا أَطْيَافُ جَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأَبِي الشَّهِيدِ، مِنْ وَرَائِهِمَا
الْمَلَائِكُ، تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى التَّضَحِّيَةِ الْعُظْمَى.

كَانَ الْكَبْشُ، فِي يَوْمٍ، فِدَاءَ نَبِيِّ «فِي حِكَايَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَيْهِ»...

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْفِدَاءُ الْأَعْظَمُ...

وَحَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْفِدَاءُ... «فِي حِكَايَةِ الْآسِثِّ شَهَادِ يَوْمِ
كَرْبَلَاءِ».

*

كَانَ الْحُسَيْنُ لَمْ يَزَلْ فِي نَجْوَاهُ، حِينَ «أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، رَسُولُ
الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعُوهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْحُسَيْنُ بِالْإِنْقِلَابِ إِلَيْهِ، وَقَامَ
الْحُسَيْنُ، وَجَمَعَ بَعْضًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَمَوَالِيهِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَمْلِ السِّلَاحِ، فَانْتَهَى إِلَى
الْوَلِيدِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:

إِذَا دَخَلْتُ فَاجْلِسُوا عَلَى الْبَابِ، وَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي قَدْ عَلَا،
فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى
الْوَلِيدِ - وَمَرَوَانُ عِنْدَهُ - وَجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدُ الْكِتَابَ، وَنَعَى إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ
الْحُسَيْنُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَمَّا الْبَيْعَةُ فَإِنَّ مِثْلِي لَا يُعْطِي بَيْعَتَهُ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ
تَقْنَعُ بِهَا مِثِّي كَذَلِكَ... قَالَ: أَجَلٌ. قَالَ: فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتُهُمْ إِلَى
الْبَيْعَةِ دَعَوْتَنَا مَعَهُمْ، فَكَانَ الْأَمْرُ وَاحِدًا. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: عَلَى أَسْمِ اللَّهِ، حَتَّى تَأْتِينَا
مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ.

قَالَ مَرْوَانُ لَمَّا وَلَّى: عَصَيْتَنِي وَاللَّهِ، لَا قَدَرْتَ مِنْهُ عَلَى مِثْلِهَا أَبَدًا، حَتَّى
تَكْثُرَ الْقَتْلَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ... وَكَانَ مَرْوَانُ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ آتِعَتْ إِلَى الْحُسَيْنِ، فَإِنْ
بَاتِعَ، وَإِلَّا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَيَحَاكَ! أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُحَاسِبُ بَدَمَ
الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَخَفِيفُ الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ.

رُغِمَ مَا يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ مِنْ عَاصِفٍ يَكَاذُ يَنْطَلِقُ، وَبُزْكَانٍ يَكَاذُ
يَتَوَرَّ، أَهْدَى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ الدَّقِيقِ أَقْصَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ ضَبْطِ الْأَعْصَابِ،
وَحُسْنِ التَّائِي الْفَائِقِ فِي تَصْرِيفِ الْأُمُورِ، وَاللِّبَاقَةِ الْبَالِغَةِ فِي الْحِوَارِ السِّيَاسِيِّ.

خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَانِ الْوَلِيدِ مُزْمِعًا عَلَى خُطَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ رَهْبَةً، خَفَقَ لَهَا
قَلْبُهُ، وَاسْتَجَابَ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ، حَتَّى لَبَدَتْ عَلَى سِمَائِهِ وَجَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ،
وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمُقْبِرِيُّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزِيدَ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ مُفَرِّغٍ:

لَا دَعَوْتُ السَّوَامَ فِي فَلَتِ الصُّبِّ حِجْ مُغِيرًا، وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَمِيمًا وَالْمَنَايَا يَرُضِدُنَنِي أَنْ أَحِيدًا

وما هو حتّى هَبَطَ بِأَهْلِهِ مَكَّةَ لثَلَاثِ مَضِيْنٍ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّيْنٍ، وَلَبِثَ فِيهَا
حَتَّى يَوْمِ التَّوْبَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ...

*

فِي مَكَّةَ، حَيْثُ الذُّكْرِيَّاتُ الْمُلهِمَاتُ الَّتِي تَضْفُو عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَرْضِهَا
وَسَمَائِهَا، وَعِنْدَ مُعْتَنَقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، حَيْثُ يَقَعُ الْأَفْقُ الْمُكَلَّلُ بِالْوَحْيِ، لَبِثَ
الْحُسَيْنُ يَزْنُو، وَقَدْ ذَابَتْ فِي نَظَرَاتِهِ أَوْهَامُ النَّاسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

إِنَّ نَظْرَهُ آغْتَلَقَ بِالْأَبَدِ الْفَسِيحِ الَّذِي تَبْدُو الدُّنْيَا، بِكُلِّ أَشْيَائِهَا مِنْ آفَاقِهِ،
صَدَفَةً حَقِيرَةً فِي لُجِّ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ رَأَى هُنَاكَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمٍ أَعْمَالِهِمْ عَلَى حَقَائِقِهَا،
وَالْأَعْمَالُ فِيهِ لَيْسَتْ مَاتِي فَقَطْ تَتَقَضَّى مَعَ أَنَّهَا وَحِينَهَا، بَلْ هِيَ مَوَالِيدُ يَحْيَاهَا
الْمَوْتُ فِي خَلَاوَتِهَا وَمَرَارَتِهَا، وَفِي نُورِهَا وَظِلَامِهَا. وَالْمَوْتُ هُنَاكَ لَا يُحَسُّ بِالْأَلَمِ أَوْ
اللَّذَّةِ، وَالْقُبْحِ أَوْ الْجَمَالِ، إِحْسَاسًا مِثْلَمَا هُوَ شَأْنُ إِحْسَاسِ الْفَنَاءِ، بَلْ تَحْيَا فِيهِ
كُلِّيَّاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي حَيَاةَ جَوْهَرِهَا.

وَكَانَتْ تِلْكَ الذُّكْرِيَّاتُ الْخَالِدَاتُ لَا تَفْتَأُ تَتَنَادَى بِهِ إِلَى آسْتِغْنَاكِ الْجِهَادِ،
آسْتِغْنَاكِ الْجِهَادِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَأَهُ جَدُّهُ الْمُصْطَفَى، مُكَافِحًا وَحِيدًا وَبَطْلًا فَرِيدًا،
حَتَّى أَمَالَ دُنْيَا وَأَثْبَتَ دُنْيَا، وَمَا قَعَدَ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ إِلَّا بَلًّا، وَهُوَ
وَحْدَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ تَنْتَشِرُ مِثْلَ شُعَلَاتِ.

تُحْرِقُ فِي مَدَاهَا كُلَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَإِذَا لَهَا عَلَى الْأَرْضِ ضِيَاءٌ، كَمَا لَهَا فِي السَّمَاءِ ضِيَاءٌ.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كَانَتْ تَمُرُّ بِهِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ، وَقَدْ مَسَحَهَا جَوْ مَكَّةَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَقْدَاسٍ
وَذِكْرِيَّاتٍ عَزِمَ لَا يُفْهَرُ، فَهَبَّ نَاشِطاً فِي مِثْلِ الرَّئِيسِ الَّذِي يُبَادِرُ الانْطِلَاقَ، غَيْرَ
ثَابِتٍ أَمَامَ نَاطِرِيهِ إِلَّا «وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَأُسْوَتِي بِهِ، أَنْ أُجَالِدَ جِلَادَهُ، وَأَنْ أُنَافِحَ مُنَافَحَتَهُ، وَأَنْ أَنْتَهِيَ لَهَايَتِهِ.

أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ غَلَّ الْبَغْيَ وَالْبَاغِي، وَدَكَ دُنْيَا الْأَوْثَانِ بِمَا فِيهَا، وَإِنَّ الْبَاغِي
الْيَوْمَ يُحَاوِلُ الْانْفِلَاتَ، وَأَوْثَانُ الْآلِهَةِ اسْتَوْلَدَتْ أَوْثَانَ النَّاسِ. فَكَيْفَ أَتَلَبُّثُ دُونَ أَنْ
أُغْلَّ ذَاكَ، وَأَعْتَصِرَ هَذَا، وَمَا أَبَالِي أَكَانَتْ فِيهِ مَنِيَّتِي أَمْ كَانَتْ فِيهِ أُمِّيَّتِي...

وَلِأَنَّ مُحَمَّدًا أَخْرَجَ مُهَاجِرًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مُبَالَعَةِ الْغُيُونِ وَالْأَرْصَادِ، فَكَيْفَ
لَا أَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَيْهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِالْحَيَاةِ، وَلَا مُكْتَرِثٍ بِالمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ؟

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي

وَكَفَى بَعْمَلِي عِنْدَ اللَّهِ رِضًا، أَنْ يَكُونَ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَّةَ.

إِنَّ الْهِجْرَةَ الْأُولَى، هِجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْبِنَاءُ.

وَلِأَنَّ الْهِجْرَةَ الثَّانِيَّةَ، هِجْرَةُ سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْحَافِظَةُ عَلَى
ذِيَالِكَ الْبِنَاءِ.

وَمَا هُوَ حَتَّى تَسَامَعَ النَّاسُ بِعَزْمِ الْحُسَيْنِ، وَمَا هُوَ حَتَّى مَشَى الْكَثِيرُونَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ غَايَتِهِ، يَرْغَبُونَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَيُنَبِّطُونَ مِنْهُ وَيُوْهِنُونَ مَا اسْتَوَى عَلَيْهِ
عَزْمُهُ. فَقَالَ آبْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ آبْنُ الزُّبَيْرِ، وَبَدَّهَهُ هَذَا، وَثَنَى ذَاكَ، إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ،
وَكُلُّهُمْ قَوْمُ عَشِيرٍ، وَفَخِرُوا قَبِيلَ.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَكَأَنَّهُ بَطْلُ الْمَعْرَكَةِ الْمُنتَظَرِ، يَرَى فِي تَحَامِي

الْفُرسَانِ جُبْنًا أَكْبَرَ عَارًا، فَيَزِيدُهُ تَلْظِيًا وَحِمِيَّةً، وَفِي تَفَهُّقِ الشُّجْعَانِ خَوْرًا أُبْلَغَ غَوْرًا
وَأَعَمَّقَ أَثْرًا، فَيَوْقِدُهُ عَزْمًا وَيَضْطِنُّهُ شَكِيمًا.

إِحْتِضَارُ نَسْرِ... فِي هَمْسٍ كَالزَّئِيرِ

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْآكَامِ، فَتَكَثَّفَتْهُ بُغَاثُ النَّسُورِ- أَيِ ضِعَافِهَا - مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ...

تُهِيبُ بِهِ أَنْ لَا يَمْضِيَ بَعِيدًا، فَهُنَاكَ صُقُورٌ تَعِيثُ فُسَادًا وَتَبُثُّ رُغْبًا.
وَلَكِنَّ النَّسْرَ شَدَّ جَفْنَيْهِ طَوِيلًا، كَأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ لُغَةٌ نَسْرِ...
عَلَى أَنَّهُ مَضَى، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ النَّسْرَ شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ شَيْئًا فِي
الشَّكْلِ...

فَإِذَا اسْتَحَالَ الْمَعْنَى شَكْلًا فَقَطْ، فَهُنَاكَ مُسَوِّخٌ لَا نُسُورًا!...
ثُمَّ انْبَطَلَقَ يَهْوِي غَيْرَ مُبَالٍ بِمَا سَوْفَ يَغْتَرِضُهُ.

*

وَمَا هُوَ حَتَّى وَاثَبَتْهُ جَمَاعَةُ الصُّقُورِ، فَنَالَ مِنْهَا كَثِيرًا وَنَالَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا...
عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُغْتَبِطًا أَيْضًا، فَقَدْ هَمَسَ فِي أَنْفَاسِ الْمُحْتَضِرِ...
سَوْفَ يَظَلُّ فِي الْأَجْيَالِ أَنَّهُ هُنَا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقِيقَتَهُ...
وَهُنَاكَ نَحْيَا نُسُورٌ فَقَدَتْ حَقِيقَتَهَا...

إِنِّي أَقْضِي، وَيَبْقَى فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ أَنَّ آفِتِحَامَ الطَّرِيقِ، دَائِمًا فِي
الْإِمْكَانِ...

مُتَّ مَوْتَ هَذَا النَّسْرِ، عَيْنٌ فِي مُقْلَةِ الشَّمْسِ وَجَنَاحٌ لَهُ فِي الْآفَاقِ...

وَلَمْ تَمُتْ مَوْتَ الْبَهْمِ عِنْدَ الشَّفُوحِ، لِتَظَلَّ عَلَى لِسَانِ الدُّهُورِ وَتَعَاقِبِ
الْغُصُورِ، أَشْطُورَةً تُزَوِّى...

*

إِنْطَلَقَ الْحُسَيْنُ مُودِّعاً الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ، حَامِلاً رُوحَهَا يَبْنَ جَنْبِيهِ، وَشُعَلَتِهَا
بِكِلْتَا يَدَيْهِ...

تَوَاصَلَتْهُ الْمَلَائِكُ وَتَبَارَكُهَا، وَتَطْيِفُ بِهِ كَأَنَّهَا حَذِرَةٌ عَلَيْهِ...
فَإِنَّهُ الْبَقِيَّةُ مِنْ إِرْثِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ!...

*

رَغِيماً لِذِكْرِكَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرُوحِ الْأَخْلَاقِ فِي رُوحِ الْوُجُودِ...
فَأَرَدْتُ الْحَيَاةَ دُنْيَا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْحُبِّ...
وَأَرَادَهَا الْآخَرُونَ دُنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذِيلَةِ وَالْأَحْقَادِ...
أَرَدْتُهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الْأَعْصَابِ بِالْأَلَمِ...
وَأَرَادُوهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الْأَعْصَابِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الرُّوحِ بِالْأَلَمِ...
فَاسْتَحَالَتِ الْآلَامُ الْكُبْرَى، فِي جِسِّ النَّاسِ، لَذَّةً كُبْرَى فِي جِسِّكَ!...

*

حَتَّى لَقَدْ شَعَرْتُ حِيَالَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ، أَنَّهُ شَفَقٌ مِنْ شُعَاعِ الرُّوحِ...
وَرَأَيْتُ، فِي حُمْرَةِ الدِّمَاءِ، لُؤْلُؤَةً جَمَالِ الْحُسْنِ...
وَلَا يَدْعُ، فَقْدِيماً قَبْلَ الْمَثَلِ السَّائِرِ: «إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ»...

* * *

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطَّبعة (ز) - (ل)
الفاتحة (م) - (س)
مُقَدِّمة (ف) - (ث)

يوم المدينة (٢٥) يوم الميلاد (٦٧)
يوم القرآن (٤١) مشاهد (٧٧)
يوم الايمان الشامخ (٥٥) يوم الدولة (٨٩)
دموع (٩٩)

من أيَّام العهد الراشدي

مع خليفة (١٠٩) في الثورة (١١٩)
جهاد الشباب (١١٣) في الزوينة (١٣٩)
إلتياح (١٦١)

من أيَّام الحسين السبط (ع)

في الهيكل (١٧٥) تقوى (٢٢٧)
في وجه الظلم (١٨٣) استشارة (٢٤٥)
مع أُرَيْنب (١٩٧) إلى الله (٢٥٣)

... فمُحمَّد لم يصنع أُمَّةً بغير الأُمَم ، بَلْ صَنَعَ
أُمَّةً فِي عِدَادِ الرُّسُلِ إِلَى كُلِّ الأُمَم ، وَأَكْبَرُ ظَنِّي
أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَنْطَلِقُ فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُتَدَاعِي ، كَمَا
تَنْطَلِقُ الْعَصَاةُ ، وَفِيهَا الْحَرَارَةُ وَالْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ.



9 782910 355005

ISBN: 2-910355-00-4

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com